منشـورات جمعيـة تطـاون أسميـر
سلسلة تراث 9

# النعيم المقيم

## في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم

لمحمد بن محمد المرير

تخريـج: ذ. أحمد بن محمـد المريـر
مراجعة: أ.د. جعفر ابن الحاج السلمي

الجزء الثالث

تطـوان - 1426 هـ - 2005 م

منشـورات جمعيـة تطـاون أسمير
سلسلة تراث 9

# النعيـم المقيـم

## في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم

لمحمد بن محمد المرير

تخريج: ذ. أحمد بن محمد المرير
مراجعة: أ.د. جعفر ابن الحاج السُّلَمي

الجزء الثالث

تطوان - 1426 هـ - 2005 م

الكتاب : النعيم المقيم (في ذكرى مدارس العلم. ومجالس التعليم)
(الجزء الثالث)

تخريج : ذ. أحمد بن محمد المرير

مراجعة : أ.د. جعفر بن الحاج السلمي

الناشر: جمعية تطاون أسمير

الطبعة : 1426هـ - 2005 م.

الحقوق : محفوظة

رقم الإيداع : 2000/1420

الطباعة : مطبعة الخليج العربي " 152,شارع الحسن الثاني - تطوان "

الهاتف : 25 02 71 039 / الفاكس: 37 05 71 039

الجزء الثالث من الفهرست المسماة:

# النعيم المقيم
# في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم

لجامعها العبيد الفقير:


## محمد بن محمد المُرير

وفّقه مولاه

لما يحبه ويرضاه

وهو نعم المولى ونعم النصير


فهرسة

علمية تفسيرية حديثية فقهية صوفية

كلامية أدبية تاريخية ذات أبحاث عصرية

وحوادث وقتية، زيادة على موضوعاتها

الأصلية

(تطوان ـ المغرب)

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

## [خطبة افتتاح الجزء الثالث]

أفتتح هذا الجزء الثالث، من كتابي؛ الفهرسة المسماة بالنعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم؛ بالثّناء عليك يا مولاي، مقراً بالعجز عن تأدية حمدك باللسان، وتوفية شكرك بالأركان، على أقلّ نعمة أنعمت بها عليّ، ولو قضيت في ذلك نهاري، وأسهرت ليلي، واستوعبت طويل عمري، على أني أستحي أن أصف نعمتك، وإن دقت، بالتقليل، لأنك عظيم، وكل ما يصدر عن العظيم عظيم جليل. ولكن أقول كما قال سيد الشاكرين، وحامل لواء الخير يوم الدين:"اللهم لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك".

وأستوهبك يا سيدي معرفة أقدرك بها حق قدرك، وأتقيك بها ما استطعت حق تقاتك، وأستجلي بها أسرار أسمائك، وأستقرئ ما كتبته على صحيفة هذا الكون من آثار صفاتك، وأستبعد عني خطوات الهواجس، وخطرات الوساوس، وأملأ قلبي بحبك حتى لا يبقى فيه متسع لسواك، وأن أعبدك وأنت تراني كأني بعيني أراك.

مصلياً على الخاتم للرسالة، الفاتح لمناهج الهداية بواضح الدلالة، الماحي بالنور الذي جاء به غياهب الضلالة، المنقذ بصحيح علمه من علة الجهالة، وعلى آله الذين نالوا بالقربى منزلا عالياً وملكا كبيراً، وأذهبت عنهم الرجس وطهّرتهم تطهيرا، وأصحابه البررة الأخيار، حماة العلم الصحيح وحملة الأخبار .

وهنا أواصل أعمالي، وأجِدّ فيما قصدته من بلوغ آمالي، ملتمساً بذلك الطريق العلمي المستقيم، الذي منتهاه إلى نضرة النعيم. وفي الحديث: "من سلك طريقا يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة"، وراجيًا الاستمرار في نشر المعارف والعلوم، وإحياء ما مات منها، وإثباتا لمن قيّض الله له القراءة في هذا المرقوم. ولا أنصرف عن منحاه، إلى

أن ألقى الملك الحي القيوم، وفي الحديث: "من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليُحيي به الإسلام، فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة".

ولا تزال هِمَم أهل العلم راغبة في استكثار فنونه، مغتبطة باستكشاف نفائس مكنونه، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن جمعه وتحصيله، ولا يصرفهم صارف عن تدوينه وتفصيله، ولا يمتلئ حوض طالبه منه ويقول: قطني. بل كلما فاض عليه بحر رقائقه، قال: رب زدني. وقد قال صلى الله عليه وسلم:"إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل؛ فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم". وفي حديث آخر:"لا يشبع عالم من علم حتى يكون منتهاه إلى الجنة". وهو قوله، صلى الله عليه وسلم: "منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا".

وهكذا كان شأن العلماء الأذكياء، في عمارة أوقاتهم بالاشتغال بمسائل العلم ومباحثه؛ دراسة ومذاكرة، وإلقاء وتدوينا؛ لا يفترون عن ذلك ولا يملّون حتى يلقوا ربهم. كتب إمام المغرب الشيخ القصار، لتلميذه العلامة إمام مدينة شفشاون وفقيهها ومدرسها، الشريف الجليل، أبي العباس، سيدي أحمد ابن عبد الوهاب، في كتاب طويل وفيه:

{وأعجبني إقراؤك الرسالة وفرحت به، لا سيما إذا اقتصرت على المحتاج إليه، وختمتها سريعا". ثم قال:"وإذا رأيت تأليفا لا تتحقق أني رأيته، فأعلمني به. والمراد أن الإنسان يموت طالبا للعلم، أماتنا الله على الإيمان والتوبة والسنة.} هـ [مرآة المحاسن ص:171].

---

## شيخنا الزواقي والمؤلفات التي قرأتها عليه

هذا، وقرأت على شيخنا العلامة الشريف، أبي العباس، سيدي أحمد بن الطاهر الزواقي: "المرشد المعين"، لسيدي عبد الواحد ابن عاشر الفاسي، بشرح الشيخ ميارة الصغير، و"شفاء" القاضي عياض، بسرد المتن، وقراءة الشيخ بعضا من شرح العلامة ابن سلطان، و"موطأ"الإمام مالك، بسرد المتن، وقراءة الشيخ بعضا من شرح الإمام سيدي محمد الزرقاني، و"جمع الجوامع"، بشرح العلامة المحلي، وقراءة الشيخ بعض

المباحث التي في حاشية البناني عليه، أو الإحالة على السارد ليسردها، و"مختصر" الشيخ خليل في أول العبادة، بشرح الشيخ الدردير، قبل الرحلة الفاسية.

و"شرح" الدردير؛ هو اختصار لطيف لشرح العلامة الزرقاني. وهو شرح نفيس، مفيد جدا في تحريره وتحقيقه، ومزج المتن بالشرح. وسلك في ذلك مسلك العلامة المحلي في شرح "جمع الجوامع"، من حسن السبك، وبلاغة النسق، وانتقاء المعتمد من الأقوال. ولهذا كان شيخنا البقالي، رحمه الله، معجبا بهذا الشرح، كثير الثناء عليه والتنويه به، ويقول: هو شرح جامع كاف، متضمن لتعقبات الشيخ مصطفى الرماصي، إذ قد اطلع على حاشيته على التَّتائي. وهذه التعقبات هي المادة التي استمد منها العلامة بناني في حاشيته على الزرقاني الشهيرة. وكان شيخنا البقالي المذكور، يود لو تم ذلك الشرح بإضافة بعض التعقبات التي علقها الشيخ الرهوني على الزرقاني. والكمال لصاحب الكمال.

أما عند رجوعي من الرحلة، فألفيت الشيخ [الزواقي] يقرأ "المختصر" بشرح العلامة الزرقاني في صدر البيوع، فلازمت درسه عليه. وكنا نقرأ عليه، رحمه الله، قراءة تحقيق وتدقيق، وتتبع لألفاظ الزرقاني، وسرد تعقبات بناني، والاطلاع على أبحاث الشيخ الرهوني، وما استدركه على الشيخ بناني من تعقبات وتنبيهات على أغلاطه.

فكانت تلك الدروس كأنها حياة للنفس،إذ كان لي بها غاية الاعتناء، وكبير الإقبال، وعظيم الاغتباط، مما كان يزيد شيخنا الزواقي نشاطا وإقبالا تاما فانقا على متابعة تلك الدروس بتحقيق وتحرير، واتساع في الإلقاء والتقرير.

وهذا هو ما كان يتطلبه الطالب النبيل، المغرم بتحقيق مسائل الفقه وتحصيل أبحاثه على الوجه الأتم، في ذلك العصر المفقود .

وهنا أقول للقارئ المعتبر: إن هذا المنهج؛ كان عندنا المتبع في الدروس الفقهية. وبه قرأنا، وبنظامه تعلمنا وانتفعنا، كما قرأ به أشياخنا وأشياخهم. وكان مبناه على أن الفقه الإسلامي هو عمدة الشريعة الإسلامية، وقانونها ودستورها المستمد من كتابها العزيز، الكتاب الحكيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنة نبيها ورسولها التي هي وحي من الله، جل جلاله، وبذلك تجري أحكامها، وعلى مقتضاه يتأسس نظامها، وفي تسيير مصالح دولتها من قضائها ووزاراتها، مدنية وعسكرية

وغيرها. فلها يستشير الأمير، وعلى فصولها يعتمد الوزير، وبها يعمل العامل، ويحكم الحاكم، ويقضي القاضي. وعلى قواعدها ينظم صاحب السيف كتائب جيشه، وبإرشادها يحجم أو يقدم في سلمه وحربه.

فالفقه الإسلامي كما يعتني بأحكام الديانة، كذلك بمصالح الدنيا من الإمارة فما تحتها، ولا يشذ عنها من أحكام الدولة شيء؛ فكان لزاما على كل من ولي ولاية، أي ولاية كانت، أن يكون عارفا بالقوانين الفقهية فيما أنيط به، ولو بسؤال الفقهاء.

[أهمية "مختصر" خليل في الفقه المالكي،
وإعراض أهل العصر عنه، واهتمام الأجانب به]

وحيث إن مغربنا الأقصى يقلّد في الفروع مذهب مالك. ومذهب مالك حملته إلينا المدونة التي جمعها الإمام سحنون، قاضي قضاة إفريقية في عهد بني الأغلب، وتصدًى لتحريرها وشرحها واختصارها؛ أقطاب المذهب ورؤساؤه، وآخر من جاء بخلاصتها، وحرر أقوال المذهب، ولخّص واقتصر على ما به الفتوى؛ أبو المودة، خليل بن إسحاق المالكي، المتوفى سنة 767 أو 776.

وهذا"المختصر"، كما في "أزهار" ابن الحاج: {من أجلّ المختصرات، إذ هو كتاب صغر حجمه، وكثر علمه. جمع فأوعى، وفاق أقرانه جنسا ونوعا، واختص بتبيين ما به الفتوى، وما هو الراجح والأقوى. لم تسمح قريحة بمثله، ولم ينسج ناسج على منواله.} هـ [ص 179].

وحيث إن مؤلفه، رحمه الله، ارتكب طريق الإيجاز، التي هي قلة اللفظ، مع كثرة المعنى، تسهيلا لحفظه في الصدور؛ فمن حفظه حفظ مسائل المذهب التي عليها يدور، وكان حافظه فقهه معه، في كل ناد حاضر، لا يستدعي استحضار أسفار ولا دفاتر، وينشد لسان حاله، إن لم ينشده صريح مقاله:

فقهي معي حيث ما يمّمتُ يتبعني ... صدري وعاءٌ له، لا قلب صندوقي
إن كنت في الدار، كان العلم فيها معي ... أو كنت في السوق، كان العلم في السوق

ولهذا أثنى عليه العلماء، وقرّظه الشعراء النبلاء، وأصبح قبلة عند أهل المغرب تهوي إليه أفئدة الفقهاء، وتحجّ إلى بيت أحكامه الطلبة الأذكياء، ويعتمد على فقهه أكابر أهل الإفتاء، ويُستند إليه في فصل القضايا، وفيه قيل:

يـــا قارئـا مختصـر الخلـيـل    لقد حويت العِلمَ يـا خـليلـي
حصّله حفظا واصرف الهمة لهْ    فقـد حـوى مائـة ألف مسألـة
نصاً، ومثلها مـن المفهـــوم    فإن شككت اعدده في المرسـوم

ومن العجيب أن أهل هذا العصر رفضوه، ونظروا إليه نظر استثقال، وعدُّوا الاشتغال به من إضاعة الوقت دون فائدة ولا جدوى، بل أوسعوه قدحا وذما، وضاقت صدورهم عنه إذ لم يهتدوا لفصوله علما وفهما، وهم يرسمون أنفسهم في خريطة أهل الإسلام، ويكتبون أسماءهم في لوائح من يمتّ إليه بذمام، في حين أننا نرى غيرهم من المسيحيين ينزلون هذا الكتاب بالمنزلة الرفيعة، ويعُدُّونه من المؤلفات المفيدة البديعة، ويلقون إليه أيديهم بمزيد التجلّة والاعتبار، ويترجمونه إلى لغتهم لما أدركوا ما فيه من الفوائد العظيمة المقدار. فقد قال المؤلف المسيحي الماروني جرجي زيدان، في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية"، في الجزء الثالث صحيفة[259]:

{اهتمت الحكومة الفرنسية، والحكومة الإيطالية، بترجمة مختصر الشيخ خليل.} قال:{وقد استخرج الإفرنج منه فوائد اجتماعية وأدبية، فضلا عن الأحكام الفقهية.}هـ[باختصار].

ولكن قومنا زهدوا في كل مقوماتهم التي كان يحق لهم أن يتشبثوا بها، وأعرضوا عن المناهج الواضحة التي عبَّدها لهم أسلافهم، وأخذوها من كتاب الله العزيز، أو سنة رسوله الثابتة عنه، المحكمة الوضع، الموافقة للعقل، التي لا عوج فيها ولا أمتاً، ولا حيف في تحكيمها ولا ظلماً، وهو الشرع القرآني المنزل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والقانون المعصوم الذي لا يعتريه اشتباه في معناه ولا في حرف من حروفه. فحاربوه بالإعراض عنه، والاستهزاء به، وعدُّوا حدوده من سقط المتاع، الذي ليس فيه ـ كما قالوا ـ مصلحة أو انتفاع. وقد حادّوا في ذلك الله ورسوله، وفارقوا فروع

الدين وأصوله، (وَمَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا). وحادّوا حدوده المتينة، فسقطوا بذلك من شاهق، فنبذوا الشرع السماوي المعصوم، واتبعوا القانون الوضعي المذموم. قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ). قال الإمام البيضاوي في "تفسيره" :

{يعادونهما، فإن كلا من المتعاديين في حد وجهة غير حد الآخر، أو يضعون أو يختارون حدودا غير حدودهما} هـ [ ص 518]. قال في "روح المعاني":

{ومناسبته لما قبله في غاية الظهور. قال المولى شيخ الإسلام، سعد الله جلبي: وعلى هذا، ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء، الذين وضعوا أموراً خلاف ما حدَّه الشرع، وسموه (أليسا والقانون). وقال شهاب الدين الخفاجي، بعد نقله: وقد صنّف العارف بالله، الشيخ بهاء الدين، قدس الله روحه، رسالة في كفر من يقول يعمل بالقانون والشرع إذا قابل بينهما، وقد قال الله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال، لا يقبل التكميل. وإذا جاء نهر الله، بطل نهر معقل، ولكن أين من يعقل} هـ [ج28 ص18].

## [إحداث المحاكم القانونية في دول الإسلام<br>وإنكار العلماء لذلك]

ولم يزل أهل العلم من الفقهاء وأهل الدين، في الشرق والغرب، في إنكار هذه المحاكم القانونية التي أحدثت، ورمي الجانح إليها والعامل بها بالتضليل والتكفير، والتحذير من التّحاكم إليها بالترهيب والتنفير. ويظهر أن أول من أحدث هذه المحاكم القانونية في دول الإسلام هُم الأتراك. وأظن أن ذلك كان أول سلطنة عبد الحميد، أثناء القرن التاسع عشر المسيحي، إذ هو الذي أعلن التنظيمات، وأجرى عليها سائر إيّالته، وأصدر أمره لسائر الولاة بالعمل بها. ففي "النخبة الأزهرية":

{وقد كانت المحاكم المصرية لغاية سنة 1856، أي سنة ألف وثمانمائة وستة وخمسين، محاكم شرعية محضة؛ كيفية تشكيلها وصدور أحكامها مبنية على أصول الشرع الشريف، إلى أن صدر فرمَان شَاهَاني في السنة المذكورة، قضى بتغيير نظام الدولة القضائي والسياسي والإداري. ومن جملة ذلك إنشاء محاكم منفصلة عن المحاكم الشرعية،

لتحكم في الجنايات والمعاملات بين جميع الرعايا العثمانيين. وأول من اهتم بتنفيذ هذا الفرمان في مصر هو سعيد باشا والي مصر وقتئذ}. ثم قال بعد ذلك:

{وقد كانت المحاكم الشرعية من عهد نشأة الإسلام؛ المحاكم الوحيدة التي تفصل في المسائل الدينية والمعاملات، من مدنية وتجارية، على حسب شريعتنا الغراء، إلى أن صدر الفرمان الشاهاني المذكور} هـ [ ص264].

وقد أثار هذا التغيير في العالم الإسلامي ضجة كبيرة، إذ لم يقبله أهل الدين، والعلماء المتمسكون بالشريعة الغراء، وبالأخص علماء الأزهر وشيوخه، وأفتوا بأن هذه المحاكم مؤسسة على الظلم والفسق والمروق من الدين، وأنها من الحكم بغير ما أنزل الله، ولا شرّعه رسوله، صلى الله عليه وسلم، ولا قال بها الخلفاء الراشدون، ولا الأئمة التابعون، ونقموا في ذلك على الحكومة، وانضم إليهم عامة الأمة، فتوقفت حكومة مصر عن ذلك، خوف حدوث ثورة، وضاقت ذرعا من ذلك، وحاولت إطفاء تأجج نار هذه المعارضة، باتخاذ طريق الخداع والغرور، بأن دعت علماء الأزهر إلى جمع كتاب في الحقوق والعقوبات، موافق لحال العصر، إلخ .

ولكن علماء الأزهر رفضوا طلب الحكومة وأبوا من إجابته، وتمادوا على التكفير والتنفير، إذ علموا أنه مكر مكرته الحكومة لتخرج أهل الإسلام من شرعهم المنزل، وتدخلهم في قانون الكفر المعدل، وأرادت أن تنسلخ من هذا الداء، وتقلده أعناق الشيوخ والعلماء، فإن عارضت في ذلك الدهماء؛ أجابتهم بأننا ما فعلنا شيئاً من ذلك، وإنما فعله علماء دينكم الفقهاء.

ثم لم تزل تحاول إقناعهم، تارة بالتحدي، وطوراً بإظهار النصيحة. وأخيراً استدعى إسماعيل باشا خديوي مصر؛ الشيخ رفاعة، وهو أحد شيوخ الأزهر، وراوده أن يجتهد في إقناع شيخ الأزهر وغيره من الشيوخ، بإجابة هذا الطلب، وقال له: إنك منهم، ونشأت معهم، وأنت أقدر على إقناعهم، فاخبرهم أن أوربا ستضطرني، إذا هم لم يجيبوا، إلى الحكم بشريعة نابليون. فأجابه رفاعة: إنني يا مولاي قد شخت، ولم يطعن أحد في ديني، فلا تعرضني لتكفير مشايخ الأزهر إياي في آخر حياتي، وأقلني من هذا الأمر. فأقاله هـ. بنقل الشيخ رشيد، في"تاريخ"عبده.[ص621]. وذيّله بكلام فيه قدح في هؤلاء

الجهابذة الأخيار، الذين سلكوا مسلك النجاة من عذاب النار، ونظروا إلى قوله تعالى (وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ)، إذ تحققوا من هذا الطلب أن يكون هذا الكتاب غير مستمدّ من نصوص الشريعة، وأن يكون استمداده من الآراء التي يقتضيها الوقت المنحرف عن اتباع الهدى، وأن يكون مقتدياً بأهواء المتفانين في تقليد أهل أوربا في كل ما يشتهون، وإن أركستهم في مهاوي الردى.

وما أظن أنه لو كان الطلب مقيداً باتباع نصوص الشريعة وعدم مخالفتها، وسبك ذلك في عبارة سهلة مفهومة، واختصار الأقوال، واعتماد الراجح منها والمعمول به المعتمد عند الثقات الأعلام؛ أن يمتنعوا من ذلك، كلاّ. وما ألصق بهم الخصوم في وجهة الامتناع؛ هو من البعد بمكان أن يصدر منهم، إن كان كما اشترطنا من قبيل الاختصار، وتسهيل طريق الاستفادة، وقد كان في عصرهم جماعة مشتغلين بالجمع والتأليف، واختصار مطولات الكتب، والاقتصار على المشهور منها أو الراجح. وفي ذلك العصر، أو قريبا منه، ألّف العلامة الدردير "حاشيته".

ثم إننا سنعود لهذا المبحث، إن شاء الله، بأبسط من هذا، وتحقيق القول فيما قاله في الموضوع الشيخ عبده، وتلميذه رشيد، ونبيِّن أن نيتهما فيما يظهر حسنة، لكنهما استهوتهما مخالطة الأجانب وحب التقرب إليهم. وذلك لا يجدي، وقد قال الله تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) وقال تعالى: ( يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ) .

وفي العراق؛ قد قام في ذلك أعلامهم، وأعلنوا معارضتهم، وسلُّوا سيوف الإنكار، وألّفوا في تكفير من يُفضل القانون على الشرع. وقد قدمنا ما قاله الإمام الألوسي في "تفسيره"، وهو عالم بغداد وعلَم العراق.

أما ما يتعلق بالحكم بالتكفير، فسيأتي تحرير القول فيه. ويظهر أن الحكومة شدَّدت في حماية ما ابتدعته من تلك القوانين، وجعلت الرقابة الدقيقة على المعارضين من أهل العلم والدين، وتتبعتهم في حركاتهم وسكناتهم، حتى أصبحت الجاسوسية منتشرة في كل منزل وناد، بحيث لا يقدر أحد على القول في ذلك جهرا ولا إسرارا. ومن عثر عليه من

المخالفين أصلوه بنار عذابهم. يرشد إليه ما قاله صاحب "روح المعاني"، فيما كتبه إذ ذاك في إقامة القانون مقام الشرع:

{نعم؛ لاشك في كفر من يستحسن القانون ويفضله على الشرع، ويقول هو أوفق بالحكمة، وأصلح للأمة، ويتميز غيظا ويتقصف غضباً إذا قيل له في أمر: أمر الشرع فيه كذا. كما شاهدنا ذلك في بعض من خذلهم الله، فأصمهم وأعمى أبصارهم. وهذا القانون الذي ذكروه، قد نقصت منه اليوم أمور، وزيدت فيه أمور، وسمي بالأصول، وألّفت فيها رسائل، وطبعت ونشرت وفرقت، وألزم العمل بما حوتها كل أمير ومأمور، وعقدت مجالس الشورى عليها، ورجع في الأحكام إليها. ومن خالفها نكل تنكيلا، وربما حبس حبسا طويلا، وكم قد قال لي بعض الولاة: إياك أن تقول في مجلسنا: المسألة شرعاً كذا.. وقد أصابني منه ، عامله الله بعدله، لعدولي عن قوله، مزيد الأذى}هـ. [ج28 ص18].

هذا، وفي الجزائر، وهي في حكم الأتراك أصحاب هذه القوانين، والشيخ العارف، أبو العباس التجاني بقيد الحياة، وذكر، رضي الله عنه، حكّامها، وقال فيهم:

{إنهم كفار، لنبذهم الأحكام الشرعية، وتقديمهم القوانين الإفرنجية عليها، واكتفائهم بذلك}. نقله عنه صاحب "البغية"[ص185].

هذا ما دعا إليه القول في معاداة أهل العصر لـ"مختصر" الشيخ خليل. وسنعود إلى القول في شروحه، وما يتعلق بدرسها، والمختار منها، في ترجمة شيخنا ابن الخياط، إن شاء الله

----

[مواصلة ذكر المقروآت الفقهية
على الشيخ الزواقي]

أما قراءة "تحفة" ابن عاصم؛ فكانت بعد إيابي من الرحلة الفاسية، إذ ألفيته يدرسها بالجامع الكبير، من هذه الحضرة التطوانية، وقد وصل فيها إلى باب الرهن. فلازمت درسه، وكان بشرح التاودي، على العادة. وكان الشيخ يراجع "شرح" العلامة التسولي. وربما أشار لي بسرد بعض تنبيهاته وتكميلاته. وكان الفقيه المذكور له عناية

كبيرة بذلك الدرس، حيث إنه فنه الذي يشتغل به في فتواه. وكنت أنا كذلك مغتبطا به، متعطشا لشرب معين تلك المشارب.

و"شرح" الإمام التسولي للتحفة؛ هو أحسن ما وضع فيه من صحة الجمع، والتعرض لما به الحكم والفتوى، وإدماج فتاوى"المعيار" للونشريسي، والبرزلي، والعلمي، وغيرهم. وهو بغية المفتي والقاضي في هذا العصر، وعند فنائه تحط رحال الطالبين، ولهذا يصح أن يطلق عليه الفلك المشحون، كما قاله شيخ الشيوخ السلاوي. فقد أخبرني شيخنا ابن الأبار، أنه حضر إكراما أقامه شيخه السلاوي لشيخنا العمدة المحقق سيدي أحمد ابن الخياط، عند مروره بتطوان، في إحدى زياراته للقطب مولانا عبد السلام ابن مشيش. وكان الفقيه ابن الأبار في جملة من حضر من علماء المدينة في الإكرام، وجرى ذكر "شرح" التسولي المذكور، فقال شيخنا ابن الخياط، للفقيه السلاوي: ما تقول في هذا "الشرح" يا سيدي أحمد؟ فقال الفقيه السلاوي: إنه الفلك المشحون. فقال شيخنا ابن الخياط: لقد فرَّجت على خاطري. يعني بذلك أنه أكّد له ما يعتقده في هذا "الشرح"، ووافقه على نظره فيه.

---

### [علو مقام الشيخ التسولي في فقه الأحكام، وتخصيصه للجواب عن أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري]

ولا غرو في صدور الثناء على هذا "الشرح" من هذين العالمين الجليلين، مع قرب العصر وارتكابهما طريق الإنصاف، لأن مكانة الشيخ التسولي في فقه الفتاوى والأحكام لا تخفى على من مارس ذلك الشرح الحفيل، وهو الرجل الذي زاول خطة القضاء وتقلب فيها؛ فقد استقضي بالحضرة الفاسية، وعلماؤها إذ ذاك متوافرون، واستقضي أيضا بهذا الثغر التطواني، فأقام العدل بميزانه، وجرى على الحق طلق عنانه.

وناهيك بفضله وامتيازه في العلم على غيره؛ تخصيص السلطان، ملك المغرب، المقدس مولاي عبد الرحمان؛ له، واختياره للجواب عن الأسئلة الواردة من الأمير سيدي عبد القادر محيي الدين، أيام حروبه مع فرنسا بالقطر الجزائري. وذلك أن الأمير المذكور، كان أوفد وفدا إلى سلطان المغرب، وكتب له كتابا يذكر له ما قام به من تنظيم الجيش

وتمرينه على النظام العصري، وبين له ما في ذلك من القول، وبمعيته سؤال يرجو به جواب علماء فاس عن مسائل؛ منها:

- ما حكم هؤلاء الذين يوالون العدو ويلقون إليه بالمودة، ويطلعونه على عورات أهل الإسلام؟

- وما حكم المتمالئ معه، والواقف معه في صفه؟

- وما حكم الممتنع من الانخراط في جيش أهل الإسلام، بعد طلبه؟

- وما حكم مانعي الزكاة كلا أو بعضا؟

- ومن أين يرتزق الجيش بعد احتياج بيت المال، فهل يُفرض ذلك على الأغنياء فقط، أو يعم؟

- وهل يعد مانع المعونة باغيا؟ وما حكم أموال البغاة؟.

ولما أمر جلالة السلطان المقدس، الشيخ التسولي بالجواب عن تلك الأسئلة، قام للأمر ممتثلا، وصرف لها كامل الاعتناء، وحصّل وفصّل، وجاء في ذلك بما عليه المعول، بنصوص أملاها، وتحريرات لأكابر الفقهاء انتقاها، فقوبل الجواب بقبول حسن، وقيل له بلسان الحال: أنت لها يا أبا الحسن. وأصبح هذا الجواب مؤلفا من المؤلفات التي يغتبط بها أهل الفقه والفتوى. وقد نقله ولد الأمير محيي الدين في "تحفة الزائر، في مآثر الأمير عبد القادر، وأخبار الجزائر"، ولإعجابه به، اختصره وأدرجه في كتابه المذكور. أما الأصل فقد طبع بالمطبعة الحجرية بفاس، وهو من محتويات خزانتنا. وقد ذكر مؤلفه أنه فرغ من تأليفه في عاشر ربيع النبوي، عام ثلاث وخمسين ومائتين وألف (1253)

---

أما شيخنا الزواقي، المترجم، فكان يلاحظ على الشيخ التسولي أنه يأتي في "شرح التحفة" بفقه المسألة دون استظهار بنص. وربما نسبه لفلان، ولا يأتي بنصه الكامل، فيقول: كما في "المعيار"، أو البرزلي، أو "الشامل"، أو الحطاب، مثلا، ولا يأتي بلفظه. وهذا خلاف ما يفعله الشيخ الرهوني في حاشيته، إذ ينسب القول لقائله، ويأتي بنصه.

وهذه الطريق هي الأوثق والأفيد للقارئ، إذ ربما ظهر له من الفهم ما لم يُوفق له الناقل. ويرشد لذلك قوله، عليه السلام: "فرب مبلغ أوعى من سامع". وهذه المعنى هي التي لاحظها من منع نقل الحديث بالمعنى.

وعليه؛ فملاحظة شيخنا، رحمه الله، صحيحة. ولهذا النظر، كان المتأخرون من أهل الفتوى، يرجحون ما انفصل عليه الشيخ الرهوني، إذا تعارض مع ما قرره الشيخ التسولي. رحم الله الجميع، وجزاهم على خدمتهم فقه الدين أحسن الجزاء.

وقد كنت وقفت على نسخة من شرح الإمام التسولي، وعليها تعليقات وطرر للعلامة السلاوي، وكانت عند شيخنا ابن الأبار، بقصد أن ينقل تلك التعليقات إلى نسخته لما رُشّح لقضاء هذا الثغر. ولكن لم أكن إذ ذاك أعطيتها جانبا من التأمل. والغالب أن يكون لها مكانة من التحرير، لمكانة الفقيه المذكور في التحرير والتحقيق. والغالب أن يكون اعتمد على ما حرره الشيخ الرهوني، كما فعل في "تقييده" الذي حرره في مسألة هبة أولاد مدينة.

---

## [ الرجوع إلى ترجمة الشيخ الزواقي]

أما شيخنا الفقيه الزواقي، فهو الفقيه العلامة الأصولي، المدرس المدقق، المفتي المبرز في الفتوى، السالك في فقهه وتدريسه وفتواه، مسلك الفقهاء المبرزين، المحافظين على المذهب، الذّابّين عنه، كابن عبد السلام، وابن عرفة؛ المتحرّي في نقل نصوصهم، والمتحلّي، فيما أمكنه، بألفاظهم. وكان الغالب عليه في فتاويه اعتماده نصوص "مختصر" الشيخ خليل، وما انفصل عنه شرّاحه.

وبوجه إجمالي؛ فإن شيخنا الزواقي كان يصحُّ أن يعدّ خاتمة المحققين في الفقه في عصره وقطره، كما أنه الفقيه الذي ينطبق عليه معنى لفظه، إذ كان ممارسا للفقه، مطلعا على مظانه، مضطلعا بأصوله، مستحضرا لنصوص "جمع الجوامع"، مع دؤوبه على التدريس والتعليم، وبالأخص في الفقه والأصول؛ فقد ختم "مختصر" الشيخ خليل مرارا ـ وهو من الغريب صدور ذلك في عصره من فقهاء بلدنا ـ وكان، رحمه الله، عمله هذا دائم لا ينقطع شتاء وصيفا، مع أنه كان في غالب أيامه مقدورا عليه في رزقه، لا

مرتب له كاف، ولا دخل يقوم بغالب ضروريا ته، إلا ما كان يأخذه من الأوقاف في مقابلة قيامه بالخطابة وإمامة الجامع، وما كان يستخلصه من كتابة الرسوم والفتوى. وكان يستعين على ذلك بالاقتصاد وغنى القناعة، كما كان حال غيره من الفقهاء والعلماء.

أما التأليف والتصنيف، فقد كان غالب أهل بلدنا يتجافون له، ويستصعبون المجاراة في ميدانه، ويقولون: حسبنا فهم مؤلفات الأقدمين، إذ لا أصحَ في نظرهم إلا علم من تقدم من المؤلفين. ولقد ذاكرته يوما، رحمه الله، في نحو هذا الموضوع، فقال لي: إني سلكت مسلك فضولي حيث شرعت في جعل فهرسة لمسائل كتاب "البيان والتحصيل"، لحافظ المذهب ومجتهده، أبي الوليد ابن رشد؛ فوقع ذلك عندي موقع الاستحسان.

فتأمّل هذه العبارة التي قالها الشيخ المذكور، مما يؤذن باستعظام الإقدام على أدون ناحية من نواحي التأليف، إذ إعمال فهرسة لهذا المؤلف الجليل، ليس فيه إنشاء شيء جديد، أو اختراع شيء معدوم، أو ابتداع أمر لم يكن، أو استدراك شيء لم يُذكر. وإنما هو تسهيل للمطالع، ورفع للمشقة في تتبع الأوراق. فقوله فضولي، مما يبين لك ما كانوا عليه من هيبة عظيمة في اقتحام مغبّة التأليف، واستعظام الخوض في بحره، إذ الفضولي هو الذي يفعل ما ليس له، ويُدخل نفسه فيما لا يعني، فيكون فعله من الفضول والتطفل والدخول فيما لا يليق. مع أن هذا العمل في استخراج مسائل هذا الكتاب ليس بالهيّن. بل لابد أن يكون العالم به ممن له دراية بالفقه ودربة فيه وفي مسائله. ولكنه لا يعدّ تأليفا.

وفي هذا المجلس سألته، رحمه الله، عن فتاويه التي كان يُصدرها، هل لازالت أصولها محفوظة عنده، فأجابني بأنها كلها عنده. فطلبت منه جمعها ونشرها ليحصل الانتفاع بها. فقال لي: الشمس على أطراف النخيل. يعني انه يضعف عن ذلك الجمع لكبر سنه، وانحطاط صحته. فقلت له: إني مستعد لإعانتك في ذلك، وإرشاد كتَّاب يكتبون تلك الفتاوى. فاظهر المساعدة، ولكن لم تتهيأ الأسباب.

## [مبحث في موضوع الإعراض عن التأليف، والاكتفاء بالقديم من الكتب]

أما نظرية الإعراض عن التأليف وتجافيه، والاقتصار على القديم؛ فليس على إطلاقه وإن قلنا إن كتب الأقدمين هي المادة الأصلية، وهي البحر الفياض الذي منه يستمد المتأخر، وعلى ضوء نوره يسري من بعدهم الساري، وأنهم في أصول العلوم هم الأسوة الحسنة، وبهديهم يجب الاقتداء. قال في "الموافقات":

{وأصل ذلك؛ التجربة والخبر. أما التجربة فهو أمر مشاهد في أي علم كان، فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما بلغه المتقدم، وحسبك من ذلك أهل كل علم عملي أو نظري؛ فأعمال المتقدمين في إصلاح دنياهم ودينهم على خلاف أعمال المتأخرين، وعلومهم في التحقيق أفيد، فتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين، والتابعون ليس كتابعيهم، وهكذا إلى الآن. ومن طالع سيرهم وأقوالهم وحكاياتهم، أبصر العجب في هذا المعنى. وأما الخير، ففي الحديث: " خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". وفي هذا إشارة إلى أن كل قرن مع ما بعده كذلك}. ثم صار يذكر أحاديث في هذا المعنى وآثارا. ثم قال:

{فلذلك صارت كتب المتقدمين وكلامهم وسيرهم؛ أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم على أي نوع كان، وخصوصا علم الشريعة الذي هو العروة الوثقى، والوَزَر الأحمى}هـ [61/1].

ولأنهم لو كان هناك شيء من العلوم لنا فيه خير؛ لسبقونا إليه، فهم لم يتركوا لنا شيئاً من المعارف إلا ورسموه لنا، وبينوه في مؤلفاتهم، ونشروه في كتبهم. وفي نحو هذا المعنى يقول الطائي :

يقول من يقرع أسماعــه     ما تـرك الأول للآخــر

ومع هذا فلا يجوز أن يُفضل المتقدم على المتأخر مطلقا، بل يجب أن يُعطى لكل جانب ما يستحقه. قال أبو العباس المبرد في "كامله":

{وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحِدثان العهد يهتضم المصيب. ولكن يُعطى كلٌّ ما يستحق.} هـ[22/1].

وهذا هو الحق. بل ربما فُتِح في بعض الموضوعات من الفهوم ما لم يُفتح به على المتقدمين. ولهذا قال صاحب "التسهيل" في المتأخر؛ قد يدرك ما لا يدركه المتقدم.

على أنه يوجد في بعض المؤلفات المتقدمة ما هو غير مفهوم، لاختصار العبارة، أو اشتباه في المعاني، أو تناقض في الدلالة، فلولا عناية المتأخرين ببسط العبارة، وبيان المشكل، وحل المقفل، لما وقع بها النفع.

فانظر، مثلا في الفـقه، إلى "المدونة" وأشباهها، كيف يصعب على القارئ أخذ الأحكام منها مطلقا، ما لم ينظر إلى كلام المتأخرين فيها، كابن رشد، وابن يونس، وابن الحاجب، وهكذا إلى أبي الحسن من شراحها، والفاتحين لمغلق أبوابها.

وانظر في النحو بمدونته، وهي "كتاب" سيبويه، حتى صار يطلق عليه الكتاب، فإن المتأخر منا إذا اقتصر على الاستفادة منه، والإحاطة بمعرفة قواعد النحو؛ لا يحصل على مراده. فإذا نظر إلى مؤلفات المتأخرين، كابن مالك، وابن هشام، ومن جاء بعدهم؛ حصل على المراد بسهولة. وهم في الحقيقة لم يستمدوا إلاّ من كتاب سيبويه وأضرابه، وهكذا.

### [نشر العلم بالكتابة والتأليف، وتقييده بما فيـه نفع شرعي]

وعليه؛ فالتعليم بالتأليف، قد يجب في بعض الأوقات، إذا تعيّن طريقاً للتبليغ والتعليم. وأحوال العلماء مختلفة في ذلك. قال أبو الحسن اليوسي في "قانونـه":

{ فمنهم من استغرق زمانه في التدريس، فقلّ تصنيفه. ومنهم من بخلافه. والكل منفعة للناس. أما التدريس، فنفع حاضر، يُنشر به العلم في الآفاق. وأما التصنيف، فنفع مدّخر، يؤخذ عند الحاجة إليه}. قال:{وينبغي للعالم أن يراعي حال الوقت. فإن اتفق وجود طلبة العلم النجباء، فليشتغل بهم، ويودع الحكمة صدورهم، وإلاّ، فليودع علمه بطون الأوراق، ولا يبق بطالا. وإذا كان متوسطا، فالتوسط هو الأخذ من كل قسم بطرف.} هـ [فصل10].

وقد كان من دواعي التصنيف لجماعة من أهل العلم؛ فقد المتلقي منهم في دروسهم، وعدم وجود الحامل الفهم، فدوّنوا علمهم في المصنفات، وأودعوه بطون

الأوراق، كما وقع لابن العربي، وجلال الدين السيوطي، إذ ترك الإفتاء والتدريس، وألّف في الاعتذار عن ذلك كتابا سماه "التنفيس"، ومقامة سماها "المقامة اللؤلؤية"؛ أوضح العذر فيها. والله يسدد أقوالنا ويصلح أحوالنا.

قلت: وقد كنت ذكرت في صدر الجزء الأول، أني لما فقدت المُذاكر والمُدارس، وعدمت المُثابر على مباحث العلم المُنافس؛ أقمت هذه الأوراق مسرحا لأفكاري، ومحطا لما تنتجه على قصورها أنظاري، منتهجا هذا المنهج الذي أشار إليه المحقق أبو علي في هذا المقال.

على أن نشر العلم بالتأليف قد يكون أنفع؛ لما فيه من الاستمرار وعدم الانقطاع، لأنه مشمول بقوله صلى الله عليه وسلم: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". ويدخل أيضا في قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ). قال في "روح المعاني":

(وَآثَارَهُم) التي أبقوها بعدهم من الحسنات، كعلم علموه، أو كتاب ألفوه هـ[ج22ص201]. وقال المناوي في شرح الحديث الذي في "الجامع الصغير":

{إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته؛ علما نشره بين الناس بنحو نقل وإفتاء وتأليف}. [فيض القدير:2 /540].

ثم لا بدَّ من تقييد التأليف بما فيه نفع شرعي، من إرشاد في دين صحيح، أو في دنيا يتوقف عليه أمر الدين. أما تأليف ما يُضل عن سبيل الله، من مبادئ الشر، والأبحاث الموقعة فيما يُردي ولا يهدي؛ فهو مما يكتب، لكن من آثار السيئات. ويدخل كل ذلك في قوله، عليه السلام: " من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا. ومن سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، لا ينقص من أوزارهم شيئا". ثم تلا النبي، صلى الله عليه وسلم، كما أخرجه ابن أبي حاتم: (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ). قال في "روح المعاني" :

{ومن السيئات؛ كتأسيس قوانين الظلم والعدوان، وترتيب مبادئ الشر والفساد فيما بين العباد، وغير ذلك من فنون الشرور التي أحدثوها، وسنوها بعدهم للمفسدين} هـ [201/22].

قلت: ومن هذا، ما يكتبونه هؤلاء الملحدون من أهل العصر، في الشرق والغرب، في جرائدهم ومجلاتهم، ويذيعونه بين الجهلة والأحداث، الذين لم تتمكن منهم عقيدة الإسلام. والأمر لله.

وبكل وجه، فإننا إن قلنا إن نشر العلوم بالتأليف أنفع وأوفر في الأجر، فنعني به التأليف في العلم الصحيح، الذي له مغزى صحيح، جار على قواعد الأدب الشرعي، سالم من التشويش وإثارة الشبه، والمقالات الضعيفة الخارجة عن الجادّة، المخالفة لما عليه السلف الصالح من الأئمة المجتهدين، والقادة أهل الورع والدين.

أما مؤلفات هؤلاء الذين نبغوا في هذا العصر، واقتعدوا لجراءتهم على مناصب الإرشاد والتعليم، وطفقوا يقوّضون ما أسِّسَ على تقوى من الله من الأركان، ويبنون للعوام وأهل الجهالة؛ أبنية من ضلالهم على جُرُفٍ هار، بتلقينهم أقوالا وأحكاما كانت ملغاة عند سلف الأمة مهجورة، ابتغاء الفتنة بأقوالهم، والتفريق بين الجماعة، وإظهاراً للعلم بين من لا ينقاد إلا لمن يأتيهم بالغريب، ولاسيما إن وافق هواهم، وسواء عليهم أن خالفوا صريح الكتاب أو السنة، أو عارضوا بآرائهم ما أسسه الأئمة المجتهدون، الذين اجتمعت على الإقتداء بهم الأمة.

ومن هؤلاء من حكّم عقله، ولا يبالي من أين أخذ حكمه، ومنهم من ظن أنه اطلع على ما لم يطلع عليه أصحاب الرسول، ولا فهمه مالك ولا الشافعي ولا أمثالهم، من الأصول، واغتروا بما جنته على أفكارهم القاصرة المطابع التي حشرت إليهم هذه المؤلفات الحديثية وغيرها من مختلف الروايات ومنوعات النقول، التي لم يقرؤوها على عالم عارف بالقواعد، يُعرفهم بالصحيح منها والعليل، والعامّ منها والخاصّ، والمقيّد منها والمطلق، والمعمول به والمهجور.

فيا ليت شعري؛ هل جهل الإمام مالك حكم القبض في الصلاة، أو لم يدر ما حكم الله في البسملة أول الفاتحة، أو لم يطلع على ما ثبت في إيقاع النافلة للداخل إلى المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب، أم خفي عليه إعطاء المال في زكاة الفطر بدل القوت، أم عميت عليه الأنباء حتى لم يعلم جواز الجمع بالتقديم في الحضر دون عذر، إلى غير ذلك.

فما هذا إلا افتراء، وتدارك واستقصار، وتجهيل للقادة الّذين أسسوا لنا قواعد الدين وشرحوها، وبينوها لنا أوضح بيان وأخذوها من أصولها، وتلقوها من أهلها الذين سيماهم في وجوههم من أثر السجود، الذين كانوا يقطعون أوقاتهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا.

[ذكر نازلة تتعلق بالجمع في الصلاة
من غير عذر من لدن أحد المدعين للاجتهاد]

وهنا نذكر لك أيها القارئ، بهذه المناسبة، ما كان أثاره بعض الجهلة بناحية مدينة شفشاون، من جمعه بالناس جمع تقديم بين الظهر والعصر، من غير عذر. ولما قام الناس ورفعوا الأمر لقاضي الناحية، وهو إذ ذاك الفقيه العلامة، الخيّر الديّن، سيدي علي أمغار، وحاول ردّه عن ذلك؛ عارض القاضي وردّ عليه ردّا عنيفا، وكتب إليه رسالة مفادها الاجتهاد، ورفض تقليد مذهب مالك. وكل ذلك كان منه بإيعاز وإغراء وتلقين من بعض من يدعي التضلع في علم الحديث، وأنه بلغ رتبة الاجتهاد المطلق. وجرت هناك أمور ضاق القاضي المذكور منها ذرعا، فلم يسعه إلا أن كتب بذلك رسالة لوزير العدلية بتطوان، وهو إذ ذاك صديقنا الفقيه العلامة الشريف، سيدي محمد أفيلال، يطلب فيها من الوزير تأديب المتجرئ المذكور، وهذا نص الرسالة بعد صدر الخطاب:

(وبعد؛ فليُنه لشريف علمكم أن السيد[...]، حرر رسالة وبعثها لنا، يزعم أنه مجتهد، لا يعمل في أمور الدين إلا بالقرآن والحديث. وأطلق لسانه بالكلام الذي يستحق عليه العقوبة والملام، مع أنه لا يعرف "الجرومية" المتداولة بين صغار الطلبة والصبيان، كما يعلم ذلك من كلامه، فضلا عن غيرها. وهاهي تلك الرسالة تصلكم طيه لتتأملوها. وأرجوكم أن تحكموا على محررها بما ترونه زاجرا له ولأمثاله عن الدخول فيما هو ليس من وظيفته ولا من عُشّه، صيانة لهذا الدين المحمدي، ووقاية من الوقوع في أعراض المسلمين. هذا وأفيدكم أني لم يُرفع إليّ سؤال، ولم تصدر مني فتوى، وإنما الرجل أراد أن يُظهر علمه، ويعرّف بنفسه. ولا حول ولا قوة إلا بالله. إن دام هذا ولم يحدث له ، الخ. وبه إعلامكم، أدام الله عزكم، وأطال بقاءكم، وعلى خالص ودكم والسلام. في1 حجة حرام، متم عام 1361 وفاق 10 دجنبر سنة 1942. قاضي الناحية: علي أمغار).

ولما وصل هذا الكتاب للوزير المذكور، أطلع على ذلك سمو الخليفة السلطاني، مولاي الحسن بن المهدي، حفظه الله، فقرر رفع القضية للعلماء ليكتبوا فيها ما هو الحكم في ذلك، الموافق للجادة، وما يجب على هذا المتجرئ. وكان أطلعني الوزير المذكور على ذلك الكتاب، وطلب إبداء رأيي في ذلك، فتقاعستُ عن ذلك، لما كنت أعلمه من أن الكاتب إنما هو مأمور ومغرى من غيره، وأن القضية مشوبة بشيء من السياسة، وأن الكتابة في ذلك لا تجدي، وأن الحكم على الكاتب أو على من أغراه بذلك، لا يُنفذ ولا يُعمل به.

أما شيخنا الزواقي، المترجم؛ فإنه كتب في ذلك كتابة جيّدة، ردّ بها ما مخرق به هذا المتلاعب، وكنت أردت إثباتها هنا مع الرسالة التي رفعها ذلك المتجرئ للقاضي بنصها، إذ كان ذلك كله مجموعا في صك، ولكن من الأسف ضلّ الصك بما فيه.

ثم إني لما راجعت ما كتبه المدافع عن هذا المتجرئ، ألفيته صدر كتابته بما يفيد أن الجمع كان لعذر، وأن ذلك كان في سفر في جماعة، وأن الارتحال كان بعد الزوال، وعلم أنهم لا يصلون إلى المدينة إلا بعد الغروب. وعليه، إذا كان ما ذكره الكاتب صحيحا، فهذا الجمع لا بأس به.

[مبحث في موضوع النازلة]

ثم إن المسألة خلافية، والمذاهب في المسألة مختلفة، وكل مذهب له استناد إلى دليل ترجح عنده، وأخذ به من قلده ونُشر في المؤلفات. وحسْب المقلد أن ينظر في ذلك، ويأخذ بما حرره إمامه هنالك. واعلم أن الجمع بين المشتركتين، كما قاله الإمام المازري، ونقله عنه صاحب "إكمال الإكمال": منه سنة، كالجمع بعرفة والمزدلفة، ومنه رخصة في المطر والمرض والسفر. قال عياض:

{فأما الجمع في السفر، فصحّت فيه أحاديث الباب - أي التي في صحيح مسلم - وأخذ بها فيه الشافعي والجمهور. وهو المعروف من قول مالك، وعنه كراهيته وكراهته للرجال. وعنه: لا يجمع إلا أن يجدّ به السير. وأباه أبو حنيفة، قال: إلا أن للمسافر أن يؤخر الظهر إلى آخر وقتها فيصليها، ويؤخر قليلا ثم يصلي العصر أول وقتها. فلا صلاة عنده في وقت الأخرى إلا بعرفة والمزدلفة. قلت [أي قال الأبّي]:

{حكى ابن رشد قولا خامسا عن سماع ابن القاسم، أن المسافر لا يجمع، وإن جدّ به السير. والقول بأنه لا يجمع حتى يجدّ به السير، أو يخاف فوات أمر؛ مذهب "المدونة". وأما المريض، فقال عياض: فإن خاف أن يُغلب على عقله؛ فقال مالك: يجمع أول الوقت. ومنعه الشافعي وسحنون. وأما الذي الجمع به أرفق لمشقة الحركة عليه؛ فقال مالك يصلي الأولى لآخر وقتها، والثانية لأول وقتها. وكذلك عند سحنون وغيره ممن لم ير لهم الجمع. والحجة لمالك في جمع المريض بالقياس على السفر، لأنه إذا جاز في السفر للمشقة؛ فالمريض أحرى} هـ. من "إكمال الإكمال" [2 /355].

[الملخص المعتمد في الجمع، في مذهب مالك]:

- الجمع إما سنة أو رخصة.
- السُنّة في عرفة ومزدلفة.
- الرخصة في السفر لمن جدّ به السير.
- الرخصة في المريض الذي يخاف أن يُغلب على عقله.

هذا هو الملخص المعتمد في مذهب مالك في السفر والمرض. وأما الجمع لعذر المطر، فإنه يجمع فيه بين المغرب والعشاء خاصة. وإلى خلاصة المذهب المالكي أشار صاحب "القوانين" بقوله:

{يجوز الجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، لأسباب. وهي: بعرفة، والمزدلفة اتفاقا، وذلك سنة، وللسفر والمطر، خلافا لأبي حنيفة فيهما، وللمرض، خلافا لهما، وللخوف بخلاف في المذهب. وأجاز الظاهرية، وأشهب، الجمع بغير سبب. فأما السفر، فيشترط جدّ السير في المشهور، خلافا للشافعي، فلا يشترط الطول. وأما المطر، فيجمع له بين المغرب والعشاء عند الإمامين، لا بين الظهر والعصر، خلافا للشافعي}. ثم قال:

{وأما المريض، فيجمع إن خاف أن يغيب عن عقله، أو إن كان الجمع أرفق به، ووقته في أول وقت الأولى، وقيل في آخر وقت الأولى، وأول وقت الثانية} هـ [ص87].

والمسألة مبسوطة في "مختصر" الشيخ خليل، بزيادة تفاصيل في المذهب، مفرعة عن هذه الأصول.

أما صورة الجمع الذي فعله هذا المتجرئ على القاضي، وثبت ذلك عند هذا القاضي، فهو جمع خالٍ عن تلك الأسباب، بل مجرد جمع بين الظهر والعصر في الحضر، كما شاع في المدينة وذاع. وسبكه بتلك الصيغة السابقة، إنما هو بعد أن قام الناس في وجه الفاعل، واشتد عليه الإنكار، وحاول القاضي إجراء التأديب على هذا الفاعل، لما فيه من الخروج عن الجادة وتضليل العموم، إذ الجمع دون سبب ولا حاجة، لا يقول به قائل، إذ هو إخراج للصلاة عن وقتها المحدد لها. وقد حكوا الإجماع على ذلك حسبما يأتي.

واعلم أن مثار الاختلاف ـ كما قاله صاحب "البداية" ـ هو: {اختلافهم أولا في تأويل الآثار التي رويت في الجمع، والاستدلال منها على جواز الجمع، لأنها كلها أفعال، وليست أقوالا؛ والأفعال يتطرق الاحتمال إليها كثيرا أكثر من تطرقه إلى اللفظ. وثانيا اختلافهم أيضا في تصحيح بعضها. وثالثا اختلافهم أيضا في إجازة القياس في ذلك}.هـ[بداية المجتهد:134/1].

قلت: وأهم ما يتعلق ببحثنا هنا، هو حديث ابن عباس، الذي هو أكبر حجة يتعلق بها المعارض. وهو ما رواه البخاري وغيره أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلّى بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، وفي لفظ: "جمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء بالمدينة، من غير خوف ولا مطر". قيل لابن عباس: ما أراد بذلك؟ قال: أراد أن لا يُحرج أمته. هـ. وهذا الحديث هو حجة القائلين بجواز الجمع للحاجة مطلقا في الحضر. قال الحافظ ابن حجر في "الفتح":

{لكن بشرط أن لا يتخذ ذلك عادة. وممن قال به: ابن سيرين وربيعة، وأشهب وابن المنذر، والقفال الكبير. وحكاه الخطابي عن جماعة من أصحاب الحديث، واستدل لهم بما في آخر هذا الحديث؛ "أراد أن لا يُحرج أمته"}. قال الحافظ:{ وقد جاء مثله عن ابن عباس مرفوعا، أخرجه الطبراني ولفظه: جمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء. فقيل له في ذلك، فقال: "صنعت هذا لئلا تحرج

أمتي". وإرادة نفي الحرج، يقدح في حمله على الجمع الصوري، لأن القصد إليه لا يخلو عن حرج} هـ[16/2].

ولكن الجمهور والكافة، كما سبق، أنه لا يجوز الجمع مطلقا دون عذر من مطر أو سفر أو مرض، على ما هو محرر في المذهب. ومن قال بذلك، فهو شذوذ وخروج عن الجادّة.

وأجاب الجمهور عن هذا الحديث بأجوبة منها: أن الجمع الواقع في رواية ابن عباس، هو صوري، بأن يكون أخر الظهر إلى آخر وقتها، وعجل العصر في أول وقتها. وهذا، وإن ضعفه الإمام النووي، فقد استحسنه القرطبي، ورجحه إمام الحرمين، وجزم به من القدماء ابن الماجشون والطحاوي، وقواه ابن سيد الناس، بأن أبا الشعثاء ـ وهو راوي الحديث عن ابن عباس ـ قد قال به. قال الحافظ ابن حجر:

{ويُقوي ما ذكر، أن طرق الحديث كلها ليس فيها تعرض لوقت الجمع. فإما أن تُحمل على مطلقها، فتستلزم إخراج الصلاة عن وقتها المحدود بغير عذر. وإما أن تُحمل على صفة مخصوصة لا تستلزم الإخراج، ويجمع بها بين مفترق الأحاديث. والجمع الصوري أولى} هـ[فتح الباري:2 -17/16].

ويؤيده أيضا ما أخرجه النسائي عن ابن عباس بلفظ:" صليت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، الظهر والعصر جمعا، والمغرب والعشاء جمعا. أخّر الظهر، وعجل العصر، وأخر المغرب، وعجل العشاء". فهذا ابن عباس بيَّن صفة الجمع، وهو صوري.

ومن ذلك، ما أخرجه في "الموطأ" والبخاري وغيرهما، عن ابن مسعود قال: ما رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صلّى صلاة في آخر ميقاتها، إلا صلاتين؛ جمع بين المغرب والعشاء بجمْع، وصلّى الفجر يومئذ قبل ميقاتها.هـ[نيل الأوطار:266/3]. فنفى مطلق الجمع، مع أنه روى حديث الجمع بالمدينة. وهو يدل على أن الجمع الذي رواه إنما كان جمعا صوريا.

وبهذا سقط احتجاج من أجاز الجمع في الحضر دون عذر. وأصرح من ذلك في المراد، ما في سنن الترمذي ـ بعد رواية حديث ابن عباس المذكور ـ قال: {وقد روى ابن عباس، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، غير هذا. وساق سنده عن ابن عباس، عن النبي،

صلى الله عليه وسلم، أنه قال:"من جمع بين الصلاتين من غير عذر، فقد أتى بابا من أبواب الكبائر"}. بل بالغ الإمام الترمذي آخر كتابه قائلا:

{جميع ما في كتابي هذا من الحديث هو معمول به، وبه أخذ بعض أهل العلم، ماخلا حديثين؛ حديث أن النبي، صلى الله عليه وسلم، جمع بين الظهر والعصر بالمدينة، والمغرب والعشاء، من غير خوف ولا سفر، وحديث أنه قال، صلى الله عليه وسلم: "إذا شرب الخمر فاجلدوه، فإن عاد في الرابعة، فاقتلوه"}.هـ لكن قال عياض، حسبما في "إكمال الإكمال"وغيره: {هو كما قال في حديث شارب الخمر، وهو حديث دلّ الإجماع على نسخه، وأما حديث ابن عباس، فلم يجمعوا على ترك العمل به، بل لهم فيه تأويلات} هـ.[356/2].

وقد سلف لك أن أحسن التأويلات؛ أن ذلك الجمع كان جمعا صوريا، وأنه المؤيد بالأدلة كما سبق، أما تذييل الحافظ ابن حجر ما قرره من الجمع الصوري، حسبما سبق، بقوله: وإرادة نفي الحرج يقدح في حمله على الجمع الصوري، لأن القصد إليه لا يخلو عن حرج. هـ فإتهم ردوه، ففي "نيل الأوطار":

{ولا يشك منصف أن فعل الصلاتين دفعة، والخروج إليهما مرة، أخف من خلافه وأيسر. وبهذا يندفع ما قاله الحافظ في"الفتح"}هـ. وقال في "سبل السلام"، عن الشارح:

{والعجب من النووي كيف ضعّف هذا التأويل، وغفل عن متن الحديث المروي - أي الحديث السابق الذي رواه الطبراني عن ابن عباس، وفيه بيان كيفية الجمع - والمطلق في رواية، يحمل على المقيد، إذا كانا في قصة واحدة، كما في هذا، والقول بأن قوله: " أراد أن لا يُحرج أمته" يضعف هذا الجمع الصوري، لوجود الحرج فيه؛ مدفوع بأن ذلك أيسر من التوقيت، إذ يكفي للصلاتين تأهب واحد إلى المسجد، ووضوء واحد، بحسب الأغلب، بخلاف الوقتين. فالحرج في هذا الجمع لاشك أخف}هـ وختم صاحب"سبل السلام"هذا المبحث بقوله:

{واعلم أن جمع التقديم فيه خطر عظيم، وهو كمن صلى الصلاة قبل دخول وقتها، فيكون حال الفاعل كما قال الله: (وَهُمْ يحْسِبُونَ أنّهُم يحْسِنونَ صنْعا)الآية من

ابتدائها. وهذه الصلاة المقدمة لا دلالة عليها بمنطوق ولا مفهوم، ولا عموم ولا خصوص.} هـ[60/2].

وقد جزم الحافظ ابن حزم في "مُحلاَّه" بأن جمع النبي، صلى الله عليه وسلم، للصلاتين لم يكن إلا جمعا صوريا، إذ قال، بعد ذكره حديث مسلم عن أنس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه كان إذا عجل عليه السفر، يؤخر الظهر إلى أول وقت العصر، فيجمع بينهما، ويؤخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء، حتى يغيب الشفق:

{وهذا الخبر يقضي على كل خبر جاء بأنه، عليه السلام، جمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاتي المغرب والعشاء في السفر. ولا سبيل إلى وجود خبر يخالف ما ذكرنا. وأما في غير السفر، فلا سبيل البتَّة إلى وجود خبر فيه الجمع بتقديم العصر إلى وقت الظهر، ولا بتأخير الظهر إلى أن يُكبر لها في وقت العصر، ولا بتأخير المغرب إلى أن يُكبر لها بعد مغيب الشفق، ولا بتقديم العتمة إلى قبل غروب الشفق، فإذ لا سبيل إلى هذا، فمن قطع بهذه الصفة على تلك الأخبار التي فيها الجمع؛ فقد أقدم على الكذب ومخالفة السنن الثابتة. ونحن نرى الجمع بين الظهر والعصر، ثم بين المغرب والعشاء أبداً بلا ضرورة ولا عذر، ولا مخالفة للسنن، لكن بأن يؤخر الظهر، كما فعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم،} الخ. قال: {فقد صحّ بهذا العمل موافقة الأحاديث كلها، وموافقة يقين الحق في أن تُؤدى كل صلاة في وقتها، ولله الحمد.} هـ[المحلى:3 /171].

قلت: وهذا الجمع هو الذي ارتضاه من قدمناه.

وتحصيل القول في هذا المبحث - زيادة على ما قدمناه - يرجع إلى ثلاث مسائل :

1) في جواز الجمع وعدمه.

2) في صفة الجمع.

3) في مبيحات الجمع.

أما جوازه، فإن أئمة الاجتهاد قد أجمعوا على سنيته في عرفة والمزدلفة، كما سبق، واختلفوا فيما سوى ذلك؛ فأجازه الجمهور على اختلاف بينهم في مواضعه. ومنعه أبو حنيفة وأصحابه مطلقا. وسبب اختلافهم يرجع لأمور ثلاثة. أولا: تأويل الآثار الواردة في الجمع. ثانيا: الاختلاف في تصحيحها. ثالثا: اختلافهم في إجازة القياس في ذلك. أما

الآثار، فحديث أنس الصحيح، قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس، أخر الظهر إلى وقت العصر، ثم نزل فجمع بينهما. فإن زاغت الشمس قبل أن يرتحل، صلى الظهر ثم ركب. وحديث ابن عمر في "الصحيحين" أيضا قال: رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا عجل به السير في السفر، يؤخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء. وثالثها حديث ابن عباس، الذي في "الموطإ" و"مسلم"، قال: صلّى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الظهر والعصر جميعا، والمغرب والعشاء جميعا، في غير خوف ولا سفر.

فذهب القائلون بالجواز إلى أنه أخّر الظهر إلى وقت العصر المختص بها، وجمع بينهما. وذهب الكوفيون إلى أنه إنما أوقع صلاة الظهر في آخر وقتها، وصلى العصر في أول وقتها، على ما جاء في حديث إمامة جبريل. قالوا: وعلى هذا يصح حمل حديث ابن عباس، لأنه قد انعقد الإجماع - كما في البداية - أنه لا يجوز هذا في الحضر لغير عذر، أعني أن تصلى الصلاتان معا في وقت إحداهما، واحتجوا لذلك بحديث ابن مسعود قال: والذي لا إله غيره، ما صلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صلاة قط إلا في وقتها، إلا صلاتين؛ جمع بين الظهر والعصر بعرفة، وبين المغرب والعشاء بجمع. [قالوا]: وأيضا فهذه الآثار محتملة أن تكون على ما تأولناه نحن أو تأولتموه أنتم. وقد صح توقيت الصلاة في الأوقات، فلا يجوز أن ننتقل عن أصل ثابت بأمر محتمل. وأما الأثر الذي اختلفوا في تصحيحه، فما رواه مالك عن معاذ بن جبل من الجمع في تبوك. وأما القياس، فهو أن يلحق سائر الصلوات في السفر بصلاة عرفة والمزدلفة، لكن القياس في العبادات يضعف.

فهذه هي أسباب الخلاف الواقع في جواز الجمع، كما هو ملخص ما ذكره في "البداية".[135/1].

وأما صورة الجمع عند القائل به في السفر، فمنهم من اختار أن تؤخر الأولى وتصلى مع الثانية، وإن جمعتا وقت الأولى جاز. وهي إحدى الروايتين عن مالك، ومنهم من سوّى بين التقديم أو التأخير. وهو مذهب الشافعي، ورواية أهل المدينة عن مالك، والأولى رواية ابن القاسم عنه.

وأما الأسباب المبيحة للجمع عند القائل به؛ فالسفر اتفاقا، على خلاف في شروطه. فمنهم من أباح الجمع في أي سفر كان، وبأي صفة كان. ومنهم من اشترط فيه نوعا من السير، ونوعا من أنواع السفر. فاشترط مالك، في رواية ابن القاسم، أن يُجِدّ المسافر السير، ولم يشترط ذلك الشافعي. وروي أيضا عن مالك، كما أن منهم من قيد السفر بالغربة، كالحج والغزو، وهو ظاهر رواية ابن القاسم. ومنهم من لم يقيد، وأطلق في السفر المباح، دون سفر المعصية.

وأما الجمع في الحضر دون عذر، فقد علمت ما فيه.

هذا ملخص ما ذكره في "البداية"، وفيه لمن اتبع الحق مقنع وكفاية، أما الجمع لعذر المطر والمرض، فحكمه معروف في المذهب. وقد تقدم ذلك في كلام صاحب "القوانين".

والمقصد الأهم هنا؛ هو تلك الحادثة التي حدثت بناحية شفشاون، وتضجّر منها قاضي الناحية بها، ورفع الشكوى بها، وكتب فيها شيخنا الزواقي، المترجم، وجمعنا في موضوعها نكت الأطراف، لمن يقف في الحق موقف الإنصاف. وما بعد الحق إلا الضلال والاعتساف.

وكنت أشرت في كتابي " الأبحاث السامية " إلى هذه القضية وقت نزولها، في ترجمة المذاهب المقلّدة، وحكم الأئمة بعدم جواز الخروج عنها، وما في ذلك من القبول والردّ، ونقل كلام العلامة الاجتماعي ابن خلدون، إذ بين وجه فقد الاجتهاد في عصره الذي هو القرن الثامن، إذ قال: ومدعي الاجتهاد في هذا العصر مردود على عقبه، مهجور تقليده هـ. وذيلت ذلك بقولي:

ولقد صدق هذا الظن، وقام في كل عصر دعاة يدعون الناس للاجتهاد ورفض التقليد، وزعموا أنهم قادرون على التفريع والاستنباط، واستخراج الأحكام من الكتاب والسنة، ولكن إذا رأيت ما زخرفوه من القول وجدته (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا). الخ، ثم قلت:

ومن الاتفاقات الغريبة، أنه في هذا اليوم الذي كنت أكتب فيه هذه السطور، أطلعني وزير العدلية، العلامة سيدي محمد أفيلال، على كتاب بقصد إبداء رأيي فيه؛ ورد

عليه من قاضي ناحية شفشاون، يخبره بأن رجلا ظهر بناحيته يجمع بالناس الظهر والعصر جمع تقديم. ولما أنكر عليه ذلك؛ كتب كتابا ينكر فيه على القاضي إنكاره، وينحو منحى الاجتهاد، ويحط من قدر الإمام مالك، ولكن كتابه هذا يُسجل عليه بالجهل والضلال المبين، وينطق عنه بأن حاله لا تسمح له حتى بمعرفة "المرشد المعين". والله سبحانه يلهمنا التوفيق لمثلى الطريق.هـ[90/1].

---

[الرجوع إلى موضوع نشر العلم بالكتابة والتأليف]

ولنرجع إلى موضوعنا الذي هو التنويه بنشر العلم والتأليف، وأنه من الأعمال التي يبقى ثوابها، ولا ينقطع بعد الموت، وتقدم في ذلك الحديث " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث" الخ، وفيه الاقتصار على ثلاثة، وهو المشهور الذي رواه الشيخان وغيرهما، وروى ابن ماجة والبيهقي أن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما نشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورّثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته. قال الحافظ السيوطي فيما كتبه على" سنن" ابن ماجة: تضمن سبع خصال، ووردت خصال أخرى بلغت فيها عشرا، وقد نظمتها فقلت :

إذا مات ابن آدم ليس يجري — عليه من فعال غيرُ عشر
علوم بثها ودعاء نجل — وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر — وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي — إليه، أو بناء محل ذكر

هـ. ثم وقع التنبيه هناك إلى أن المؤلفات التي ينتفع مؤلفوها بها، ويلحقه أجرها، هي التي تحتوي على علم صحيح، لا تلك المؤلفات المضلة عن سبيل الله. وهذا التنبيه هو الذي حدا بنا إلى إطالة هذا البحث. ثم بعد هذا، فإن علماءنا أضافوا لذلك شرط الإفادة، ولو كان موضوعها صحيحا، وجعلوا المصنفين فريقين:

فريق ذو ملكة تامة، ودراية كافية تتجه إلى معارفه الأنظار، ولا يستغني عن علومه أهل الاستبصار والاعتبار، لكونهم يضعون الأشياء موضعها، ويحكمون نسخها، ويبينون أسسها، ويمهدون سبيلها للسالك.

وفريق لم يبلغ هذا المبلغ، ولم يرتق هذا المرتقى، ولكنه ذو ذكاء وفطنة، يأخذ الموضوعات المغلقة، والمباحث المفرقة، فيفتح للقارئ أبوابها، ويجمع مفترقها، ويُقرب إليه أقصاها، ويُبين له مجملها، ويشرح من المتون مبهمها، ويُرتب فصولها وأبوابها، ويُبسط مختصرها ويختصر مطولها، ويُكمل ناقصها، ويُصلح خطأها. أما ما سوى ذلك، فهو تسويد لبياض الأوراق، دون فائدة يحسن إليها الانسياق.

وهذا هو ما أشار إليه الإمام الأبّي عن ابن عرفة، إذ كان يقول: إنما تدخل التواليف في ذلك إذا اشتملت على فائدة زائدة، وإلا فذلك تخسير للكاغد. ويعني بالفائدة الزائدة، الزيادة على ما في الكتب السابقة عليه هـ.

وهذه الفائدة الزائدة فصّلها الحافظ ابن حزم وغيره، وقالوا: لا يؤلف إلا في شيء لم يُسبق إليه يخترعه، أو ناقص يتمّمه، أو مستغلق يبينه، أو طويل يختصره دون إخلال بمعانيه، أو مفترق يجمعه، أو مختلط يرتبه، أو خطإ يصلحه هـ[الأزهار لسيدي الطالب ابن الحاج: ص22].

فهذه سبعة، وزيد ثامن وهو: مبهم يعين. وجمعها من قال:

أخا الذكـــاء والفطـــنْ وقيت أحداث الزمانْ
إن رمت أن تعرف مَا صنّـف فيـه العُلمَا
فهـاكهـــا ثمـــــانية مـن نفحــة يمـانيــة
وهي فقيـــد اختـــرعْ وذو افتراق قـد جُمعْ
ونـــاقص قد كُمّـــلا ومجمـل قـد فُصّلا
ومُسهب قـد هُـذبَـا ومُخلط قـد رُتّبَـا
ومُبهم قـد عُيّنَـــا وخطـأ قـد بُيّنَـــا

- - -

## [ضرر تلقين العوام الأقوال الضعيفة، وبعض المذاهب المخالفة في الفروع لمذهب مالك]

ولنذيل هذا الموضوع، الذي هو نشر العلم بالكتب والتصنيف، وما هو من ذلك من عمل البر، وما هو من عمل الشر، أن الشر بالإلقاء والتدريس والإفتاء كذلك:

ومن أقسام الشر في الفتيا والتدريس؛ ما أولع به بعض من ينتمي للعلم، ويدعي أنه من علماء السلف، من تلقين العوام بعض الأقوال الضعيفة، أو تقليد بعض المذاهب المخالفة لبعض الفروع لمذهب مالك، الذي هو مذهب المغاربة منذ أحقاب طويلة، بل المغرب منذ دخل إليه الإسلام، وهو على هذا المذهب المالكي المنقح المصفى، إلا ما كان في الندرة من تقليد الإمام الأوزاعي، إمام أهل الشام. وقد فصلنا ذلك في كتابنا "اللسان المعرب".

أما بعد أن استُقضي الإمام سحنون بإفريقية؛ فقد تمحّض المذهب المالكي بالمغرب، ولاسيما بعد اندماج الأندلس في المغرب، إذ كان به تلاميذ الإمام وحاملو راية مذهبه، وفي مقدمتهم تلميذه الخاص، وراوي "موطإه"، وهو الإمام يحيى بن يحيى الليثي، وغيره من أفذاذ علماء المذهب وناشري أصوله وفروعه بها، ووضعهم في ذلك المؤلفات الجامعة، والمصنفات الوافية الكافية، رغم ما قام به الإمام ابن حزم من الدعوة إلى المذهب الظاهري، إذ ردوه على عقبه مذؤوماً مدحورًا.

ولقد يضيق صدر العالم المتحقق في هذا، ويقف وقفة الحائر، إذ يرى انقلاب الحقائق، فيصير العلم جهلا والجهل علما، والباطل حقا، والحق باطلا، ويستغيث ولا يغاث، ويستنصر ولا يُنصر، ويقول الحق فلا يسمع، ويرشد إلى الطريق المستقيم فيرد ويدفع.

وأقبح شيء في زماننا أنه به العلم جهل، والعفاف فسوق. وأعجب من هذا أن السواد الأعظم يتبع هذا الخلق الذي أضاع الصلاة، واتبع الشهوات، وجاهر باقتحام الآثام والمحرمات، ثم بعد ذلك يطالع بعض الكتب الفقهية أو الحديثية، بها الصحيح والضعيف، والموصول والموقوف، والمعمول به والمردود، والمحكم والمتشابه، والمطلق والمقيد، والمشهور والشاذ؛ ويأخذ منها الأقوال الشاذة، والمذاهب الغريبة التي توافق هواه، ويلقيها إلى العوام ليُضل بها الناس بغير علم صحيح، ابتغاء الفتنة وابتغاء التضليل،

والوقوع في تنقيص السلف الصالح الذين مُهدوا لنا السبيل، مع ما في ذلك من التفريق بين المؤمنين، والإرصاد لمحاربة المحافظين على مراسم الدين.

فليت شعري ما هي النتيجة لمن يأتي إلى مسألة مبنية على أصل صحيح، ثبتت في مذهب مالك، مثلا، وعمل بها الجمهور منذ أحقاب طويلة، وقرون عديدة، واعتمدها علماء الأمة وأفذاذها، ومن زادهم الله بسطة في العلم والدين، واطلعوا على ما لم يطلع عليه هؤلاء الجهلة من ناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، ومحكم ومتشابه، مع الصدق والأمانة، والرسوخ في العلم، والثبات في الحق، وتحري الصواب في القول والعمل.

ولقد توقع أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب، ظهور هذا التضليل، وحذّر الأمة من الاغترار بترّهات هؤلاء الشياطين، إذ سئل، رضي الله عنه، عن أحاديث البدع، وعما في أيدي الناس من الخبر، إذ قال:

{إن في أيدي الناس حقا وباطلا، وصدقا وكذبا، وناسخا ومنسوخا، وعاما وخاصا، ومحكما ومتشابها، وحفظا ووهما. ولقد كُذب على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على عهده، حتى قام خطيبا فقال: " من كذب عليَّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار". وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان، متصنّع للإسلام، لا يتأثم ولا يتحرّج؛ يكذب على رسول الله، صلى الله عليه وآله}. قال: {ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة، والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا. وإنما الناس مع الملوك والدنيا، إلا من عصم الله}. قال: {ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه ولم يتعمد كذبا}. ثم قال:

{ورجل ثالث سمع من رسول الله، صلى الله عليه وآله، شيئاً يأمر به ثم نهى عنه، وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء، ثم أمر به، وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ، ولم يحفظ الناسخ}. قال:

{وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب، خوفا من الله، وتعظيما لرسول الله، صلى الله عليه وآله، ولم يَهِم. بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على سمعه، لم يزد فيه ولم ينقص منه؛ فحفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب

عنه، وعرف الخاص والعام، والمحكم والمتشابه، فوضع كل شيء موضعه} هـ. باختصار من "نهج البلاغة" [ص: 499].

وهو تقسيم صحيح، يعدُّ من كراماته، رضي الله عنه، ويصحُّ أن يكون به وضع الحجر الأساسي لعلمين من العلوم الإسلامية التي انبنى عليها الاجتهاد في الفروع، وهما: علم اصطلاح الحديث، وعلم أصول الفقه، ويمكن عندي أن يكون، رضي الله عنه، هو الواضع الأول لهما، فتأمَّله.

* * *

[محاولة بعضهم إماتة إحدى السنن المؤكدة
كمسألة الأضحية

وعليه، فهذا الذي يطالع كتابا من الكتب، ويجد فيه حديثا، أو قولا من أقوال الصحابة أو التابعين أو غيرهم، ويريد حمل الناس عليه لمجرد هوى متبع، أو رأي مبتدع، مخالفا بذلك الأئمة النقاد، الذين كان سعيهم خالصا في نفع العباد، ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ، والراجح والمرجوح، والمحكم والمتشابه، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد؛ إنما هو ضال مضل، متجاسر متلاعب، جاهل أو متجاهل، كبعض من يدعي أنه عالم سلفي، وهو يحاول كل حين إماتة بعض السنن المؤكدة، والمعمول بها من لدن عصر الرسالة؛ كمسألة الأضحية، حيث كان أثار ذلك، إذ كان الخليفة السلطاني مولاي الحسن، حفظه الله، بهذه المدينة (تطوان)، وصار يعلل تركها بعلل ويلقيها إلى بعض الناس، حتى اغترّ بتعليلاته الباطلة بعض علماء المدينة، إذ صار يغرِّر بهم، ويدلس عليهم، بتوقع ما لم يقع، واختلاق ما لم يكن، من أن الناس لضيق الحال، وقلة ذات اليد، يأخذون ثمنها من المصارف الأجنبية ويرابون في ذلك، حتى صغا إليه البعض، وأعانه على ذلك من هواه مع أهل العصر، ووقع الاتفاق على أن يصدر بذلك أمر مولوي بمنع الضحية في سائر الشمال،[أي شمال المغرب] في المدائن وقرى الجبال.

### [عقد مجلس للعلماء
### برئاسة الخليفة السلطاني للبت في المسألة]

ولكن مولانا الخليفة، وفقه الله، أرجأ الأمر إلى الاستشارة مع أهل العلم، فاستدعى من رأى من علماء المدينة، وكان في جملتهم شيخنا الزواقي المترجم، وكاتبه، كان الله له وليا ونصيرا. وكان شيخنا المذكور، رحمه الله، ممّن اغترّ بتلك التلفيقات والتخرُصات. فوقعت المذاكرة في ذلك بحضرة مولانا الخليفة، وصار الكل يقول ما عنده في ذلك، وأخيرا قال لي مولانا الخليفة:

ما تقول في هذا؟ فقلت: هذا كله باطل، لا يُعوّل عليه فاضل، بل الأضحية سنة مؤكّدة، وهي من شعائر الدين، وسنن سيد المرسلين؛ لا يجوز التمالؤ على تركها. وقد قال علماؤنا إنه إذا اتفق أهل قرية على تركها، فإن لإمام المسلمين أن يقاتلهم عليها. فقال بعض من حضر: إنه يمكن أن لا يصدر بذلك أمر رسمي، ولكن نحن نتركها ويقتدي بنا الناس. فقلت له: إنه لا يقتدي بك أحد في هذا الفعل. ثم قلت لسيدنا الخليفة: وما تفعلون أنتم، هل تضحون أم لا؟ فأجابني: إني سأضحي. فقلت له: نحن لا نقتدي إلا بكم. وانفضّ المجلس على هذا، وتُرك الناس.

وفي هذه الأيام من شهر شوال عام 1383، قد أعيد إثارة هذا التضليل، وأصبحت تُذاع بين الناس هذه الأباطيل. والله غالب على أمره.

واعلم أن هذه الغارة من الغارات التي أصبح من يقول إنه من أهل الإسلام؛ يشنُّها على شعائره. وهو كيد طغى تياره على العباد، وكاد أن يعمّ طوفانه الحاضر والباد، إلا أن يشملنا الله جل وعلا بلطفه، ويردّ مكر الماكر رغم أنفه

### [مبحث في حكم الأضحيــة ]

أما حكم الأضحية في الإسلام؛ فلا خلاف بين أئمة المذاهب في مشروعيتها، وأنها من أحب الأعمال إلى الله تعالى يوم النحر، وأن للمضحي أجرا عظيما لقوله، عليه السلام، فيما رواه ابن ماجة والترمذي، وحسنه : " ما عمل ابن آدم يوم النحر عملا أحبَّ إلى الله من هراقة دم، وإنه لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسا ". وروى أحمد وابن

ماجة، عن زيد بن أرقم، قال: قلت ـ أو قالوا ـ : يا رسول الله: ما هذه الأضاحي؟ قال: "سنة أبيكم إبراهيم". قالوا: ما لنا منها؟ قال: " بكل شعرة حسنة ". قالوا: فالصوف؟ قال: " بكل شعرة من الصوف حسنة ".

ثم بعد ذلك اختلف الأئمة في هذه المشروعية، هل هي على سبيل الوجوب والفرضية، أو على سبيل السنة؛ فذهب مالك والشافعي والجمهور إلى أنها سنة مؤكدة، ومن وجه للشافعية أنها من فروض الكفاية. وذهب أبو حنيفة إلى أنها واجبة على المقيم الموسر. ومحمد وزُفَر؛ أن الأضحية واجبة على أهل اليسار من أهل الأمصار والقرى، المقيمين دون المسافرين. وحدّ اليسار في ذلك ما تجب فيه صدقة الفطر . وروي عن أبي يوسف مثل ذلك. وقال إبراهيم النخعي: الأضحية واجبة إلا على مسافر. وروي أنه قال: كانوا إذا شهدوا ضحُّوا، وإذا سافروا لم يضحوا. وروي عن مكحول أنه قال: الأضحية واجبة .

واستدل هؤلاء القائلون بالوجوب بظواهر من القرآن والحديث، فمن ظواهر القرآن قوله تعالى: ( لِكُلِّ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمْرِ) قال أبو بكر الرازي في أحكامه إثر قوله تعالى (فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمْرِ ): {وإذ كنا مأمورين بالذبح؛ ساغ الاحتجاج به في إيجاب الأضحية لوقوعها عامة}. ثم قال بعد كلام في ذكر المذاهب:

{ ومن يوجبها يحتج له بهذه الآية، ويحتج له بقوله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) قد اقتضى الأمر بالأضحية، لأن النسك في هذا الموضع، المراد به الأضحية. ويدل عليه ما روى سعيد بن جبير، عن عمران بن حصين، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " يا فاطمة: اشهدي أضحيتك، فإنه يغفر لك بأول قطرة من دمها كل ذنب عملتِه، وقولي: (إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ) ". وروي أن علياً، رضي الله عنه، كان يقول عند ذبح الأضحية: (إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ) الآية. وقال أبو بردة بن نيار يوم الأضحية: يا رسول الله: إني عجلت بنسكي. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أول نسكنا في يومنا هذا؛ الصلاة، ثم الذبح". فدل ذلك أن هذا النسك قد أريد به الأضحية، وأخبر أنه مأمور به بقوله: (وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) والأمر يقتضي الوجوب. ويحتج فيه بقوله: ( فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) قد روي أنه أراد صلاة العيد، وبالنحر الأضحية، والأمر يقتضي الإيجاب. وإذا وجب على النبي، صلى الله عليه وسلم، فهو

واجب علينا لقوله تعالى ( فَاتَّبِعُوهُ) وقوله ( لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ)}
هـ.[أحكام القرآن لأبي بكر الرازي: 3 / 306].

ثم صار الإمام أبو بكر، يسرد أحاديث تشهد للوجوب، منها حديث أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " من كان له يسار فلم يضحّ فلا يقربن مصلّانا ". ومنها حديث مخنف بن سليم عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "على كل أهل بيت في عام أضحية " الخ. ومنها حديث جابر، والبراء بن عازب، قالا: قام النبي، صلى الله عليه وسلم، على منبره يوم الأضحى فقال: " من صلى معنا هذه الصلاة، فليذبح بعد الصلاة". فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إني ذبحت ليأكل معنا أصحابنا إذا رجعنا. قال: " ليس بنسك". قال: عندي جذعة من المعز؟ قال:" تجزئ عنك، ولا تجزئ عن غيرك". ففي هذا الحديث وجوه تدل على الوجوب، منها قوله، عليه السلام: " فليذبح"، والأمر يقتضي الوجوب، ومنها قوله: "لا تجزئ عن غيرك". والإجزاء بمعنى القضاء، والقضاء لا يكون إلا عن واجب. وفي بعض ألفاظ هذا الحديث: "فمن ذبح قبل الصلاة، فليعد أضحيته". ومنها ما روي عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر قال: نسخت الأضحية كل ذبح كان قبلها، ونسخت الزكاة كل زكاة كانت قبلها، ونسخ صوم رمضان كل صوم كان قبله، الخ. قال [أبوبكر الرازي]: {ولا يكون المنسوخ به إلا واجبا}هـ.[أحكام القرآن: 3 /307-308].

هذا ملخص ما أتى به أبو بكر الرازي في أحكامه، من حجج القائل بالوجوب، لكن قال الحافظ ابن حجر:

{أقرب ما يتمسك به للوجوب حديث أبي هريرة رفعه: " من وجد سعة فلم يضحِّ فلا يقرب مصلانا". أخرجه ابن ماجة وأحمد، ورجاله ثقات}.هـ[فتح الباري:ج10ص2] قلت: وقد تقدم.

<u>هذا، وللقائل بالسنية</u> وعدم الوجوب، أدلة. منها حديث ابن عباس: "كتب علي النحر، ولم يكتب عليكم". قال الحافظ ابن حجر: وهو حديث ضعيف، أخرجه أحمد وأبو يعلى، والطبراني، والدار قطني، وصححه الحاكم، فذهل.هـ [فتح الباري:ج10ص3]. ومنها: حديث جابر، الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، قال: صليت مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال: " بسم الله

والله أكبر، اللهم هذا عني وعمّن لم يضحِّ من أمتي". ونحوه رواه الإمام أحمد، والطبراني، عن أبي رافع، وفيه: كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس، أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه، فذبحه بنفسه بالمدينة، ثم يقول: " اللهم هذا عن أمتي جميعا: من شهد لك بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ". ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ويقول: "هذا عن محمد وآل محمد" الحديث.

ووجه الاستدلال؛ أن الظاهر تضحيته عن أمته وأهله تجزئ كل من لم يضحِّ، سواء كان متمكنا من التضحية أم لا. ولكن يقدم في الاستدلال الحديث المتقدم: "على كل أهل بيت أضحية"، فتكون التضحية عن غير الواحد. ومنها: وهو أشهرها عند القائل بعدم الوجوب، حديث مسلم وأبي داود وغيرهما، وهو قوله عليه السلام: " من أراد أن يضحي، فلا يأخذ من شعره وأظفاره حتى يضحي". فصرف التضحية إلى إرادة المرء واختياره، فدل ذلك على عدم الوجوب.

ورُدّ هذا الاستدلال بأن مثل هذا يستعمل في الأمر الواجب، فيقال: من أراد أن يصلي الظهر مثلا فليتطهّر. ومن أجلّ ما احتج به النافي للوجوب؛ ما أخرجه البيهقي عن أبي بكر وعمر، أنهما كانا لا يضحيان، كراهة أن يظن من رآهما أنها واجبة، وكذلك أخرج عن ابن عباس وبلال وأبي مسعود وابن عمر. قال في "نيل الأوطار": ولا حجة في شيء من ذلك [199/5].

وبالجملة؛ فقد تعارضت الأدلة في الوجوب وعدمه، فمن أثبت أجاب عما احتج به النافي، ومن نفى أجاب عما احتج به المثبت. ومن آثر الإنصاف، ونظر إلى حجج الجانبين بنظر صاف عن الاعتساف، حكم بأن حجج المثبت أوضح وأجلى، وأن الأخذ بها أحوط وأولى، ولهذا قال صاحب "نيل الأوطار"، بعد أن نقل أدلة الموجبين الصحيحة: ولم يأت من قال بعدم الوجوب بما يصلح للصرف هـ [200/5].

وقد يشعر بالميل للوجوب ما ورد عن ابن عمر، حسبما رواه الترمذي وحسنه، أن رجلا سأله عن الأضحية أهي واجبة؟ فقال: ضحى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون بعده. قال الحافظ في "الفتح": وكأنه أشار بقوله: والمسلمون، إلى أنها ليست

من الخصائص، وكان ابن عمر حريصا على إتباع أفعال النبي، صلى الله عليه وسلم، فلذلك لم يصرح بعدم الوجوب هـ[ج10ص3/2]

فسكوته عن نفي الوجوب، يشعر بميله إلى القول به. ففحوى جواب هذا الصحابي الجليل، المتعبد المتهجد، الحريص على اتباع الهدي المحمدي، المتشدد في اتباع الأثر؛ لهذا السائل: أما يكفيك عمل النبي، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون بعده، فعليك أيها السائل بالاتباع والاقتداء، وفي رسول الله أسوة حسنة.

وإلى هذا ينظر مذهب مالك في "المدونة" الضحية واجبة على من استطاعها. قال مالك: لا أحب لمن كان يقدر على أن يضحي أن يترك ذلك هـ [70/3] وفي "الرسالة": الأضحية سنة واجبة على من استطاعها هـ. وسنعيد الكلام على هذه النصوص عند الكلام على تحرير مذهب مالك في المسألة.

أما الإمام ابن العربي المالكي، فإنه حصّل في حكم الأضحية أربعة أقوال، فقال: القول الأول إنها واجبة. قاله أبو حنيفة وابن حبيب. وقال ابن القاسم: إن اشتراها وجبت، وهو الثاني. الثالث: إنها سنة واجبة. قاله محمد بن المواز. الرابع: إنها سنة مستحسنة. وهو أشهر الأقوال عندنا. ثم صار يذكر الحجج التي تعلق بها من أوجبها، ثم ذيلها بالبحث فيها، ثم أتى بما ورد مما يؤخذ منه عدم الوجوب، ثم قال: فقد تعارضت الأدلة، والأصل براءة الذمة هـ [أحكام القرآن: 327/2].

قلت: وفي كلام القاضي، رحمه الله، إشكال، إذ يقتضي رفع الطلب بالكلية، مع أنه لا خلاف بين علماء الأمة في طلبها ومشروعيتها، كما سبق. وسنعود لتحقيق مسألة البراءة الأصلية فيما بعد. أما صاحب "البداية"، فإنه بين سبب الخلاف في المسألة، ولم يتعرض لترجيح حجج جانب، إلا أنه أشار أخيرا إلى ضعف حجج الجانبين. قال:

{وسبب اختلافهم شيئان، أحدهما هل فعله، عليه الصلاة والسلام، في ذلك محمول على الوجوب، أو على الندب. وذلك أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يترك الضحية قط فيما روي عنه حتى في السفر}. ثم قال: {والسبب الثاني: اختلافهم في مفهوم الأحاديث الواردة في أحكام الضحايا}. فذكر حجة القائل بعدم الوجوب وهي قوله عليه السلام: "إذا أراد أحدكم أن يضحي" الخ. وحجة من يقول بالوجوب وهي أمره، صلى الله عليه وسلم، لأبي

بردة بن نيار، بإعادة ضحيته، إذ ذبح قبل الصلاة، وقد تقدم لنا ذلك مفصلا. ثم قال: {وكل حديث ليس بوارد في الغرض الذي يحتج به فيه، فالاحتجاج به ضعيف}هـ [1/348 ].

فهذه خلاصة ما في حكم الضحية من الأقوال، وما لكل قائل فيها من الاحتجاج والاستدلال.

أما الكلام في حكمها على وجه الخصوص في المذهب المالكي؛ فاعلم أن المذهب على قولين: فقيل بوجوبها، وقيل بعدمه . قال ابن الحاجب: الأضحية في وجوبها قولان هـ. قال في التوضيح: {والمشهور أنها سنة، وللشيوخ في حكمها ثلاث طرق، أولها المذهب كله أنها سنة، وما في الروايات يوهم خلاف ذلك. ثانيها أن المذهب على قولين؛ السنة، والوجوب. ثالثها يزاد إلى هذين ثالث بالاستحباب} هـ. وفي " إكمال الإكمال"، وسياقه عن الإمام المازري في "المعلم" :

{والأضحية عندنا سنة مؤكدة، وأوجبها أبو حنيفة لمن عنده نصاب، وخرج الوجوب عندنا من قوله في المدونة: فيمن كانت له أضحية فأخرها حتى انقضت أيام النحر؛ أثم. ومن قوله في كتاب ابن المواز: هي سنة واجبة. ومن قول ابن حبيب ـ وهو من كبار أصحاب مالك ـ: من ترك الأضحية أثم} هـ[5/290].

وفي "الموطأ"، قال مالك: {الضحية سنة، وليست بواجبة. ولا أحب لأحد ممن قوي على ثمنها أن يتركها.}هـ. قال الباجي في "المنتقى" إثر قول الإمام: ولا أحب لمن قوي الخ: وهذه العبارة يستعملها أصحابنا فيما تأكد استحبابه، وبلغ صفة ما من تأكيده الاستحباب وإن لم يجب فعله. وقد قال ابن القاسم في "المدونة": من تركها أثم. وهذا معنى الوجوب. وقال ابن المواز في كتابه: هي سنة موجبة. وقال ابن حبيب: هي من واجبات السنن، وتركها خطيئة. قال القاضي أبو محمد: أطلق بعض أصحابنا عليها أنها واجبة، وإنما يريدون بذلك أنها سنة مؤكدة، وهذا محتمل من الأقوال، غير قول ابن القاسم وابن حبيب اللذين يؤثمان تاركها، فإنها لا تحتمل إلا الوجوب، والأول أشهر في المذهب. هـ [المنتقى:3/100].

فهذه نصوص أئمة المذهب المالكي؛ تصرح بأن الضحية لمن قدر عليها، إما واجبة وفريضة، وإما سنة مؤكدة لا يسوغ تركها. وفي "الرسالة":

{والأضحية سنة واجبة على من استطاعها. قال الشيخ زروق: معنى سنة واجبة، أنها سنة يجب العمل بها، بحيث لو اتفق أهل بلد على تركها؛ قوتلوا لامتناعهم منها، وما ذكره هو كذلك في "التلقين"، و "الكافي"، و "المعلم"، و "المقدمات"، وهو المشهور هـ[شرح الرسالة: 366/1]. ونقل نص زروق؛ الإمام الحطاب وسلمه.

وبعد هذه النقول، التي لا يبطلها إلا جهول، يتضح لك أن السعي في ترك هذه السنة الشهيرة، والشعيرة التي عمل بها الرسول واتبعه فيها المسلمون، كما قال الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن عمر ؛ سعيٌ في ترك السنن، وميل عن قويم السَنن، ودليل على ضعف الإيمان، وإعراض عما سنه الرسول وشرعه.

ولكن صدور هذا من مثل هؤلاء غير غريب، لأن من شأنهم هدم أركان الشريعة، وجفاءهم للمرسل بها، وظهور نفورهم من تلك الشريعة الغراء، والطريقة المنيرة البيضاء، لأن من لم يتلق سنة الرسول بقلب سليم، واعتقاد طاهر من الانتقاد والاعتراض، مليء بالتسليم والاعتقاد؛ فهو مطبوع على قلبه، مطرود من رحمة ربه. قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَيُومِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ).

ولا يغترّ الضعيف الفهم، القليل المعرفة، بما يلقون إليه هؤلاء المخادعون، من الاحتجاجات الملفقة والأقاويل، التي ليس عليها تعويل، إذ يلقون هذه الأقوال، وأكثرهم كاذبون، وما مرادهم إلا إطفاء نور شعائر الدين، ولكن الله تعالى يقيض لهم من يردهم على أعقابهم، ولوكره هؤلاء الملحدون، فانظر إلى هذه السُنة السنية، التي طالما أرادوا إماتتها في كل عام، والله سبحانه يلقي في قلوب العامة التمسك بها، والاعتصام بحبلها المتين، حتى إن من كان لا يحفل بها؛ صار مجتهدا في تحصيلها راغبا فيها، فكان تحذيرهم إغراءً، وإبعادهم عنها، تقريبا إليها، وترغيبا فيها، فلسان حال الأمة ينشد:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

ومن العجيب أن هذه الفئة الضالة تأتي الأمة من جهة اليمين، مظهرة الشفقة والرحمة على الضعفاء لقلة ذات يدهم، وعلى الأغنياء بأن الأضحية في هذه العصور قد ارتفعت أثمانها، وغلت قيمتها، فأجحف ثمنها بالفقير، وأثرت قيمتها في مال الغني، وصار

التغالي فيها من الإسراف، مع ما في ذلك من تقليل الضأن ونحوه مما يراد للضحية، وذلك مضر بالعموم.

ثم إن هؤلاء الناصحين المشفقين، يشاهدون في كل يوم، وفي كل ساعة، ما يبذله السواد الأعظم من الأمة، على اختلاف مراتبه وتنوع طبقاته، من غني وفقير، وتاجر وعامل؛ من صرف الأموال الكثيرة، والأعداد المرتفعة، في أدوات ذات أثمان باهضة، وشهوات ولذات لمآكلها ومشاربها من المحرمات وغيرها، حتى أدى بهم التغالي في ذلك، والتباهي والتسابق إليها، أن أنفذوا ما عندهم، واضطروا للقروض من المصارف التي تتضاعف كل يوم بالزيادات الربوية؛ ولا ترى أحداً من هؤلاء الرحماء المشفقين على الأمة تأخذه الرحمة والرأفة على هؤلاء، كما تأخذهم على الفقير الذي يشتري الضحية من سنة لسنة فقط، وهو مع ذلك لا تجحف به، بل هو في ذلك، وإن تغالى في ثمنها، يقتصد في ادخارها، إذ يبقى مدة لا يشتري لحما، كما هي العادة في مدن المغرب وقراه، فهو في الحقيقة ما دفعه جملة، يستغله تقاضيا.

وهنا يجب قطع الخصام مع هؤلاء والجدال. ونعتصم بسنة الرسول قولا وفعلا، ونعرض عن لغو اللاغين، وخوض الخائضين، ونقول لهم: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ودعونا، نحن لا نبتغي الجاهلين. وهذا ما يمكننا أن نجاهد به هذه الفئة التي تقول ما لا تفعل، وتفعل ما لا تؤمر به، وتخالف السنن المعمول بها، وفيها قال، صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح مسلم، عن ابن مسعود، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "مَا مِن نبيٍّ بعثهُ الله في أمَّةٍ قبلِي، إلاَّ كَانَ مِنْ أمَّتهِ حَوَارِيُّونَ وأصْحابٌ يَأخذُونَ بسُنَّتهِ، ويَقتدُونَ بأمْرهِ. ثمَّ إنَّها تَخْلُفُ مِنْ بَعدِهِمْ خُلوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفعلُونَ، ويفْعلُونَ مَا لا يُؤمَرُونَ، فمَنْ جَاهَدَهُم بيدِهِ فهُو مُؤمِنٌ، ومَن جَاهَدهُم بلِسَانهِ فهُو مُؤمِنٌ، ومَن جَاهدَهُم بقلْبهِ فهُو مُؤمِنٌ. ليسَ وراءَ ذلِكَ مِنَ الإيمَانِ حَبَّةُ خَردَلٍ". من "رياض الصالحين": ص96.

---

## [مواصلة ترجمة الشيخ الزواقي
## وذكر ما كان يؤثر عنه في زكاة الأوراق النقدية]

ثم لنرجع لإتمام ترجمة شيخنا الزواقي فنقول: إن مما كان يؤثر عن شيخنا المذكور، انه كان يقول بعدم وجوب الزكاة في هذه الأوراق التي يتعامل بها الآن، وجريانها مجرى النقود. ولكني لم أسمعه منه، وإنما كنت أسمع ذلك شائعا عنه. ووجه ما قاله شيخنا هو التمسك بما في "المدونة" من عدم وجوب الزكاة في الفلوس، مع جريانها مجرى النقد في المعاملات، ففيها:

{أرأيت لو كان عند رجل فلوس، وفي قيمتها مائتا درهم، فحال عليها الحول، ما قول مالك في ذلك؟ قال: لا زكاة عليه فيها، وهذا مما لا اختلاف فيه، إلا أن يكون ممن يدير، فيحمل محمل العروض.} هـ[52/2].

وجاء الإمام الحطاب في "شرح المختصر" بهذا النص مختصراً، إذ قال عند قول المصنف: وفي مائتي درهم الخ، ما لفظه: {(فرع) قال في "المدونة": إذا كان عنده فلوس فيها مائتا درهم فلا زكاة عليه.} هـ وفي "شرح العلامة الزرقاني للمختصر"، في شرح هذا الموضع: {وأشعر اقتصاره على الورق والذهب؛ بأن لا زكاة في الفلوس النحاس. قال في الطراز: وهو المذهب} هـ[140/2].

فهذا على ما يراه الشيخ المذكور، يفيد أنه لا زكاة في هذه الأوراق بالأحرى.
فهذا هو المنصوص، وللنظر هنا مجال، يُحرر عندما يسمح به الحال.

## [الرجوع إلى ذكر ما جرى في مسألة
## الجمع بين الظهر والعصر، دون سفر ولا مطر]

ولنرجع هنا إلى تتميم ما يتعلق بقضية ذاك المدعي للاجتهاد سابقا في مدينة شفشاون، في مسألة الجمع بين الظهر والعصر دون سفر ولا مطر، وما جرى في ذلك بين المدعي وبين قاضي الناحية، وما كتب في ذلك شيخنا الزواقي، المترجم، إذ كان ضلَّ علينا في وقت ذكر تلك القضية، وهذا لفظ الكتاب الذي كتبه المدعي للقاضي [بخطه، ونقله المؤلف كما هو]:

((بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه. جناب الفاضل المحترم الشريف سيدي وهي(كذا) علي أمغار، قاضي شفشاون، سلام عليكم ورحمة الله، أما بعد فقد بلغنا عنك أنك أفتيت ببطلان جمع الصلاتين التين (كذا) صليناهما بمدشر القلعة وذلك أظنه بتقليدك للفقه الذي هو مركب على الظن، أما علمت أن الفقه جله خلاف ومن جملة الخلاف هذه الصورة ألم يعلم إمامك التي تدعي أنك تابعا(كذا) له وهو مالك رضي الله عنه قد ذكرها في الموطا وهل طالعت شراح الموطا كلهم فسارعت إلى بطلان الصلاة ألم تعلم أن العلماء إذا وقع بينهم الخلاف يرجعون إلى كتب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولاشك بالأحروية أمثالك هم الذين وجب عليهم يعضدون الدين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لأنك قاضي وقتك وحاصله ان الحديث مشهور بان النبي صلى الله عليه وسلم جمع بالمدينة من غير خوف ولا سفر ولا مطر موجود في الموطا وغيره فالواجب علينا ان كنا إخوانا في الإسلام أن ننصف ولا مزية للشريف والعالم والفقيه وكبير السن وصغيره والإنصاف من الايمن(كذا) ويوجد في النهر ما لا يوجد في البحر واتباع الاراءي(كذا) الباطلة المركبة على الظن باطلة والبشر يخطئ ويصيب ليس بمعصوم والعصمة إنما هي للذي يتسلم من الوحي ونحن والحمد لله تابعين(كذا) للسنة على قدر طاقتنا خير من اتباع الظن والذي هو جامد على الرأي الناشئ عن الوهم يصدق عليه حديث رواه الترمذي وابن جرير من طريق عبد السلام بن حرب بن عطية ابن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم انه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله). قال فقلت لم يعبدوهم فقال بلى حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم هـ. فالان سيدي الحق أحق أن يتبع وإلا أنت جامد على ما قلت ونحن جامدون على السنة وكلام الأئمة الأقدمين المعتبرين وهو حزب الله وغيرهم هائم في القفار ويكفينا في من تعصب انه هالك لان الله عز وجل يقول (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم). والفهم لا يحيط به أحد ولكن هذه مشهورة وسامحنا وأستغفر الله من علمي وعملي والسلام)) هـ.

## فتوى شيخنا الزواقي
## في رد ما كتبه هذا المدعي للاجتهاد،
## وبيان كيفية محاكمته

وكتب على محولها شيخنا الزواقي المذكور، ما لفظه:

{الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، والصحابة أجمعين، وسائر التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: فلا يخفى أن من تأنى أصاب أو كاد، ومن استعجل أخطأ أو كاد، وبموجبه ينبغي إحضار الرجل الكاتب ما بمحوله، والمكتوب إليه، والشاهدين عليه، بالمسجلين وأهل الشورى، وأعيان المدرسين، كالفقيه التجكاني، والحاج عبد السلام ابن القات، فيسأل أولا هل هو مجتهد أو مقلد؟ فإن أجاب بالأول؛ سئل عن حقيقة الاجتهاد وعن أقسامه، ومن أي قسم هو، وإن أجاب بالثاني؛ سئل عن إمامه وعن معتقده في الأئمة المقلّدين، وعن حقيقة الفقه، وعن آل الداخلة عليه هل هي جنسية أو استغراقية، أو عهدية عهدا ذهنيا أو ذكريا، وعن وجه حذف معمول "رضي" في قوله رضي الله، وفي أي نسخة من نسخ الموطا، وفي أي كتاب من كتب الحديث، على مجموع الثلاثة، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، جمع بين الظهرين، من غير خوف ولا سفر ولا مطر، ومن يعني بالعلماء إذا وقع الخلاف بينهم، رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم. وعن حقيقة السنة [ ] إذا اهتدى لمعرفتها بأن الفقه المأخوذ بالقياس منها بدليل:"اقتدوا باللذين من بعدي، أبي بكر وعمر". بالالتفات إلى الرسالة العمرية القضائية وفيها: الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك، مما لم يبلغك في الكتاب والسنة. اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أحب الأمور إلى الله تعالى، وأشبهها بالحق فيما ترى}.

{وعن مراده بالآراء الباطلة في قوله: والآراء الباطلة الخ، إذ هذه الجملة تقضي بطالبها باللمز بسائر الأئمة، أنهم ليسوا على هدى، وحاشاهم، رضي الله عنهم ونفعنا بهم، ففي "جمع الجوامع": ونرى أن الشافعي ومالكا وأبا حنيفة والسفيانين، وأحمد والأوزاعي وإسحاق وداود، وسائر أئمة المسلمين؛ على هدى من ربهم}.

{وعن بيان من اتصف بالوهم عنده، في قوله: ونحن والحمد لله، إلى قوله: والذي هو جامد على الرأي الناشئ عن الوهم الخ. فإذا فرغ من ذلك، ووجب تعزيره، ولا أظن أنه يسلم منه، ففي الحطاب عند قول المصنف{وأدب في}: بابن الفاسقة الخ، عن المسائل الملقوطة عن "المفيد": ومن تكلم في عالم بما لا يجب فيه؛ ضُرب أربعين سوطا، وكل من آذى مسلما بلفظ يضره ويقصد به أذاه؛ فعليه في ذلك الأدب البالغ الرادع له ولمثله: يقمع رأسه بالسوط، أو يضرب ظهره بالدِّرّة، ذلك على قدر القائل، أو سفاهته، وقدر المقول فيه. ومن لم ينصف الناس في أقوالهم، لم ينصفهم في أموالهم، ثم قال: ومن تكلم بكلمة لغير موجب في أمير من أمراء المسلمين، لزمته العقوبة الشديدة، ويسجن شهرا}. هـ.

{وفي "التبصرة": {تقدم أن التعزير يكون بحسب الجاني والمجني عليه والجناية. فإن كان القول عظيما من دني القدر، مخاطبا به لرفيع القدر؛ بولغ في الأدب. وإن كان على العكس، فالعكس}. ثم قال: {والمراد بالرفيع من كان من أهل القرآن والعلم والآداب الإسلامية، لا المال والجاه. والمعتبر في الدنيء الجهل والجفاء والحماقة. فمن كان من أهل الشر، ثقل عليه بالأدب لينزجر، وينزجر به غيره. قال القاضي عياض: مشهور قول مالك وأصحابه، أن ذلك بقدر الجرم وشهرة القائل بالأذى. هـ المراد منه.} [218/2].

{وكتبه ملحقا على مجموع الثلاثة، ومقحما "انه"، ومشطبا من السطر الأعلى، ومن السطر11. عبد ربه، الراجي عفو ربه الواقي: أحمد الزواقي}.

ثم كتب بعد هذا:

{الحمد لله وحده؛ في الموطإ عن أبي الزبير المكي، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: صلى الظهر والعصر جميعا من غير خوف ولا سفر. قال مالك: أرى ذلك كان في مطر هـ. قال الزرقاني، رحمه الله: ووافقه على ما ظنه جماعة من أهل المدينة وغيرها، منهم الشافعي، قاله ابن عبد البر هـ. وفي "المنتقى": وجميع ما روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في الجمع، إنما هو إخبار عن فعله، وليس فيه شيء من قوله. والفعل لا يحتمل العموم وإنما يقع على

وجه واحد. هـ. ثم قال الزرقاني: لكن روى مسلم، وأصحاب السنن، من طريق حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس؛ بلفظ: من غير خوف ولا مطر. أجاب البيهقي بأن الأولى رواية الجمهور، فهي أولى، وقد روينا عن ابن عباس وابن عمر؛ الجمع بالمطر. وهو يؤيد التأويل. ثم قال: وقيل الجمع بالصوري، وهو رأي، وإن ضعفه النووي، فهو الذي استحسنه القرطبي ورجحه قبله إمام الحرمين، ومن القدماء ابن الماجشون والطحاوي، وقواه ابن سيد الناس بأن أبا الشعثاء، راوي الحديث عن ابن عباس، قد قال به، وذلك فيما أخرجه الشيخان، من طريق ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، فذكر هذا الحديث وزاد: قلت يا أبا الشعثاء: أظننتم وأخر الظهر، وعجل العصر، وأخر المغرب، وعجل العشاء؟. قال: وأنا أظنه. وراوي الحديث أدرى بالمراد من غيره. ثم قال: وذهب جماعة من الأئمة إلى الأخذ بظاهر الحديث فجوزوا الجمع في الحضر للحاجة مطلقا، بشرط ألا يتخذ ذلك عادة، وممن قال به: ابن سيرين، وربيعة، وأشهب، وابن المنذر، والقفال الكبير، وجماعة من أصحاب الحديث. واستدل لهم بما في مسلم في هذا الحديث، عن سعيد بن جبير: فقلت لابن عباس: لم فعل ذلك؟ قال: أراد أن لا يُحرج أمته. ونحوه في شرح الأبّي عن عياض، ونصه: منع الكافة الجمع في الحضر، وشذت طائفة، منهم ابن سيرين وأشهب، فأجازوا ذلك للحاجة والعذر، ما لم يتخذ عادة. ونحوه لعبد الملك في الظهر والعصر، محتجين بقول ابن عباس: أراد أن لا يحرج أمته. وتأول ذلك على تأخير الأولى لآخر وقتها، وتقديم الثانية لأول وقتها، على ما تأوله أبو الشعثاء، وبه علل أشهب. قال: لأنه يصلي في أحد الوقتين وقت جبريل، عليه السلام. وعلى هذا؛ فليس بخلاف، والحديث يحتمل الوجهين، وليس في ظاهره ما يدل أنه يجمعها في أول وقت الأولى، وأول وقت الثانية، وإنما قوله: ألا يحرج أمته؛ بيان لجواز تأخير الصلاة آخر وقتها. هـ كلام الأبّي، والله أعلم. وكتبه أحمد الزواقي، كان الله له وتولاه}. انتهى من خط شيخنا الزواقي المذكو

[توضيح وتذييل لهذا الموضوع]

هذا ما كتبه شيخنا الزواقي في القضية. وبودّي أن لم يكن أتعب نفسه بإلقاء تلك الأسئلة على من لا يعلم، وخاطب بها؛ ومن البلية خطاب من لا يفهم. وكتابته الثانية

هي بعض ما أسلفناه في المسألة، مع بيان وتفصيل، وتقسيم وتحصيل، يستنتج منها أن هذا المتجرئ لم يأت العلم من بابه، ولا أخذه عن أربابه، ولا أبان عن صحيح المقال وصوابه، ولا راعى الأدب في خطابه. ولكنه لقن فما أحسن التلقي، ورقي لمنبر الاجتهاد فما رقي.

ولكن ما جرأ بعض من له بلغة من العلم على الدعاوى الفارغة، والترامي على المقامات العالية، دون اتخاذ الأسباب الموصلة إليها، إلا هذه الكتب التي نشرتها المطابع، وفيها الغث والسمين، والصحيح والباطل، والمعمول به والمهجور، فيطالعها من بضاعته في القواعد العلمية مزجاة، فيضل بها ويضل، ويصحح على جهل ما فيها ويبطل، وبالأخص كتب الحديث. هب أنها من الصحيح، ولكن من أين للجاهل بالقواعد الأخذ بها، والعمل بمعناها، وفيها الخاص والعام، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والظاهر والمؤول، وغير ذلك. ولهذا قالوا: الحديث مضلة إلا للفقهاء. وقد مر لنا في الموضوع قريبا كلام لسيدنا علي، رضي الله عنه، فراجعه.

وشيخنا الزواقي أشار بتلك الأسئلة في كتابته الأولى إلى تجهيل ذاك الذي يريد أن يأخذ الأحكام من القرآن والسنة، وهو لا يدري حتى مبادئ العلوم، يقتدر بها على فهم مطلق الكتب، فضلا عن فهم كتاب الله، وسنة رسوله، ويلمّح إلى ما قرره أهل الأصول في شروط المجتهد، حسبما في "جمع الجوامع" وغيره. ولفظ الشيخ زكرياء الأنصاري في "اختصاره":

{المجتهد الفقيه، وهو البالغ العاقل، أي ذو ملكة يدرك بها العلوم، فقيه النفس، أي شديد الفهم بالطبع لمقاصد الكلام، العارف بالدليل العقلي، ذو الدرجة الوسطى عربية، من لغة ونحو وصرف ومعان وبيان، وأصولا للفقه، ومتعلقا للأحكام، أي ما تدل عليه من كتاب وسنة. ويعتبر للاجتهاد كونه خبيرا بموقع الإجماع والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول والمتواتر، والآحاد والصحيح وغيره} الخ.

فشيخنا يقول لهذا المدعي، حسبما يبدو من عبارته بكونه من المجتهدين: أنظر هل استوفيت هذه الشروط أو بعضها؛ أما حالك ومقالك، فذلك يدل على أنك لم تتصف بواحد

من هذه الشروط. وعليه، فإنك متلاعب متجرئ على أهل المقامات والمناصب. قلت: وفي هذا يقول الإمام الشافعي، رضي الله عنه:

{لا يقيس إلا من جمع آلات القياس، وهي العلم بالأحكام من كتاب الله، فرضه وأدبه، وناسخه و منسوخه، وعامه وخاصه، وإرشاده وندبه، ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وبإجماع المسلمين. فإذا لم يكن سنة ولا إجماع، فالقياس على كتاب الله. فإن لم يكن، فالقياس على سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فإن لم يكن، فالقياس على قول عامة السلف الذين لا يعلم لهم مخالفا. ولا يجوز القول في شيء من العلم، إلا من هذه الأوجه، أو من القياس عليها. ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب. ويكون صحيح العقل، حتى يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأن له في ذلك تنبيها على غفلة ربما كانت منه، أوتنبيها على فضل ما اعتقد من الصواب. وعليه بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال ما يقوله.} هـ المراد من "جامع" ابن عبد البر[61/2].

وفيه أيضا عن محمد بن الحسن: {من كان عالما بالكتاب والسنة، وبقول أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبما استحسن فقهاء المسلمين؛ وسعه أن يجتهد رأيه فيما ابتلي به، ويقضي به، ويمضيه في صلاته وصيامه وحجه، وجميع ما أمر به ونهي عنه. فإذا اجتهد ونظر وقاس على ما أشبه ولم يأل، وسِعَه العمل بذلك، وإن أخطأه الذي ينبغي أن يقول به} هـ [61/2].

فإذا سمعت ما قاله هؤلاء الأعلام، وتلقاه عنهم بالقبول فقهاء الأمة وعلماؤها، واقتفوا آثارهم، وعملوا بما بينوه لهم وأرشدوهم إليه، وتتابع العمل بذلك قرونا كثيرة، وأحقابا مديدة، وما تطاول أحد منهم على خرق سياج هذا النظام، ولا خطر ببالهم أن يستقصروا همم هؤلاء الأعلام، بل حذوا حذوهم، واستضاءوا بنور إرشادهم، واقتدوا بآثارهم، إذ سبروا أصولهم التي اعتمدوا عليها، وأسس فتاواهم التي بنوا عليها، فوجدوها معززة بالكتاب والسنة، مسندة إلى نصوصها وشواهدها الصحيحة البينة، فكان حسبهم الاقتداء والتقليد، لكن لا تقليد كتقليد الأعمى، بل هو نهج على مناهج الحق المنيرة منار

الأضواء، مع ما كان لهم من المعرفة التامة، والاطلاع على أصول العلوم التي تخولهم الاجتهاد، وقالوا: اجتهدنا ووافق اجتهادنا اجتهادهم، وأحاطوا بما لم نحط به فيما بذلوا فيه أنظارهم، وأتعبوا أفكارهم. وإن شذّ فرد وحاول الاستقلال بالردّ والانتقاد، قاموا في وجهه، وردوه على عقبه مكسور الجناح، مهضوم الجانب، منظورا إليه بعين السخط والاستصغار.

## [ما آل إليه حال الحافظ ابن حزم الأندلسي بسبب وقوعه في أئمة السلف]

واعتَبِر في ذلك بما وقع لأبي محمد ابن حزم، الأندلسي القرطبي، وهو الحافظ في الحديث والآثار، والمشارك في الفنون، من فقه وأدب وأخبار، حيث مجَّته قلوب العلماء، وطعنت فيه ألسِنة الفقهاء، وأقصته عن بلاده الأمراء، وأتلِفت كتبه بالتمزيق والإحراقِ، بسبب ذلاقة لسانه، ووقوعه في أئمة السلف المقتدى بهم، حتى قارنوا لسانه بسيف الحجاج، هذا في الفتك والتقتيل، وذاك في الثلب والتضليل. قال أبو العباس المقري في "النفح"، بعد أن ذكر ما ذكره الناس في ترجمته:

{وعلى الجملة؛ فهو نسيج وحده، لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد، والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد.} هـ [نفح الطيب: 359/1].

[وابن حزم هذا، هو] العالم الذي انتهت إليه الرئاسة في الذكاء وحدّة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة، والمذاهب والملل والنحل، والعربية والآداب، والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة، والحشمة والسؤدد والرياسة، والثروة وكثرة الكتب. قال الإمام الغزالي، رحمه الله:

{وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد ابن حزم، يدل على عظم حفظه، وسيلان ذهنه} هـ [بنقل المقري في نفح الطيب 359/1]. ومع هذا، لما خرج عن الأدب مع الأئمة المقتدى بهم، وأساء العبارة في شأنهم، لم تنفعه معرفته، ولم تغن عنه كثرته. بل أخذ أخذة رابية، وهجر ونفي عن بلده، حتى مات طريدا بالبادية.

## [تعريف العلم الحقيقي النافع،
## وما يلزم المنتسب إليه من صفات]

فليع هذا ذو الأذن الواعية، وليرجع إلى عشّه ذو المعرفة القاصرة الواهية، وليعلم أن العلم الحقيقي النافع ما حرسه صاحبه بالحشمة وحسن الآداب، وزينه برفق العبارة ولين الخطاب، وفي كتاب الله تعالى ما يرشد المسترشد، إذ يقول تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم: ( فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) وقال تعالى لسيدنا موسى ولأخيه: (اِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْيَخْشَىٰ) وقال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقال: (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقال: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ). قال المفسرون: كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، والسَّورة، أي الحدة، بالأناة.

وانظر إلى ما كان عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، من حسن الأخلاق، وجمال الشيم، حتى انه كان لا يواجه أحدا بمكروه، كما قال سيدنا أنس، رضي الله عنه: وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يكاد يواجه أحدا بشيء يكرهه. وعن عائشة، رضي الله عنها ـ كما في الشمائل وغيرها ـ أنها قالت: لم يكن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاحشا ولا متفحِّشا، ولا صخَّابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

ولا غرو في وصفه، صلى الله عليه وسلم، بهذا ومثله، إذ هو ذو الخلق العظيم، الذي وصفه به الباري. وخلقه كان القرآن وبه أدبه الباري، جل وعلا، كما قال عليه السلام: " أدبني ربي فأحسن تأديبي".

وبالجملة؛ فالعلم الحقيقي والحكمة، التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا؛ هو ما نوَّر القلب وفتح البصيرة، وأكسب الخشية من الله، وأرشد إلى حسن الأدب مع الخلق، وخفض الجناح لهم في التعليم والنصيحة، دون عجب ولا بطر. وليس العلم هو حفظ المتن ومطالعة الكتب والأسفار، ورواية المسائل والأخبار. قال سيدنا عبد الله بن مسعود، حسبما رواه عنه ابن وهب:

{ليس العلم بكثرة الرواية؛ إنما العلم خشية الله. وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: إن العلم ليس بكثرة الرواية، ولكنه نور جعله الله في القلوب. وقال: قال مالك: العلم والحكمة نور يهدي به الله من يشاء. وليس بكثرة المسائل} هـ بنقل ابن عبد البر في "جامعه" [25/2].

هذا ما جرى من هذا الذي حاول تضليل الأئمة المجتهدين، بجهله بقواعد أصول الدين، إضرارا وتفريقا بين المؤمنين. ولا حول ولا قوة إلا بالله، إذ أصبح الدين غريباً لا يجد من يحميه، ولا من يدافع عن حدوده، إذ صار فريسة للذئاب، ولا راعي له ولا حافظ، وأصبح كل جاهل يدعي الاجتهاد، ويحكم بما يميل إليه هواه، ويقول بما يصفه لسانه: هذا حلال وهذا حرام، افتراءً على الله، وتخرصا على كتاب الله وسنة رسول الله.

---

[من ادعاءات العصر أيضا
أن المذهب الشيوعي تقتضيه قواعد الإسلام]

كما ادّعى بعض المفترين في عصرنا هذا؛ أن المذهب الاشتراكي، الذي هو في المآل مذهب الإباحيين الملحدين، هو مذهب تقتضيه قواعد الإسلام، ويقول به بعض من له في الدين قدم راسخ ومقام، وأدخلوا بذلك في الدين النقي الطاهر، ما ينافي أصوله في الباطن والظاهر، ثم إن الاشتراكية في مبدئها الأولي ومقصدها الأساسي؛ هو إسقاط الملكية، ومقاومة أرباب الأموال، معللة ذلك بأنه ما دامت اليد مطلقة للأفراد في تملك ما يختارونه من الأراضي والمباني، نشأ من ذلك التزاحم والتنافس، وآل الأمر إلى تنازع وتخاصم، وبسط الأغنياء نفوذهم المالي على الضعفاء المعوزين، فأصبحوا لهم عبيدا وخولا، لافتقارهم إلى ما بأيديهم، وحكم الاضطرار عليهم بالاستعباد.

وما معالجة هذا الداء المهلك، وإصلاح الحالة الاجتماعية، إلا بإبطال إطلاق التملك والإمعان في الثروة، وجمع المال كله ووضعه تحت نظر الحكومة، ثم هي توزع ذلك على الأمة، وتعطي كل فرد ما يستحقه على قدر عمله وكفايته، وتقسمه قسمة عادلة دون حيف ولا جور..الخ

هذا ما يعلّلون به مذهبهم، وهذا في طورها الأول، أما الطور الثاني، وهو ما تنحو له الشيوعية، ففيه محاربة الدِّين ومعاداة رجاله، والتدين بالإلحاد. كما فيه أيضا محاربة الأسرة والعائلة، إذ صارت الشيوعية تعد الزواج مهزلة من المهازل، إذ تراه من دواعي مساعدة أهل الأموال، نظرا لما فيه من روابط، ورغبة في الغنى والتوريث، وهذا ما يناقض مذهب الشيوعية، الذي يرمي إلى أن يكون الإنسان مجرد آلة تملكها الحكومة.

ثم إن هذا المذهب الاشتراكي لم يكن فيما سبق معروفا إلا منذ نحو المائة سنة، أحدثه رجل ألماني اسمه "كارل ماركس". ولكن ربما قال أهل التاريخ من أهل أوربا أن إدراك أول أصوله كان معروفا عند بعض رؤساء الديانة النصرانية، ونسبوا ذلك للبابا جيروم، المتوفى سنة 420 مسيحية، إذ قال بحذف الملكية. ولكنها فكرة، على ما قيل، لم تطبَّق بالفعل.

## ظهور مذهب "مزدك" في الدولة الفارسية
## وهو نوع من الشيوعية

قلت: [وما سبق ذكره]هو جهل بتاريخ العالم؛ فقد ذكر المؤرخون من أهل الإسلام، أن هذا المذهب انتشر في الدولة الفارسية أيام تملك الملك قباذ فيهم، إذ ظهر فيها الرجل المسمى مزدك الزنديق، وأسس مذهبه الذي يدعو فيه الناس إلى ترك المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان سبب أكثر ذلك إنما يقع بسبب الأملاك والأموال والنساء؛ سوَّى بين الناس في الأموال والأملاك، والنساء والعبيد والإماء، حتى لا يكون لأحد على أحد فضل في شيء البتَّة، قال ابن الأثير:

{فكثر أتباعه من السفلة والأغتام، فصاروا عشرات ألوف، فكان مزدك يأخذ امرأة هذا فيسلمها إلى الآخر، وكذا في الأموال والعبيد والإماء، وغيرها من الضياع والعقار، فاستولى وعظم شأنه، وتبعه الملك قباذ} هـ [الكامل لابن الأثير :182/1].

فتأسس من ذلك؛ المذهب المزدكي، الذي قام في وجهه عموم الناس ورؤساؤهم، واشتعلت نار الفتنة في الدولة الفارسية وعمَّت الأطراف، بسبب إنقياد قباذ لمزدك، واتباعه لكل ما أسسه ودعا إليه، ولم يقتصر قباذ المذكور على تأسيس هذا المذهب في وطن فارس، بل حاول إذاعته في أرض العرب، وذلك أنه دعا المنذر بن ماء

السماء، وكان أميرا على الحيرة ونواحيها، إلى إتباع ما يدعو إليه مزدك، فأبى. فدعا الحارث بن عمرو الكندي فأجابه إلى ذلك، فسدد له ملكه، وطرد المنذر عن مملكته.

ورغم تضجر الناس من هذه الحالة التي تبعها ملكهم قباذ، وسعيهم في خلعه وتمليك أخيه، لم يكن ذلك حاسما لداء المزدكية، وبقي حالهم متصلا إلى أن ملك ولده كسرى أنوشروان، فكان أهم مقاصده القضاء على المزدكية، وكان من تصريحه، لما استقل على كرسي المملكة، أن قال لخواصه: إني عاهدت الله إن صار الملك إليّ، على أمرين: أحدهما أن أعيد آل المنذر إلى الحيرة، أي لأنه امتنع من مساعدة قباذ على اتباع مذهب مزدك، وأطرد الحارث عنها، لأنه اتبع ما دعاه إليه قباذ من اتباع مزدك. الثاني قتل المزدكية. قال ابن الأثير:

{ ثم إن أنوشروان أذن للناس إذنا عاماً، ودخل عليه مزدك، ثم دخل عليه المنذر، فقال أنوشروان: إني كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله عز وجل جمعهما إلي. فقال مزدك: وما هما أيها الملك؟ قال: تمنيت أن أملك وأستعمل هذا الرجل الشريف - يعني المنذر - وأن أقتل هذه الزنادقة. فقال مزدك: أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم؟ }. قال ابن الأثير:

{وأمر به، أي بمزدك، فقتل وصلب، وقتل منهم ما بين جازر إلى النهروان إلى المدائن في ضحوة واحدة؛ مائة ألف زنديق وصلبهم"، قال: "وطلب أنوشروان الحارث بن عمرو، فبلغه ذلك وهو بالأنبار، فخرج هاربا في صحابته وماله وولده}هـ[الكامل لابن الأثير:193/1].

وهناك تفاصيل أخرى في ذيول قضية المزدكية، أنظرها في "تاريخ" ابن جرير، و"مختصر" أبي الفداء.

فبان لك بهذا أن هذا المذهب الاشتراكي المزدكي، قد انتشر بأرض فارس انتشارًا واسعًا حتى دانت به الحكومة، وتقلده الملك، ورمى بشرره حتى لأرض العرب، إذ تبعه إذ ذاك أميرهم الحارث بن عمرو الكندي، وهو أمير الحيرة ونواحيها.

وعليه؛ فلم يكن هذا المذهب فكرة ساكنة في الذهن، بل برزت للخارج، وتكونت منها قوة طمًا تيارها، وكاد أن يعمّ إعصارها، لولا قيام الملك أنوشروان برد هجومها، وتحكيم سيفه الصارم في رقاب زعمائها ورؤسائها.

أمـا الشهرستاني؛ فإنه ذكر الفرقة في جملة الفرق المجوسية من أصحاب الإثنين والمانوية، فقال:

{المزدكية: هو مزدك الذي ظهر في أيام قباذ والد أنوشروان، ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه، واطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه، فوجده فقتله}هـ[الملل والنحل: 69/2].

وفي أواخر أيام أنوشروان، لمعت تباشير النور المحمدي، إذ ولد صلى الله عليه وسلم، وصارت آيات البعثة تهدد مملكة فارس، كما تقرر في محله .

وعليه، فظهور هذا المذهب كان قرب البعثة، وهو يلاقي التاريخ الذي نقله صاحب "دائرة معارف القرن العشرين"، إذ قال، بعد ما ذكر أن ذيوع هذا المذهب الاشتراكي ما حدث إلا في القرن الثامن عشر، قال:

{ ولكن مما حفظه التاريخ لآباء الكنيسة المسيحية من الأقوال المأثورة، يثبت أنهم أدركوا مذهب الاشتراكيين قبل وجوده، وقالوا بأول أصل من أصوله، وهو حذف الملكية، فقد قال سان جيروم، بابا النصارى، المتوفى سنة420 م: الغنى نتيجة من نتائج اللصوصية دائما، فإن لم يكن جناها المالك الحالي، فقد جناها أسلافه} هـ [382/5].

إلا أن التاريخ الإسلامي ـ كما سمعت ـ يثبت وجود هذا المذهب وظهوره، وتمكنه في المملكة الفارسية وانتشاره، لا تردده في الأفكار ومروره.

أما ما يحاوله هؤلاء المتبعون أهواءهم بغير حق، ويرون، وهم ينتمون للإسلام، أن الاشتراكية من ضمن هذا الدِّين، ويتَّبعون ما تشابه من الأدلة، ابتغاء فتنة العامة، ورغبة في التضليل، وربما تمسكوا في رأيهم الفائل، وادعائهم الباطل، بقضية الصحابي الجليل، الزاهد في عرض الدنيا الفاني، الذي كان من طريقه أن لا يشاري ولا يماري، السيد جندب، أبي ذر الغفاري، وهو تمسك بحبل واه، وتعلق بسبب منقطع.

### [حقيقة مذهب أبي ذر، ودسائس أعداء الإسلام لإثارة الفتنة]

وذلك أن هذا السيد لم يقل بإبطال الملكية، ولا بإخراج الناس من ديارهم وعقارهم، ومنعهم من تصرفاتهم وابتغاء مطلوبهم، من بيعهم وشرائهم، وإنما كان من

مذهبه الزهد في هذا العرض البائد، وعدم الادخار، والتصدق بالفاضل من المال على أهل الاحتياج، وفي الحقيقة انه كان على قدم سيدنا عيسى، عليه السلام، كما أخبر بذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم. ففي " الاستيعاب"، روى عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "في أمتي أبو ذر؛ شبيه بعيسى بن مريم في زهده".

ولكنه، رضي الله عنه، أفرط في الموضوع، حيث كان يرى إلزام الناس باتباع مذهبه، ولكن الخليفة سيدنا عثمان ردّه عن فكره فيما يراه، ومنعه من إذاعة فتواه، لمنافاتها لما اقتضته حكمة الشريعة الغراء.

وقضيته في أصلها هي من دسائس أعداء الإسلام، وهو عبد الله بن سبأ، الذي يقال له ابن السوداء، وهو يهودي كان يتظاهر بالإسلام، ولا يبرح يكيد للإسلام. وقد ذكر أبو محمد ابن حزم في كتابه"الفِصل"، عبد الله هذا، وعبر عنه بقوله:{المعروف بابن السوداء، اليهودي الحميري، لعنه الله. قال: فنهج لطائفة رذلة، كانوا يتشيَّعون في علي، رضي الله عنه، أن يقولوا بإلهية علي} هـ.[الفصل لابن حزم: 164/1].

[ما قاله أهل التاريخ في قضية أبي ذر]

ولأهمية قضية أبي ذر، رضي الله عنه، في هذا العصر، ننقل ما رواه ثقات المؤرخين فيها، على ما فيها من طول، ليتمسك بالحقيقة من يتبع سبيل المؤمنين، ويندفع من يجادل في ذلك بغير حق من الجاهلين المضلين، فقد ذكرها ابن جرير وابن الأثير وابن خلدون، وغيرهم، ولفظ ابن الأثير:

{وفي هذه السنة ـ يعني سنة ثلاثين من الهجرة ـ كان ما ذكر في أمر أبي ذر، وإشخاص معاوية إياه. وقد ذكر في سبب ذلك أمور كثيرة، من سبٍّ معاوية إياه، وتهديده بالقتل، وحمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء، ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع، لا يصحّ النقل به. ولو صحّ، لكان ينبغي أن يعتذر عن عثمان؛ فإن للإمام أن يؤدب رعيته، وغير ذلك من الأعذار، لا أن يجعل ذلك سببا للطعن عليه، كرهت ذكرها. وأما العاذرون فإنهم قالوا: لما ورد ابن السوداء ـ يعني عبد الله بن سبا ـ إلى الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر: ألا تعجب من معاوية؛ يقول: المال مال الله، ألا إن كل شيء لله؟ كأنه يريد أن يحتجنه

دون الناس، ويمحو اسم المسلمين. فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله الساعة؟ قال: يرحمك الله يا أبا ذر. ألسنا عباد الله، والمال ماله؟ قال: فلا تقله. قال: سأقول مال المسلمين. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له مثل ذلك، فقال: أظنك يهوديا. فأتى عبادة بن الصامت، فتعلق به عبادة، وأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر}.

{ وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته، أو شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لكريم، ويأخذ بظاهر القرآن:الذّينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليم). فكان يقوم بالشام ويقول: يا معشر الأغنياء واسُوا الفقراء، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، بمكاوٍ من نار تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقونه منهم، فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جنح الليل فأنفقها. فلما صلى معاوية الصبح، دعا رسوله الذي أرسله إليه، فقال: اذهب إلى أبي ذر، فقل له: أنقذ جسدي من عذاب معاوية، فإنه أرسلني إلى غيرك، وإني أخطأت بك. ففعل ذلك، فقال له أبو ذر: يا بني، قل له والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها}.

{ فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله، كتب إلى عثمان: إن أبا ذر قد ضيق عليَّ، وقد كان كذا وكذا للذي يقوله للفقراء}.

{فكتب إليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها، ولم يبق إلا أن تثبتَ، فلا تنكأ القرح، وجهز أبا ذر إليَّ، وابعث معه دليلا، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت}.

{وبعث إليه بأبي ذر، فلما قدم المدينة، ورأى المجالس في أصل جبل سلع، قال: بشر أهل المدينة بغارة شعواء، وحرب مذكار. ودخل على عثمان فقال له: ما لأهل الشام يشتكون ذرب لسانك؟ فأخبره. فقال: يا أبا ذر: عليَّ أن أقضي ما عليَّ، وأن أدعو الرعّية إلى الاجتهاد والاقتصاد. وما عليَّ أن أجبرهم على الزهد. فقال أبو ذر: لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف، ويحسنوا إلى الجيران والإخوان، ويصلوا القرابات. فقال كعب الأحبار، وكان حاضرا: من أدّى الفريضة، فقد قضى ما عليه. فضربه أبو ذر فشجَّه،

وقال له: يا بن اليهودية: ما أنت وما هاهنا؟. فاستوهب عثمان كعبًا شجَّته، فوهبه. فقال أبو ذر لعثمان: تأذن لي في الخروج من المدينة، فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا. فأذن له، فنزل بالربذة، وبنى بها مسجدا، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل(والصِّرمة، بكسر الصاد، القطعة من الإبل ما بين العشرة إلى الأربعين.قاله في المصباح) وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه كل يوم عطاءً}هـ [الكامل لابن الأثير55/3].

وجاء ابن خلدون بالقصة مختصرة، فقال:

{ وكان مما أنكروه على عثمان؛ إخراج أبي ذر من الشام ومن المدينة إلى الربذة. وكان الذي دعا إلى ذلك شدة الورع من أبي ذر، وحمله الناس على شدائد الأمور، والزهد في الدنيا، وأنه لا ينبغي لأحد أن يكون عنده أكثر من قوت يومه، ويأخذ بالظاهر في ذم الادخار بكنز الذهب والفضة، وكان ابن سبا يأتيه فيغريه بمعاوية، ويعيب قوله: المال مال الله، ويوهم أن في ذلك احتجانه للمال، وصرفه على المسلمين، حتى عتب أبو ذر معاوية، فاستعتب له، وقال: سأقول مال المسلمين. وأتى ابن سبا إلى أبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، بمثل ذلك، فدفعوه. وجاء به عبادة إلى معاوية، وقال: هذا الذي بعث عليك أبا ذر. ولما كثر ذلك على معاوية شكاه إلى عثمان، فاستقدمه وقال له: ما لأهل الشام يشكون منك؟ فأخبره. فقال: يا أبا ذر، لا يمكن حمل الناس على الزهد، وإنما على أن أقضي بينهم بحكم الله، وأرغبهم في الاقتصاد. فقال أبو ذر: لا نرضى من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف، ويحسنوا للجيران والإخوان، ويصلوا القرابة. فقال له كعب الأحبار: من أدى الفريضة، فقد قضى ما عليه. فضربه أبو ذر فشجه، وقال: يا بن اليهودية ما أنت وهذا. فاستوهب عثمان من كعب شجته، فوهبه. ثم استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة، وقال: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا. فأذن له ونزل الربذة، وبنى بها مسجدا، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقا، وكان يتعاهد المدينة} هـ [العبر: 139/2].

وبهذه النقول، بطولها، يتضح لك ما جرى في قضية أبي ذر بعمومها وخصوصها، ويتبين لك ما كان يرمي إليه ذاك الصحابي الجليل أبو ذر، وما أرشده إليه أحد الأئمة الراشدين، سيدنا عثمان، رضي الله عنهما. فالسيد أبو ذر ذهب إلى ما هو الأفضل

والأولى، والتجرد عن الدنيا الفانية، والتوجه إلى عبادة العلي الأعلى، وبعد قيامه في نفسه بهذا العمل البار، وكان لا يؤمن المؤمن إيمانا كاملا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، كان يود أن لو ترك الناس الإقبال على جمع عرض هذه الدنيا واقتنائه، وإن أتاه الله من فضله ببيضائه وصفرائه، فلينفقه على مستحقه من ضعفائه وفقرائه، ولا يأخذ من ذلك إلا ما يكفيه لأهله وأقربائه. ويشدد في أمر الادخار، والتنافس في التكاثر الملهي عن ذكر الواحد القهار، ويرى ان الاشتغال بذلك آيل إلى البوار، وسائق بفتنته إلى النار. وهو الأمر الذي كان يخشاه، صلى الله عليه وسلم، على أمته، إذ قال، كما في"صحيح"البخاري ومسلم:"فوا لله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم"

## [ظهور بوادر الثراء
## أيام الخليفة الثالث، بسبب اتساع مملكة الإسلام]

ولاسيما وقد رأى السيد أبو ذر لوائح البسط والرفاهية قد ظهرت، وعلامات التنافس في زهرة الدنيا قد وضحت، وبوادر الهلاك قد أقبلت، ورؤوس التقاطع والتدابر والتخالف قد أطلت، إذ في هذه الأيام، اتسعت مملكة الإسلام، وانهالت على الرعية أصناف الأموال، وأثرى الناس بعد الإقتار، واستغنوا بعد الافتقار، وأدركوا ما كان يعدهم به الرسول، صلى الله عليه وسلم، بما يفتح الله عليهم من الدنيا، ويؤتيهم من زهرتها وزينتها، وأنهم سيستولون على كنوز كسرى وقيصر، وأنهم سيغتنمونها، كما ورد ذلك في الصحيح، إذ في أيام عثمان، لبس الناس حلة جديدة من دنياهم، وأخذوا يتمتعون بما آتاهم الله من فضله وأولاهم، إذ اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والمزارع، وبنوا الدور والقصور، وتطاولوا في الأبنية ورفعوا سمكها، وتوفر لديهم من المال ما لم يتوفر عند متقدميهم. قال في "مروج الذهب" :

{وفي أيام عثمان، اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور. منهم الزبير بن العوام؛ بنى داره بالبصرة ـ وهي المعروفة في هذا الوقت وهو سنة إثنين وثلاثين وثلاثمائة، تنزلها التجار وأرباب الأموال، وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ـ وابتنى

أيضا دورا بمصر والكوفة والأسكندرية. وما ذكر من دوره وضياعه، فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس، وألف عبد، وألف أمة، وخططا بحيث ذكرنا من الأمصار}.

{وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي؛ ابتنى داره بالكوفة، المشهورة به هذا الوقت، المعروفة بالكناس بدار الطلحتين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية سراة أكثر مما ذكرنا، وشيد داره بالمدينة، وبناها بالآجر والجص والساج}.

{ وكذلك عبد الرحمان بن عوف الزهري، ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم. وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله، أربعة وثمانين ألفا}.

{وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شرفات}.

{ وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار}.

{وابتنى المقداد داره بالمدينة، في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة، وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن}.

{ومات يعلى بن أمية، وخلف خمسمائة ألف دينار، وديونا على الناس، وعقارات، وغير ذلك، ما قيمته مائة ألف دينار}.

قال المسعودي:{وهذا باب يتسع ذكره، ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه}هـ [مروج الذهب: 261/2 ، بهامش نفح الطيب].

فهذه المظاهر كلها عند أبي ذر غير محمودة، ولا هي ضالة الزهد المنشودة، بل هي عنده مما ينكره القرآن، ويوعد صاحبه بالنيران، وينطبق عليه قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ) الخ، مع ما كان من ذلك الإغراء العدائي الذي كان يقوم به المتشيع اليهودي، عبد الله بن سبأ، إرادة الفتنة، وابتغاء التفريق بين الأمة، وإيقاعها في الفتنة المدلهمة، وتقويضا للخلافة العثمانية. وكان أبو ذر يسعى جهده جبر الأغنياء على عدم الادخار، وإلزامهم بمواصلة أهل الحاجة والافتقار.

ولكن الخليفة الثالث، رضي الله عنه، ردَّ سعي أبي ذر عن طريق الجبر، وبين له ما تقتضيه الشريعة الغراء من عدم جواز إجبار الناس على الزهد، إذ قال له، كما سبق، يا أبا ذر: لا يمكن حمل الناس على الزهد، وإنما على أن أقضي بينهم بحكم الله، وأرغبهم في الاقتصاد.

[ ردُّ ما ينسبه البعض لأبي ذر
من منع التملك وسلب الناس من أموالهم]

أما من يحاول أن ينسب إلى السيد أبي ذر؛ منع التملك، وسلب الناس من أموالهم، وتفريقها جبرا بين الفقراء والمعوزين، إما من تلقاء أنفسهم، أو بواسطة الأمراء، فهذا لا يقوله أحد من أهل الإسلام، وقد أخطأ في ذلك بعض أهل العصر فنسبوا إليه ذلك، كما فعل ذلك الخضري في "محاضراته"، إذ قال: {وكان هذا الرأي الاشتراكي متمكنا من أبي ذر} هـ [محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: 56/2]؛ إذ إبطال الملكية، وعدم الاختصاص، يؤول إلى إبطال كثير من نصوص الشريعة التي بيَّنت أحكام البيع والهبة والميراث وغيرها، وإعراض عن الآيات والأحاديث التي فيها فسحة الأرزاق، من الواحد الخلاق، كما قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، كما أنه إذا نُزع المال من الأغنياء، فأين فريضة الزكاة. وأين قول الله تعالى: (وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً)، ومما قيل في قدر القنطار أنه ألف دينار، وقيل سبعة آلاف دينار. أو أين قوله تعالى:( زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ). قال سيدنا عمر في الآية، كما في "صحصح" البخاري: إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما أتيتنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه. ومعنى كلام سيدنا عمر، رضي الله عنه، أن المال من الذهب والفضة مما حببه الله للإنسان، وجبله على حبه، كما قال تعالى:( وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ)أي المال( لَشَدِيدٌ)، وقال تعالى: ( وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا).

لكن، من الناس من جارى طبيعته، واستمر على متابعة هواه، وانهمك في إنفاق ماله فيما لا يُحمد من الشهوات النفسانية. وصاحب هذا المال مذموم.

ومن الناس من راعى فيه الأمر والنهي، ووقف عند ما حُدَّ له في ذلك بمجاهدة نفسه بتوفيق الله تعالى، فهذا لم يتناوله الذم. بل هو نعم المعونة، كما في حديث البخاري: "وإن هذا المال حلوة. من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو. ومن أخذه بغير حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع".[صحيح البخاري:97/4]. قال الحافظ ابن حجر:

{ومنهم من ارتقى عن ذلك، فزهد فيه بعد أن قدر عليه، وأعرض عنه مع إقباله عليه، وتمكنه منه، فهذا هو المقام المحمود، وإلى ذلك الإشارة بقول عمر: اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه.} هـ[فتح الباري:203/11].

## [مدح المال والأمر بصيانته وحفظه]

ولا يمكن لعالم بما وردت به هذه الشريعة من مدح المال، والأمر بصيانته وحفظه، واستبداد المرء به، وترصده لنوائب دهره، فقد قال تعالى:( وَلاَ تُؤتُوا السُّفَهَاءَ أمْوَالَكُم التي جَعَلَ اللهُ لكُم قِيَما)، وقال:(وَلاَتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)، وصحّ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه نهى عن إضاعة المال. ونهى سعدا، لما عاده وهو مريض، وكان سعد يريد أن يتصدق بجميع ماله، أن لا يفعل، وقال له:"لأن تترك ورثتك أغنياء، خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس". وقال: "ما نفعني مال كمال أبي بكر". قال البوصيري في حق سيدنا أبي بكر:

أنفقَ المالَ في رضَاكَ ولا مَــنٌّ وأعطى جَمّاً ولا إكدَاءُ

وقال، صلى الله عليه وسلم، لعمرو بن العاص:"إني أريد أن أبعثك على جيش؛ فيسلمك الله ويغنمك. وأرغب لك من المال رغبة صالحة". فقال عمرو: يا رسول الله: ما أسلمت من أجل المال، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام. فقال:"يا عمرو، ونعم المال الصالح، للرجل الصالح". وقال لأنس: "اللهم أكثر ماله وولده." إلخ

[أقول]:لا يُمكن لعالم بهذا أن يقول بمنع اكتساب المال، وحفظه لنوائب الدهر، وحاجات العيال، والنفقات الضرورية في الصباح والمساء، ولاسيما من المُعيل الذي يتطلبه في النفقة من لا يقبل منه اعتذار، ولا يستعين في نظرته باصطبار. وهنا إنْ أعْوزَ المطلوب، ضاقت الأرض عليه بما رحبت، وكاد، إن لم يؤيد من الله بما بيده، أن يختل في

عقيدته، وكان حاله كما قال، عليه السلام، كما في "الحلية" و"الشعب" للبيهقي: "كاد الفقر أن يكون كفرا". وهو المستفاد منه في حديث الطبراني:"أستعيذ بالله من الفقر والعيلة".

بل إن أرباب القلوب من أهل الله، وأصحاب الصفاء من الصوفية، والمتوكلين عليه تعالى، يرون أن المدار على صفاء الضمير، وامتلاء القلب بحب العلي القدير، وأن كل ما أصلح القلوب، فهو عندهم من المُرغّب المطلوب. وقد قيل لأحد هؤلاء الرجال، وهو أبو الحسين ابن سمعون الواعظ: أيها الشيخ. إنك تدعو الناس إلى الزهد في الدنيا، والترك لها، وتلبس أحسن الثياب، وتأكل أطيب الطعام، فكيف هذا؟! فقال: كل ما يصلحك لله فافعله. إذا صلح حالك مع الله بلبس لين الثياب، وأكل أطيب الطعام؛ فلا يضرك. هـ بنقل الخطيب في "تاريخ"بغداد [275/1].

وفي هذا المعنى، قال في "الإحياء"، في ترك الادخار، في باب التوكل:

{فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر؛ فالادخار له أولى، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته، وكان لا يتفرغ قلبه إلا به، فذلك له أولى، لأن المقصود إصلاح القلب، ليتجرد لذكر الله. ورب شخص يشغله وجود المال، ورب شخص يشغله عدمه. والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل؛ وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة، لا وجودها ولا عدمها. ولذلك بُعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى أصناف الخلق، وفيهم التجار والمحترفون، وأهل الحرف والصناعات، فلم يأمر التاجر بترك تجارته، ولا المحترف بترك حرفته، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما، بل دعا الكل إلى الله تعالى، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى. وعمدة الاشتغال بالله عز وجل، القلب؛ فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته، كما أن صواب القوي ترك الادخار. وهذا كله حكم المنفرد. فأما المُعيل، فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله} هـ [238/4].

قلت: وهذا في زمان كانت تعم فيه الرأفة والرحمة، وتكثر فيه صلات ما أمر الله به أن يوصل، وسد حاجات المحتاج، والقناعة في الأهل والأولاد. وأما في عصرنا هذا الذي قست فيه القلوب، وغلب فيه الحرص، وتقطعت في التكالب على الدنيا الأرحام، وأصبح

التفاخر بالتكاثر بالذخائر والأموال، وانعدمت مراعاة أهل الحاجة والاضطرار، وصارت حرمة الإنسان منوطة بغناه، وذله بين الناس حليف التجائه إليهم.

وإلى هذا الزمان يشير ما ورد في حديث رواه الطبراني:"إذا كان في آخر الزمان، لا بد للناس فيها من الدراهم والدنانير، يقيم الرجل بها دينه ودنياه".

## [حكم ادخار المال في العصر الحاضر]

وعليه؛ فادّخار المال في هذا العصر العصيب، وجمعه لأجل نفقته ونفقة عياله، وصيانة وجهه عن السؤال، وحفظ جاهه من الابتذال، هو من الأمر المتعين، على كل مؤمن متدين. ومن أدعية إمام الزاهدين، وعمدة العابدين، سيدنا علي بن أبي طالب: {اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وأفتن بذمّ من منعني، وأنت من وراء ذلك وليّ الإعطاء والمنع. إنك على كل شيء قدير} هـ [نهج البلاغة: ص481].

والخلاصة، كما قال أبو الفرج ابن الجوزي: {أن من اقتصر على كسب البُلغة من حلّها، فذلك أمر لابد منه. وأما من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده. فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة؛ فبئس المقصود. وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح؛ أثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات}.

{وقد كانت نيّات كثير من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، في جمع المال، سليمة لحسن مقاصدهم لجمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيادته. وبإسناد عن ابن عمر، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أقطع الزبير حَضْرَ فرسه - أي عدو فرسه - بأرض يقال لها ثرثر، فأجرى فرسه حتى قام، ثم رمى سوطه فقال: "أعطوه حيث بلغ السوط". وكان سعد ابن عبادة يدعو فيقول: اللهم وسع عليّ.} قال:

{وأبلغ من هذا أن يعقوب، عليه السلام، لما قال بنوه: (وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ)، مال إلى هذا، وأرسل ابنه بنيامين معهم، وأن شعيبا طمع في زيادة ما يناله فقال:( فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ)، وأن أيوب، عليه السلام، لما عُوفي نُثر عليه رجل جرادٍ من ذهب - أي

جراد كثير من ذهب ـ فأخذ يحثو في ثوبه يستكثر منه، فقيل له: أمَا شبعتَ؟ قال: يا رب من يشبع من فضلك؟!. وهذا أمر مركوز في الطباع. فإذا قصد به الخير، كان خيرا محضا}هـ[تلبيس إبليس: ص178].

هذا ما يتعلق بجمع المال النقدي من الذهب والفضة، وادّخاره.

## [حكم تملك العقار وإقطاع السلطان، وموارد بيت المال]

أما تملك الأراضي من العقار والضياع، والديار والرباع؛ فلا محذور فيه أيضا في الشريعة الغراء، إن كان من وجهه المشروع، من شراء أو هبة أو إرث أو إحياء موات، أو إقطاع سلطان، حيث يسوغ له ذلك. فقد أقطع النبي، صلى الله عليه وسلم، الزبير أرضا بخيبر فيها شجر ونخيل. وتقدم أنه أقطعه حضْرَ فرسه في أرض. وأقطع بلال بن الحارث المزني، العقيق أجمع. وفي رواية أقطعه معادن القبلية، بفتح القاف والباء الموحدة، وكسر اللام.

واعلم أن إقطاع السلطان مختصّ بما جاز فيه تصرفه، ونفذت فيه أوامره. ولا يصحّ فيما تعين فيه مالكه، وتميز مستحقه.

أما الأرض الموات، فهو ما سلم عن الاختصاص. وهذه إن كانت بعيدة من العمران، فهي لمن أحياها. ولا تفتقر لأذن الحكومة في المشهور من مذهب مالك. وأما القريب، فإنه يفتقر إلى الإذن. ومذهب الشافعي أن الإحياء لا يفتقر إلى إذن مطلقا. وقال أبو حنيفة لا يجوز إحياؤها، إلا بإذن الإمام، لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "ليس لأحد إلا ما طابت به نفس إمامه". قال الماوردي:{ ومن قول النبي، صلى الله عليه وسلم: " من أحيا أرضا مواتا فهي له".؛ دليل على أن مِلْك الموات معتبر بالإحياء، دون إذن الإمام}هـ[الأحكام السلطانية: 158]. وخير الأمور الوسط، وهو مذهب مالك.

أما الأراضي المعلومة للحكومة، أي التي تنسب لبيت المال، فالأرض التي أخذت عنوة، أو كانت من الموات، أو من أراضي العمال التي اغتصبوها ولم يعرف مالكها؛ فهذه

تعد من مال بيت المال. فللإمام أن يوزعها بحسب الاجتهاد، وبمقتضى المصلحة العامة، وهي إحدى جهات ما يشمله بيت المال.

[اهتمام علماء صدر الإسلام بتنظيم بيت المال]

وقد نظم جهات بيت المال، الإمام ابن جماعة الشافعي، إذ قال:

جهاتُ أنواع بيتِ المَال سبعتها      في بَيتِ شِعرٍ طـواهَـا كـاتبُه
خُمُسٌ وفَيْءٌ خَراجٌ جِزيَةٌ عُشُرٌ      وإرثٌ فرض، ومالٌ ضَلَّ صَاحِبُه

وجعل أبو يوسف في كتاب "الخراج"؛ موارد بيت المال في ثلاثة أقسام:

الأول: خمس الغنائم.

والثاني: الخراج، وهو شامل عنده لثلاثة أشياء: الأول: وظيفة الأرض الخراجية. الثاني: جزية أهل الذمة. الثالث: ما يأخذه العاشر ممن يمرّ عليه من تجار أهل الذمة، والمستأمنين من أهل الحرب.

والثالث: من موارد بيت المال الصدقات، وهي الزكوات التي أخذها الإمام من أرباب الحرث والماشية.[محاضرات الخضري عن الدولة العباسية: ص140].

وترجم أبو عبيد في كتاب "الأموال"، لما تتولاه الحكومة من المداخيل والأموال فقال:{صنوف الأموال التي يليها الأئمة للرعية، وأصولها في الكتاب والسنة}؛ سهم النبي، صلى الله عليه وسلم، في فدك، صَفِيّ المغنم، خمس الخمس بعد ما تقسم الغنيمة وتخمس.[ص:7]. وقال بعد ذلك:

{كتاب الفيء، ووجوهه، وسبله. باب الجزية، والسنة في قبولها، وهي من الفيء}. ثم صار يفصل ذلك، ويأتي بالشواهد على ذلك في فصول وأبواب.[الأموال ص:18].

كما أن أبا يوسف فصّل في "الخراج" تفصيلا سهلا، وذكر الموارد والمصادر، وأبدى رأيه في بعض مسائلها. وهذا الكتاب هو المشهور بكتاب الخراج، الذي كثيرا ما ينقل نصوصه الفقهاء وغيرهم، وقد أعجب به نبهاء الباحثين من أهل العصر، إذ هو من

مفاخر الدولة العباسية، أيام الخليفة العظيم، هارون الرشيد، وفي ذلك يقول صاحب "محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية " تحت ترجمة {أثرٌ جليل من عهد الرشيد}:

{ بين أيدينا أثر من أجلّ الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني، وهو كتاب "الخراج"، للفقيه أبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، صاحب الإمام أبي حنيفة، النعمان بن ثابت}هـ[محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية: ص138].

وخلاصة هذا الكتاب؛ هو بيان مداخيل الدولة ومواردها، وصرفها بعد تحصيلها على الوجه الموافق للشريعة، داخلا وخارجا، حسبما سنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون المهديون من بعده، وكان هذا الكتاب جوابا عن كتاب الخليفة الرشيد، الذي طلب فيه من قاضيه أبي يوسف أن يبين له حكم الشريعة الغراء في نظام بيت مال الأمة، حتى يكون بيت المال قائما على أساس شرعي في موارده ومصارفه، فجاء الكتاب كما يريد هذا الخليفة العادل.

وبهذا تعلم أن صدر هذه الأمة الإسلامية تصدى أكابر علمائها لبيان الأموال التي للدولة التصرف فيها بمقتضى ما تقتضيه المصالح العامة، وبينوا جهات مواردها ومصاريفها؛ فقد ألّف في القرن الثاني الفقيه الشهير أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة، كتاب "الخراج". وألّف في القرن الثالث الإمام أبو عبيد، الذي قيل فيه إنه جبل علم نُفخ فيه الروح، كتاب "الأموال".

وبهذين الكتابين، تعلم أن الحكومة، أو قل الخليفة، أو السلطان، لا دخل له في المال الخاص بأهله، إلا ما كان من أمر الزكوات، فإنه يتولى قبض زكاة الظاهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، كالزرع والثمار والمواشي. أما الباطنة، وهو ما يمكن إخفاؤه من الذهب والفضة، فإن أربابها أحق بتفريقها، إلا أن يتطوعوا بدفعها للإمام، فله قبولها. أما ما سوى ذلك فلا شركة فيه، لا للحكومة ولا للفقراء. وإنما للفقراء مشاركة الأغنياء في الحق المعلوم المفروض المقدر في أموالهم، كما قال تعالى:(وَفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُوم)، وفي الحديث الصحيح، لما وجه النبي، صلى الله عليه وسلم، معاذاً إلى

اليمن، قال له:" فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، وخذ من أغنيائهم، فرد على فقرائهم". وما بعد هذا الحق من حق، إذ ليس في المال حق سوى الزكاة.

ومن هنا ثار الخلاف بين السيدين أبي ذر ومعاوية، حيث كان الأول يرى أن كل مال فضل عن قوت الرجل وسدَّ خلته، ولو أديت زكاته، فإنه يجب صرفه إلى الفقراء، وإنفاقه في سبيل الله، وإلا كان كنزا مذموما يشمله وعيد الآية: (والذِين يكْنِزُونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ) الخ.

والثاني يرى أن المال الذي أدّيَت زكاته، ولو كان مثل أحدٍ ذهبا أو فضة، فإنه ليس بكنز، كما قال ابن عمر، رضي الله عنه: ما أبالي لو كان لي مثل أحُدٍ ذهبا أعلم عدده، أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى. وفي الحديث: "ما أديت زكاته، وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز". وفي لفظ: "إذا أديت زكاة مالك، فقد أذهبت كنزه". [والجمع بين] ما ورد عن ابن عمر [وبين ما ورد عن أبي ذر]؛ أن يحمل كلام أبي ذر على مال تحت يد الشخص لغيره، فلا يجب أن يحبسه عنه، أو يكون له، لكنه ممن يُرجى فضله، وتطلب عائدته، كالإمام الأعظم، فلا يجب أن يدخر عن المحتاجين من رعيته شيئا. ويحمل حديث ابن عمر على مال يملكه، قد أدى زكاته، فهو يحب أن يكون عنده ليصل به قرابته، ويستغني به عن مسألة الناس. قاله في " الفتح"[175/3].

قال ابن عبد البر:

{وردت عن أبي ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش، فهو كنز يُذم فاعله، وأن آية الوعيد نزلت في ذلك، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم، وحملوا الوعيد على مانعي الزكاة، وأصحّ ما تمسّكُوا به حديث طلحة وغيره، في قصة الأعرابي، حيث قال:هل عليّ غيرها؟ قال:"لا؛إلا أن تَطوَّع"}. هـ [بنقل فتح الباري: 175/3].

ووجه أخذ سيدنا أبي ذر لطريق التشديد في الادخار، هو ما أشار إليه في "المسند"، ونقله الحافظ في "الفتح" عن "المسند"، من طريق علي بن شداد بن أوس، عن أبيه، قال: {كان أبو ذر ربما سمع الحديث من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيه

الشدة. ثم يخرج إلى قومه، ثم يرخص فيه، صلى الله عليه وسلم، فلا يسمع الرخصة، ويتعلق بالأمر الأول} هـ. [175/3].

وهو حسن جداً، به يندفع ما يُتوهَّم من الخلاف بين أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا سيما في هذه المسألة التي تخالف فيها صحابيان جليلان، زاهدان، عابدان حريصان أشدّ الحرص على متابعة السنة وعدم مخالفتها؛ وهما سيدنا عبد الله بن عمر، وسيدنا أبو ذر، رضي الله عنهما.

----

هذا حكم الأموال العقارية وغيرها الخاصة بأربابها، والتي هي من أموال الدولة، وهي أموال بيت مال المسلمين، المشتركة بينهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم، وتنسب للدولة من حيث إن رئيس الدولة، من خليفة وأمير وملك، هو الجامع لها، والقائم عليها، والحافظ لها، والموزع لها على مختلف المصالح العامة، من غير استبداد ولا أثرة.

ومن الاستبداد والإيثار؛ كان يخاف الصحابي الجليل سيدنا أبو ذر، حيث كان ينازع عامل الشام، سيدنا معاوية، في تسمية مال بيت المال بمال الله، خوفا من أن يكون ذلك ذريعة إلى تجريد المسلمين من هذا الحق. بل كان يرى أن هذا المال يبقى منسوبا إلى المسلمين، كما سبق، وإن كان لا يخفى على هذا السيد أن الكل لله.

----

### [المال المشترك بين الأمة
### على وجه الانتفاع]

وهناك مال مشترك بين الأمة، ولكن على وجه الانتفاع فقط، وذلك كماء الأودية والأنهار، والعيون الجارية في الأرض المباحة، وكذلك المراعي في أكناف المدائن والقرى، والغابات التي يحتاج إليها الناس، ويشتركون في الحاجة إليها. قال أبو عبيد في كتابه "الأموال"، تحت ترجمة {حمى الأرض ذات الكلإ والماء}، وذكر حديث: "الناس شركاء في الماء والكلإ والنار"، وحديث:"المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتّان "، أو الفُتّان (شك أبو عبيد)، وأحاديث أخر، ما لفظه:

{فقد جاءت الأخبار والسنن مجملة، ولها مواضع متفرقة وأحكام مختلفة.

فأول ذلك ما أباحه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، للناس كافة، وجعلهم فيه أسوة، وهو الماء والكلأ والنار، وذلك أن ينزل القوم في أسفارهم وبواديهم بالأرض فيها النبات الذي أخرجه الله للأنعام، مما لم ينصب فيه أحد بحرث ولا غرس ولا سقي، يقول: فهو لمن سبق إليه، ليس لأحد أن يحتظِرَ منه شيئا دون غيره، ولكن ترعاه أنعامهم ومواشيهم ودوابهم معا، وترد الماء الذي فيه كذلك أيضا. فهذا قوله: "الناس شركاء في الماء والكلإ". وكذلك قوله: " المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء والشجر.} هـ [الأموال: ص294 - 297].

----

[عدالة النظام الإسلامي مستمدة
من الوحي السماوي]

فإذا أحطت علما بما سطرناه، وأمعنت النظر فيما نقلناه وشرحناه، تبين لك أن الشريعة الغراء أعطت لكل ذي حق حقه، وبينت لكل جانب ما استحقه، فأثبتت تملك الأغنياء، وفرضت في أموالهم قدرا معلوما للفقراء، وأشركت الأمة جمعاء في بيوت أموالها، وأناطت القيام بها، والسهر على حفظها وتنميتها، وجعلها في مصارفها، لأمرائها وملوكها ورؤسائها، كما أشركتهم إشراكا آخر في مرافقها من مراعيها ومياهها، وذلك على وجه الانتفاع المقيد بالعدالة والإنصاف.

وعليه، فلم يُبق النظام الإسلامي، المستمد من الوحي السماوي، لدعاة الاشتراكية أي محل لإلقاء تعليلاتهم الباطلة، التي توقظ بها فتنة المعوزين النائمة، تحت ستار إقامة نظامها العادل.

وإن تعجب، فعجب من بعض أهل العصر الذي ينتمي إلى العلم، ويعد من ذوي الإدراك والفهم، حيث ألقى، على ما بلغنا، مقالا في محفل جامع، يؤيد فيه فكرة الاشتراكية، ويحتج لها بنصوص الشريعة.

وهذا الملقي، إما رجل يريد أن يصدّ الناس عن سبيل الحق بغير علم، أو هو رجل أضلّه الله على علم، وجعل على بصيرته غشاوة. فإن حاول الاحتجاج بما ورد عن

سيدنا أبي ذر، وقد أسلفنا ما يتعلق بتفسير كلام هذا الصحابي الجليل، بما فيه كفاية ومقنع، ولا يبقى فيه لمبتغي الفتنة سبيل ومهيَع.

وأزيدك هنا، ردا على هذا الملقي، أن احتجاجه، إن كان بكلام هذا الصحابي الجليل، فما أصابت رميته المفصل، إذ مخرق ولم يحصّل، حيث لم يفهم مغزاه، ولم يتحقق في قصده ومرماه، وذلك أن أهم أركان الاشتراكية عند أربابها، هو رفع الملكية، وإسقاطها بالكلية، وهذا لا يقوله مطلق مسلم، فضلا عن هذا السيد الجليل، إذ هذا القول، كما سلف، يناقض الكتاب والسنة. وزيادة على النصوص الشرعية، فإن أزهد البشر وأكملهم تقوى واستقامة، وأحرصهم على إصلاح أمته، وأحسن داع إلى الحق وشرعته، كان في عصره، صلى الله عليه وسلم، من خواص أصحابه من يملك ديارا أو قرى، وضيعات وحدائق، بل منهم من هو الذي ملّكهم إياها، كما سبق، فما نزع ملكية أحد منهم، ولا نهى فردا من أفرادهم عن اتخاذها، بل كان، صلى الله عليه وسلم، يأتيهم في ضياعهم، ويحضر معهم في حدائقهم، ويحضهم على حفظها، وعدم التفريط فيها.

وبنقل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما، تنجلي لك الحقيقة، ويمحق باطل حزب الشيطان، ويطرد فريقه. ولفظ البخاري عن أنس قال: لما نزلت (لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) جاء أبو طلحة إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، يقول الله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}. وإن أحب أموالي إليّ بيْرحَاء. - قال: وكانت حديقة كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدخلها ويستظل فيها، ويشرب من مائها - فهي إلى الله وإلى ورسوله، صلى الله عليه وسلم، أرجو بره وذخره، فضعها، أي رسولَ الله، حيث آراك الله. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:"بخ يا أبا طلحة، ذلك مال رابح قبلناه منك، ورددناه عليك، فاجعله في الأقربين". فتصدّق به أبو طلحة على ذوي رحمه. هـ [صحيح البخاري: 106/2].

وفي رواية الإمام أحمد، حسبما نقله الحافظ ابن كثير في" تفسيره": {كان أبو طلحة أكثر الناس بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بيْرحَاء، وكانت مستقبلة المسجد. وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت: (لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون) قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله

يقول: (لَنْ تَنالُوا البرَّ حتَّى تُنفِقوا مِمَّا تُحِبُّون). وإن أحب أموالي إليّ بيْرحَاء، وإنها صدقةَ لله، أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى؛ فضعها يا رسول الله حيث آراك الله. فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "بخ بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت. وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين". فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. وفي الصحيحين: أن عمر قال يا رسول الله: لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر. فبما تأمرني به؟ قال: "احبس الأصل، وسبل الثمرة."}[تفسير ابن كثير :381/1]

أفبعد هذا يمكن أن يقول قائل برفع الملكية وإبطالها؟ وإن جال بخاطر هذا المستدل أن يحتج بما احتج به بعض الإباحيين المارقين عن الدّين بقوله تعالى: ( هُوَ الذِي خَلَقَ لكُمْ مَا في الأرْضِ جَمِيعاً )، من أن الآية تدل على أن ما في الأرض جميعا خلق للكل، فلا يكون لأحد اختصاص بشيء أصلا؛ يرد عليه بما قاله الإمام الفخر في "تفسيره": إن هذا الاستدلال ضعيف؛ لأنه تعالى قابل الكل بالكل، فيقتضي مقابلة الفرد بالفرد، والتعيين يستفاد من دليل منفصل هـ [244/1].

ووضح ذلك الشيخ زادَة، قائلا في رد الاستدلال:

{لأنه تعالى لما خلق جميع الأرض لكل أحد، لزم أن لا يختص أحد بشيء مما فيها، وهذا الاستدلال هو كلي، وهو لا ينافي اختصاص البعض بالبعض، لأسباب شرعية كالشراء والهبة، والوراثة والإجارة والنكاح، وغير ذلك. وإنما يصح جواز الاستدلال بها على عدم جواز اختصاص أحد بشيء، أن لو كان المعنى: ان كل واحد في الأرض لكل واحد منكم، وليس كذلك.}هـ[حاشية على تفسير البيضاوي:235/1].

وعليه، فهذا الاستدلال باطل. لأنه عن مسلك الشريعة منحرف وعادل. هـ من كتابنا "الدرر العقيانية".[مخطوطة ص:210].

وبهذا تتحقق أن مقصد أبي ذر، رضي الله عنه، في واد، ومقصد الاشتراكيين الضالّين في واد، إذ ملحظ السيد أبي ذر، رضي الله عنه، إنما هو في الأموال الفاضلة عن الحاجة من الذهب والفضة، لأن هذا الفاضل كان يعده كنزا ينسحب عليه حكم الآية ووعيدها، لأنه كان يرى أن هذا الغني المثري الذي له أملاك وضيعات، وله منها دخل

كاف، ومستقله منها بحاجاته واف، فادّخاره للمال، وإزاءه فقراء لا يجدون ما ينفقون، ولا يملكون بلغة، ولا في بيوتهم مضغة، ينافي الرحمة والشفقة، وهو من قبيل العبث الذي يصان عنه العقلاء، ويدخل في قوله عليه السلام: " والله لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره طاو إلى جنبه".

وهذا أمر يتنبه له حتى الجاهل الغافل. ولما كنت قاضيا بمدينة القصر الكبير، ونزلت قضية تتعلق بأحد كبراء البادية، وأثرى أغنيائها مالا وضياعا وحرثا ونسلا؛ استدعت توجيه نائب عني لقرية خارج المدينة بقبيلة الخلط، الفقيه السيد علي نخشى، فأخبرني الفقيه المذكور ان هذا المثري - و كان له معه صداقة - استدعاه لمنزل خاص، وأطلعه على أوانٍ من الخزف كبيرة (القنبورات)، وقال له: هذه الأواني كلها ملأى بالذهب (الضبلون) منذ الأجداد، ولا حاجة لنا بها. وهي من العبث الذي لا فائدة فيه.

وكنت قلت للنائب المذكور: لو أجبته بأن فيه فائدة، لو صرفه في مصارفه النافعة. وفقنا الله لما فيه رضاه. وإنما أطلت الذيول، ونوعت النقول، لكي يجد المعارض للاشتراكية ما يقول. والعلم كله لمن بيده الحول والقوة، وهو الغياث عند كل كربة وشدة تنزل بهذه الأمة.

---

## [ مسألة توحيد رؤية الهلال
## في الصوم والفطر بين الأقطار الإسلامية]

ومما يخوض فيه أدعياء الفقه[في هذا العصر]؛ مسألة رؤية الهلال في الصوم والفطر، ويرون أنه يجب توحيد مبدإ الصيام وختامه، وأن يكون الصوم في المغرب كالصوم في المشرق، وأنه إذا رآه مثلا أهل مكة، لزم أهل المغرب أو أهل الشام، أو غير ذلك من البلاد المشرقية أو غيرها. ويرون أنهم أتوا بما لم يأت به آباؤهم الأولون، واهتدوا لما لم يهتد له الفقهاء الأقدمون، وحسبوا أنهم أتوا بجديد لم يتفطن له من أهل الشريعة لا سابق ولا لاحق، ولم يعلموا أن القضية تكلم فيها جهابذة العلماء، وحققها أكابر الفقهاء النبلاء، ولم يبق لقائل بعدهم ما يقول، إلا بتأمل ما حرّروه، وفهم ما أصلوه وفرّعوه.

وقد وقعت هذه المسألة في صدر هذه الأمة، وأصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، متوافرون، وعلى الحق ظاهرون، وبنصوص الشريعة هم العالمون. فأشهر ما ورد في ذلك ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، وكلهم أتوا بالحديث في سياق الاستدلال على أن لكل قوم رؤيتهم.

ففي "صحيح" مسلم:{ باب بيان أن لكل بلد رؤيتهم}. ثم أخرج الحديث عن كريب، وهو مولى لابن عباس: أن أم الفضل بنت الحرث، بعثته إلى معاوية بالشام، قال: فقدمت الشام، فقضيت حاجتها. واستهل عليّ رمضان وأنا بالشام، فرأيت الهلال ليلة الجمعة. ثم قدمت المدينة في آخر الشهر، فسألني عبد اللـه بن عباس. ثم ذكر الهلال، فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة. فقال: أنت رأيته؟ فقلت: نعم. ورءاه الناس وصاموا، وصام معاوية. فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه. فقلت: أولا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا. هكذا أمرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم.} هـ [صحيح مسلم: 405/1].

وفي سنن أبي داود: {باب إذا رؤي الهلال في بلد قبل الآخرين بليلة}. ثم ساق حديث كريب هذا.[367/1].

ومن"سنن"الترمذي: {باب ما جاء لكل أهل بلد رؤيتهم}. ثم ساق هذا الحديث، ثم ذيله بقوله: {قال أبو عيسى: حديث ابن عباس، حديث حسن صحيح غريب. والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم أن لكل أهل بلد رؤيتهم.} هـ [213/3].

ومن"سنن"النسائي: {إختلاف أهل الآفاق في الرؤية}. ثم ساق الحديث، قال شارحه الجلال السيوطي:

{وقوله هكذا أمرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحتمل أن المراد به أنه أمرنا أن لا نقبل شهادة الواحد في حق الإفطار، أو أمرنا أن نعتمد على رؤية أهل بلدنا، ولا نعتمد على رؤية غيرهم. وإلى المعنى الثاني تميل ترجمة المصنف وغيره.} ثم قال: {وكأنهم رأوا أن المتبادر هو الثاني، فبنوا عليه الاستدلال.}هـ[131/3].

وبهذا الحديث تمسك القائلون بأن لكل بلد رؤيتهم، وبه استدل، كما علمت، أصحاب كتب الحديث السالفة، وزاد الترمذي إثره: والعمل بهذا الحديث عند أهل العلم أن

لكل أهل بلد رؤيتهم. وهو الذي حكاه ابن المنذر عن عكرمة والقاسم وسالم وإسحاق، كما في "فتح الباري". وفي المسألة أقوال أصلها هل لكل قوم رؤيتهم، أو إذا رُئِيَ الهلال في بلد لزم سائر الأقطار، فقيل مطلقا، وقيل ما لم تتباعد. قال في "الفتح":

{وقال بعض الشافعية: إن تقاربت البلاد، كان الحكم واحدا. وإن تباعدت فوجهان؛ لا يجب عند الأكثر، واختار أبو الطيب وطائفة الوجوب. وحكاه البغوي عن الشافعي. وفي ضبط البعد أوجه: أحدها اختلاف المطالع، قطع به العراقيون والصيدلاني، وصححه النووي في "الروضة" و"شرح المهذب". ثانيها مسافة القصر. قطع به الإمام البغوي، وصححه الرافعي في"الصغير"، والنووي في"شرح مسلم". ثالثها اختلاف الأقاليم. رابعها حكاه السرخسي فقال: يلزم كل بلد لا يتصور خفاؤه عنهم بلا عارض دون غيرهم. خامسها قول ابن الماجشون المتقدم هـ. وهو قوله: لا يلزمهم بالشهادة إلا لأهل البلد الذي ثبتت به الشهادة، إلا أن يثبت عند الإمام الأعظم، فيلزم الناس كلهم، لأن البلاد في حقه كالبلد الواحد، إذ حكمه نافذ في الجميع}. هـ [فتح الباري:87/4].

هذا ما ذكره الحافظ ابن حجر الشافعي عن أهل مذهبه وعن بعض المالكية، ولم يتعرض لترجيح قول من الأقوال، إلا ما يفهم منه من تصديره بقول من قال إن لكل بلد رؤيتهم. وثنّى بمقابله وهو لزوم رؤية بلد لسائر البلاد، وقال إنه المشهور عند المالكية. ولكنه عقبه بقول ابن عبد البر المالكي ان الإجماع على خلافه وقال:{أجمعوا على أنه لا تراعى الرؤية فيما بَعُدَ من البلاد، كخراسان والأندلس} هـ [فتح الباري: 87/4].

وأما أهل مذهبنا المالكي، فلهم في ذلك تحصيل آخر، وترجيح للمذهب القائل بعدم لزوم رؤية بلد لسائر البلدان من جهة البعد والقطر. قال ابن العربي في "العارضة"، في ترجمة سنن الترمذي:

{باب ما جاء: لا تقدَّموا الشهر بصيام}، من كتاب الصيام، في المسألة العاشرة: {لما علق النبي، صلى الله عليه وسلم، الحكم على الرؤية، وذكرنا أنه خبر أو شهادة، وحققنا أنه خبر ينقله مسلم إلى مسلمين، فعرضت ههنا نازلة جرت لابن عباس}. ثم ذكر حديث كريب مختصرا، ثم قال:

{واختلف الناس في ذلك على قولين؛ الأول: أن البلاد إذا تباعدت أقطارها، كهذه النازلة، فلأهل كل بلد رؤيتهم. وإن تقاربت، لزم حكم كل بلد لآخر، إن كان الذي رُئي فيه من سائر طاعته}. ثم قال:

{وقد كنا في شهر رمضان، سنة خمس وثمانين وأربعمائة في البحر، تطلع الشمس والقمر من الماء، ويغربان في الماء. فكنّا نجلس على ظاهر المركب، حتى إذا غربت، صعد ملاح إلى الساري الأصغر، فيقول: لم تغب بعد. ثم يمكث قليلا فيقول: قد غابت. و يصعد آخر إلى الساري الأوسط فيقول: لم تغب بعد. ثم يمكث قليلا فيقول: قد غابت. ثم يصعد الملاح في الساري الأطول فيقول: لم تغب بعد. ثم يمكث قليلا أكثر من مكث ذينك الأولين، ثم يقول: قد غابت. فيفطر الناس حينئذ. والبحر سطح مستو لاعوج فيه ولا أمتاً. فسبحان الله الخالق للجميع، المتعبّد بما شاء} هـ.[شرح سنن الترمذي: 210/3].

وكلام ابن العربي صريح في ميله إلى اعتبار المطالع، وصرح في "الأحكام" بتصحيحه، واعتبار ابن عباس له، فقال في المسألة السابعة:

{إذا أخبر مخبر عن رؤية بلد؛ فلا يخلو أن يقرب أو يبعد. فإن قرب فالحكم واحد، وإن بعد، فقد قال قوم: لأهل كل بلد رؤيتهم. وقيل يلزمهم ذلك. وفي "الصحيح" عن كريب} الخ. وذكر الحديث ثم قال:

{واختلف في تأويل قول ابن عباس هذا. فقيل رده لأنه خبر واحد، وقيل رده لأن الأقطار مختلفة في المطالع، وهو الصحيح، لأن كريبا لم يشهد، وإنما أخبر عن حكم ثابت بشهادة. ولا خلاف في أن الحكم الثابت بالشهادة يجزي فيه خبر الواحد. ونظيره ما لو ثبت أنه أهلَّ ليلة الجمعة بأغمات، وأهلَّ بإشبيلية ليلة السبت، فيكون لأهل كل بلد رؤيتهم، لأن سُهَيلاً يكشف من أغمات، ولا يكشف من إشبيلية. وهذا يدل على اختلاف المطالع.}هـ [الأحكام 36/1].

أما الإمام القرافي، فقد ذكر المسألة في"فروقه"، في الفرق الثاني والمائة(102)، ونسب القول بتعميم الوجوب برؤية بلد على سائر أقطار الأرض للمالكية، دون إشارة إلى خلاف بينهم، وأن الحنابلة يوافقونهم على ذلك، ونسب القول بأن لكل بلد رؤيتهم للشافعية أيضا مطلقا، مع أنك قد علمت أن كلا من المذهبين فيه خلاف بين أهله، ولفظه:

{الإشكال الثاني: إن المالكية جعلوا رؤية الهلال في بلد من البلاد سببا لوجوب الصوم على جميع أقطار الأرض، ووافقتهم الحنابلة، رحمهم الله، على ذلك. وقالت الشافعية، رحمهم الله: لكل قوم رؤيتهم} هـ[الفروق:203/2]. ثم بعد هذا قرّر أن النظر الفني من حيث علم الفلك؛ يقضي أن لكل أهل بلد من البلدان المختلفة المطالع رؤيتهم، كما أن لكل أفق من الآفاق فجره وزواله وغير ذلك، فقال:

{إذا تقرر الاتفاق على أن أوقات الصلوات تختلف باختلاف الآفاق، وأن لكل قوم فجرهم وزوالهم وغير ذلك من الأوقات، فيلزم ذلك في الأهلة، بسبب أن البلاد المشرقية إذا كان الهلال فيها في الشعاع، وبقيت الشمس تتحرك مع القمر إلى الجهة الغربية، فما تصل الشمس إلى أفق المغرب إلا وقد خرج الهلال من الشعاع، فيراه أهل المغرب ولا يراه أهل المشرق. هذا أحد أسباب اختلاف رؤية الهلال. وله أسباب أخر مذكورة في علم الهيئة لا يليق ذكرها هاهنا؛ إنما ذكرت ما يقرب فهمه. وإذا كان الهلال يختلف باختلاف الآفاق؛ وجب أن يكون لكل قوم رؤيتهم في الأهلة، كما أن لكل قوم فجرهم وغير ذلك من أوقات الصلوات. وهذا حق ظاهر، وصواب متعين. أما وجوب الصوم على جميع الأقاليم برؤية الهلال بقطر منها، فبعيد من القواعد، والأدلة لم تقتض ذلك، فاعلمه.} هـ[الفروق 203/2].

وفي" بداية المجتهد" لابن رشد:

{ وإذا قلنا أن الرؤية تثبت بالخبر في حق من لم يره، فهل يتعدى ذلك من بلد إلى بلد؟ أعني هل يجب على أهل بلد ما إذا لم يروه أن يأخذوا في ذلك برؤية بلد آخر، أم لكل بلد رؤية ؟ ففيه خلاف. فأما مالك، فإن ابن القاسم والمصريين رووا عنه أنه إذا ثبت عند أهل بلد أن أهل بلد آخر رأوا الهلال؛ أنّ عليهم قضاء ذلك اليوم الذي أفطروه وصامه غيرهم، وبه قال الشافعي وأحمد. وروى المدنيون عن مالك أن الرؤية لا تلزم بالخبر عند غير أهل البلد الذي وقعت فيه الرؤية، إلا أن يكون الإمام يحمل الناس على ذلك، وبه قال ابن الماجشون والمغيرة من أصحاب مالك، وأجمعوا أنه لا يراعى ذلك في البلدان النائية كالأندلس والحجاز}. [قال]:

{والسبب في هذا الخلاف تعارض الأثر والنظر. أما النظر، فهو أن البلاد إذا لم تختلف مطالعها كل الاختلاف، فيجب أن يحمل بعضها على بعض، لأنها في قياس الأفق

الواحد. وأما إذا اختلفت اختلافا كثيرا، فليس يجب أن يحمل بعضها على بعض. وأما الأثر؛ فما رواه مسلم عن كريب. ثم ساق الحديث المتقدم}، ثم قال:

{ فظاهر هذا الأثر يقتضي أن لكل بلد رؤيته، قرب أو بعد. والنظر يعطي الفرق بين البلاد النائية والقريبة، وبخاصة ما كان نأيه في الطول والعرض كثيراً.} هـ [199/1].

هذا ما عند محققي المالكية في الترجيح. أما الشافعية فقد سبق أن الحافظ ابن حجر، الذي هو منهم، لم يصرح بترجيح قول من الأقوال ولا بتصحيحه، وإنما صدّر بالقول الذي يقول إن لكل قوم رؤيتهم الذي هو مقتضى الحديث. ولكن الإمام النووي ذكر الأقوال التي في مذهبهم، وصحّح القول بأن لكل قوم رؤيتهم، فقال إثر حديث كريب، وهو ظاهر الدلالة من الترجمة، ومن قوله: باب إن لكل بلد رؤيتهم، وأنهم إذا رأوا الهلال ببلد لا يثبت حكمه لما بعُد عنهم، قال:

{والصحيح عند أصحابنا أن الرؤية لا تعم الناس، بل تختص بمن قرب على مسافة لا تقصر فيها الصلاة. وقيل إن اتفق المطلع لزمهم. وقيل إن اتفق الإقليم، وإلا فلا. وقال بعض أصحابنا تعم الرؤية في موضع جميع أهل الأرض} هـ [شرح النووي لصحيح مسلم، بهامش كتاب إرشاد الساري: 5/ 58].

---

### [عمل أهل المغرب في ثبوت الهلال، كاد أن يكون مما اتفقت عليه الأقوال داخل المذهب وخارجه]

فإذا تأملت هذه النقول، وما في هذه المذاهب من مأثور ومعقول، تبين لك أن ما عليه عمل أهل المغرب في مسألة الهلال، كاد أن يكون مما اتفقت عليه الأقوال داخل المذهب وخارجه، لأن العمل الجاري في المغرب، أن الهلال إذا ثبت في مدينة أو قبيلة من مدن المغرب وقبائله، وكان الثبوت صحيحا عند قاضي المحل الذي ثبت فيه، فإن ذلك يعم نواحي المغرب كله، لكن بشرط وصول البينة بالثبوت لقاضي المحل الذي لم يُرَ فيه الهلال، لأن أمر الأهلة كان مسنداً للقضاة دون غيرهم، فهم الذين يأمرون بإذاعة ذلك في البلد بواسطة إطلاق نيران المدافع، أو المناداة في الأسواق، وفي هذه المدة الأخيرة صار

الثبوت الأولي إنما يُرفع للحضرة السلطانية، إذ يتولى وزير العدل إذاعة ذلك في باقي المدن التي لم يثبت فيها.

فالمغرب في عمله يتبع الأثر، وهو أثر السيد كريب عن سيدنا عبد الله بن عباس بأن لكل بلد رؤيته، ويعتمد ما فهمه منه أهل الحديث؛ كمسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، ويعتمد الصحيح من مذهب الشافعي، كما أن عمله يصلح لتطبيقه على سائر الأقوال في المسألة، ما عدا القول بالتعميم الذي ضعّفه المحققون من أهل المذهب، كابن العربي، والقرافي، والحفيد ابن رشد، حسبما سبق.

وبه تعلم أن ما يرمي إليه المجازفون في تحويلهم المغرب عن عمله المأثور، والذي جرى عليه أمراؤه وعلماؤه وقضاته منذ قرون وعصور، إلى أثارة من علم أو عادة، إنما هي إثارة للفتنة، وابتغاء تفريق دون إجادة في التحقيق أو إفادة، مع أن العلماء منذ القدم، والقضاة وهم القائمون في أمر الأهلة على قدم، وأمراء المغرب وملوكه الحامون لحمى الديانة، الحافظون لها حفظ الأمانة، لم يلتفتوا قط لتقليد أي قطر خارج عن نفوذهم في أمر الهلال، أو يُدخلوا على مملكتهم، بتلقي الخبر عنه، أي اختلال، مع مخالفة هذه الأقطار المجاورة في رؤيتها في كثير من الأعوام لرؤية المغرب، إذ كثيرا ما يصل إلى المغرب أن الهلال ظهر في تونس قبل المغرب بيوم أو يومين، وكذلك في مصر، ولا يخطر ببال الحكومة ولا ببال قضاتها، تقليدها في ذلك. ولقد سمعت في هذا العام أن بعض من ينتسب للعلم، صام أول رمضان بما بلغه عن رؤية أهل مكة. وكان ذلك قبل رؤية المغرب بيومين، مع أن رؤية مكة لا يسوغ اعتمادها في المغرب إجماعا، كما نقلناه فيما سبق عن ابن عبد البر وغيره. والله تعالى أعلم.

----

## [مبحث في موضوع زكاة الفطر]

وأخرى في رمضان أيضا، يجنوها المتتبعون للغريب، المغرمون بالتجديد الباطل والتغيير، المائلون للترخيص المؤدي إلى إسقاط ميثاق التكليف. وذلك أنهم يرخصون في زكاة الفطر أن تؤدى بالمال، دون ضرورة ولا فقد للقوت المقتات به في الحال. وهذا أيضا من قبيل ما سبق، من إظهار التبريز في المعرفة والعلم.

قد مضت الأعوام والشهور، وتوالت السنون والعصور، والناس في المغرب الأقصى يؤدون زكاة الفطر من غالب قوتهم المعهود، ولا يعتاضونه بدراهم أو نقود، مع تكاثر أموالهم، وتوفر القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في نقودهم، وما قال أحد من علمائهم، ولا قرر فرد من أفراد أمرائهم وملوكهم، إقامة المال المسكوك مقام الحبوب والقوت، وذلك أنهم سائرون على الصراط المستقيم في إتباع سنة رسولهم، وتقليد إمام الأئمة إمامهم، عالم المدينة مالك ابن أنس. ومذهبه في ذلك هو ما لخصه ابن جزي في "القوانين" إذ قال:

{الفصل الثاني، في الواجب: وهو صاع من قمح أو شعير، أو سلت أو تمر أو زبيب، أو أقِط أو أرز أو ذرة أو دخن. وقال أشهب من الست الأول خاصة. وتخرج من غالب قوت البلد. وقيل من غالب قوت مخرجها إذا لم يشحّ. فإن كان القوت من القطاني أو التين أو السويق أو اللحم اللبن، فتجزئ في المشهور، وفي الدقيق بريعه قولان.} هـ [ص115].

ونحو هذا في "المختصر" وشروحه، مع تفصيل زائد في ذلك، قال الزرقاني بعد تقرير كلام المصنف: {ولا يجوز إخراج قيمتها عينا ولا عرضا}. هـ [187/2].

قلت: والمنع من إخراج القيمة، هو مذهب الأئمة من أهل الحديث وغيرهم، وهو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل. وشدد الظاهرية في ذلك، حتى إنهم لا يجيزون إلا إخراج التمر والشعير، إتباعا لما كان عليه الحال بالمدينة زمن الرسول، عليه الصلاة والسلام. قال زعيمهم الحافظ ابن حزم في "المُحلّى":

{زكاة الفطر في رمضان، فرض واجب على كل مسلم، كبير أو صغير، ذكر أو أنثى، حر أو عبد، وإن كان من ذكرنا جنينا في بطن أمه، عن كل واحد صاع من تمر، أو صاع من شعير. قال: ولا يجزئ شيء غير ما ذكرنا، لا قمح ولا دقيق قمح أو شعير، ولا خبز ولا قيمة، ولاشيء غير ما ذكرنا}. هـ [118/6]. ثم أطال في الاحتجاج لمذهبه، ورد مذهب المخالف.

أما الحنفية الذين يقولون بالقيمة، فقد خالفوا في ذلك الآثار، كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حزم، إذ قال: إنهم خالفوا جميع الآثار في إجازة القيمة.

وبالجملة؛ فإن الآثار الواردة في صدقة الفطر ليس فيها جواز دفع القيمة عن القوت من الحبوب والثمار المنصوص عليها، ولا أحد قال بالقيمة من الجمهور، إلا ما ورد عن أهل الرأي من الحنفية، ونسب لعمر بن عبد العزيز. قال الإمام النحاس في كتاب "الناسخ والمنسوخ":

{أما إخراج القيمة، فمختلف فيه، فممن أجاز ذلك، عمر بن عبد العزيز، والحسن، وأهل الرأي. ولم يجز مالك والشافعي وأحمد إلا إخراج المكيلة كما جاءت به السنة. وقال إسحاق: يجوز ذلك للضرورة} هـ.[ص256].

قلت: أما نسبة القول بإجازة دفع القيمة مطلقا لعمر بن عبد العزيز، ففيه توقف، مع كونه التابعي الجليل الحريص على إتباع السنن واقتفاء الآثار. أما كون إجازة ذلك لضرورة دعت إلى إعطاء القيمة بدلا عن المنصوص من الحبوب والثمار، فيمكن. وهذا هو الذي يقتضيه ما صحّ عنه من أنه كان يوجب فيها نصف صاع من برّ، أو قيمته على أهل الديوان نصف درهم. قال أبو محمد في "المُحلى":

{وصحّ عن عمر بن عبد العزيز إيجاب نصف صاع من بر على الإنسان في صدقة الفطر، أو قيمته على أهل الديوان نصف درهم} هـ [المُحلّى: 130/6].

وهذا صريح في أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يقول بالقيمة مطلقا، بل عند التعذر أو التعسر، كما هو الشأن في أهل الديوان، وهم الجيش والجند الذين شأنهم التنقل وعدم الاستقرار؛ فهم قوم في سفر أو على جناح السفر. وقد قيل سقوط زكاة الفطر عن المسافر. ولا يخفى أنه يرخص لهم ما لم يرخص لغيرهم. وعليه، فاستناد إجازة القيمة لعمر بن عبد العزيز مطلقا لا ينبغي.

وبهذا يتبين لك بطلان قول هؤلاء الذين يفتون بإعطاء المال في زكاة الفطر مطلقا دون ضرورة، وإن لم نقل ببطلانه، فهو في غاية الضعف. وما يعللون به من أن إعطاء الطعام في العصر النبوي وما قاربه كان لقلة المال، يُجاب عنه بما أسلفناه من أن المال بعد الفتوحات العمرية وما تسلسل بعدها، كان يعم أقطار الإسلام. وربما يقال إن الثروة التي أدركها أهل الإسلام لم يدركها من جاء بعدهم. ويعجبني ما قاله أبو محمد ابن حزم:

{فهؤلاء، ابن عمر، والقاسم، وسالم، وعروة، لا يخرجون في صدقة الفطر إلا التمر، وهم يقتاتون البرّ بلا خلاف، وإن أموالهم لتسع إلى إخراج صاع دراهم عن أنفسهم، ولا يؤثر ذلك في أموالهم. رضي الله عنهم} هـ [المُحلى: 128/6].

وقال في رد القول بالقيمة:

{ولا تجزئ قيمة أصلا، لأن كل ذلك غير ما فرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والقيمة في حقوق الناس لا تجوز إلا بتراض منهما، وليس للزكاة مالك بعينه فيجوز رضاه أو إبراؤه}. هـ [المُحلى: 137/6].

---

وثالثة الأثافي في رمضان؛ إفتاء بعضهم للناس بأن يخرجوا زكاة الفطر ليلة القدر. وهذا المفتي ينبغي أن يسأل عن قصده ومراده، فإن كان قصده إرشاد الناس إلى الطريقة المثلى، وإلى ما هو الأجدر بهم والأولى، وصرفهم عما هم عليه من بنيات الطرق في المسألة، فهو عن الحقيقة ناكب، وبإفتائه هذا متلاعب، لأن الناس متمسكون في إخراج زكاة فطرهم بالسنة المأثورة، ومقلدون أقوال أئمتهم المشهورة، إذ لا يخفى أن هذه الصدقة هي طُهرة للصائم في رمضان، وطعمة للمساكين يوم العيد، إراحة لهم فيه عن الطواف على الأبواب، والتجول في الأسواق. ففي الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجة، وصححه الحاكم عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: "فرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين. فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة، فهي صدقة من الصدقات".

ففي هذا الحديث دليل، كما قالوا، على أن وقت إخراجها قبل صلاة العيد، وأن وجوبها مؤقت؛ فقيل تجب في فجر أول شوال، لقوله:"اغنوهم عن الطواف في هذا اليوم"، وقيل تجب من غروب آخر يوم من رمضان، لقوله: "طهرة للصائم".

أما تقديمها عن وقت إيجابها، فالمشهور في مذهب مالك هو المنع، وصرح ابن حزم في "المُحلى" بأن من قدمها قبل وقت وجوبها لا تجزئه. ورد ما استدل به المجيز من حديث أبي هريرة. أما استدلال المجيز بما في البخاري من قوله كان ابن عمر، رضي الله عنهما، يعطيها للذين يقبلونها، وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو بيومين هـ؛ فلا دليل فيه

على جواز إعطائها للفقراء قبل الفطر، وإنما هو صريح في أنهم كانوا يدفعونها للإمام أو نائبه، ليجمعها ويفرقها يوم العيد على الفقراء.

وفسر هذا في"الموطإ"إذ قال في الترجمة: {وقت إرسال زكاة الفطر}. ثم قال: {مالك عن نافع، أن عبد الله بن عمر كان يبعث بزكاة الفطر إلى الذي تجمع عنده، قبل الفطر بيومين أو ثلاثة}. قال الباجي في "المنتقى": {يريد أنه كان يبعث بها إليه لتكون عنده إلى أن يجب خروجها، فيخرجها عنه، وذلك يقتضي أنه كان نصب لها الإمام، أو من كان إليه الأمر، رجلا يرسلها إليه، فتجتمع عنده حتى يضعها في وقتها حيث رأى}. قال الباجي:

{ولا يجوز لمن وليها عن نفسه أن يخرجها قبل وقت وجوبها، هذا هو المشهور من مذهب مالك} هـ [190/2].

وفي "الفتح"، إثر قوله: وكان ابن عمر يعطيها للذين يقبلونها، أي الذي ينصبه الإمام لقبضها، وبه جزم ابن بطال، قال:

{ويؤيده ما وقع في نسخة الصغاني عقب الحديث، قال أبو عبد الله، هو المصنف: كانوا يعطون للجمع لا للفقراء. وقد وقع في رواية ابن خزيمة من طريق عبد الوارث عن أيوب؛ قلت: متى كان ابن عمر يعطي؟ قال: إذا قعد العامل. قلت: متى يقعد العامل؟ قال: قبل الفطر بيوم أو يومين.} هـ[242/3].

فبعد هذا، هل يمكن أن يصحّ الاستدلال بفعل ابن عمر على جواز تفريق زكاة الفطر على الفقراء قبل وجوبها، وهو يوم العيد أو ليلته؟. هذا هو الصراط المستقيم الذي ليس فيه اختلال ولا اعتلال، ولا انصراف عما يقتضيه ظاهر السنة إلى إعمال قياس أو استدلال.

ونحن لا نجهل وجود الخلاف الوارد في المسألة. ولكن ذلك الخلاف لا يعدو الجواز فقط، لا أنه صميم السنة، فقد أجاز الشافعي إخراجها من أول رمضان، وأبو حنيفة ولو قبل بعامين، قياسا على الزكاة عنده، وأحمد بن حنبل فيما قرب كاليوم واليومين، وأما مالك فقد علمت المشهور في مذهبه، بل في "نيل الأوطار"، ما يفيد أن مذهبه المنع اتفاقا مطلقا، لأنها عبادة موقتة كالصلاة، فلا يجوز إخراجها عن وقتها.

وإن كان مراد هذا المفتي التوسيع على الناس، وحملهم على الرخصة؛ فليس محل ذلك في هذه المسألة، إذ لا داعي لذلك ولا موجب له، مع تمسك الناس بالسنة، وقيامهم بهذه الفريضة على ما وصفه لهم نبيهم، صلى الله عليه وسلم، فلم يبق لفتواه وجه إلا تشويش الأفكار، وصرفهم عن عملهم المؤيد بالآثار.

وأيضا فإن إخراج المال في هذه الزكاة مُؤدٍ إلى تركها بالكلية، لأن المال مما يخفى إخراجه، ويتولى ذلك في الغالب الرجال، فيقع منهم التساهل والتواني، بخلاف إخراج القوت؛ فإن المألوف عندنا إسناده للنساء، ولهن اعتناء بإخراجها، واغتباط في ليلة ذلك الموسم بتقسيمها، وتسمية أهلها، والاجتهاد في إيصالها إليهم. والله سبحانه الموفق والمرشد.

---

### [الرجوع إلى ترجمة الشيخ الزواقي، والكلام على الولاية العامة وما طرأ عليها من انحراف]

ولنرجع إلى ترجمة شيخنا الزواقي، فأقول: إن مما كنت أسمعه عنه، أنه كان في أول أمره يتجافى الخدمة المخزنية. وبلغني أنه كان يقول: إن الاستمرار في خدمة المخزن، ربما يؤدي بصاحبه إلى سوء الخاتمة، والعياذ بالله، أو كلاما هذا معناه.

قلت: كأن شيخنا، رحمه الله، يعني هؤلاء الولاة من العمال والقياد والشيوخ، الذين يتخذون عباد الله خولا، وأموالهم مغنما، ولا يرقبون في أهل ولايتهم إلاًّ ولا ذمة، ويجعلون ولايتهم أداة لابتزاز مال الأمة، بالغرامات الظالمة، والرشى الطاغية، واختلاق أنواع التعدي والغصب، من غير مبالاة بقوانين الشريعة، ولا بحدودها المنيعة، ولا لإيعادها وإنذارها، ولا ما توجبه من عذاب نارها، بل هم كما قال تعالى: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)، فهو مستمرئ لأذى بغيه، مستحل لمرارة ظلمه، مستحل لكبير إثمه، سادل ثوب خيلائه وكبره، لا تخطر في خاطره توبة، ولا يفكر يوما أنه سيكون له إلى الله أوبة، فيحاسب على كل مظلمة ظلمها، ويعاقب على تلك الزلات التي قدمها، ولا يقرأ قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ).

فمن كانت هذه حاله؛ فهو إلى فقد الإيمان مآله، لأن إصراره على هذه المعاصي، وعدم الخشية من يوم يؤخذ فيه بالنواصي، يأكل إيمانه - إن كان له إيمان - أكلاً لمّا، ويوسعه من الله مقتا وذما. قال حجة الإسلام:

{فالمعاصي للإيمان، كالمأكولات المضرة للأبدان؛ فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط، وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد المزاج، فيمرض دفعة، ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي.}هـ [إحياء علوم الدين: ج4 ص7].

ولم تزل الأمة في كل الأعصار، تحار من هؤلاء الولاة الأشرار، وتشتكي إلى الله من إفسادهم وعتوّهم في الجهر والإسرار. ولم يأل العلماء والوعاظ والخطباء جهدهم في ذم أفعالهم وعظا وإنذارا، واستقباحا واستهجانا لآثامهم، حتى ألف في ذلك من ألف، وزجر وعنف، وما وعت من هؤلاء أذن واعية، ولا تلقته منهم إلاّ أفكار لاغية؛ فقد ألف في ذلك من المتأخرين: العلامة الشوكاني، عالم اليمن، الذي هو قريب من عصرنا، وذكر من مفاسد هؤلاء الولاة وعتوهم، واجترائهم على ارتكاب المحرمات، واستحلالهم المحظورات، وتعديهم على الرعية، وسوقهم بجورهم إلى ما يعنتهم سوق ظالم من حالهم لم يشفق، وفي ذلك يقول:

{وقد صار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ولاية منحصرا في ثلاثة أشخاص: عامل، وكاتب، وحاكم. فأما العامل فلا عمل له إلا في استخراج الأموال من أيدي الرعايا، من حلها ومن غير حلها، وبالحق وبالباطل، وقد استعان على ذلك بالمشايخ الذين هم العرفاء المنصوص عليهم في معلم الشريعة أنهم في النار، فيتسلط كل واحد منهم على من تحت يده من المستضعفين، فيصنع به كما أراد وكيف أحب، وهو مفوض في أحوالهم من طريق العامل؛ فيأخذ ما يشاء، ويدفع ما يشاء. وليس الأمر والنهي إلا في هذه الخصلة على الخصوص، ولم يسمع على تطاول الأيام، وتعاقب السنين، أن فردا من أفراد العمال أمر الرعايا بما أوجب الله من الفرائض، التي لا فسحة فيها، كالصلاة والصيام، أو نهاهم عن شيء من المنكرات التي يرتكبونها.} [هـ من الرسائل المنيرية:6/2].

ثم أخذ في تعداد مساوئهم وجرائمهم التي تؤذن بفقد الديانة، وانهماكهم في ضلالتهم دون التفات إلى توبة أو إنابة.

وما وصف به العلامة الشَّوكاني عمال بلده، يطابق ما كان عليه الحال في عمالنا، وهم بهذه الحالة السوداء، أقرب للكفر منهم للإيمان. فصحّ ما قاله شيخنا الزواقي، من تلقاء نفسه، أو عن بعض شيوخه. وليس مراد شيخنا الإطلاق في كل والٍ يتولى الوظائف الحكومية، بدليل أنه، رحمه الله، أتى أجله، وهو يتولى خطة القضاء.

بل الوالي العادل، والحاكم القائم بالقسط، المتحرّي لطريق الحق، هو من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلاّ ظله، كما في الحديث، وممّن ينصب له يوم القيامة منبر من نور، كما في الحديث الشريف:" إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة".

[مشاركة كبار العلماء في الحُكم وأخذ الجرايات،
اقتداءًا بالسلف الصالح]

وقد شارك في الحكم في الماضي والحال، علماء أفاضل، وأئمة أجلة، وأخيار عظام، يُستسقى بهم الغمام. ولكن السلامة هو البعد عن كل خطة القضاء أو غيره. وفي الحديث:"من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين". ولهذا حذر العلماء من الولايات، وجعلوها من الأخطار التي يجب على من يريد السلامة التباعد عنها، بل شددوا في الاتصال بالأمراء، والمشاركة معهم في أعمالهم، ومنعَ البعض الأخذ منهم، وحرموا الأكل من طعامهم، وفي ذلك تفصيل. وقد وقع للحافظ الشهير أبي عمر بن عبد البر المالكي، أن قوماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه، فقال ردا عليهم:

قل لمن ينكر أكلــي لطعــام الأمــراء
أنت من جهلك هــذا في محل السفهـاء

وكنتُ لما سمعت هذين البيتين، ذيلتهما مُؤيداً لما قاله هذا الإمام:

أنـت لا تعـرف شيئــاً مـن فتــاوى العلمـاء
لا، ولا سيـرة صحــب هـم محـــل الاقتـــداء
وإمـــام تابعــــي ذي اجتهــــاد واهتـــداء
إذ أباحـوا الأخـذ منهـم دون رد أو إبـــــاء

قبلوا منهم صــلات ومرتب القضــاء
بل تولـوا وأقـامـوا شـرع خير الأنبيـاء
وجرَوْا فيمـا أنيطـوا به من فصل القضاء
نـهج عدل واحتفـاظ بحقـوق الضعفـاء
لا يراعـون ملـوكـا أو كبـار الـوزراء
يجعـلون الحق أعلى من حقوق الرؤسـاء
فـالذي يطعـن فيهم فاقد وصف الحيـاء

----

وأيَّدَ الحافظ أبو عمر، رحمه الله، ما أفاده في البيتين بقوله:

{ لأن الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين، وأئمة الفتوى من المسلمين، من السلف الماضين، هو ملاك الدين}.

ثم أطال في الاستدلال بفعل زيد بن ثابت، إذ كان يأخذ من معاوية وابنه يزيد، وبأخذ عبد الله بن عمر، وهو من هو في الزهد والورع، من صهره المختار ابن أبي عبيد، وسيرته مشهورة، وبفتوى سيدنا عبد الله بن مسعود للرجل الذي سأله: هل يأكل طعام جار له يعمل بالربا، ولا يجتنب الحرام؟ فقال له: نعم؛ لك المهنأ، وعليه المأثم.

ثم ذكر جماعة من التابعين الذين كانوا يقبلون جوائز الخلفاء والملوك من غير نظر إلى المال المأخوذ؛ هل كان أصله من حله أم لا، كالشعبي، والنخعي، وسائر علماء الكوفة، والحسن البصري، وسائر علماء البصرة، والفقهاء السبعة بالمدينة، ومالك، والشافعي، وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق. وكان سفيان الثوري مع ورعه وفضله يقول: جوائز السلطان أحب إلي من صلة الإخوان، لأن الإخوان يمنون . ثم قال:

{ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير، وقد جمع الناس فيه أبوابا. ولأحمد بن خالد، فقيه الأندلس وعالمها، في ذلك كتاب حمله على وضعه وجمعه؛ طعن أهل بلده عليه في قبوله جوائز عبد الرحمان الناصر، إذ نقله إلى المدينة بقرطبة، وأسكنه داراً من دور الجامع قربه، وأجرى عليه الرزق من الطعام والإدام والناضّ، وله ولمثله في بيت المال حظ، والمسئول عن التخليط فيه هو السلطان، كما قال عبد الله بن مسعود: لك المهنأ،

وعليه المأثم، ما لم تعلم الشيء بعينه حراما. ومعنى قول ابن مسعود هذا، قد أجمع العلماء عليه، فمن علم الشيء بعينه حراماً مأخوذاً من غير حله، كالجريمة وغيرها وشبهها من الطعام أو الدابة، وما كان مثل ذلك كله من الأشياء المتعينة غصبا أو سرقة، أو مأخوذة بظلم بيِّن لا شبهة فيه، فهذا الذي لم يختلف أحد في تحريمه، وسقوط عدالة آكله وأخذه وتملكه. وما أعلم من علماء التابعين أحداً تورع عن جوائز السلطان، إلاّ سعيد بن المسيِّب بالمدينة، ومحمد بن سيرين بالبصرة. وهما قد ذهبا مثلا في التورع، وسلك في ذلك سبيلهما أحمد بن حنبل، وأهل الزهد والورع والتقشف، رحمة الله عليهم أجمعين}. قال ابن عبد البر:

{والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل. ولا يحل لمن وفقه الله تعالى وزهد فيها، أن يحرم ما أباح الله تعالى منها. والعجب من أهل زماننا يعيبون الشبهات، وهم يستحلون المحرمات. ومثالهم عندي كالذين سألوا عبد الله بن عمر، رضي الله تعالى عنهما، عن المُحْرِم يقتل القراد والحلمة، فقال للسائلين له من أنتم؟ فقالوا: من أهل الكوفة. فقال: تسألوني عن هذا، وأنتم قتلتم الحسين بن علي!}هـ[بنقل نفح الطيب:161/2].

ثم أتى بأحاديث تدل على أن اقتناء المال وأخذه، إن كان بدون استشراف ولا مسألة، فهو حلال جائز أخذه والتمتع به والتصدق.

## [رأي الإمام الغزالي في الموضوع]

أما الإمام الغزالي، فبعد أن ذكر حجج المجيزين، وذكر جماعة لم يذكرهم الحافظ ابن عبد البر، قيَّد إطلاق التحليل، بتقسيم وتفصيل، فقال:

{ والجواب أن ما نقل من أخذ هؤلاء، محصور قليل بالإضافة إلى ما نقل من ردهم وإنكارهم، وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع، فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاوتهم في الورع، فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات}:

{الدرجة الأولى: أن لا يأخذ من أموالهم شيئا أصلا، كما فعله الورعون، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون، حتى إن أبا بكر، رضي الله عنه، حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال، فبلغ ستة آلاف درهم، فغرمها لبيت المال. وأتى نحو ذلك عن عمر}. وأيد ذلك التشديد بأحاديث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

{ الدرجة الثانية: وهو أن يأخذ مال السلطان. ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال؛ فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لا يضره. وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها، أو ما اختص منها بأكابر الصحابة والورعين منهم، مثل ابن عمر}. وأفاض في شرح حال هذا السيد في الورع. ثم قال:

{الدرجة الثالثة: أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء، أو يفرقه على المستحقين، فإن ما لا يتعين مالكه؛ هذا حكم الشرع فيه}. قال:

{قال ابن المبارك: إن الذين يأخذون الجوائز اليوم، ويحتجون بابن عمر وعائشة؛ ما يقتدون بهما، لأن ابن عمر فرق ما أخذ، حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقته ستين ألفا، وعائشة فعلت مثل ذلك. وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به، وقال: رأيت أن آخذ منهم وأتصدق، أحبّ إليّ من أن أدعها في أيديهم. وهكذا فعل الشافعي}. ثم قال:

{الدرجة الرابعة: أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق. بل يستبقي، ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال، وهكذا كان الخلفاء في زمن الصحابة، رضي الله عنهم، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين، ولم يكن أكثر مالهم حراما، ويدل عليه تعليل علي، رضي الله عنه، حيث قال: فإن ما يأخذه من الحلال أكثر. فهذا مما قد جوزه جماعة من العلماء تعويلا على الأكثر}. ثم قال:

{وإنما منعنا إذا كان الأكثر حراما، فإذا فهمت هذه الدرجات، تحقّقت أن إدرارات الظلمة في زماننا، لا تجري مجرى ذلك، وأنها تفارقه من وجهين: أحدهما: ان أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا والحلال هوالصدقات والفيء والغنيمة، ولا وجود لها، وليس يدخل منها شيء في يد السلطان، ولم يبق إلا الجزية، وانها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به}. قال: {ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصَبُّ إليهم

من الخراج المضروب على المسلمين، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم؛ لم يبلغ عشر معشار عشيره}.

{والوجه الثاني أن الظلمة في العصر الأول، لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين، كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشون مجالسهم، ولا يكثرون جمعهم، ولا يحبون بقاءهم، بل يدعون عليهم، ويطلقون اللسان فيهم}. قال:

{ فأما الآن؛ فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم، والتكثر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، والتجمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء، والتزكية والإطراء، في حضورهم ومغيبهم}. قال:

{ فمن استجرأ على أموالهم، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاس الملائكة بالحدادين، ففي أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم، وخدمة عمالهم، واحتمال الذل منهم، والثناء عليهم، والتردد إلى أبوابهم، وكل ذلك معصية}هـ[ باختصار من إحياء علوم الدين: 121/2].

ثم ذكر في الباب بعد هذا، من "الإحياء"؛ حالة الاتصال والمخالطة للولاة والعمال والظلمة، وأنها تنقسم إلى ثلاثة أحوال: الأولى، وهي شرها، أن تدخل عليهم. والثانية، وهي دونها، أن يدخلوا عليك. والثالثة، وهي الأسلم، أن تعتزل عنهم، فلا تراهم ولا يرونك.

ثم ذكر الحالة الأولى، وهي الدخول عليهم، فقال إنه مذموم جدا في الشرع. وذكر ما ورد في ذمه من الحديث والآثار، ففي الحديث، لما وصف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الظلمة قال:" فمن نابذهم نجا، ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم، ومن وقع معهم في دنياهم، فهو منهم". وقال: وفي الخبر: العلماء أمناء الرسل على عباد الله، ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل، فاحذروهم واعتزلوهم. وفي الآثار عن حذيفة: "إياكم ومواقف الفتن". قيل وما هي؟ قال: "أبواب الأمراء"، إلخ. وقال أبو ذر لسلمة: يا سلمة: لا تغش أبواب السلاطين، فإنك لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من

دينك أفضل منه. وقال أبو ذر: من كثر سواد قوم فهو منهم، أي من كثر سواد الظلمة. وقال ابن مسعود، رضي الله عنه: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج ولا دين له.[هـ باختصار من الإحياء:125/2].

ثم استمر الغزالي في ذكر الآثار الزاجرة عن مخالطة الأمراء الظلمة، والاتصال بهم، والانخراط في أسلاكهم، مما منه نفهم مقالة شيخنا المذكور،[أي الفقيه الزواقي المترجم].

[نكبة الشيخ أحمد بابا السوداني
في عهد المنصور السعدي]

وقد ألّف في هذا الموضوع، العلامة الشيخ أحمد بابا السوداني تويلفا خاصا بالموضوع وسماه: "جلب النعمة، ودفع النقمة، بمجانبة الظلمة، وذوي الظلمة"، وقسمه إلى أربعة فصول وخاتمة. الفصل الأول: فيما في ذلك من الكتاب والسنة. الثاني: فيما ورد عن السلف الصالح فمن بعدهم. الثالث: ما جاء من كلام الحكماء وأهل التجربة. والرابع: في ذكر شيء مما وقع عن بعض من ابتلي بذلك من المصائب، وجاء فيه من الآي الزاجرة والأحاديث المنفرة، ومواعظ السلف الصالح، وإرشاد الحكماء النبلاء؛ بما فيه مقتع لمن ألقى السمع وهو شهيد. بحيث إن من قرأ هذا التويلف اللطيف، ووقع معناه منه موقع القبول؛ فرّ من هؤلاء الطغاة فراره من الأسد الضاري، وتجافاهم تجافي الصحيح المحافظ على صحته من ذي المرض المعدي، واتقى التعلق بأسباب دأبهم المردي، فما صدَر إلا عن خبير بأساليب الظلم، ذائق لمرارته، صالٍ من جحيمه، إذ غدا عليه في عقر داره ذاك القائد الحربي المسمى محمود، وهو عند الله، بجرأته على هذا العالم الطاهر، مذموم، وقبض عليه وعلى أهله وذويه، واستحل حرمتهم، وأباح مالهم ومتاعهم، وجعلهم نهبة للناهبين، وغنيمة للمهاجمين، دون تقدم إجرام، ولا تلبس بقبيح الآثام، وجيء بهم مصفدين في الحديد في حالة سيئة.

فإن كتب هذا العالم في شأن أهل الظلم؛ فما كتب إلا ما شاهده عن ذوق، وما أنكر منهم إلا ما رآه عين اليقين، فلقد جرى عليه، رحمه الله، في تلك القضية السوداء، والفعلة السوء، ما أبكى العيون دما، وكاد بها أن يصير وجود أهل العلم عدما. فإن كانت تصدر من

المنصور السعدي، رحمه الله، حسنات، فقد أذهبها بارتكاب هذه السيئات، إذ أبقت في وجه صلاحه نكتة سوداء غيرت عليه قلوب أهل الدين، وأغارت على حماه أقلام المؤرخين. قال القادري في " نشر المثاني"، عند ذكر ترجمة الشيخ أحمد، بعد ذكر ما وقع له من المحنة:

{ولمثل هذا تبكي البواكي. فلو اجترم إقليم بعد جناية أهله بما يوجب عقوبة جميعهم لمثل هذا العالم الوحيد القدر، العلي الذكر، الذي به وبأمثاله يحق الفخر، لقلة وجود مشاكله في الدهر، لكان ذلك أمرا أكيدا، وفعلا حميدا. ثم استولى على من تعرض لهذا الأمر الفظيع، والفعل الخسيس الشنيع، داعي الهوى والشيطان، حتى باء بالبعد والخسران، فكان ختام أمره، وفي مثالب ذكره، فأصبح من العار بمكان، وكان من أمره ما كان، ولابد لكل عامل أن يقدم على عمله، ويُسقى ما هيأه لغيره دون أمله. حفظنا الله من معاداة أوليائه، وجعلنا من أهل قربه واصطفائه}. هـ [152/1].

وبعد أن قضى الله بخروجه من السجن بمراكش، عاد إلى بساطه العلمي كأن لم تكن القاضية، مجدًا في دروسه المتوالية، والطلبة على مجلسه الحافل متتالية، تنهال جموعها عليه من كل دانية وقاصية، وهو يلقي إليهم من علومه المختلفة الفنون، ما يشرح الخواطر ويقر العيون. وهو مع هذا محتفظ بهمته العالية؛ لم تنزله تلك المحنة عن رفعة نفسه الأبية، مستمسك في ذلك بالتقوى، معتصم بحبل الله الأقوى.

ولما أطلق سراحه، وعاد للعلم به انشراحه، دخل على المنصور في قصره البديع، وهو في حرزه المنيع، فألفاه بالحجاب مقتديا بخلفاء بني العباس، إذ اتخذ ظلة مسدولة عليه، حائلة بينه وبين الناس، فيكلم الناس من وراء حجاب. فلم يرتع الشيخ من ذلك، ولم يخجل من سطوته، ولا هابه ما كان عليه من رفعته وصولته، بل خاطبه خطاب القرين لقرينه، وما تضعضع جبله الراسي من هذا الأسد في عرينه، وقال له: إن الله يقول (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ)، وأنت قد تشبهت برب الأرباب. فإن كان لك حاجة في الكلام، فانزل إلينا، وارفع عنا الحجاب. فنزل المنصور، ورفعت الأستار، فقال له الشيخ: أي حاجة لك في نهب متاعي، وتضييع كتبي، وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا، حتى سقطت من ظهر الجمل، واندقت ساقي؟ فقال له المنصور: أردنا أن تجتمع الكلمة، وأنتم في بلادكم من أعيانها؛ فإن أذعنتم أذعن غيركم. فقال الشيخ: فهلاً

جمعت بترك تلمسان، فإنهم أقرب إليك منا. فقال المنصور: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "اتركوا الترك ما تركوكم". فامتثلنا الحديث. فقال الشيخ: ذاك زمان. وبعده قال ابن عباس: لا تتركوا الترك وإن تركوكم. فسكت المنصور.

وبكل حال، فإن الظلم عاقبته وخيمة، والإصرار عليه موجب لمقت الله وغضبه، وانحلال في العقيدة. وإعانة الظالم وخدمته والتعلق بشيء من أسبابه، يشمله الوعيد الوارد فيه، وفي القرآن الكريم: (فَلَن اكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)، أي معينا لهم. قال ابن عطية في تفسيره:

{استدل العلماء بهذه الآية، على منع خدمة الظلمة، ومعونتهم في شيء من أمورهم. ورأوا أنها تتناول ذلك. نص على ذلك عطاء بن أبي رباح وغيره}هـ.

[الولايات ليست مذمومة لذاتهـــا
بل هي من المصالح العامة]

ثم بعد هذا، يجب أن يعرف القارئ أن الولايات من حيث هي، غير مذمومة لذاتها، ولا محرم الارتسام فيها، في ماضيها وآتيها. بل الولايات كلها، من الإمارة والقضاء، وسائر الوظائف التي تحتاج إليها الأمة في دولها، وتسيير أحوالها الدينية والدنيوية؛ هي من الواجبات على الأمة القيام بها وجوبا كفائيا، بحيث لابد من قيام طائفة منهم بتلك المصالح العامة.

وزيادة على ذلك، فالولاة القائمون بالقسط والإخلاص في مصالح العباد، لهم أجر عظيم، وثواب جسيم. وناهيك أنهم من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، حسبما سبق.

قال في "التبصرة"، في حق القاضي، وهو شامل لكافة الولاة:

{إعلم أن أكثر المؤلفين من أصحابنا وغيرهم، بالغوا في الترهيب والتحذير من الدخول في ولاية القضاء، وشددوا في كراهية السعي فيها، ورغبوا في الإعراض عنها، والنفور والهروب منها، حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء، أن من ولي

القضاء فقد سهل عليه دينه، وألقى بيده إلى التهلكة، ورغب عما هو الأفضل، وساء اعتقادهم فيه}.

{وهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه. والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف، ومعرفة مكانته من الدين. فبه بعثت الرسل، وبالقيام به قامت السماوات والأرض. وجعله النبي، صلى الله عليه وسلم، من النعم التي يباح الحسد عليها، فقد جاء من حديث ابن مسعود، رضي الله تعالى عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعمل بها." وجاء من حديث عائشة، رضي الله تعالى عنها، أنه صلى الله عليه وسلم، قال: "هل تدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال:" الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وإذا حكموا للمسلمين، حكموا كحكمهم لأنفسهم}. إلى أن قال:

{ فالتحذير الوارد من الشرع، إنما هو عن الظلم، لا عن القضاء، فإن الجور في الأحكام واتباع الهوى فيه، من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر. قال الله تعالى: (وأمَّا القاسِطُونَ فكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)، وقال صلى الله عليه وسلم: " إن أعتى الناس على الله، وأبغض الناس إلى الله، وأبعد الناس من الله، رجل ولاه الله من أمر أمة محمد شيئا؛ ثم لم يعدل بينهم}.هـ [تبصرة الحكام لابن فرحون:8/1].

وبهذا الحديث الأخير يتبين لك بلا مَين، ويتضح لك اتّضاح الصبح لذي عين، أن هؤلاء الولاة الجائرين الذين همتهم مصروفة لسلب الأموال وإضاعة الحقوق، والإعراض عن حفظ الأعراض، وسعيهم الحثيث في نيل ما تهوى أنفسهم من الأغراض، هم أبعد الناس من رحمة الله ورضوانه، وأقربهم إلى طرده وإبعاده. وهذه الحالة هي التي نظر إليها من خشي على هؤلاء الولاة المخزنيين من خاتمة السوء وخروجهم من هذه الدار عراة من حلة الإسلام. والله يقينا مما يردينا، ويختم لنا بالحسنى، وينزلنا عنده تعالى بمقعد صدق، وهو المقام الأسنى.

وبعد هذا، فإن أهل المخزن في عصرنا، وفيما قبله هم على قسمين:

قسم يرتكب هذه الأوزار، وهو وجل خائف من غضب الواحد القهار، فهذا يرجى له الرجوع إلى ربه بالتوبة والاستغفار.

وقسم هو منهمك في طغواه، متبع لهواه، ولا تخطر بباله توبة، ولا يرعوي لنصح ناصح، ولا بوعظ واعظ، بل عبد الدينار والدرهم، يقضي ليله ونهاره في تدبير الحيل للجمع، ويصرف أفكاره كلها في أخذ ما يضعه في الجيب. فهذا رجل سيء الحالة، مآله إلى الخسران لا محالة.

وفي هذين، نقل العلامة سيدي أحمد بن مبارك اللمطي، عن شيخه سيدي عبد العزيز، أنه سمعه يقول:

{إن في أرباب المخزن وأهل الظلم من هو مؤمن متعلق القلب بربه سبحانه، وفيهم من هو منقطع عن الله عز وجل. وعلامة ذلك الانقباض والانبساط، فمن كان منهم منقبضا متغيرا، يعلم أنه مخالف لأمر ربه، مطيع لغيره، متكدر البال، متغير الحال؛ فذلك هو الأول. فهو من الناجين في الآخرة بعد الحساب والعقاب، والملام والعتاب، إلا أن يعفو الله سبحانه. ومن كان منهم حالة ظلمِه مُنبسطا فرحاً مسرورًا، لا حزن عليه ولا خوف؛ فذلك هو الثاني. فهو يستحلي المعصية وظلم العباد، كما يستحلي الجُعل النجاسات وأكل القاذورات. قلت: وقد سبق أنه من أشد الناس عذابا يوم القيامة.} هـ [الإبريز: 199/1].

---

### [ختم ترجمة الشيخ الزواقي بذكر الوظائف التي تقلدها

أما شيخنا المترجم، فقد تولى القضاء مراراً؛ فقد استقضى بتطوان ثم أخر عنها، ثم بالقصر الكبير، ثم أعفي منه، ثم بتطوان ثانيا، ثم لما رتب القضاء في الأيام الأخيرة، وقسمت نواحي منطقة الشمال الخليفية إلى خمس:

الناحية الجبلية، وهي ناحية تطوان.

والناحية الغربية، وهي ناحية العرائش.

والناحية الغمارية، وهي ناحية شفشاون.

والناحية الريفية، وهي ناحية "بيَّا".

والناحية الشرقية، وهي ناحية الناظور.

فعُين شيخنا المذكور قاضياً بالناحية الجبلية. وقد كان في أول أمره استكتب بالنيابة السلطانية بطنجة، إذ كان النائب إذ ذاك السيد الحاج محمد الطريس. ولكنه سرعان ما انقلب على عقبه لمسقط رأسه، إذ لم يكن يصلح لتلك الخطة ولا تصلح له، إذ شيخنا كان فقيها صرفا لم يتعاط علم الأدب الذي هو أحد أسباب المران في الإنشاء. كما أن الكتابة في ذلك الوظيف جماعها مكاتبة الأجانب من السفراء وغيرهم، وشيخنا، رحمه الله، لا يليق به ذلك، لما فيه من مخاطبة الأجانب بصفة التعظيم والإطراء. وقد كنت[أسمع]أن سبب تخلي شيخنا المذكور عن ذلك الوظيف، هو ما كان عنّ للنائب من مخاطبة أحد الأجانب. فقيل له: لابد أن تخاطبه بما يشعر بتعظيمه، كالسيادة ونحوها. فاشمأز شيخنا من ذلك، فاستعفى فأعفي.

وبالجملة، فشيخنا، وهو الفقيه الخالص، لم يكن لائقا أن يُرسم في تلك الخطة التي لا مسيس له بها.

ولقد كان أخبرني، رحمه الله، أنه لما احتل الجيش الإسباني تطوان، وقام أهل الجبال في وجه الجيش المذكور، ولم ينقادوا للدخول تحت الطاعة، ورأى الرئيس الإسباني إذ ذاك، أن يستميلهم بطريق السياسة، وأن يكتب إليهم بالموعظة الحسنة، والنصيحة لهم بالطاعة لحقن دمائهم، حسبما زعم، وطلب من الوزير إذ ذاك أن يستدعي علماء المدينة ليتولوا ذلك، عسى أن ينقادوا ويستجيبوا لدعوتهم، وكان الوزير طلب منهم أن يُضَمّنُوا كتبهم بالآيات الوعظية وما يناسبها، وكان شيخنا من جملة العلماء الذين طلب منهم ذلك. قال شيخنا: فقلت للوزير: إني جاهل بهذا المنحى، ولا أستطيع الجريان في هذا الميدان، لأني لا أقدر أن ألفق بين كلمتين، حتى إني في الأمر الذي هو من خطتي، إذا أردت أن أكتب وثيقة في أي موضوع كان، فلابد من إحضار كِتاب "الوثائق" لأنقل ذلك منه. أو كلاما هذا معناه.

قلت: وهذا من شيخنا، رحمه الله، مبالغة أراد بها التنصل والتفصي من هذه المهواة التي أراد الوزير أن يوقعه فيها، والموقف الحرج الموبق الذي حاول أن يُركسه

فيه، وإلا فشيخنا يقدر على ذلك وأكثر منه، إذ المطلوب منه كان إنما هو إفادة المعنى، لا الإتيان بإنشاء ابن المقفع أو الجاحظ أو عبد الحميد.

على أن إنشاء شيخنا في مكاتبته لا بأس به، غاية ما يقال إنه إنشاء فقيه، وإليك لفظ كتاب كان كتبه إليّ بخط يده، وهو قاضي المدينة:

(الفقيه العلامة سيدي محمد المرير، سلام عليك ورحمة الله. وبعد: فقد تعددت المكاتب من المراقبة في شأن دعوى أحمد الصردو في شأن تصرف زاوية سيدي أبي جيدة أمحلي، وان المراقبة وجهت لهذه الإدارة كتابا من قاضي القضاة في ذلك، وقع الجواب أولا وثانيا. ومضمن الثاني أننا لم نعثر في هذه الإدارة على كتاب من قاضي القضاة المتعلق بما ذكر. وإنا قد سألنا الخليفة في ذلك الوقت، فلم نحصل منه على طائل، إلا أنه قرب جلوسي، أتاني بحوالة أحباس سيدي أبي جيدة وظهائر، ذاكراً ان القاضي السابق أمره أن لا يدفع ذلك إلا لي) الخ.

وفي كتاب آخر لفظه:

(حبنا الفقيه العلامة سيدي محمد المرير، حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله. وبعد: فقد وصل كتابك يوم الجمعة 30 رجب، وبطيه كتاب قاضي القضاة المتعلق بدعوى أحمد الصردو، وورقة مصدرة: الحمد لله. ملخص شكاية السيد أحمد الصردو. فطب نفسا والسلام. في فاتح شعبان 1353. أحمد الزواقي).

هذا أنموذج من إنشائه، رحمه الله، وهو لا بأس به، بل يعد في المرتبة الوسطى.

أما تلقيه العلم، فكان أولا بتطوان، فقرأ على علماء عصره. منهم الفقيه البقالي، والفقيه غيلان، والفقيه عزيمان، والفقيه النجار، وغيرهم. وقرأ عليه جماعة كثيرة ممن عاصرنا، كشيخنا الرهوني وكثير من أصحابنا. وقرأ بفاس على جهابذة كبار؛ كالفقيه الوزاني، والفقيه بناني، وشيخ الشيوخ سيدي أحمد ابن الخياط، وهو عمدته، وإليه كانت وجهته، وهو في كل مقاصد علمه قبلته.

أما التأليف، فإنه لم يكن يعانيه، ولا يميل لتأسيس مبانيه، كما أسلفنا، ولأن أوقاته كانت بالتدريس معمورة، وعلى تحقيق أنصبائه مقصورة، إلا من تحرير الفتاوى في الخصام، وما يجري بين يدي القضاة في الدعاوي والأحكام، وقد قدمنا الإشارة أنها كانت

كثيرة، وأنها لو جمعت لملأت الأسفار، وما كان يعلقه أيضا على الشروح والمتون التي كان يدرسها مع الطلبة. ولم يزل رحمه الله مواظبا على التدريس، ملازما للإفادة، إلى أن عجز آخر عمره.

أثابه الله على عمله المبرور، وجزاه على ما أسداه إلينا وإلى غيرنا من المعارف جنة ذات النضرة والسرور. وكانت وفاته، رحمه الله، عام أحد وسبعين وثلاثمائة وألف، عن نحو خمس وتسعين سنة(95 ).

---

### شيخنا الفقيه سيدي أحمد العمراني
### [مقروءات المؤلف عليه - طريقته في الإقراء]

وقرأت على شيخنا الفقيه المتواضع، أبي العباس، سيدي أحمد بن محمد العمراني، اشتهر بالغماري، نسبة إلى قبيلة غمارة الشهيرة: الأجرومية، والألفية من أولها إلى آخرها؛ فكانت في المرة الأولى "بشرح" الشيخ المكودي فقط، وفي المرة الثانية بإضافة "موضح" ابن هشام. وكنت أتولى قراءة "الموضح". و"لامية الأفعال" لابن مالك، قرأتها عليه من أولها إلى آخرها، و"جمل المجراد" كذلك، و"المرشد المعين"، وجملة من صدر "تحفة" ابن عاصم، وجملة من "الرسالة" لابن أبي زيد، وأبوابا كثيرة من"مختصر" الشيخ خليل، قبل الرحلة لفاس وبعدها، وجملة كثيرة من" شفاء" القاضي عياض، ومن "صحيح" البخاري.

وكانت، رحمه الله، قراءته مفيدة، حيث كان يقتصر على المتن وما لابد منه من الشرح، وهي القراءة المفيدة للطالب المستفيد. وبهذه القراءة كان يوصي العلماء الذين يرشدون المدرسين إلى الطريق الأنفع، ويبذلون النصيحة لمن يتحرى المناهج المستقيمة الصحيحة. وقد كنا ذكرنا آنفا ما كتب به الإمام القصار لتلميذه الشريف العلمي، عالم شفشاون، وفيه: "وفرحت به، أي بإقرانك "الرسالة"، لاسيما إذا اقتصرت على المحتاج إليه وختمتها سريعا".

وقد كنت رأيت في "نيل الابتهاج"، عن بعض العلماء المترجمين فيه ما معناه أن الأهم في الإقراء، هو حل المتن، وما يحتاج إليه في فهمه، وما سوى ذلك من الأبحاث والحواشي فيه تشويش لفكر الطالب. هذا معناه، بل في" قانون" الشيخ اليوسي ما لفظه:

{وقيل حد الإقراء تصحيح المتن، وحل المشكل. والزيادة على هذا ضررها بالمتعلم أكثر من نفعها} هـ.[ص 2 ملزمة 17].

وكان يقول بعض أشياخنا في خصوص إقراء "جمع الجوامع"بـ"شرح" المحلي: لو اقتصر المعلم على تفهيم المحلي، وقيد تلك الأبحاث والإشكالات التي في الحواشي عن اللقاني والعبادي وغيرهما؛ لحصل التلميذ على الإحاطة بعلم الأصول في أقرب وقت.

\- - -

### [طريقة الإقراء النافعة<br>لطالب العلم، وما طرأ عليها من تغيير]

قلت: وأنا أقول كذلك. لو وقع الاقتصار في قراءة "مختصر" خليل على الشارح الدردير، دون استدراك فروع أو تنبيهات، وختم المختصر عاجلا، لأحاط التلميذ بذلك الفقه في أقرب وقت، وكذلك في "الألفية" بالمكودي، أو ابن عقيل، و"التلخيص" في الفنون البلاغية بختم "مختصر" السعد، لحصلت الملكة للطالب في فنون البلاغة في مدة قصيرة، وهكذا.

ولكن تلك الأبحاث والتذييلات التي أولع بها المتأخرون في الإقراء، حالت دون تحصيل مقاصد العلوم بسرعة، أو أدت إلى الانقطاع أو الملل. وهذا المعنى هو الذي كنا نسمعه مأثورا عن الأشياخ الذين يحافظون على مناهج التحصيل، وينأون عن إضاعة الوقت للطالب بإيراد ما لا حاجة به من الأبحاث والتطويل، فيقولون: الحمراء الحمراء. يعني: يجب على المدرس أن يقتصر على تعليم المتن، إذ كان المعهود في الكتب الخطية أن يكون المتن مكتوبا باللون الأحمر. وعليه أن يعلم ويفهم الطلبة معناه ولا يزيد على شرحه، لأن الطالب في ابتداء تعلمه لا يتحمل تلك الأبحاث الزائدة على المتن. بل إذا ألقي إليه ما لا

يبلغه إذ ذاك عقله ولا يسهل عليه إدراكه، أورثه ذلك نفورا وتباعدا عن التعلم. وإليه يشير قول أبي حامد في "الإحياء"، في الوظيفة السادسة من وظيفة المعلم، إذ قال:

{الوظيفة السادسة: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه مالا يبلغه عقله، فينفره أو يخبط عليه عقله، اقتداءاً في ذلك بسيد البشر، صلى الله عليه وسلم، حيث قال: " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم". فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقال، صلى الله عليه وسلم: " ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم ". وقال علي، رضي الله عنه، وأشار إلى صدره: إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة} هـ [51/1 ].

وهذه الطريق يسهل بها على المعلم إلقاؤها، ولا يصعب على المتعلم تلقيها وفهمها، وتعظم عليه فائدتها ونفعها، ويحصل له في أقرب وقت جمعها وختمها، وبها كان الأقدمون يختمون المصنفات الكبار على الشيوخ ويأخذونها عنهم كالمدونة في الفقه وابن الحاجب وغيرهما، ويروون "صحيح" البخاري ومسلم، والسنن الأربعة، و"الموطأ"، وغير ذلك، ويأخذونها عن أشياخهم مشافهة في أقرب وقت، كما كانوا يفعلون ذلك في سائر مصنفات العلوم من التفسير وغيره. وكانوا في مدة يسيرة يحصلون على علوم غزيرة، من غير جمع وقيل وقال، وإيراد إشكالات في السؤال.

أما الذي مارس الفن المقروء، وضبط قواعده الأولية، واستشرف لما هو أعلى من المباحث العالية، والنكت الدقيقة، فهذا يجب على المعلم أن يفسح له في الدرس، ويجاريه في ميدان البحث، لأنه الآن في المرحلة العليا. وقد بين اليُوسي في "القانون" كيفية إلقاء الدروس في الجملة، وذكر في ذلك طريقين فقال:

{فالواجب في ذلك إذا جلس ـ أي المدرس ـ أن يصغي إلى القارئ؛ حتى إذا فرغ من القدر المحتاج إليه، شرع هو بعد ما مر من الاستفتاح، فاشتغل في تقرير الكلام وتصويره بعبارة تليق بالحاضرين، وللناس في ذلك عند الدرس والتصنيف صنعتان: أحدهما أن يلتقط الألفاظ المفردة فيفسرها لفظا لفظا، ويحرر فيها اللغوي والشرعي والعرفي، والحقيقة والمجاز، والمنفرد والمشترك، ونحو ذلك، والمفرد والتثنية، والجمع المصحح والمكسر، والمصروف والممنوع، والمصحح والمُعل، ونحو ذلك، حتى إذا فرغ

منها، رجع إلى التراكيب ففسرها وبين التصدير بعد التصور. ثانيهما أن يخلط الكل ويضربهما ضربة؛ ففي كل تركيب يبين مفرداته ونسبته. والأولى أحظى بتحرير المفردات على ما ينبغي، ولكن لا تخلو من صعوبة على المبتدئ وتهويل عليه، فهي لائقة بالمتوسط والمنتهي. والثانية أرفق.} هـ[ص7 ملزمة16] .

وهذان الطريقان هما اللذان كانا عليهما أشياخنا، وكنا نحن على آثارهم سائرين؛ إلا أن العادة كانت أن يلقي المعلم الدرس بحسب ما في الشرح. ثم بعد تقريره يطلب من القارئ أن يقرأ الشرح، فإن بقي هناك جملة لم تفسر، تعرض الشيخ لتفسيرها.

وبعد هذا، فأحسن شيء في بيان موضوعنا، وأصح شاهد على ما قررنا، ما حرره العالم الإجتماعي الولي ابن خلدون، وهو المعلم الأكبر، الذي شرق وغرب، وأبحر وأصحر، وامتحن العقول واختبر، وفكر في ذلك وقدر، فكان عند جهينة التعليم يقين الخبر، إذ قال:

{إن تلقين العلوم للمتعلمين، إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا، وقليلا قليلا، يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن. وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة. وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته. ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك له عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه، وفتح له مغلقه، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته}.

{هذا وجه التعليم المفيد. وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك}. قال: {وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا، يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويحضرون المتعلم في أول تعليمه، المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن

يستعد لفهمها، فإن قبول العلم، والاستعدادات لفهمه، ينشأ تدريجيا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال، وبالأمثال الحسنة، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد، ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفن، وإذا ألقيت إليه الغايات في البدايات، وهو عاجز حينئذ عن الفهم والوعي، وبعيد عن الاستعداد له، كلَّ ذهنه، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه، وانحرف عن قبوله، وتمادى في هجرانه، وإنما ذلك من سوء التعليم}

{ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعلم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم، مبتدئا كان أو منتهيا. ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما، في علم من العلوم، استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم. وإذا خلط عليه الأمر، عجز عن الفهم، وأدركه الكلل، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم. والله يهدي من يشاء.}

{ ومن المذاهب الجميلة، والطرق الواجبة في التعليم؛ أن لا يخلط على المتعلم علمان معا، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منها لما فيه من تقسيم البال، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله.} هـ [المقدمة: ص486].

وهو كلام واف بالمراد، مستحق بأن يجعل أساساً لتنظيم التعليم الإسلامي، ومادة لتفصيل فصوله، لو وفقنا الله، ولكنا قابلنا كل ما أسسه لنا الآباء والأجداد بالإهمال، وأضعنا ما رسموه لنا من مسالك السعادة وبلوغ الآمال، وأطعنا دواعي التواني والكسل، فضللنا عن قصد السبيل، وصرنا بذلك عالة على غيرنا نستمد منه حيث لا يجود لنا إلا بالقليل الذي يردينا، ويضلنا عن الوصول إلى الغاية من علومنا الموروثة ولا يهدينا. والأمر لله من قبل ومن بعد.

هذا ما يتعلق بكيفية إلقاء الدروس للمتعلمين. أما الفنون التي تدرس وترتيبها، فقد سبق أول الجزء الأول، وما كانت العادة في ذلك عليه بالمغرب وتونس والأندلس، وما قاله في ذلك ابن خلدون، وما كان يراه ابن العربي في الترتيب. وأنا هنا أذيل هذا الموضوع بما قاله حافظ المغرب، وفخر الأندلس وإمامها، أبو عمر ابن عبد البر؛ لِما رأيت فيه من الرقة والرونق والطلاوة، ومن الإرشاد والنصيحة لمن رام الاستنارة بنور علوم الديانة، على مقتضى ما كان عليه السلف الصالح، إذ قال:

(باب رتب الطلب، والنصيحة في المذهب) قال أبو عمر: طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها. ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف، رحمهم الله. ومن تعدى سبيلهم عامدا ضلّ، ومن تعداه مجتهدا زلّ، فأول العلم حفظ كتاب الله، جل وعز، وتفهمه. وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه. ولا أقول إن حفظه كله فرض. ولكن أقول إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالما؛ ليس من باب الفرض.

ثم ساق بسنده إلى الضحاك في قوله: ( كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُم تَعْلَمُونَ الكِتَابَ). قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها. فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب، كان له ذلك عونا كبيرا على مراده منه، ومن سنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه، ويقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك. وهو أمر قريب على من قربه الله عليه. ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبها يصل الطالب إلى مراد الله، جل وعز، في كتابه. وهي تفتح له أحكام "القرآن" فتحا. وفي سير رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تنبيه على كثير من الناسخ والمنسوَخ في السنن. ومن طلب السنن، فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ، الذين جعلهم الله خزائن علم دينه، وأمناء على سنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كمالك بن أنس الذي قد اتفق المسلمون طرّا على صحة نقله، وتفاوت حديثه، وشدة توقيه وانتقاده، ومن جرى مجراه من ثقات علماء الحجاز والعراق والشام، كشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وابن عيينة، ومعمر، وسائر أصحاب ابن شهاب الثقات. ثم ذكر جماعة من العلماء الثقات الحاملين لحديث رسول الله وسنته، صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

{وممّا يستعان به على فهم الحديث، ما ذكرناه من العون على كتاب الله، وهو العلم بلسان العرب ومواقع كلامها، وسعة لغتها، واستعارتها ومجازها، وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه، وسائر مذاهبها لمن قدر؛ فهو شيء لا يستغنى عنه. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنة والفرائض واللحن، يعني النحو، كما يتعلم القرآن. ثم صار يعضد ذلك بالنقل عن التابعين وغيرهم}، ثم قال:

{ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ويعنى بسيرهم وفضائلهم، ويعرف أحوال الناقلين عنهم، وأيامهم وأخبارهم، حتى يقف على العدول منهم من غير العدول. وهو أمر قريب كله على من اجتهد. فمن اقتصر على علم إمام واحد، وحفظ ما كان عنده من السنن، ووقف على غرضه ومقصده في الفتوى، حصل على نصيب من العلم وافر، وحظ منه حسن صالح، فمن قنع بهذا اكتفى، والكفاية غير الغنى. والاختيار له أن يجعل إمامه في ذلك، إمام أهل المدينة، دار الهجرة، ومعدن السنة. ومن طلب الإمامة في الدين، وأحب أن يسلك سبيل الذين جاز لهم الفتيا، نظر في أقاويل الصحابة والتابعين، والأئمة في الفقه، إن قدر على ذلك؛ نأمره بذلك كما أمرناه بالنظر في أقاويلهم في تفسير "القرآن". فمن أحب الاقتصار على أقاويل علماء الحجاز، اكتفى واهتدى، إن شاء الله. وإن أحب الإشراف على مذاهب الفقهاء، متقدميهم ومتأخريهم بالحجاز والعراق، وأحب الوقوف على ما أخذوا وتركوا من السنن، وما اختلفوا في تثبيته وتأويله من الكتاب والسنة، كان ذلك له مباحا، ووجها محمودا. إن فهم وضبط ما علم، أو سلم من التخليط، نال درجة رفيعة، ووصل إلى جسيم من العلم، واتسع ونبل، إذا فهم ما اطلع. وبهذا يحصل الرسوخ لمن فقهه الله وصبر على هذا الشأن، واستحلى مرارته، واحتمل ضيق المعيشة فيه}. انتهى ما قصدت نقله من كلام الحافظ الفقيه، المطلع المجتهد، أبي عمر بن عبد البر، رحمه الله ورضي عنه،[ من كتابه جامع بيان العلم:166/2].

وهو إرشاد مُوصل لمن يطلب علم الشريعة الغراء، ومفيد لمن لا يحيد عن محجتها البيضاء، مبلغ لمن استنار بمناره إلى مقام الاجتهاد، والعلم الصحيح الذي به صلاح

الحاضر والباد، والنافع يوم تجدُ كُل نفسٍ ما عمِلت من خير مُحضرا، وما عمِلت مِن سُوءٍ تَوَدّ لو أنَّ بينها وبينه أبعد الآماد. والله يُرشد لما فيه صلاحنا وصلاح العباد، آمين.

...

[الرجوع إلى ترجمة الشيخ العمراني
وذكر بعض أوصافه]

ولنرجع إلى تتميم ترجمة شيخنا الفقيه العمراني، فأقول: هو شيخنا العلامة المتواضع، الذي استفدنا منه، وانتفعنا بالقراءة عليه انتفاعا كثيرا، لعدم تكلفه في دروسه كما أسلفنا، وإنجازه سريعا المؤلفات التي ابتدأنا وختمنا. كان، رحمه الله، جميل السيرة، سليم السريرة، لا يشارر أحدا ولا يماري، ولا يناضل في ميدان التعاظم والتفاخر ولا يباري، شأنه خفض الجناح، والسكوت في المجالس حتى عن الكلام المباح، ومقابلة الإساءة بالإغضاء والسماح، هيّن الجانب ليّن الخطاب، من الذين يمشُون على الأرض هونًا، وإذا خَاطبهُم الجَاهِلونَ قالُوا سَلامًا.

ومن حسن أخلاقه، وكمال تواضعه، أنه كان يلقي إليّ بالمودة، ويجاوز في ذلك ما يقتضيه مقام الشيخوخة حده. ولقد اجتزت في بعض الأيام بمدينة أصيلة قاصدا تطوان من القصر الكبير، وأنا إذ ذاك قاض به، وهو قاض بأصيلة، والطريق إذ ذاك غير معبدة، وسير السيارات غير متسع ولا متواصل، وكان سيرنا على الدواب، فنزلت بدوابي وأصحابي وأهلي، بالزاوية المرزوقية ليلا. فلم أشعر إلا وشيخنا الفقيه المذكور معنا لائما على عدم قصد منزله، ويطلب النزول معه بحرص شديد، فصرت أعتذر له، ولكن لم يقبل شيئا من ذلك، حتى ساعدته على الذهاب إلى داره، أنا والعائلة والأصحاب، لما شاهدت فيه من الحرص بنية خالصة، وغبطة متزايدة، فقام بإكرامنا أحسن قيام، وهش وبش لذلك، وبذل في ذلك ما أمكنه من التجلة والاعتناء.

كما أني كنت مررت عليه وهو قاض بمدينة العرائش، فاستقبلني وصحبني إلى أن أركبني في القطار الذي كان بين العرائش والقصر الكبير. وبالجملة، فكان يعاملني معاملة

التلميذ للشيخ، لا الشيخ للتلميذ. جزاه الله خيرا، وفسح له في الجنان" فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ".

كان يشتغل بالشهادة بين الناس والفتوى، ويقيم بذلك أوده الذي تعم به البلوى. وهو في ذلك مقبل على شأنه، ممسك للسانه، مقتصر على ما يجدي، ولا يعيد ما يكتب للناس في شئونهم ولا يبدي، لا يلقن في التنازع خصما، ولا يحيله في مجاري دعواه على أن يرتكب ظلما ولا هضما.

## [طريقته في التدريس]

كما أنه كان يثابر على الدروس والتعليم، مرتكبا في ذلك منهج السذاجة دون تصنع ولا تظاهر بتفخيم، يلقي الدرس كيف اتفق، دون تكلف في التحبير، ولا تزيين للهجته الخلقية ولا تحبير، ويقتصر، كما سبق، على تقرير من الكتاب الذي هو بصدد قراءته، ولا يزيد على ما يفيده الشارح ويقتضيه، دون تعرض للحواشي، ولا إشغال بال الطلبة بما هو زائد على الموضوع.

وقد ذكّرني حاله هذا، ما كان وقع له أيام دراسته بالزاوية الريسونية، إذ كان في بعض الأيام أخّر عنها، فتألم الشيخ من ذلك وتأثر من قطع راتبها، وهو في حاجة اليه، فذهب إذ ذاك مغاضباً إلى أحد كبراء أصحاب العارف بالله، سيدي عبد السلام ابن ريسون، وهو الخير الديّن السيد الحاج محمد الصفار، رحمه الله، واشتكى له ما وقع من تأخيره عن الدرس دون موجب، فأجابه الصفار المذكور بقوله: أنت أيها الفقيه تجري في درسك على طريق واحدة؛ فأنت تأتي من دارك التي بزنقة المقدم قاصدا الزاوية، دون تجول ولا تفسح في المحالّ، ولا تنقل من حال إلى حال، والفقيه الذي ولي مكانك ـ وهو الفقيه ابن الأبار - ينتقل من مكان لمكان، ويجول في الطرق، ولا يقتصر على طريق واحد، وهذا أمر يصلح بالعامة وينشطهم، ويغبطهم في الحضور. وأنت حيث لا تذهب إلا في طريق واحد، لا يروقهم. فانقلب الفقيه المذكور، ولم يجد جوابا .

وجواب السيد الحاج محمد الصفار، هو جواب مقنع لطيف، ليس فيه ذم لجانب من الجانبين، بل هو مدح للمدرس القديم والمدرس الجديد، إذ المدرس القديم، وسمه بأنه

متبع للجادة، وسالك المسلك الذي هو بصدده من شرح الكتاب الذي يقرنه للطلبة من غير زيادة وخروج عن الموضوع الذي اهتم به، وهو مقصد الطلبة، إذ لا حاجة للطالب إلى الحكايات والرقائق. والمدرس الجديد، وصفه بأنه يراعي حال غالب الحاضرين، وهم العامة، وهم متشوفون للرقائق وحكايات الصالحين، حيث إنهم يتأثرون بذلك ويتعظون بتلك المواعظ. والمتن والشرح لا يفهمونه، ولا ينتفعون به، بل ربما فهموه على غير المراد.

[ فتح باب البحث في العلم مع العوام وما فيه]

ولهذا ورد عن الأئمة النهي عن فتح باب البحث في العلم مع العوام، بل الواجب فيمن حاول تعليمهم، أن يلقي إليهم الجلي اللائق بهم في العقائد وغيرها، فلا يلقي إليهم تلك البراهين العقلية التي عند علماء الكلام، ولا مسائل الخلاف في علم الفقه، ولا ما وقع من النزاع بين الصحابة في علم السير، إذ هم لعدم استعدادهم لذلك، ربما انقلب إرشادهم تضليلا، والاستدلال لديهم على التوحيد كفرا وإلحادا.

قال حجة الإسلام في "الإحياء"، في الوظيفة السابعة من وظائف المرشد المعلم، إذ ذكر أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به، قال:

{وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع، ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف، من غير تشبيه ومن غير تأويل، وحسن مع ذلك سريرته، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده، بل ينبغي أن يخلى وحرفته؛ فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر، انحل عنه قيد العوام، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص، فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي، وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره. بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق "القرآن"، ولا يحرك عليهم شبهة، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها، فيشقى ويهلك. وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث، فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق، ودوام عيش الخواص} هـ [51/1].

وعليه، فما كان يفعله شيخنا ابن الأبار في هذا الدرس الليلي للعوام، من إلقاء الرقائق والحكايات عن الصالحين، وبعض المسائل التي يفهمونها، هو المطلوب. أما تقرير عقائد ابن عاشر وبراهينها، فهم في غاية البعد عنها ولا يفهمونها. بل ينقلبون عن الدرس وهم في حيرة وتردد.

[الرقائق وتفسيرها وفوائدها]

والرقائق، هي الأخبار والأحاديث والآثار التي يرق لها القلب ويلين من ذكر الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، والدنيا وتهوينها، وبلاء زهرتها وفنائها، وزهد النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه فيها وتخليهم عنها، والتقلل منها، وعدم التشاغل بها، والتكاثر من عرضها الفاني. وهي النافعة لهم، الداعية إلى مسارعتهم إلى الطاعات، واقتناء الحسنات.

وقد عقد الإمام البخاري في "صحيحه"؛ كتابا للرقائق. ثم ساق أبوابا فيه كلها من هذا القبيل، كباب: {مثل الحياة الدنيا في الآخرة}، وقوله تعالى:( إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) الخ، وباب: قول النبي، صلى الله عليه وسلم: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". وباب: {من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر}، وباب: {ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها}، وكباب:{ذهاب الصالحين}، وباب: {ما قدم من ماله فهو له}، وباب:{الغنى غنى النفس}. وباب:{كيف كان عيش النبي، صلى الله عليه وسلم}،الخ. وفيه عن عائشة، رضي الله عنها: " ما شبع آل محمد، صلى الله عليه وسلم، منذ قدم المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليال تباعا حتى قبض". وباب: القصد والمداومة على العمل. وفيه حديث "سددوا وقاربوا، واعلموا انه لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وان أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قلّ". وباب: (وَمَن يتوكَّل على اللهِ فهُو حَسْبُهُ). وباب:{ما يكره من قيل وقال}. وباب:{حفظ اللسان وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت"}. وكباب: {قول النبي، صلى الله عليه وسلم:" لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا."}.[صحيح البخاري: 95/4].

إلى غير ذلك من الآيات والأخبار، التي تفتح الأبصار، وتنور الأسرار، وتملأ القلب بالخشية من الملك الجبار. وهذا المنحى هو الذي يليق بالقائه في المجالس العامة والخاصة، إذ يعم نفعه، ويحسن في النفوس وقعه. فعلى نهجه ينبغي سير الواعظين، وبمثله فليكن إرشاد المرشدين المخلصين.

***

[نسبة الشيخ العمراني
إلى قبيلة غمارة الشهيرة، وذكر نخبة من أعلامها]

ولنعد إلى متابعة الترجمة فأقول: اشتهر شيخنا المذكور بالغماري، وذلك نسبة إلى غمارة، بضم الغين، كما في "تاج العروس"، وهي القبيلة المشهورة بشمال المغرب. وفي "العبر":

{الخبر عن غمارة من بطون المصامدة، وما كان فيهم من الدول وتصاريف أحوالهم. هذا القبيل من بطون المصامدة، من ولد غمار بن مصمود، وقيل غمار بن أصياد من مصيمولان. ويقول بعض العامة إنهم عرب فروا إلى تلك الجبال، فسموا غمارة. وهو مذهب عامي. وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصر. والبطون المشهورة منهم: بنو حمير ومتيوة، وبنو نال، وأغصاوة، وبنو زروال، ومجكسة، وهم آخر مواطنهم. يعتمرون رحاب الريف بساحل بحر الدر، من غير عين ببسائط المغرب من لدن غساسة فنكور فبادس فبنكيليس، فتطاوين، فسبتة، فالقصر إلى طنجة، خمس مراحل أو أزيد. أوطنوا لها جبالا شاهقة اتصل بعضها ببعض، سياجا بعد سياج، خمس مراحل أخرى من العرض إلى أن يتخطى بسائط قصر كتامة ووادي ورغة من بسائط المغرب}.

ثم صار في "العبر" يحتج بكون غمارة مصامدة، ثم قال:

{وللمسلمين فيهم أزمان الفتح، وقائع الملاحم. وأعظمها لموسى بن نصير، وهو الذي حملهم على الإسلام، واسترهن أبناءهم، وأنزل منهم عسكرا مع خلوف بطنجة. وكان أميرهم لذلك العهد يليان. وهو الذي وفد عليه موسى بن نصير، وأعانه في غزو الأندلس، وكان منزله بسبتة} هـ [210/6].

فكلام ابن خلدون هذا، يفيد أن هذه الجبال كلها مسكونة بقبائل غمارة وبطونها، وأن سكانها كلهم من مصمودة، كما سمعت من كلامه.

ونسبة شيخنا لغمارة نسبة عامة، إذ هو من بني زيات، التي هي إحدى فصائل القبيلة الغمارية؛ فحق النسبة أن يقال: الغماري الزياتي، فتقدم الصفة العامة على الخاصة. وبني زيات، هي القبيلة الخاصة بقرية تيجيساس الشهيرة، التي كانت مدينة قديمة العمران، ولم تزل عامرة الى القرن الثامن الهجري. وهي بزاي ثم ياء تحتية خفيفة، ثم ألف، ثم تاء مثناة فوقية. قال في "المرءاة " هي:

{ من قبائل بني يال، بياء تحتانية فألف مد فلام؛ بطن من بطون غمارة، ويقول نسَّابتهم يال، ونال، بالنون مكان الياء؛ أخوان. فتفرع يالّ إلى: بني زيات، وبني سلمان، وبني منصور، وبني بوزرا. وتفرع نال، بالنون، إلى: بني خالد، وبني رزين، وبني قرير بالقاف المعقودة، وبني سميح، فصاروا في عدد بني زيات. ثم بني جلاً منهم، وهو بجيم مفتوحة، ثم لام مشددة، بعدها ألف، فنزلوا معهم، وكانوا أهل حسب ومروءة وطلب علم؛ قد عرفوا بذلك واستمروا عليه.} هـ [مِرآة المحاسن: ص165].

وقد تخرج من قبائل غمارة المذكورة، قديما وحديثا، علماء محققون، وفقهاء مرضيون، وصلحاء مهديون، ونساك ربانيون، كما كان بها ثوار مارقون، ودجالون مشعوذون، ومدعون كاذبون. فممن اشتهر بهذه النسبة:

أبوالعباس، أحمد بن عيسى بن عبد الرحمان الغماري، الفقيه القاضي، من تلاميذ العز بن عبد السلام، ترجمه القرافي في" توشيح الديباج"، وقال فيه:

{الفقيه القاضي الجليل النبيل، أبوالعباس. رحل إلى المشرق وقرأ هنالك، وجد واجتهد، وحصَّل وأتقن، ولقي جماعة مشايخ. منهم عز الدين ابن عبد السلام، وغيره. وله علم بالفقه وأصوله، وحظ من أصول الدين، ومشاركة في علم الأدب} . وذكر دروسه وقال: {كانت منقحة الإيراد، ويبدأ بين يديه بقراءة الرقائق، ثم الفقه وأصوله}. ثم وصف كيفية إلقائه وبحوثه وترجيحاته. ثم قال: {إنه توفي بتونس عام اثنين وثمانين وستمائة}هـ

وذكر في" تاج العروس":

الحسن بن عبد الكريم الغماري، ولم يذكر تاريخ حياته. وإنما قال: {وغمارة، بالضم، قبيلة من البربر. منها الحسن ابن عبد الكريم بن عبد السلام، الغماري المغربي، سبط زيادة} هـ. وانظر ما يعني بزيادة هذا، هل هو زيادة، أحد أمراء بني الأغلب بافريقية، أو غيره؟. ولكن بعد هذا، وقفت على ترجمة الحسن هذا في "طبقات القراء" لابن الجزري، وأنه من أهل القرن الثامن الهجري، وأنه من القراء. ففيها:

{الحسن بن عبد الكريم بن عبد الله بن فتح، الشيخ أبوعلي الغماري ثم المصري، المعروف بسبط زيادة، قرأ على مرتضى بن جماعة الخشاب، وأبي الحسن بن الرماح، وجده الفقيه زيادة. وسمع كثيرا من كتب القراءات على أبي القاسم بن عيسى} الخ، ثم قال: {توفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، عن خمس وتسعين سنة.}[217/1].

وقال في ترجمة زيادة:

{زيادة بن عمران بن زيادة، أبو النماء المصري، الفقيه المالكي الضرير، مقرئ نحوي متصدر. أخذ القراءات عن أبي الجود، غياث بن فارس، وأبي المنصور ظافر. وتصدر للإقراء بالجامع العتيق بمصر، وبالمدرسة الفاضلية بالقاهرة. روى عنه الحروف والقراءات سبطه شيخ شيوخنا، الحسن بن عبد الكريم. مات في شعبان سنة تسع وعشرين وستمائة بالقاهرة} هـ[طبقات القراء: 295/1]. وبهذه الإفادة زال الشك، وبَانَ من هو زيادة.

كما نسب إلى بطونها [أي لغمارة]، جماعة يطول تتبعهم، فمنهم لقبيلة شيخنا بني زيات، ومنهم لغيرها. فممن نسب لبني زيات:

أبو العباس، أحمد بن يوسف بن مهدي الزياتي، وأبو عبد الله محمد شقيقه، وشقيقهما أبو الطيب، الحسن شيخ سيدي العربي الفاسي، وهو الذي جعل له في "المرءاة" ترجمة خاصة. وقال فيه: انه ولد في نصف جمادى الثانية سنة أربع وستين وتسعمائة. ورحل إلى فاس شقيقاه أبو العباس، احمد بن يوسف بن مهدي، وأبو عبد الله محمد، فقرآ على مشيخة ذلك العصر، فنجبا وفاقا غيرَهما من أقرانهما، ودرَّسا بفاس، ولاسيما أصغرهما، أبو عبد الله؛ فكان نسيج وحده، لا يجارى في العربية ولا يبارى، إلى حُسن الإلقاء، وجودة العبارة، ونفوذ الفتح. وأقبل الناس على القراءة عليه، وتنافسوا فيها وطار ذكره كل مطار. ثم لحق بهما أخوهما صاحب الترجمة، فقرأ عليهما، وحصل ما عندهما،

ولازم شيخهما شيخ القراء والنحاة، أبا العباس، احمد بن قاسم القدومي، إلى أن مات. قال في "المرءاة":

{وقد أتقن عليه علوم "القرآن" العزيز، من القراءات وغيرها، وعلوم العربية، نحوا وتصريفا وغير ذلك. وحظي منه بعلم غزير، حتى صار المشار إليه في تلك العلوم. ثم أمعن في وصفه وذكر تحقيقاته، وما أخذه من العلوم عن غيره من الشيوخ}. ثم قال:

{وصحب الشيخ أبا المحاسن على طريق الإرادة والتحكيم}. قال: {وقد قرأ عليه ختمات كثيرة من "القرآن" العزيز، ولازم مجلسه في أنواع العلوم، وزوّجه الشيخ ابنته، وقام بجميع منونته، إلى أن توفي الشيخ، رضي الله عنه، ودرَّس في أنواع العلوم، وصنف وقيد كثيرا}. ثم ذكر مصنفاته، منها "شرح المشيشية"، و"حاشية" على "شرح الصغرى"، و"حاشية" على "المكودي" لم تكمل، و"حاشية" على "مختصر" خليل مفيدة، تركها في هامش النسخة، وغير ذلك. قال: {وتوفي بين الظهرين من يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين وألف(1023). ودفن بالموضع المعروف بزاوية الهبطي، من جبل كُرْت}.[مرآة المحاسن: ص166]. أما ولده، فهو الأستاذ العلامة، أبو فارس، عبد العزيز، كما قاله في "المرءاة".

فقد تضمنت هذه الجملة ذكر أربعة من العلماء من بني زيات: الإخوة الثلاثة، أبو العباس أحمد، وأبو عبد الله محمد، وأبو الطيب الحسن، وهو شيخ سيدي العربي الفاسي، الذي أطال في ترجمته في "المرءاة"، وهو صهره زوج ابنته، كما تقدم. ورابعهم أبو فارس، عبد العزيز، ولد أبي الطيب. وقد ساق ترجمة أبي الطيب في"نشر المثاني" مختصرة، كما أتى بترجمة ولده سيدي عبد العزيز، فقال فيه:

{الفقيه الأستاذ العالم المشارك، أبو محمد عبد العزيز ابن الشيخ الإمام سيدي الحسن الزياتي. وتقدمت ترجمة والده المذكور. كان صاحب الترجمة أستاذاً مجوداً مقرئاً عالماً محصلاً نبيلاً. وله كتاب في النوازل والأحكام، جمع فيه أنقالاً جليلة من كلام العلماء. وقفت على سفر منه بخطه. وكان سبطاً للشيخ أبي المحاسن الفاسي، ولد بنته. توفي عام الترجمة بمدينة تطوان، ودفن خارج باب المقابر، وبنيت عليه قبة. فله سلفٌ وخنولة في العلم والصلاح. رضي الله عنهم.} هـ.[185/1].

وعام الترجمة في "النشر"، هو العام الخامس من العشرة السادسة، أي في القرن الثاني عشر( 1165).

ومن أهل الخير والصلاح المتبرك بهم من بني زيات:

الشيخ أبو حفص الزياتي، ترجم له في "الدوحة"، فقال:

{الشيخ الفاضل أبو حفص، عمر الزياتي. كان من الفضلاء الأخيار. أخذ عن الشيخ سيدي أبي محمد الغزواني، وصحب الشيخ سيدي أبا محمد الهبطي. وكان زاهدا ورعا فاضلا خيرا من الأولياء. توفي، رحمه الله، في العشرة السادسة، يعني من القرن العاشر، ودفن بزاويته من بلاد غمارة، وقبره هنالك مزارة} هـ.[ص103 ].

[ومن بني زيات أيضا]:

أبو عبد الله الحداد الزياتي. ترجم له أيضا في "الدوحة" فقال:

{ومنهم الرجل الصالح المنقطع إلى الله تعالى، أبو عبد الله، محمد الحداد الزياتي. كان هذا الرجل غائبا في مقام المشاهدة، حتى لا يرى غير الحق سبحانه}. قال:

{وكان في بداية أمره بطلا شهما متلصصا، وله معرفة بالشيخ سيدي أبي محمد الهبطي في حال الشبيبة. فلما كان من أمر الشيخ ما كان، ورجع إلى بلاد غمارة، عن إذن شيخه أبي محمد الغزواني من مراكش، ووصل إلى قبيلة بني زيات من عمل تازغة؛ فسمع بخبره أبو عبد الله الحداد، فجاءه للسلام عليه. وكان أشد الناس فرارا من أهل الديانة. فلما رأى ما هو عليه الشيخ وأصحابه، أراد أن ينصرف، فقال له الشيخ: لابد من مبيتك عندنا هذه الليلة. فقال: على شرط أن لا يلزمني شيء مما يعملون هؤلاء من الذكر والذكرى، والصلاة والتهجد والتواجد. فقال الشيخ: نعم. وإنما عليك أن تنظر ما هم عليه فقط. فلما كان نصف الليل، اعتراه اختلاج في جسده، وضربان في قلبه، فخرج هاربا لكي لا يراه أحد، وحاله حاله، وهو يثبت نفسه ويفر إلى الخلوات، فما زال كذلك إلى أن غلب عليه الحال وافتضح شأنه، فرجع إلى الشيخ ولازمه، فغلبت عليه الشهادة والتوحيد الخاص. فبقي ملازما للشيخ إلى أن توفي، فانتقل إلى بني زيات، وبقي منفردا لا يأوي إلى أحد، إلى أن انقضى نحبه، في أواسط العشرة السابعة، وقد نيف على الثمانين سنة. رحمة الله عليه} هـ [ص104]. وهكذا يقاد من سبقت له العناية إلى الله بالسلاسل.

وممن يحق لهذه القبائل الغمارية أن تفتخر به بحياته، وتستدفع به البلايا ببركاته بعد وفاته، من أهل العلم والصلاح، ذاك الإمام الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، والحافظ لحدود الله: أبو محمد عبد الله الهبطي. قال في "الدوحة":

{ ومنهم فريد عصره، وأعجوبة دهره، الإمام العارف بالله وبأحكامه، الشيخ العالم الزاهد المحقق، جنيدي زمانه، وقطب دائرة أوانه، الهضبة الراسخة، والحجة الدامغة الناسخة، ولي الله حقا، سيدي أبو محمد، عبد الله بن محمد الهبطي، رحمه الله. أصله من صنهاجة طنجة، من قبيلة [ ]. كان، رضي الله عنه، كبير الشأن، عظيم الرتبة في مقام العرفان}. ثم ذكر أشياخه في علوم التفسير والفقه. ثم قال:

{واعتمد في التصوف وطريق الوصول الى الله تعالى، والتربية النبوية، على شيخه الرباني، سيدي أبي محمد، عبد الله الغزواني، وهو شيخه في طريق الفتح وله معه قضايا وعجائب. قال: وكان سيدي عبد الله كثيرا ما يحتج بكلامه، ويستشهد بنثره ونظمه، لأنه كان أقوى علما وأبسط عبارة، ومع ذلك كان يقول: كل ما فتح الله تعالى لي من العلم، ورزقني من الفتح، فهو من بركة سيدي أبي محمد، عبد الله الغزواني}. ثم استمر في "الدوحة" في ترجمة هذا الإمام، وأفاض في نحو الورقتين.[من ص6].

وقال في "المرءاة":

{ كانت تلك الجبال التي كان بها، وهي جبال غمارة، كثيرة الجهل وشرب الخمر وغير ذلك من المناكر، فبذل الوسع في تعليم التوحيد، وتقرير العقائد، وتغيير المناكر. وخاطب في ذلك ولاة البلاد، وأشياخ القبائل، ومن له كلمة مسموعة فيهم، ووعظ وذكر، وبلغ الغاية في الاجتهاد في ذلك. فنفع الله به نفعا عظيما، وهدى به عالما لا يحصى، وحسن حال البلاد وأهلها}. ثم قال:

{قال ولده، أبو عبد الله، محمد الصغير: سألته، يعني والده الشيخ أبا محمد، سنة ثلاث وستين وتسعمائة(963) عن سنه، فقال لي: بلغت سبعين سنة. قال: وفي ذي القعدة من هذه السنة، توفي غدوة الثلاثاء، ودفن يوم الأربعاء. ولم يؤرخ أيام الشهر، وقبره مشهور بمنزل يعرف بمعاتب، وبه كانت سكناه بحوز شفشاون، حرسها الله} هـ.[ص15].

وفي"الدوحة": توفي، رضي الله عنه، سنة ثلاث وستين، وقد نيف على الثمانين سنة. ودفن بزاويته بموضع يعرف بمواهب، وقد كان اسمه معاتب، فأبدل الشيخ اسمه، من الجبل الأشهب، بلاد بني زجل، قبيلة مدينة شفشاون من بلاد غمارة، على ثلاثة أميال من ناحية قبلتها، وقبره مشهور هنالك.} هـ [ص4].

قلت: والشيخ الهبطي كان من أشياخ صاحب [كتاب] "الدوحة" المنقول عنها، وهو:

الإمام العلامة الصوفي أبو عبد الله، سيدي محمد بن علي بن عمر بن الحسين بن مصباح، الشريف الحسني، المعروف بابن عسكر، السريفي الشفشاوني، المتوفى في وقعة وادي المخازن الشهيرة، مع محمد بن عبد الله السعدي، المعروف بالمسلوخ.

### [انتقاد أهل المغرب للفقيه ابن عسكر، وطعنهم في عقيدته]

ولمرافقته لهذا الملك الذي التجأ إلى الأجانب من دولة البرتغال، وقع أهل المغرب فيه، وطعنوا في عقيدته، وأيدوا مقالهم أنه وُجد، كما قيل، مع قتلى البرتغال في واقعة وادي المخازن الشهيرة، طريحا وهو على شماله، مستدبر القبلة. ولكن اعتذر عنه ولد شيخه الهبطي المذكور، وذكره في أصحاب الشيخ إذ قال:

ومنهم الشيخ الذي لا ينكــرُ　　محمد أخو الدهاء عسكرُ
وإن يكن أتـى بذنب ظاهــرْ　　فقلبه من الشكوك طاهـرْ
رأيته في القــوم ذا بـشَارةْ　　وهيئــة حسنـــة وشَـــارةْ

وعندي أن مثل هذه المسائل الواقعة في الحوادث التي تشتبه فيها الأمارات، وتخفى فيها المقاصد والنيات، وتلتبس فيها الحقائق، وتلتوي فيها على السالك إلى الحق المناهج الواضحات، ينبغي أن يقف المتحري لإصابة الحقيقة عن التصديق بكل ما يسمع، ويتنكب الإصغاء للتهم التي يرمى بها جزافا من غير تثبت ولا تبين، ولا إحاطة بما يكتنف الواقعة من السوابق واللواحق، مثل هذه القضية التي أركس فيها الشيخ ابن عسكر، إذ هي قضية

عظيمة، وإنها لكبيرة إلا على الناقدين المستبصرين، بل هي محفوفة بالأخطار السياسية، والمداحض المهلكة، والمهاوي القبيحة، التي يحار فيها عقل اللبيب، لأنها قضية تنازع على الملك، وتدافع على السلطنة. وكل من الجانبين زعم أن الحق معه، وأنه إن دافع إنما يدافع عن الحق، وأن من ينازع إنما ينازع بالباطل. وكل بجانبه شيعة وأنصار يحسبون أنهم على حق وطريق مستقيم، ولا يعدم كل منهما ما يحتج به من الحجج والأدلة على تصويب قصده، وتبرير موقفه.

فالسلطان محمد المتوكل - الذي قيل له بعد المسلوخ - يدعي أنه الملِك الشرعي، وأن عمه إنما هو ثائر عليه، لأن البيعة قد ثبتت له، إذ بايعه الناس بعد موت أبيه، لأنه كان ولي عهده. فمن قام عليه بعد ذلك، فهو ثائر تجب مقاتلته، ولو بايعه الناس، لأن الأول هو الذي يجب إقراره، وفي الحديث: " إذا بُويِعَ لِخليفتين فاقتلوا الآخر منهما".

وبمضمن هذا، احتج هذا السلطان في رسالته إلى أهل المغرب في نقض مبايعته ومبايعة عمه دون موجب شرعي، ويقول لهم: ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه بكل ما أمكنه، الخ ما في رسالته.

ولكن لما وصلت الرسالة، قام علماء المغرب بالكتابة عليها، ونقض ما احتج به، وأتوا بالحجج التي أوجبت عليهم نقض بيعته، وتصحيح بيعة عمه. وأعظم ما احتجوا به أنه لما آنس من نفسه العجز عن التدبير، ألقى حبل المغرب على غاربه، وذهب فاراً وترك الرعية معرضة للفوضى والفساد وسفك الدماء، فوجب إقامة من يقوم بها ويحمي بيضتها، وأطالوا في الاحتجاج بهذا.

والحق، لو اقتصر المولى محمد هذا بالدفاع بأهل الإسلام من رعيته، وبذل جهده في ذلك، لكان سائرا في ظاهره على ما يوافق الحكم الشرعي. وحيث نأى بجانبه، وأبدى الفشل والعجز، واستعان بغير أهل الإسلام، سقطت حجته. والله الموفق.

ومع هذا، فحيث إن باب التأويل لازالت تقبل التطبيق والتنزيل، فلا ينبغي الإخراج عن الملة والحكم بالتكفير. وغاية ما يقال عن هؤلاء المشاركين لهذا الملك في فعلته التي فعلها وظهر فيها أنه من الضالين، هو إثم ظاهر. ولكن لا يوجب الحكم بفساد العقيدة، ولا

بالخروج والمروق من الديانة الإسلامية. وعلينا أن نقبل التأويل ممن تأول، حيث نجد له في دفع الردة ما عليه المعول. وحيث إن باب الاحتمال لا ينسد علينا بحال، فالمتعين اجتناب إساءة الظنون، وتفويض الاطلاع على خفايا الصدور إلى العالم لما كان وما يكون، ويقول في الشيخ ابن عسكر ما قاله ابن شيخه الهبطي:

فإن يكن أتى بذنب ظاهرْ فقلبه من الشكوك طاهرْ .

---

## فكرة المؤلف في الغارة على المغرب في وقعة وادي المخازن

وعندي أن هذه القضية من حيث أصلها يكتنفها غموض وخفاء، إذ السوابق واللواحق تقتضي أن يكون أصل الهجوم من دولة البرتغال على المغرب، كان مدبرا من قبل استصراخ الملك محمد بها، وأن الداعي إلى ذلك هي الحالة السياسية الدولية في ذلك العصر؛ فإن استنصار المولى عبد الملك، القائم ضد حفيده - ابن أخيه - بالدولة التركية، وهي إذ ذاك دولة قوية، وقد فغرت فمها على الشمال الإفريقي، وكادت أن تأتي عليه بجملته، إذ كانت تحكم الجزائر، وفي هذا الحين أضافت إليه تونس، حيث أخرجت منها إسبانيا، ولم يبق لها إلا المغرب الأقصى، وقد أمكنتها الفرصة الآن لاحتلال جيشها لأرضه.

فدولة البرتغال التي كانت تحتل طنجة، ودولة إسبانيا التي أخرجت من تونس، مهددتان من قبل هذه الدولة العظيمة في ذلك الحين. فإن أصبحت تركيا تجاورها في حدودها، فلا محالة أنها تخشى طردها من المغرب وإخراجها من طنجة، ثم متابعتها إلى تراب أرضها، وما تخشاه دولة البرتغال، تشاركها فيه دولة إسبانيا.

ويؤيد هذه النظرية أن الجيش الذي هاجمت به البرتغال المغرب، لم يكن من خصوص جيشها، بل شاركت فيه دول أخرى، كإسبانيا وإيطاليا وألمانيا والبابا. فكانت هذه الحرب شبه حروب صليبية.

فبهذا يتبين لك أن البرتغال كانت مدفوعة من نفسها، ومن دول أخرى، خوفا من أن يعم تيار دولة تركيا القوية. فالحرب لم تكن في الحقيقة، على ما يظهر، إلا مع تركيا. والاستظهار باستنصار الملك محمد السعدي بالبرتغال، إنما هو أمر مصطنع، ووسيلة إلى

الهجوم، واستعانة بأهل الوطن الذين يقربون البعيد، ويوطدون طرق الاستيلاء، ويطلعون الأجانب على العورات.

وعليه، فيبدو لمن يعرف أحوال السياسة الدولية من قبل ومن بعد، أن المولى محمد، إنما كان آلـة مسخرة. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

قلت: وقد جرينا في الدفاع عن الفقيه الشريف ابن عسكر؛ على مقتضى قوله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّن إنَّ بَعضَ الظَّن إثم)، وعلى قوله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه ابن مردويه عن طلحة بن عبد الله: " إن الظن يخطئ ويصيب". وأخرج أيضا عن عائشة قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:" من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه، إن الله يقول: اجْتَنِبُوا كثِيرًا مِنَ الظَّن". وما رواه الإمام أحمد عن سيدنا عمر أنه قال: "لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا".[شرح مُرتضى للإحياء:7/283-284].

ولكن ربما يُقرأ في هذه القضية بالخصوص، قوله أيضا: "من تعرَّض للتهمة فلا يلُومنَّ من أساء به الظن.". والله الواقي من الوقوع في مواقع الزلل.

---

[مواصلة ذكر بعض أعلام غُمارة]

ومن أهل العلم والصلاح من بني زيات:

الفقيه الحاج زروق الزياتي، قال في "الدوحة" في حقه:

{الفقيه الرحال البركة، الشهير بالسيد الحاج زروق الزياتي، من قبيلة بني زيات، من قبائل جبال غمارة، أحد أشياخ سيدي محمد الهبطي. كان فقيها عالما وسيدا فاضلا. رحل إلى بلاد المشرق، ولقي المشايخ، وحج البيت الحرام، ورجع إلى بلاده بالمغرب، وشرح أرجوزة الفقيه أبي زيد، عبد الرحمان الرقعي شرحا حسنا. وكان شيخنا سيدي أبو محمد الهبطي يثني عليه بالفضل والعلم والصلاح. وتوفي، رحمه الله، في أوائل العشرة الرابعة، يعني من القرن العاشر} هـ [ص101].

وممن أخرجته هذه القبيلة من بني بوزرة، من أهل العلم والولاية:

{الشيخ علي بن ميمون، قال في "الدوحة":

{ومنهم الشيخ المشهور، صدر الصدور، والقدوة الذي لم يأت بمثله الدهور، وارث المقام النبوي، ولي الله تعالى، أبو الحسن، علي بن ميمون، الشريف الحسني.أصله من أبي زرا، أحد قبائل غمارة}. قال:

{تولى القضاء بمدينة شفشاون، في أيام الأمير أبي الحسن، سيدي علي بن راشد الأكبر}. ثم ذكر في "الدوحة" السبب الذي أزعجته إليه به العناية الربانية، فقصد حضرة فاس، وأخذ عن علمائها، وظهر في فنون كثيرة. ثم استشرف للانقطاع إلى الله، ولقي شيخ التربية، وذكر ابن عسكَر في ذلك قضية طويلة، ثم قال:

{وأقبل على الفكرة، وطريق المحاسبة، حتى كان من أمره ما كان. ولما قدم إلى بلاد المشرق، وانتشرت علومه، ودعا الخلق إلى الحق}. قال: {فالطريقة الميمونية بالمشرق كالطريقة الشاذلية بالمغرب}. قال:{وألف تأليفا في ذلك، يعني فيما أحدث من البدع، سماه " بيان غربة الإسلام، بواسطتي صنفين من المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام، وتابعيهما من بلاد الأعجام"}. قال: {وله كرامات لا تحصى، وتوفي ببلاد الشام}. قال في "الدوحة": {في أول هذه المائة، يعني العاشرة، قال: أظن في العشرة الثانية منها}هـ.[ص23].

<u>ومن بني منصور:</u>

الفقيه أبوالحسن، علي المنصوري، من قبائل غمارة. قال في "الدوحة":{واستقر ببني زروال، وبها توفي في العشرة السابعة. وكان فقيها عالما. أخذ عن مشايخ فاس وغيرهم، وكان ظاهر الخير والصلاح، وانتفع الناس بعلومه.} هـ [ص64].

<u>ومن أهل بني يصلوت من غمارة:</u>

العارف بالله، أبو البقاء الياصلوتي. قال في حقه في "الدوحة":{الشيخ الولي العارف بالله وبأحكامه، أبو البقاء، عبد الوارث بن عبد الله الياصلوتي. أصله من بني يصلوت، من قبائل غمارة، على مقربة من قرية شفشاون}هـ[ص:5].

ومن هذه القبيلة أيضا،المفتي الشهير،الذي تكررت فتاويه في كتب النوازل والأحكام:

أبو الضياء، سيدي مصباح بن محمد بن عبد الله الياصلوتي. ولم أقف الآن على ترجمته وتاريخ حياته، ولا أدري الآن هل يتصل نسبه بأبي البقاء الذي ذكرناه آنفا أم لا. ثم بعد ذلك وقفت بإثر هذه الكتابة على ترجمته في "التكميل"، لسيدي أحمد بابا. قال في حقه:

{مصباح بن عبد الله الياصلوتي، أبو الضياء الفاسي. من أكابر أصحاب أبي الحسن الصغير. كان فقيها صالحا حافظا نوازليا، وهو أول من درس بمدرسة أبي الحسن المريني بفاس، فنسبت إليه. وكانت أمه من الصالحات، ولا ترضعه إلا على وضوء. وتفقه على أبي الحسن الصغير وغيره. وتوفي بفاس سنة خمسين وسبعمائة. وله فتاوى نقل بعضها في المعيار} هـ[نيل الابتهاج، بتطريز الديباج: ص344].

سبحان الذي يعلمنا ما لم نعلم، ويرشدنا بفضله إلى الطريق الأقوم، وكان فضل الله علينا عظيما.

---

[تفسير قوله تعالى:
والله أخرَجَكُم مِن بُطُونِ أمَّهاتِكُم لا تَعلَمُونَ شيْئاً]

هنا تذكرت رؤيا رأيتها في ليلة الجمعة الفارطة، من شهر الله المحرم، 1385، إذ رأيت ابن عمنا الناسك المثابر على ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، سيدي الحاج العربي، وهو في حالة مستحسنة، وهيأةٍ جميلة، ومحيا مضيء، ووجه ضاحك مستبشر، وهو يلومني على عدم زيارته في بيته. فاعتذرت له بأني ذهبت إلى بيته ولم أجده فيه. ثم صار يبدي لي على وجه الشكوى أنه يسمع شيئا من العلم ولا يفهمه. فقلت له ما معناه: خذ ما فهمت، ودع ما لم تفهم. ثم تلوت عليه قوله تعالى: (وَاللهُ أخرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أمَّهَاتِكُم لاتَعلَمُونَ شَيئاً)، ثم صرت أفسر له الآية على سبيل ما حضرني على وجه التقريب، ثم فارقني.

وهذه الآية التي أنطقني بها، في حالة الموت الأصغر، الذي أنطق كل شيء، لا يخفى ما فيها من الإشارة، ولاسيما مع هذا الصوفي الصافي فؤاده من الشوائب، التي نطق بها اللسان دون إعمال روية ولا تمهل لترتيب مقدمات ولا إطالة تفكير، مما يفيد ان العلم

كله لله، دقيقه وجليله، جليه وخفيه، سره وجهره، في بره وبحره، وأن لله غيب السماوات والارض، ولا اطلاع لأحد من الخلق على علم من العلوم إلا باطلاع الله عليه، وأنه سبحانه إن أراد أن يعلم الإنسان ما لم يعلم، وأن يقيمه في مقام، أو يفتح له من رحمته أو ينيله من نعمه، فإنما ذلك تحت كاف ونون. قال قبلها (وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) ثم قال: (وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لاَ تَعلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والابْصَارَ وَالافْئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ)، قال الحافظ ابن كثير:

{يخبر تعالى عن كمال علمه، وقدرته على الأشياء في علمه لغيب السماوات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك، إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء من قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له( كُنْ فيكُون) كما قال (وما أمرُنا إلاَّ واحِدَةٌ كلَمْحِ بالبَصَرِ) أي فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال ههنا: ( ومَا أَمْرُ السَّاعةِ إلا كلمْحِ البَصر أو هُو أقرَبُ إن الله على كُل شَيْءٍ قَدِير)}. قال:

{ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا. ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي يدركون به الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة، وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا. كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله، حتى يبلغ أشده}. قال:

{وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في "صحيح" البخاري عن أبي هريرة، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت في شيء أنا فاعله، ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته. ولا بد له منه"}. قال:

{فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة، صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله، عز وجل، مستعينا بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في رواية بعض الحديث، في غير الصحيح، بعد قوله: " ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي". ولهذا قال تعالى: (وجَعَلَ لكُم السَّمعَ والأبْصَارَ والأفئدَةَ لعَلَّكُم تشكُرُونَ)} هـ[تفسير ابن كثير579/2].

وعليه، فأقول هنا في الموضوع الذي سيقت له الآية الكريمة في المنام، هي إشارة إلى أن الإنسان لا حركة له ولا سكون، ولا علم له بما كان وما يكون، وأن الأصل فيه أنه قطعة من لحم لا معرفة لها ولا دراية، ولا شعور بعلم من العلوم، إلاّ ما علّمه الله لها، وألهمه إياها، وما أوجده فيها من الآلات لإدراكها من سمع وبصر وعقل، فمنه الاستمداد، وعلى قدرته الاعتماد، في المبدإ والمعاد، ففحوى الجواب هو كما قالت الملائكة لربها: (سُبحَانَكَ لاَ عِلْمَ لنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أنتَ العَليمُ الحَكِيمُ ).

ومن هذا نعلم أن العلم الحقيقي إنما هو العلم بالله، فهو العلم الذي ينور القلوب، ويشفي ما في الصدور، ويوصل إليه الذي إليه تصير الأمور. وما سواه من العلوم، إذا كانت صحيحة فإنما هي وسيلة إلى ذلك، فالقرآن الذي هو منبع العلوم يقول: ( هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيعْلَمُوا أنَّمَا هُوَ إلهٌ وَاحِدٌ وَلِيتَذكَّرَ أولُو الألبَابِ). وهذا هو العلم الذي قال فيه سيدنا عبد الله بن مسعود: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور في القلب. ونحوه عن إمامنا مالك، وقد سبق. وهو العلم المكنون في الصدور، الذي لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى كما ورد. فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى.

وفي "الإحياء"، بعد تعديد الأمثلة، وترتيب الحجج، وتقرير البراهين العقلية على أن أشرف المعارف وأجداها وأنفعها للمرء، هي معرفة الله، لأن شرفها بحسب شرف المعلوم. قال:

{وبهذا تبين أن العلم لذيذ، وان ألذ العلوم؛ العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين}. ثم قال:

فلذة معرفة الله تعالى، ومطالعة حضرة الربوبية، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية، ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وغاية العبارة عنه أن يقال:( فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ)، وأنه أعد لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد، والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم، لعلمه بفناء رياسته، وفناء من عليه رياسته، وكونه مشوبا بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها، وكونه مقطوعا بالموت الذي لابد من إتيانه، مهما أخذت الأرض زخرفها وازَّيَّنَتْ، وظنَّ أهلها أنَّهم قادرونَ عليها، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله تعالى، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته من أعلى عليين، إلى أسفل السافلين، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم بكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السماوات والأرض. وإذا خرج النظر عن المقدرات، فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف يطالعها في جنة عرضها السماوات والأرض، يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة. ثم هي أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى. ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي. وإنما الموت يغير أحوالها، ويقطع شواغلها وعوائقها، ويجليها من حبسها، أما أن يعدمها؛ فلا (وَلاَتَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللِه أمْوَاتا بَل أحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرزَقُونَ فَرِحِيَن ِبمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرونَ بِالذِينَ لمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلفِهِمُ ) الآية هـ[إحياء علوم الدين:220/4] .

هذا ما فتحته رؤيا ذلك الصوفي من ذكر الله ورحمته، و(مَا يفتَح اللهُ للناس مِن رحْمةٍ فلا مُمْسِكَ لهَا).

---

[الرجوع إلى إتمام ذكر مشاهير فقهاء غُمارة]

ثم نرجع إلى ما كنا بسبيله، فأقول: ومن مشاهير الفقهاء النبلاء المنتسبين لهذه القبائل الغمارية:

الإمام المفتي المعتمد عليه في المغرب، الذي تكررت فتاويه في كتب النوازل والأحكام، كـ"معيار" الونشريسي، و"نوازل" الشريف العلمي وغيرهما: أبو عبد الله، محمد النالي، قال في "الدوحة" في حقه:

{العالم المفتي الحافظ المحصل، أبو عبد الله، محمد النالي، المعروف بالمسفر. فكان رحمه الله، من العلماء الكبار، ترفع إليه الأسئلة من الأقطار البعيدة، فيجيب عنها بأجوبة جليلة، نقل كثيرا منها الإمام أبو العباس الونشريسي، في "المعيار المعرب"، والقاضي الرزيني في "نوازله" التي قيدها على فقهاء الوقت}. قال:

{توفي، رحمه الله، في العشرة الثانية. والله أعلم. ودفن ببلاده ببني نال، من بلاد غمارة} هـ[ص27]. ومنهم:

الفقيه المفتي، أبو زيد، عبد الرحمان بن محمد النالي. وأظنه ولد المتقدم، وله فتاوى في" نوازل" العلمي والزياتي.

ومنهم من بني سلمان:

الفقيه أبو عمران، موسى بن عبد الله السلماني. ذكره الزياتي في "نوازله"، في نازلة نحلة وقعت في قبيلة بني منصور، من القبيلة الغمارية.

ومن بني سلمان، من أهل العرفان، فيما يقرب من هذا الأوان، الشيخ الجليل الذي تشرف به هذا القبيل، تلميذ ذاك البحر العذب الفرات، الذي كان إليه الظمآن لشرب الحقيقة يأوي، مولاي العربي الدرقاوي، وشيخ العارف أبي العباس سيدي أحمد ابن عجيبة:

أبو عبد الله، سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الغماري السلماني. وسنأتي بكمال ترجمته عند الكلام على شيخنا العلامة ابن الخياط، لمناسبة تأتي هنالك.

هذا ما يتعلق بالإشارة إلى بعض ما أنجبته هذه القبيلة من أهل العلم والفضل والصلاح.

----

### [دور غمارة في فتح الأندلس،
### ونصرة الأدارسة]

أما من كان له الرئاسة في نواحيها، وجال بالخير أو الشر في أطرافها ومناحيها، فهم كثيرون. فلقد كان لها في أول الإسلام مع موسى بن نصير، بعد المحاربة والاستيلاء عليها، وحملها على الإسلام، مشاركة في فتح الأندلس مع طارق بن زياد، خليفة موسى المذكور، إذ كان أميرهم ورئيسهم من قبل ملك إسبانيا "الذريق"، وله يد محمودة، حيث انقاد لموسى المذكور، وأخلص له في الإرشاد، وأعانه على غزو الأندلس وفتحها. قال في "العبر":

{وللمسلمين فيهم - أي في غمارة - أزمان الفتح، وقائع الملاحم. وأعظمها لموسى بن نصير. وهو الذي حملهم على الإسلام، واسترهن أبناءهم، وأنزل منهم عسكرا مع خلوف بطنجة. وكان أميرهم لذلك العهد يليان، وهو الذي وفد عليه موسى بن نصير، وأعانه في غزو الأندلس} هـ [211/6].

كما أنه كانت لغمارة أياد بيضاء في انتصارهم للدولة الإدريسية التي أقيمت ببلادهم، لمَّا أجلاهم ابن أبي العافية عن فاس، وآخر حصنهم حجر النسر، الذي يسمى الآن الحجرة بقبيلة سماتة، واستحدثوا ملكا لبني إدريس بتلك الناحية، فوزعوه قطعا كان أعظمها لبني محمد وبني عمر بتكساس، ونكور وبلاد الريف، الخ. والمقصد هنا أن غمارة كانت في نُصرة الدولة الثانية الإدريسية التي طلعت بالناحية الغمارية.

***

أما ما كان بهذه الناحية الغمارية من السيئات، والتظاهر بارتكاب الإجرام والمخالفات، واقتحام الآثام الموبقات، من انتحال السحريات، والتجاهر بالكفر ورفض الديانات، والخروج عن الملوك وإعلان المخالفات، فهو أمر امتازت به أرضهم، واتصفت بمساوئه من قديم بلادهم. قال في "العبر" :

{كان غمارة هؤلاء عريقين في الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة}هـ[216/6].

فمن السيئات التي سودت وجه هذه القبيلة، وأبانت عن عقول أهلها السخيفة، [أن] أحد أبنائها المسمى حمو، كما في "القرطاس"، أو حاميم كما في "العبر"؛ تنبأ سنة

ثلاث عشرة وثلاثمائة، بجبل حاميم، المشتهر به قريبا من تطوان، واجتمع إليه كثير منهم، وأقروا بنبوته، وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام، وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه. ثم صار [ابن خلدون] يسرد تلك السخافات.[العبر: 216/6].

أما صاحب "القرطاس"، فإنه ذكر ما شرع لهم من تلك الترهات والأباطيل. قال ابن أبي زرع:

{ فبعث عليه الناصر ملك الأندلس، فقبض عليه، وقتل وصلب بقصر مصمودة، وبعث برأسه إلى قرطبة، ورجع أتباعه إلى الإسلام}. هـ [الأنيس المطرب: ص67].

قال ابن خلدون: {وكان لابنه عيسى من بعده قدر جليل في غمارة، ووفد على الناصر} هـ [العبر: 216/6].

وممن تنبأ بعد ذلك في هذه القبيلة، المسمى عاصم بن جميل. قال ابن خلدون: {وله أخبار مأثورة}. قال: {وما زالوا يفعلون السحر لهذا العهد}. قال: {وأخبرني المشيخة من أهل المغرب، أن أكثر منتحلي السحر منهم النساء العواتق. ولهم علم استجلاب روحانية ما يشاءونه من الكواكب فإذا استولوا عليه، وتكنفوا بتلك الروحانية، تصرفوا منها في الأكوان ما شاءوا. والله أعلم} هـ [216/6].

وفي هذه الناحية الغمارية ثار أيضا المجرم الأثيم ابن أبي الطواجن الكتامي، وذلك أيام انحلال عرى الدولة الموحدية أواخر القرن السادس، وهو الذي تولت يده الأثيمة قتل القطب الشهير مولانا عبد السلام بن مشيش. قال ابن خلدون:

{كان أبوه من قصر كتامة منقبضا عن الناس، وكان ينتحل الكيميا وتلقنه عنه ابنه محمد هذا، وكان يلقب أبا الطواجن، فارتحل إلى سبتة ونزل على بني سعيد، وادعى صناعة الكيميا فاتبعه الغوغاء، ثم ادعى النبوة وشرع شرائع، وأظهر أنواعا من الشعبذة فكثر تابعه، ثم أطلعوا على خبثه ونبذوا إليه عهده، وزحفت عساكر سبتة إليه، ففر عنها وقتله بعض البرابرة غيلة}. هـ [العبر 222/6]. قلت: وقد فصلت قضيته في ترجمة مولانا عبد السلام في "شرح" صلاته.

---

## [مواصلة ترجمة الفقيه العمراني، والكلام على النسب الشريف للعمرانيين]

هذا ما التمح من الفوائد والأبحاث في نسبة شيخنا إلى غمارة، وقد قدمنا أن نسبته التي كان بها يتحلى ويكتبها في توقيعاته هي العمراني. ثم إني لا أعرف إلى أي فرقة من فرق العمرانيين ينسب. وكنت سألتُ عن ذلك ولده السيد الأمين، فأجابني جوابا مجملا. وغاية ما قال لي إنهم ينتسبون لفرقة هنالك بمدشرهم من بني زيات. وهم فيما يظهر من هؤلاء العمرانيين من أهل الفحص، وقبيلة بني شداد وتلمبوط بغمارة، من بني عمران من ذرية مولانا عبد الله بن إدريس، حسبما يأتي تفصيل ذلك.

واعلم أن الشرفاء العمرانيين هم من الشرفاء الإدريسيين الجوطيين، الذين هم في صراحة النسب ووضوحه في المغرب، يضاهون العلميين، قال في "المرءاة":

{وليس في المغرب فيما نعلمه من الأدارسة من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه، مبالغ أهل العلم والجوطيين}، قال:

{وأما الجوطيون، فهم من ولد يحيى الجوطي ابن محمد بن يحيى العدام ابن القاسم بن ادريس. هذا الذي عند ابن خلدون. وقال غيره: يحيى الجوطي هو ابن القاسم بن ادريس. قال: والذي نعرفه من الجوطيين ثلاث فرق. وتشعبت إحداهما شعبتين كلها بحضرة فاس، إلاّ شعبة من الشعبتين، فإنها بمكناسة الزيتون}. هـ. ثم ذكر شجرتهم. فذكر الطاهريين، قال:

{وهم في هذه الأعصار مقاسمو العمرانيين في النقابة. والمكناسيين. قال: ومنهم ولاة ضريح جدهم الإمام إدريس الأكبر بزرهون، والطالبيين. قال: وهم بنو أبي طالب، والعمرانيين. قال: ومنهم أهل دار القيطون دار جدهم الإمام إدريس بن إدريس بفاس، بجوار مسجده، وهم من ولاة ضريحه} هـ[ص183].

ولم يشر صاحب "المرءاة" للفروع التي تفرعت من هؤلاء، وما [هي] الجهات التي أوت إليها، ولا المواطن التي اتخذتها سكنا، لأنه حصر ذلك في فاس ومكناس. والذي كان عندنا مأثورا أن العمرانيين في هذه النواحي التطوانية، يوجدون في قبيلة بني حسَّان، ولا زالوا هنالك متمسكين بشرفهم، وكان في بالي أن العمرانيين التطوانيين منهم. وكنت

أسمع أنه قد اندمج فيهم من ليس منهم، حتى إن بعض من ينتسب لمدشر بنواحيها، وهو بنوعمران، يدعي النسب العمراني من تلقاء نفسه، أو نسبه إلى الشرف من يظن أن كل من يقول إنه عمراني فهو شريف، والله أعلم.

وبالجملة، فإن العمرانيين الذين هم شعبة من الجوطيين، هم من الشرفاء الثابت شرفهم عند أهل المغرب بحيازتهم له، وتوليهم لنقابته، وولاية ضريح جدهم مولانا إدريس. بل منهم من تولى الخلافة والسلطنة بفاس. وقد أعرض صاحب "المرءاة" عن ذلك، وما جرى بسببه من انتقال أحد أجداد هؤلاء العمرانيين لتونس، الذين صاروا يعرفون بالتونسيين. وقد تعرض لذلك القادري في "نشر المثاني"، فقال في ترجمة سيدي إدريس بن احمد العمراني:

{الشريف سيدي إدريس بن أحمد العمراني، التونسي الجوطي الحسني. أولاده هم ولاة ضريح مولانا إدريس بفاس، وبيدهم سكنى دار القيطون. قال في "الدر السني": وقد كان وقع لأحد آبائهم انتقال إلى مدينة تونس، لإجلاء بني وطاس لهم، بسبب ما تقدم الإلماع به من الإمارة المذكورة. ثم عادوا بعد إلى فاس، فكانوا يدعون بالتونسيين، فكرهوا إبدال نسبتهم الأولى، فعوضهم الله منها نسبة مطابقة للجد الأول الأعلى، بسبب وجود أبي جدهم المباشر السيد إدريس، المتوفى سنة اثنين وعشرين وألف(1022). فدعوا به كما ذكر، ونسبتهم الأولى هي العمراني، فتغيرت بسبب الانتقال المذكور. والفريق الآخر الذي لم يخرج من فاس باق إلى الآن يدعى بالعمراني ولم يجر عليه غيره قط}.هـ[124/1].

ثم ذكر القادري سبب إخراجهم من فاس، عن "درة الحجال"، وهو خروج أهل فاس عن طاعة عبد الحق الأصغر، بسبب تولية يهودي عليهم، وقتله ونصر الشريف العمراني. ولما رجع أهل فاس لطاعة الوطاسيين، أخرج الشريف العمراني هو وأهله إلى تونس.

هذه خلاصة سبب نفي هؤلاء العمرانيين لتونس. وقال القادري في "النشر" أيضا، في ترجمة النقيب سيدي عبد القادر بن عبد الله الجوطي، ما لفظه:

{فمنهم، أي من أهل العام التاسع من العشرة العاشرة، أي من القرن الثاني عشر، نقيب أشراف المغرب في وقته، وفريد وصفه ونعته، أبو محمد، عبد القادر بن عبد الله

الجوطي الحسني. وكانت النقابة في بيت العمرانيين من الجوطيين، كما في قضية الشريف العمراني مع الإمام أبي عبد الله المقري، في مجلس السلطان أبي عنان المريني. ذكرها صاحب "كفاية المحتاج"، وصاحـب"نفح الطيب"، وغيرهما، وكقضية عبد الحق المريني الأصغر، إذ بويع للشريف العمراني، كما تقدم} هـ[نشرالمثاني95/2].

----

## [ما وقع بين الشريف العمراني والفقيه المقري، بمجلس السلطان]

أمـا قضية الشريف العمراني، مع أبي عبد الله المقري، فهي ما ذكره حفيده أبو العباس في "نفح الطيب"، إذ قال:

{ومن أخبار مولاي الجد الدالة على صرامته، ما حكاه ابن الأزرق عنه، أنه كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان لبثّ العلم. وكان نقيب الشرفاء بفاس، إذا دخل مجلس السلطان، يقوم له السلطان وجميع من في المجلس، إجلالا له، إلاّ الشيخ المقري، فإنه كان لا يقوم في جملتهم. فأحس النقيب من ذلك، وشكاه إلى السلطان، فقال له السلطان: هذا رجل وارد علينا، نتركه على حاله إلى أن ينصرف. فدخل النقيب في بعض الأيام، على عادته، فقام له السلطان، على العادة، وأهل المجلس، فنظر إلى المقري وقال له: أيها الفقيه، مالك لا تقوم كما يفعل السلطان، نصره الله، وأهل مجلسه، إكراما لجدي ولشرفي؟ ومن أنت حتى لا تقوم لي ؟ فنظر إليه المقري وقال له: أما شرفي، فمحقق بالعلم الذي أنا أبثه، ولا يرتاب فيه أحد. وأما شرفك فمظنون. ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة. ولو علمنا شرفك قطعا، لأقمنا هذا من هنا ـ وأشار إلى السلطان أبي عنان ـ وأجلسناك مجلسه، فسكت. قال ابن الأزرق: وعلى اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون، فمن معنى ذلك ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدي السلطان أبي عنان المذكور، "صحيح" مسلم، بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم، فلما وصل إلى أحاديث:"الأئمة من قريش"، قال الناس: إن قال الشيخ: الأئمة من قريش وأفصح بذلك، استوغر قلب السلطان. وإن ورّى، وقع في محظور. فجعلوا يتوقعون له ذلك. فلما وصل إلى الأحاديث، قال بحضرة السلطان والجمهور: إن الأئمة من قريش، ثلاثا. ويقول بعد كل كلمة: وغيرهم متغلب. ثم نظر إلى

السلطان، وقال له: لا عليك، فإن القرشي اليوم مظنون. أنت أهل للخلافة، إذ بعض الشروط قد توفرت فيك، والحمد لله. فلما انصرف إلى منزله، بعث له السلطان بألف دينار هـ. قال أبو عبد الله ابن الأزرق: قلت: ويلزم أيضا من اعتذاره أن قيام السلطان لذي الشرف المحقق بالعلم، أولى بالمحافظة على تعظيم حرمات الله. وقد رويَ عن بعض الأمراء أنه تكبَّر على ذلك، واستخفَّ بمنزلة من عظم به غيره، فسلبه الله ملكه وملك بنيه من بعده}. هـ[146/3].

[انتقاد وتذييل لهذا الموضوع]

قلت: والنقيب الذي وقع له ما وقع مع الشيخ المقري، قال الشيخ الرهوني: وأظنه السيد محمد ابن عمران، جد السادات العمرانيين بفاس.

أما ما جرى في هذه القضية بين الفقيه والنقيب، فهي مما نزغ الشيطان فيها بين الأخوين، ووجدت النفس الآمرة بالسوء في هذا المجلس مسرحاً لها، مما كان ينبغي أن يعرض عنه كل جانب. وفي الحقيقة أن كلا من الجانبين حاد عن المقام الأعلى، وتنكب المنهج الذي كان الأحقَ بسلوكه والأولى.

أما النقيب، فما كان من اللائق به أن يبادر بالشكوى للسلطان، ويتبع في رغبته في القيام له واستحلائه خطوات الشيطان، بل كان الواجب عليه أن يكظم غيظه، ويعتبر بما ورد في الأخبار من قوله، عليه السلام:" من أحب أن يتمثل الناس له قياما، فليتبوأ مقعده من النار".

وكان على الإمام المقري، وهو إمام الشريعة، والعمدة في أحكامها، والعالم بقواعد آدابها، ومحاسن أخلاق ناشر أعلامها، أن لا يصدع للشريف بهذا القول الجارح العنيف. بل كان من المتعين أن يخاطبه بالخطاب اللين، بأن يعتذر في ذلك المجلس الحافل عن القيام إليه، بما لا يجعل مقاله غرضا للحابل والنابل، كأن يقول له مثلا: إني لم أقم، لأن القيام ليس من السنن المتبعة، ولا مما أوجبه الله وشرعه، بل هو من المحدثات المبتدعة، فأنا في القيام لك في اختيار وسعة. أما رمي الشريف بسهم تلك العبارة الجافية، التي أنت

على نسبه، بل على الأنساب كلها، فلم تبق منها للتحقق باقية، فهي في هذا المقام لا يليق صدورها من هذا الإمام.

هذا ما جال في هذه الواقعة بفكري، واستصوبه نظري، على قصوره، وإن لم أره لغيري. فالله يرحم الكل ويسكنه جنة النعيم، ويعمنا وإياهم بفضله وجوده العميم. آمين .

أما الناس، فذهبوا في هذه المقالة مذهبين: مذهب رد مقالة المقري واستهجنها، واستبعده عن طريق الأدب، وذم الطريق الذي انتهجها، ومذهب قبل مقالته، وأجاب عما أوردوه عليه وانتقدوه. وقد استوعب ذلك كله العلامة سيدي محمد الرهوني في "حاشيته" على الزرقاني، في باب الردة. فليراجعه من أراده. والله أعلم.

▪▪▪

[ القيام للداخل وما ورد فيه]

أما مسألة القيام للداخل من الأمراء والرؤساء والعلماء، وذوي المقامات العالية، فهو اليوم وقبله من الواجبات، بل صار ذلك متبعا حتى بين الأقران. وقد كان المتقدمون يشددون في المنع. وممن شدد في ذلك صاحب "المدخل"، وأطال في الموضوع، وكتب فيه نحو ستين صفحة، مما يصح أن يكون تويلفا في ذلك. وذكر أنه لم يكن من فعل من مضى، ثم قال:

{وقد وقع لبعض المتأخرين من الفضلاء أنه من القسم الجائز أو المندوب، وألّف عليه تأليفا في إباحته وندبه، وحاول ذلك، وأنكرأن يكون ذلك من القسم المكروه.}هـ.[ 163/1].

ثم ذكر صاحب "المدخل" مضمن هذا التأليف، وساق ما استدلّ به، وصار يرد تلك الأدلة أو يؤولها. وأخيراً قال بعد أن ذكر ما يفيده قوله، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه لما خرج إليهم فقاموا إليه: "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضا":

{فإن قال قائل: إنما أجازوا ذلك إذا خافوا الفتنة منه. فالجواب: إن خيفة الفتنة إنما سببها استعمالنا نحن القيام، حتى جعلناه بيننا شعيرة من شعائر الدين، حتى لو تركه واحد منا، لوجدنا عليه الوجد الشديد. فلما أن ارتكبنا هذا الأمر بيننا، واصطلحنا عليه من تلقاء

أنفسنا، طلبه اليهودي والنصراني منا، لأن شهوات النفوس والحظوظ، الناس الكل مشتركون في محبتها والقول بها، إلا من عصم الله، سيما من كان شاردا عن باب ربه، معرضا عن مولاه، فيكون ذلك في حقه أكثر}. ثم قال:

{فلو وقفنا نحن عند حدود الشريعة المحمدية، ولم نزد عليها شيئا ولا نستحسنه من تلقاء أنفسنا، إلا ما استحسنه صاحب شريعتنا، صلى الله عليه وسلم، وأمضاه لنا ورآه مصلحة لنا؛ لم يكن أحد من أهل الملل يخالطنا فيه، ولا يطلبه منا. ثم قال: فلو أنكرنا القيام ابتداءاً بعضنا لبعض، ما طلبه أهل الملل منا}، ثم قال:

{وأعظم من هذا فتنة؛ أن أكثرهم يجهلون الفتنة المخوفة ما هي، ويظنون أنه لو تسبب الذمي في قطع رياستهم، أو قطع منصب لهم، أو قطع شيء من جامكيتهم، أو عقد وجهه في وجوههم، أو تكلم فيهم عند أستاذه بأمر ما، كان ذلك عذرا لهم في جواز القيام لأهل الملل. معاذ الله. وإنما يجوز ذلك إذا وقع الخوف الشرعي}. قال:

{وأعظم فتنة وأدهاها وأمرها، هذا الأمر المفظع الذي وقعنا فيه، واصطلحنا عليه، وهو أنا نرى ذلك كله جائزا أو مندوبا إليه. معضلة عظيمة لا تستدرك، ولا يمكن تلافيها، لتعذر وقوع التوبة منها، لأن التوبة لا تكون من الجائز ولا من المندوب، وإنما تكون من المعاصي، فالحاصل من أحوالنا فيه، أعني في القيام، أنا ارتكبنا به بدعة جرّت إلى حرام متفق عليه، وهو القيام لليهود والنصارى والمنافقين}. ثم ختم هذا المبحث بقوله:

{وهو أنه لو أجزنا ذلك لأجل ما يقع لبعض الناس من التغيير، لكان ذلك يؤدي إلى نسخ الشريعة، لأن العوام كلما أحدثوا حدثا في الدين، إن لم نوافقهم عليه حفظا لخواطرهم المخالفة للشرع، لأفضى ذلك إلى ما ذكر. وهذا عكس ما كان عليه السلف، رضي الله عنهم، لأن عادتهم مضت أن العوام يحدثون، والعلماء ينكرون ويزجرون. فصار اليوم الحال بالعكس؛ العوام يحدثون، وبعض العلماء يتبعون، وبعضهم لا ينكرون، وهم يعلمون. وقد قال عليه الصلاة والسلام: " من أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو رد"، أو كما قال. وهذا عام في الواجب والمندوب والمباح} هـ[1/194-197 ].

وبالجملة، فمسألة القيام للداخل اختلف فيها العلماء والفقهاء. ووجه اختلافهم، اختلاف الأدلة التي وردت في ذلك. فالذين أباحوا، استندوا للحديث الصحيح الذي رواه

البخاري وغيره، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لما جاء إليه سعد بن معاذ، قال: "قوموا إلى سيدكم". وبه احتج للجواز أهل الحديث، كالبخاري ومسلم وأبي داود، كما احتج به النووي، ونقل الاحتجاج به عمن ذكرنا.

كما احتج المجيز بما أخرجه النسائي عن عائشة، رضي الله عنها: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا رأى فاطمة بنته قد أقبلت، رحب بها، ثم قام فقبلها، ثم أخذ بيدها حتى يجلسها في مكانه. وأخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، وصححه ابن حبان والحاكم، وبحديث كعب بن مالك في قضية توبته، إذ قام إليه طلحة بمحضر النبي، صلى الله عليه وسلم، يهنئه، وهو في "صحيح" البخاري.

أما المانعون، فقد احتجوا بما أخرجه أبو داود وابن ماجة عن أبي أمامة، قال: خرج إلينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، متوكئاً على عصا، فقمنا له، فقال:" لا تقوموا كما يقوم الأعاجم بعضها لبعض". وبما أخرجه أبو داود والترمذي، والبخاري في "الأدب المفرد"، من طريق أبي مجلز، قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس. فإني سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "من أحب أن يتمثل له عباد الله قياما، فليتبوأ مقعده من النار".

فمنهم من أبقى الخلاف ورجّح. ومنهم من ذهب إلى الجمع بين الأدلة، وفصل في القيام. وأحسن ما رأيته في ذلك ما قرره شهاب الدين القرافيّ المالكي، في "فروقه" في الفرق269، بين قاعدة ما يباح في عِشرة الناس من المكارمة، وقاعدة ما ينهى عنه، وجعل ما يباح قسمين: قسم وردت به نصوص الشريعة، وقسم لم ترد به النصوص ولا كان في السلف، لأنه لم تكن أسباب اعتباره موجودة، وتجددت في عصرنا، فتعين فعله لتجدد أسبابه، ثم أفاد أن القيام اليوم من هذا القسم، فقال:

{وهذا القسم، هو ما في زماننا من القيام للداخل من الأعيان، وإحناء الرأس له إن عظم قدره جداً، والمخاطبة بجمال الدين، ونور الدين، وعز الدين، وغير ذلك من النعوت، والإعراض عن الأسماء والكنى، والمكاتبات بالنعوت أيضا؛ كل واحد على قدره، وتسطير اسم الإنسان بالمملوك ونحوه من الألفاظ، والتعبير عن المكتوب إليه بالمجلس العالي والسامي والجناب، ونحو ذلك من الأوصاف العرفية، والمكاتبات العادية. ومن ذلك ترتيب

الناس في المجالس، والمبالغة في ذلك، وأنواع المخاطبات للملوك والأمراء والوزراء، وأولي الرفعة من الولاة والعظماء . فهذا كله ونحوه من الأمور العادية لم تكن في السلف، ونحن اليوم نفعله في المكارمات والموالاة، وهو جائز مأمور به، مع كونه بدعة}. قال القرافي:

{ولقد حضرت يوما عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان من أعيان العلماء، وأولي الجد في الدين، والقيام بمصالح المسلمين خاصة وعامة، والثبات على الكتاب والسنة، غير مكترث بالملوك فضلا عن غيرهم، لا تأخذه في الله لومة لائم؛ فقدمت إليه فتيا فيها: ما تقول أئمة الدين، وفقهم الله، في القيام الذي أحدثه أهل زماننا، مع أنه لم يكن في السلف. هل يجوز أم لا يجوز ويحرم؟. فكتب إليه في الفتيا: قال رسول الله، صلى الله عله وسلم: " لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا ". وترك القيام في هذا الوقت، يفضي للمقاطعة والمدابرة. فلو قيل بوجوبه ما كان بعيداً. هذا نص ما كتب من غير زيادة ولا نقصان.} هـ[235/4].

ثم ساق القرافي قول سيدنا عمر بن عبد العزيز، وأيد به الموضوع. ثم قال:{ قلت: فينقسم القيام إلى خمسة أقسام:

- محرم، إن فعل تعظيما لمن يحبه، تجبرا من غير ضرورة.

- ومكروه، إن فعل تعظيما لمن لا يحبه، لأنه يشبه فعل الجبابرة، ويوقع فساد قلب الذي يقام له.

- ومباح، إذا فعل إجلالا لمن لا يريده.

- ومندوب، للقادم من السفر، فرحا بقدومه ليسلم عليه، أو يشكر إحسانه، أو القادم المصاب ليعزيه بمصيبته}. قال:

{وبهذا يجمع بين قوله عليه السلام: " من أحب أن يتمثل له الناس، أو الرجال، قياما، فليتبوأ مقعده من النار"، وبين قيامه لعكرمة ابن أبي جهل، لما قدم من اليمن، فرحا بقدومه، وقيام طلحة بن عبيد الله، لكعب بن مالك، ليهننه بتوبة الله تعالى عليه، بحضوره، عليه الصلاة والسلام. ولم ينكر النبي، عليه السلام، عليه ذلك. فكان كعب يقول: لا أنساها لطلحة. وكان، عليه السلام، يكره أن يقام له. فكانوا إذا رأوه، لم يقوموا له إجلالا لكراهته

لذلك. وإذا قام إلى بيته لم يزالوا قياما حتى يدخل بيته، صلى الله عليه وسلم، لما يلزمهم من تعظيمه، قبل علمهم بكراهة ذلك، وقال عليه السلام للأنصار:" قوموا لسيدكم". قيل: تعظيما له، وهو لا يحب ذلك، وقيل: ليعينوه على النزول عن الدابة.}هـ [الفروق للقرافي236/4].

وفيه أنه لم يذكر من الأقسام إلا أربعة، وسكت عن الخامس. وكأنه أراد به الواجب الذي تقدمت الإشارة إليه في فتوى ابن عبد السلام، إذ قال: فلو قيل بوجوبه، ما كان بعيدا هـ. أما هذه الأقسام الأربعة التي ذكرها القرافي، فهي التي اقتصر عليها ابن رشد في "البيان"، بل الظاهر أن القرافي عنه أخذها بالحرف، ونص "البيان" على نقل صاحب "المدخل":

{القيام للرجل على أربعة أوجه: وجه يكون القيام فيه محظورا، ووجه يكون فيه مكروها، ووجه يكون فيه جائزا، ووجه يكون فيه حسنا. فأما الوجه الذي يكون فيه محظورا لا يحل، فهو أن يقوم إكبارا وتعظيما لمن يحب أن يقام إليه تكبرا وتجبرا على القائمين إليه. وأما الوجه الذي يكون القيام فيه مكروها، فهو أن يقوم إكبارا وتعظيما وإجلالا لمن لا يحب أن يقام إليه، ولا يتكبر على القائمين إليه. وأما الوجه الذي يكون القيام فيه جائزا، فهو أن يقوم تجلة وإكبارا لمن لا يريد ذلك، ولا يشبه حاله حال الجبابرة، ويؤمن أن تتغير نفس المقوم إليه لذلك. وهذه صفة معدومة، إلا من كان بالنبوة معصوما، لأنه إذا تغيرت نفس عمر، رضي الله عنه، بالدابة التي ركب عليها، فمن سواه بذلك أحرى. وأما الوجه الذي يكون القيام فيه حسنا، فهو أن يقوم الرجل إلى القادم عليه من السفر فرحا بقدومه ليسلم عليه، أو إلى القادم عليه سرورا بنعمة أولاه الله إياها ليهنئه بها، أو لقادم عليه مصاب بمصيبة ليعزيه بمصابه، وما أشبه ذلك. فعلى هذا يتخرج ما ورد في هذا الباب من الآثار، ولا يتعارض شيء منها} هـ[168/1].

قلت: وجرى العلامة الزرقاني في شرح "المختصر"، في باب الجنائز، على تقسيم القرافي، وذكر الخامس وبدأ به، وصرح بأنه الواجب، فقال:

{ وأما القيام للحي، فواجب إن أدى تركه للمقاطعة، أو خوف أذى} الخ.[108/2]

وكأنه أخذ ذلك مما أخذناه. وبه يسقط تعقب الشيخ بناني على الزرقاني في ذكر هذا الخامس بكلام ابن رشد هذا، الذي نقلناه عن "المدخل". والله أعلم.

[ مواصلة الكلام على الشرَف العمراني وشُعَبه]

وإذ أتينا بهذه الجملة الكبرى، التي أعربنا فيها عما وقع من الاصطدام بين الشريف العمراني النقيب، وبين الإمام المقري في مسألة القيام، نعود إلى تحقيق الكلام على الشرف العمراني وشعبه فنقول: إن هذا الشرف يرجع إلى أصلين من أصول الشرف الإدريسي وهما السيد القاسم، والسيد عبد الله، أبناء المولى إدريس. أما الأصل الأول، فهو الذي تكلمنا عليه فيما سبق، وهو الذي أتينا فيه بكلام "المرءاة"، و"نشر المثاني"، وهو الفرع الذي ينتمي إلى عمران بن عبد الواحد، وينتهي نسبه إلى يحيى الجوطي ابن محمد بن يحيى العدام ابن القاسم بن ادريس، على ما عند ابن خلدون، أو يحيى الجوطي ابن القاسم.

وبالجملة، فهؤلاء العمرانيون هم من الجوطيين، حسبما سبق تفصيله. وهم من بني القاسم بن ادريس. ومن هؤلاء النقيب الذي وقع له ما وقع مع الإمام المقري. وأما الأصل الثاني، وهو المولى عبد الله، وهو الذي كان ولاه أخوه المولى محمد، لما قسم المغرب بين إخوته، مدينة أغمات وبلاد نفيس، والمصامدة ودكالة. ومن أبنائه كل عمراني، ما عدا الجوطيين، قال في "الدرر البهية":

{وهم أهل الفحص، وقبيلة بني بو شداد، وتلنبوط. وهم أولاد النجار، وأولاد التبر، والمنصوريون، وأولاد ابن تسعدنت، وأولاد الغريب، والمشامريون، وأولاد بوقشابة، والمغاريون، والشغروشنيون، والسبعيون، أهل دويرة السبع، والمنجريون، وأولاد ابن معزوز، على الصحيح}. ثم قال:

{أما هؤلاء العمرانيون، فهم بنو عمران بن يزيد بن صفوان بن خالد بن يزيد بن عبد الله بن إدريس، رضي الله عنه. توفي - أي عمران المنسوبون إليه - في أواخر المائة الرابعة ببني يوسف، فاراً من وقعة الحكَم الأموي بالحسن بن جنون، وسنه ثمان وثمانون سنة (88 ) وقيل تسعون(90 ). والله أعلم. وتفرق أبناؤه في الأماكن المشار إليها. وفي

هذه الوقعة هُدم حصن حجر النسر، المعروف بحجر الشرفاء، فلم يعمر بعد إلى الآن}. ثم صار صاحب "الدرر" يذكر هذه الشعب ويبين أماكنها، فقال:

{أما أهل الفحص، وقبيلة بني بوشداد، وتلنبوط، فلهم شهرة ببلادهم} هـ[166/2].

قلت: وبنو بو شداد وتلنبوط، هم من قبائل غمارة، والأقرب أن يكون شيخنا من هؤلاء . ثم قال في "الدرر":

{ وأما أولاد الغريب، وهم ببني جرفط، ويعرفون قديما بأولاد ابن سليمان، فلا أعرف الآن أحدا منهم بفاس، إلا السيد أحمد بن حفيد، القاطن الآن بالجزيرة، عدوة فاس الأندلس. }هـ[166/2].

ثم لما ذكر في "الدرر" الشرفاء العمرانيين، أهل دويرة السبع، وهم السبعيون، وذكر أفرادا منهم، ومقر سكناهم، وأنهم انقسموا إلى ثلاث فرق، وأشار إلى ما بأيديهم من الحجج وظهائر ملوك المغرب، قال:

{وهؤلاء العمرانيون متفرقون في أماكن كثيرة، ففرقة بقبيلة سماتة، بحجر النسر، وهي معظمهم}. قال:

{وقد رأيت التنبيه عليهم في ظهير تولية الشريف، سيدي أحمد بن إدريس العمراني الجوطي الحسني، نقابة الأشراف بفاس وغيرها، من قبل السلطان عبد الله الشيخ السعدي الشريف، بتاريخ سبعة وعشرين والف(1027 )، وفرقة ببني خالد من غمارة، ومنهم أولاد التبر بفاس الإدريسية، وفرقة ببني حسان، وفرقة ببني حزمر، وفرقة ببني يدر، وفرقة ببني جرفط، وفرقة ببني يوسف، وفرقة بالقصر الكبير، وفرقة بقبائل صنهاجة من تطوان، وفرقة ببني مسارة، وفرقة بصنهاجة ورغة، وفرقة بالعلم بالحصن، ثلاثة عشر دارا الآن، وهم أبناء ولي الله سيدي عمران، دفين الحصن المذكور، المتصل نسبه بعمران بن صفوان، جامع هذه الشعبة العمرانية، ويعرفون هناك بأولاد الرقاس، وبأولاد العمراني، وهم أبناء السيد علي بن محمد بن عبد الرحمان بن عمران الأصغر، وقد نبه عليهم النقيب ابن عبد الوهاب العلمي، وعدهم من صرحاء هذه الشعبة، وذكر أن لعمران هذا خمسة عشر ذكرا، وأعقبوا كلهم أو جلهم}. ثم قال:

{وشرف هؤلاء أولاد الرقاس العمرانيين وثيق، وبأيديهم ما يشهد بصحته وعلو طبقته، حسبما وقفنا عليه. وانتقل منهم الآن لبني جرفط، ثم لمدشر الصخرة، السيد عبد السلام بن علي، وابن عمه سيدي محمد بن عبد الله، والسيد أحمد بن محمد، وابن عمهم السيد عبد العزيز، ثم انتقل أخوه سيدي أحمد لبني زروال، فهو الآن هناك. والله غالب على أمره} هـ[ 2/170-171].

ثم أشار صاحب "الدرر" إلى تكاثر فروع هؤلاء العمرانيين، وتفرقهم في الأقطار. والكثرة في هذه الفروع، وتشعب هذه الشعب، أوسعت دائرتهم، وتعسّر على المحصي حصرها، فوجد المدعون مكانا ذا سعة لترويج زورهم، فامتزج الحق بالباطل، واختلط الخالي بالعاطل، ودخل في هذا النسب العمراني ما ليس منه، كما سبقت الإشارة إليه، ولهذا قال صاحب "الدرر" : {وقد كثر الإدعاء في هؤلاء العمرانيين، ولابد من التثبت والاحتياط فيمن ينتمي إليهم} هـ[2-172 ].

هذا وقد أستفيد مما سبق أن العمرانيين بهذه النواحي الهبطية، إنما هم من بني عبد الله، لا من بني القاسم الذين منهم الجوطيون، والله بكل شيء محيط.

أما شيخنا الغماري، فيظهر انه من تلك الفرق التي كانت بقبيلته. والله سبحانه يلحق الكل بهذا النسب الشريف، ويحققنا وإياهم بحسبه الرفيع المنيف، ويشملنا وإياهم ذلك التطهير الذي طهر به أهل البيت ويدخلنا في ظله الوريف، آمين.

## [تتميم ترجمة الشيخ العمراني بذكر ولايته للقضاء]

وهنا أعود إلى تتميم الترجمة فأقول: إن شيخنا العمراني، عاش عيشة راضية بقلب هادئ، وجأش ساكن، لا يطاول من علاه، ولا يتطلع إلى ما لا تكسبه يداه، يؤثر السذاجة في أحواله، ملازما للاقتصاد في مأكله ومشربه ولباسه، ليس بمختال ولا فخور، لا يتخذ إلاّ تجارة القناعة التي لا تبور، فقد قضى معظم زمانه في اقتياته من ما كان يتقاضاه من أجرة الشهادة والفتوى، وذلك من النزارة بمكان، وفي بعض الأحيان كان يأخذ مرتب التدريس بالزاوية الريسونية، وكل ذلك لا يقنع ولا يغني، وإنما يسد الضروريات ولا

يغني. وما اتسع عليه الحال، إلا في هذه الآونة الأخيرة، حيث عين قاضيا بمدينة أصيلا، ثم نقل إلى مدينة العرائش، ثم إلى القصر الكبير، ثم أعفي من ذلك، فرجع إلى محل قراره في تطوان، مقطوع الجراية، منقوص الكفاية، معلولا في صحته، مغلولا في حد قوته، مطلوبا بقوت عائلته، على قلة منونته. ولما ضاقت به الأحوال، وأحاطت به طوائف الإقلال والاعتلال، اقتادته دواعي البشرية، إلى اتخاذ الأسباب، والتعلق بأهل الدولة عسى أن يفتحوا له ما انسد في وجهه من الأبواب، فاقتحم على اختلال صحته تلك العقبة الكنود، فوصل إلى الوزير بعد تكبد المشقة، راجيا أن يجبر كسره، ويعينه ولو بكلمة طيبة على تحصيل الكسرة، فلم يهتم الوزير المذكور بشأنه، ولا أخذته رأفة في شيخنا المنكسر خاطره تبعثه على مساعدة طلبه، ولا تسليته بالقول اللين بلسانه.

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فرجع الفقيه إلى بيته مكسور الخاطر، مهيض الجناح، إذ ذهب سعيه الذي تكبده أدراج الرياح، لائما نفسه على تسببه في هذا الانكسار، وموفضا أمره إلى الله الواحد القهار، منشداً بلسان حاله ما أنشأه مشابهه، بصريح مقاله:

أبعين مفتقر إليك نظرتنـــي فأهنتني وقذفتني من حَالق

لست الملوم، أنا الملوم لأنني أنزلت حاجتي بغير الـخالـق

وهكذا انداس أهل العلم بالأقدام، ويسامون الحيف حيث يخسف بهم في أرض الإعدام، ويقابلون بالإعراض حيث لا يبقى في جانبهم ما يرجى من الأغراض. وبودي لو كان شيخنا، رحمه الله، تحرز ما عنده، ورفع نفسه عن التذلل لمن لم يقابله بما يقتضيه مقامه، ورضي بالدون من القوت الذي فيه مولاه قد أقامه، ويعتبر بشأن حال الولاية التي ما أضحكت في إقبالها،إلا وأبكت في إدبارها، ولا اتسعت في بدايتها، إلا وضاقت في نهايتها، ولا انبسطت في زهرتها، إلا وانقبضت في نفرتها، ولا استوهبت مسرة، إلا واستبدلتها مضرة.

[سبب إعراض أهل العرفان وكبار العلماء عن الولاية]

ولهذا أعرض عنها أهل العرفان، إذ علموا أن كل من عليها فان، وتقلدوا الولاية التي لا تنقطع جرايتها، ولا يتكبر جيش عنايتها، ولا يزول عزها، ولا يباح حرزها، إذ يدخل

في حرز التقوى، ويعتصم بالعروة الوثقى، ويرتسم في ولاية الله التي هي أوقى وأقوى، ويحرز العز الذي لا يقبل الذلة، والعناية التي لا تحوم عليها إهانة، وتحصل له البشرى، (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُم يَحْزَنُون الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ).

وهذا المقام مقام عال عزيز الوجود، ولاسيما في عصرنا هذا الذي استهوتنا الدنيا بأنواع ملاهيها، واستعبدتنا بزخارف حضارتها، وملاذ شهواتها، وألهتنا بالتكاثر في عرضها الفاني، وأذهبت عقولنا في التنافس في المحسوسات، وأذهلتنا عن التفكر فيما يجدي من المعاني، واستدرجتنا في الانهماك في الشهوات المباحة، حتى أوقعتنا في المشتبهات، ثم في المحرمات. ثم لم يقف الأمر هنا، بل تعدى إلى الاختلال في المعتقدات، حتى صار الواحد منا إن فكر في إصلاح ما فسد، وتدارك الخلل الواقع في العمل والمعتقد، هاجمته الوساوس من الجن والإنس، وصرفته عن قصده الحسن، وزينت له سوء تلك الأعمال، أو السكوت عن ذلك وإيثار طريق الإهمال. وإلى الله المشتكى، وعليه الاعتماد في كل حال.

وفي هذا الموضوع الذي أسلفنا القول فيه، من بخس حقوق أهل العلم، وإهمال جانبهم، وأن من اعتمد على الجرايات في الأعمال، استحالت به الأحوال، وعاش كاسف البال، معموراً بالأوجال والأوحال، حيران في شئونه، لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا. يقول أبوالبركات إبن الحاج السلمي، أحد مشاهير القضاة بالأندلس، وهو من رجال "الإحاطة"، ما لفظه:

{من اقتصر على التعيش من مرافق الملوك؛ ضاع هو ومن له، وشمله القل، وخامره الذل، اللهم إلا من كان من القوة بالله قد بلغ من الزهد في الدنيا إلى الحد الذي يكسبه الراحة بالخروج عن متاعها، وترك شهوتها، قليلها وكثيرها، مالها وجاهها، فأمر آخر. ومن لنا بالعون على تحصيل هذا المقام، ولا سيما في هذا الزمان، ولم نسمع ممن قاربه من الولاة المتقدمين بالأندلس، إلاّ ما حكي عن إبراهيم بن أسلم، وقد أراد الحكم المستنصر بالله إغاظته، فقطع عنه جرايته، فكتب إليه في ذلك:

تزيد على الإقلال نفسي نزاهـــة     وتأنس بالبلوى وتقوى مع الفقر

فمن كان يخشى صرف دهر فإنني     أمنت بفضل الله من نوب الدهــر

فلما قرأ الحكم بيتيه، أمر بردّ الجراية وحملها إليه. فأعرض عنها، وتمنع من قبولها، وقال: إني والحمد لله، تحت جراية من إذا عصيته لم يقطع عني جرايته، فليفعل الأمير ما أحب. فكان الحكم بعد ذلك يقول: لقد اكتسبنا من ابن أسلم بمقالته مخزاة عظم منا موقعها، ولم تسهل علينا المقارضة بها}هـ. من كتاب النباهي في القضاء والقضاة. [المرقبة العليا، فيمن يستحق القضاء والفتيا، مخطوطة ص 104].

قلت: ومن المقرر عند أهل الاجتماع أن الولاية ليست بمذهب طبيعي للمعاش، كما قرره ابن خلدون، وما ابتغاء المعاش إلا في التجارة أو الفلاحة أو الصناعة. ولهذا كان كثير من الناس يفرّون من الولايات؛ منهم من كان ذلك منه خوفا على نفسه من النكبات التي يكون الوالي معرضا لها، ومنهم من كان يفر من ذلك خوفا على دينه، كما وقع ذلك من كثير من العلماء، حيث امتنعوا من ولاية القضاء بعد ترغيبهم وترهيبهم.

فمن ذلك أن الدولة العباسية أرادت في أول أمرها أن تنتخب للقضاء أكبر العلماء وأمتنهم فقها ودينا، فرشحت لذلك ثلاثة، وهم: الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام أبو ثور. قالوا: وامتنعوا وبرّروا امتناعهم بأعذار؛ فاعتذر أبو حنيفة بأنه مولى، ولا تنبغي له الولاية، والإمام مالك بأنه محدود، أي لأنه ضرب في قضية قوله بأن طلاق المكره لا يلزم، واعتذر أبو ثور بأنه قرشي، ولا ينبغي لأحد أن يشارك الخليفة في حكمه ونسبه. وبمثل هذا العذر فدى نفسه الإمام الشافعي، رضي الله عنه، من هذا الذبح المعنوي الذي قال فيه الرسول، عليه السلام: " من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين".

وحق لهؤلاء الأعلام، عمد الإسلام، أن يمتنعوا من تحمل هذه الأمانة، وهم في عصر ظهر فيه في الأمراء الاختلال، واختلطت بالمكوس والمظالم بيوت الأموال، مع علمهم بأن الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر، وتكاثر آيل في الحين إلى الاضمحلال. ويرحم الله هذا الإمام الشافعي، إذ يقول:

ومن يذق الدنيــا فإني أطعمتها　　وسيق إليّ عذبهــا وعـــذابها
فلم أرها إلا غـروراً وباطـــلاً　　كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
ومـا هي إلا جيفـة مستحيـــلة　　عليها كـــلاب همهن اجتذابهـا
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلهـا　　وإن تجتذبها نـــاهبتك كلابهـا
فطوبى لنفس، أوطاب قعر بيتها　　مغلقة الأبواب مرخى عنـانها

وقد كنتُ قلت في معنى بيت الشافعي الأخير:

تركت هـوى ليلـــى وكـل عـــلاقــة　　تذكرني ليلــى ومـــا لذّ من وصـــل
وصرت أليـف البـيت فرداً بمـنزلـــي　　سليماً من التجـــوال في سقط القول
يؤنسني القـــــرآن عـند توحشـــــي　　ويشغلنـــي ذكر الإلـــه عن الشغـل
وصاحبت وصف الفصل عن كل صاحب　　ووصل التخلي لا لســـــوء عن الخـل
وما لي لا أخلـــو بنفسي وإن لـــــي　　نفـــانس أسفـــار تنـوء عن الحمل
بهـا كـل حبر نـــابغ في عـلومـــه　　فما شئت من نقلي وما شئت من عقلي
أحـــادث منهـــا كل من صـــح وده　　وأســراره مصقــولـة من صدا الغل
تبين لنا في صمتهـــا عـن معـــارف　　تضل قضـــاياها عن الحـافظ المملي

وقلت أيضا في معنى ما أشار إليه القاضي ابن أسلم، لما قطع عليه أمير الأندلس الحكَم جرايته، في الاعتماد على الله، والتعلق به في كل حال، ورفض جانب المخلوق لعجزه عن أمور نفسه، فضلا عن أمور غيره:

الجأ إلى الله واطلب　　منـه المنى والمزيـدْ
فـإنـــه المتـولـي　　أمـور كـل العبيـــدْ
ودع سؤال البـرايـا　　فسؤلهـم لا يفيـدْ
إذ كيف تسأل مـن لا　　يفعل كيـف يريـدْ
وهـو قريباً سيفنـــى　　وينـقـــضي ويبيـدْ
ومـا البقـــاء إلاّ　　لمبدئ ومـعيــــدْ

---

وقلت في ترك الشكوى بالبلوى، وعدم التفاخر بالنعمى، والبطر بها حيث أتاك الله ما تهوى:

لا تشتكِ بشَراً بلوَى أصبتَ بها  واكتمْ وأنت بحبل الصَّبر مُعتصم
ولا تكن فرحاً بنعمةٍ بَطِراً  بل شاكراً خاضعاً بالذل مُتّسم
إذ لا ترى اليومَ إلاّ شانِئاً شَامتاً  أو حاسِداً يرتجي لوْ أنتَ في عدم

قلت: وهذا المعنى الذي ذكرنا، يشير له قوله تعالى: ( لِّكَيْلاَ تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم). وصدر الآية: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أن نَّبْرَأَهَا إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلاَ تَأسَوْا ) الآية، [الحديد 22-23 ].

[تفسير قوله تعالى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبةٍ) الآية]

وهذه الآية الكريمة، عظيمة الموقع، كبيرة التأثير في تسلية المصاب وحمله على التصبر، وتركه الشكوى لغير الله. كما أنها جمة الاعتبار، منبهة للأفكار، أي في تزهيدهم في رغائب هذه الدار، ونظرهم إلى نعيمها، وما يؤتيهم الله من زهراتها، نظر شكر وانكسار، لا نظر بطر وافتخار، ففي قوله تعالى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ) الخ، إعلام لخلقه بأن هذه الحوادث الكونية، من كل ما يظهر على ظهر هذه الغبراء، من سراء وضراء، من قلة الأمطار، ويبس الأشجار، ونقص في الثمار، وغلاء في الأسعار، وشكوى الكساد من التجار، وفشوّ الجوع في بعض الأمصار، وتتابع الزلازل المخيفة في بعض الأقطار، وما أصاب الإنسان في نفسه من صحة وإسقام، وإثراء وإملاق، واجتماع وافتراق، وانقباض وانبساط؛ كل ذلك واقع بتقدير من الواحد القهار، وسابق قبل خلقه في علمه حسبما سبقت به الأقدار.

وإذا علم الإنسان أن هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر، ومثبتة في الكتاب الذي لا يتغير، هانت عليه المصائب، وسدّ عليه باب تفاقم حزنه، ورجع إلى الله العالم بالخلق، فقل لوعه؛ علما منه بمقتضى إعلام الله تعالى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

كما أنه إذا علم أن ما أعطاه له الله من النعم، وأفاض عليه من المنن، ليس من كده واجتهاده، ولا من بدل سعيه في إدراك مراده، وإنما هو من تقدير الله وتيسيره، وهو فضل من الله وإحسان منه إلى من شاء من عبيده، (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُوتِيهِ مَن يَشَاء ). فلا تبطره تلك النعم، ولا تستخفه تلك الآلاء إلى التظاهر بالاختيال، والتعاظم بالتفاخر والخيلاء، بل يكون مستقرا للذل والتواضع، وشاكرا بقلبه ولسانه وجوارحه للمنعم عليه بهذه النعماء، لما قال تعالى (لِّكَيْلاَ تَاسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفرَحُوا بِمَا آتَاكُم وَاللهُ لاَيُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)، قال الإمام ابن كثير في" تفسيره":

{أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق لنا كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، لأنه لو قدر شيء لكان، ولا تفرحوا بما آتاكم، أي جاءكم، وتفسير آتاكم أي أعطاكم، وكلاهما متلازم، أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا بكدكم، وإنما هو من قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشرا وبطرا تفخرون بها على الناس، ولهذا قال تعالى (والله لا يُحِب كلَّ مُختالٍ فخُورٍ) أي مختال في نفسه، متكبر فخور، أي على غيره}هـ[ 314/4].

وفي "تفسير" الفخر: {لأنه تعالى بين أن إخبار الله عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر، ومثبتة في الكتاب الذي لا يتغير، يوجب أن لا يشتد فرح الإنسان بما وقع، وأن لا يشتد حزنه بما لم يقع. وهذا هو المراد بقوله، عليه السلام: "من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب"} هـ[99/8].

ولا يخفى أن هذه الآية الكريمة تشير إلى أن الصبر تارة يكون على ما يصيب الإنسان مما يسينه، وتارة يكون مما يسره، أما الصبر على ما يصيبه مما ينافي طبعه، ويكدر خاطره، فهو ظاهر. وأما على ما يسره ويوافق هواه، فإن الصبر في ذلك مما قد يخفى، وقد نبهت الآية عليه بقوله: (وَلاَ تَفرَحُوا بِمَا آتَاكُم)؛ بأن لا يسترسل في تلك المسرات ويركن إليها، وينهمك في ملاذها، حتى يكسبه ذلك بطرًا وطغيانا، وتكبرًا واختيالا.

والصبر عند العارفين هنا أشق، لأن فتنة السرّاء تدب في الإنسان كدبيب السم، فتقتله وهو لا يشعر، إذ الإنسان يتناول الأطعمة اللذيذة، ويلبس الحلل الرفيعة، ويسكن القصور المشيدة، ويستمتع بالأزواج، ويبتهج بالأولاد، ويقتني الضياع، ويتكاثر بالأموال، ويركب المراكب الأنيقة، وهو يحسب أنه لم يتعد الحدود، ولا يرتكب إلاّ ما هو مباح ومحمود، وهو في ظاهره كذلك، لكن في باطنه بلاء ومحنة، لقوله تعالى: (إنَّمَا أمْوالكُم وَأوْلادُكُم فِتْنَة). قال في"الإحياء"، في الصبر على ما يوافق الهوى، وهو الصحة والسلامة، والمال والجاه، وكثرة العشيرة واتساع الأسباب، وكثرة الأتباع والأنصار، وجميع ملاذ الدنيا، قال:

{وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه من الاسترسال والركون إليها، والانهماك في ملاذها المباحة منها؛ أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، فإن الإنسان ليطغى أن رءاه استغنى، حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق. وقال سهل بن عبد الله: الصبر على العافية، أشد من الصبر على البلاء. ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة، رضي الله عنهم، قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر. ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد، فقال تعالى: ( يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتُلْهِكُمُ أمْوالُكُم وَلا أوْلادُكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ) وقال عز وجل(إنَّ مِن أزْوَاجِكُم وَأوْلادِكُم عَدُوّاً لكُم فَاحْذَرُوهُم)}. ثم قال في "الإحياء" :

{ فالرجل كل الرجل، من يصبر على العافية. ومعنى الصبر عليها، أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة، واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالانفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه بقول الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه. وهذا الصبر يتصل بالشكر، فلا يتم إلاّ بالقيام بحق الشكر} هـ[50/4].

## [ذكر بعض الأعلام الذين رفضوا ولاية القضاء، وأخذ الجرايات]

واتباعا لموضوعنا في تجافي كثير من أفاضل الأعلام عن انتصابهم في سلك القضاء، والتولي لوظائف الحكومة، أقول:

فممن رفض الدخول في القضاء، في العصر العباسي، من مشاهير الأعلام: المغيرة بن عبد_الرحمان المخزومي، فإن الخليفة الرشيد عرض عليه قضاء المدينة، وجرايته أربعة آلاف دينار، فامتنع. فأبى الرشيد إلا أن يلزمه. فقال: والله يا أمير المؤمنين، لأن يخنقني الشيطان، أحبّ إلي من أن ألي القضاء، فقال الرشيد: ما بعد هذا شيء.

وممّن أبى الولاية، وامتنع منها إشفاقا على نفسه من الوقوع في أخطارها، محمد الخشني، إذ أراد أمير الأندلس توليته قضاء جيان، وأمر الوزراء بإلزامه، فأبلغوه أمر الأمير، فأبى ونفر نفورا شديدا، فلاطفوه وخوفوه، فلم يزد إلا إباءاً. فأخبروا الأمير بذلك، فوقّع الأمير توقيعا غليظا معناه: من عصانا، فقد أحل لنا نفسه وماله. فلما قرأوه على الخشني، نزع قلنسوته من رأسه، وجعل يقول: أبيتها كما أبت السماوات والأرض، إباية إشفاق، لا إباية نفاق. فكتبوا إلى الأمير بلفظه، فكتب إليهم أن سلموا أمره، وأخرجوه عن أنفسكم.

ثم إن ممَّن أبى من تولي القضاء والولاية، من أكابر العلماء الفضلاء، كثيرون في كل عصر ومصر، وفي كل ناحية وقطر، يعز حصرهم، ويعجز القلم عن تسطير أسمائهم. ولقد كان من الأئمة الكبار، من [يعاني] مرارة الافتقار، ولا ينقاد لأوامر الملوك في ذلك. بل منهم من كان يؤثر أخذ صلة الإخوان، على مواصلة جرايات السلطان.

فهذا الحافظ الضابط إسماعيل ابن عليّة، وهو المحدث الفقيه الورع التقي، سيد المحدثين، كما قاله شعبة، وهو أحد أشياخ الإمام أحمد، كان ولاه الخليفة الرشيد مظالم بغداد وقضاءها، وهي إذ ذاك خطة كبيرة، ومنصب عظيم. وكان ابن علية، لاحتياجه، أحد الأئمة الأعلام الخمسة الذين يواصلهم عبد الله بن المبارك بأرباح تجارته، ثانيهم سفيان الثوري، ثالثهم سفيان بن عيينة، رابعهم الفضيل بن عياض، خامسهم محمد بن السماك، وكان عبد الله يقول: لولا هؤلاء الخمسة، ما اتجرت، لأنه كان يخرج فيتجر إلى خراسان.

فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال، ونفقة الحج، والباقي يصل به إخوانه الخمسة، فقدم سنة فقيل له: قد ولي ابن علية القضاء. فلم يأته، ولم يصله بالصرة التي كان يصله بها في كل سنة. فبلغ ابن علية أن ابن المبارك قد قدم، فركب إليه، فتنكس على رأسه، فلم يرفع به عبد الله رأسا، ولم يكلمه، فانصرف. فلما كان من غد، كتب إليه رقعة :

(بسم الله الرحمان الرحيم، أسعدك الله بطاعته، وتولاك بحفظه، وحاطك بحياطته. قد كنت منتظرا لبرك وصلتك أتبرّك بها، وجئتك أمس فلم تكلمني، ورأيتك واجدا عليَّ، فأي شيء رأيت مني حتى أعتذر إليك منه؟.)

فلما وردت الرقعة على عبد الله بن المبارك، دعا بالدواة والقرطاس، وقال: يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا. ثم كتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

يا جاعل الدينَ له بازياً يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونا بها بعدما كنتَ دواءً للمجانين
أين رواياتك في سردها عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك في سردها لترك أبواب السلاطين
إن قلتَ أكرهتَ فذا باطلٌ زلّ حمارُ العلم في الطين

فلما وقف ابن عليّة على هذه الأبيات، قام من مجلس القضاء، فوطئ بساط هارون، وقال: يا أمير المؤمنين. الله الله، ارحم شيبتي، فإني لا أصبر للخطأ. فقال له هارون: لعلّ هذا المجنون أغرى عليك؟ فقال: الله الله. انقذني أنقذك الله. فأعفاه من القضاء. فلما اتصل بعبد الله بن المبارك ذلك، وجه إليه بالصرة هـ. من تاريخ الخطيب البغدادي:[236/6].

وبمثل هذا العالم العامل، ينبغي اقتداء كل فقيه، عن طريق فتنة الدنيا عادل، إذ ابن عليّة، وهو المحدث الثقة، والإمام التقي، رفض الدنيا وقد أتته بجمالها، وأقبلت عليه في حليها ودلالها، فردها بعد أن زفت إليه في زينتها، وجيء بها مجلوة في منصتها، وطلقها ثلاثا. مع أنه الرجل علما وتقوى؛ لا يتطرق إليه اتهام في استقامته وعدله، ولا في تحريه الحق في قوله وفعله، إلا أنه لما ازورّ عنه الإمام ابن المبارك، وأخرجه عن دائرة أهل

العلم والفضل من مثله من إخوانه، وكتب إليه تلك الأبيات تخويفا وتحذيرا ونصيحة قدمها الأخ لأخيه، محبة له كمحبته لنفسه، شق ذلك على ابن عليَّة، وأشفق من أن يكون عرض نفسه بذلك للوقوع في المهالك، وأعرض عن الولاية، ونأى عنها بجانبه، وصان مقام العلم عن أن يسام بالأدناس، ويرفع بنفسه عن أن يحال بينه وبين أمثاله من الأعلام الأكياس. فرحمه الله، ورحم ذلك العالم الرباني، الحامي حمى العلوم والمعرفة، القائم على إقامة أسواقها من كسب ماله، وجدّه في ذلك واجتهاده، وهو الإمام الذي اشتهر ذكره في أقطار الإسلام، وعدّ من الأئمة الأعلام، الذين يعترف بفضلهم وعلمهم الخاص والعام، وهم مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد، إذ كان يقول، كما رواه عنه الخطيب في تاريخ بغداد: لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم. فرضي الله عنه، وجزاه أفضل الجزاء.

---

## [ذكر شيء من ترجمة
## الشيخ محمد بن عبد الرحمن المدغري]

ولم يزل أكابر العلماء ينهجون هذه المناهج الحسان، إلى هذه العصور الأخيرة، في التجافي عن هذه الولاية، والتنحي عن قبولها، إما صراحة أو اعتذاراً. ومن ألطف الاعتذارات التي بلغتنا عن علامة فاس ومحققها، وأجل فقهائها ومفتيها، سيدي محمد بن عبد الرحمان الفلالي المدغري، وهو من أشياخ شيوخ شيخنا العلامة ابن الخياط، كما سيأتي في ترجمته، وقد حلاه في فهرسته بقوله:{الفقيه العلامة، إمام أهل المغرب وشيخ الجماعة في المنقول، المحيط بأنواعه العالية المبلغة المأمول، ذو القدر العالي، سيدي محمد بن عبد الرحمان} الخ.

فإنه لما رشحه، أظن السلطان مولاي عبد الرحمان، الجد الأكبر للعائلة المالكة الشريفة، لقضاء مراكش، وكان الملوك يختارون لقضائها وقضاء فاس أكبر العلماء علما ودينا وشهرة، وعزم عليه في ذلك، بعد أن كان امتنع امتناعا كليا، اتخذ طرقا للتفصي من هذا البلاء لمّا لم يجدِه الامتناع، بأن قال للسلطان: إني ممتثل لأمركم في الولاية، ولكن أختار أن أكون قائداً أو باشا أو نحو ذلك. فقيل له في ذلك، قال: إن منصب القضاء منصب عظيم، لأنه نيابة عن صاحب الرسالة ومبلغ عنه، وهو مقام صعب يعسر القيام به، فإني

أختار أن أكون باشا أو قائدا، لأن شأن هؤلاء أن يحكموا على الناس بما توحيه إليهم فكرتهم، وما يظهر لهم، ولا يدعون أنهم يحكمون بالوحي السماوي وما أمر به الرسول في الكتاب والسنة. وعند ذلك أعفي من هذا الترشيح.

وكان لهذا الإمام شهرة كبيرة بالمغرب، وقد وقفت على قصيدة أنشأها في مدحه أحد تلاميذه عند ختمه لإقراء مختصر الشيخ خليل، وقرئت بمجلسه يوم الختام، حسبما كانت العادة جارية بفاس عند الختام، وقد صدَّرها منشئها بقوله:

{الحمد لله، هذه القصيدة لأسير ذنبه، الفقير إلى ربه، في عفوه بفضله، محمد بن أبي عبيد التادلي السجدالي العمري، غفر الله له، مدحا في شيخه سيدي محمد بن عبد الرحمان السجلماسي، ملين القلب القاسي، 16 رجب الفرد عام 1262، وقرئت بمجلسه، لطف الله بنا} :

رَوْضُ السعـــادةِ باسِمُ الأغصـانِ مُتَمَايِـلُ الأدواحِ والأفنـــــانِ
فلِنَشْرِهِ تَرتَـــاحُ أرواحُ الأحبّـــةِ مِن ضَنَـى الأشـــواقِ والهِجْرانِ
ومُخضَّبَـاتِ مَنَــاقِـرٍ بمنابِـــــرٍ مـا بيْنَ رنْـدِ رياضِها والبَـانِ
نغماتُها تُسلِي وتشْجِـي تـــــارةً أتُرَاهـا تبْكي أو تُـرَاهَـا تُغـاني
هـاجَتْ لــواعِجَ شـوقِ كـلِّ مُبَرحٍ باحَت بمَـا أخفي مِن الكِتْـمَانِ
نــفَرَ الكَرَى وأوَدُّ طيْفَــــهُمُ أرَى وخِيامُــهُم بِجوانِحي وجَنَـاني
يـا راكبَ الوجنا المجدَّة في النَّجا يطوي الفلا وسباسبَ الأوطانِ
ما لي إليك سوى الوقـوف هنيئة أشكـوك مـا بالقلب من نـيرانِ
فإذا خلصت فقـد حللـــت بغايــة تأسيس مجد واضح البرهـان
فزر المغاني واغتنم غــرراً بهَـا تعنو لطلعـة وجههـا القمـران
وتمشي في تلك العــراص فإنها تسلي النهى وتريح من أشجان
واجنح إلى أهل العنـاية والعـــلا تحظ بما تهـوى ورفعة شـأن
واخلع نعالك واسمعن لمديح من جلت مـــراتبـه على كيـوان
ذاك العريـق المجد ذاك المنتقـى من طينـة المجد السني الشـان
شيخ الهدى، بحر النَّدى، غيظ العــدا، نورٌ بـدا، فله الفِـدَا الثقــلانِ

شمس الزمـــان وفخرهُ وجمالــهُ والعروة الوثقـــى لنيل أمـــان
شهدت له الأعــــلام قبل زمانـنـا السَّالمـون الـصدر بالإذعـــان
فـــاق الّذين تواضعوا عن رفعة بإنـــابة للمـــالكِ الديَّـــــان
يا لو ترى وقد انتضَى من صارم للمعضـلات المشكـلات يمَـان
ببـــــلاغةٍ وافتْ بكل خلاصــةٍ وفصاحةٍ أربت علـــى سحْبـان
بدرايــةٍ وروايــةٍ وبـــــراعـــةٍ يجدي الفـدا لك موجزاً ببيـــان
يبدي الجواب القصد قبل سؤالـه ببديـــهة نـقـــــــاذة في الآن
وكأنما فوق الرؤوس الطير للإصغــــــــا لـه، بالقلب والأركــــان
ذخـــري أبو عبد الإلـــه محمـد نجل المبجل عـــابد الرحمان
شَرْوَاهُ ممتنع الوجـــود فلذ بــه فـــاسٌ لـها البشرى بذا الربَّـاني
لا غرو في الأشباح حركها الهـــوى، تشـــدو بمدح إمامنا العرفـاني
(يأبى الجـواب فما يراجع هيبـــة والسائلون نـواكصُ الأذقـــان)
(أدب الوقار وعزُّ سلطان التُقى فهو المُهـابُ وليسَ ذا سلطان)
يدري السقيمَ من السليم، مُصحــِّــحُ الخِرشِـــي والزُرْقاني والبنّــاني
يبني من التحقيق والتدقيق فــي التقرير بالتحرير حسن مبـاني
أولَىخليـــــلاً خلّةً وأزالَ عنّـــا غلّـــة بدَلالِـــــــــــهِ الهتّـــان
جلّت مـدائحه عن الإحصَا فهل يُحصى الحَصَا بالعدِّ والحُسْبان
يا حاضراً نِلت المُنَى حُزتَ الغِنَى زالَ العنَـا فَـلكَ الهنَـا بــأوان
فُضَّ الخِتــامُ من المعتَّقةِ التِــي صينَتْ مَدَى الأحقــابِ والأزمان
فاشربْ هنيــناً مِن رَحيق كَوثَرِ بالرشد صافٍ جالبِ السلـوان
يــا ربنــا بالمصطفى وبــــآلــه وبصحبه والتـالي بالإحسـان
أجْزل لهـذا الشيخ أجـراً وافـراً وأنله في الـدارين عـز مكـــان
وأدم مجـــــادته وحُـط أبنــاءه من طارق وعـوارض الحـدثـان
والحاضريـن فعمَّهم بســـواكب هطّالــــــةٍ هتّانـــةِ الغفــران

وعلى النبي وآله طـول المدى صلــوات رب الواحـد المنـانِ
ما غرَّد القمري وأنشدَ مُنْشِــدٌ رَوْضُ السَّعادةِ بَاسِـمُ الأغصَانِ

[هـ من مخطوطة بمكتبة المؤلف رقم 2099 م5-5]

وأثبت هذه القصيدة بكمالها هنا، لما فيها من إحياء ذكرى هذا العلامة الشهير، الذي لحقنا شيوخ فاس يلهجون بذكره، ويبتهجون بمحاسن نظره وفكره، ولما فيه من ترجمة الشيخ المذكور، رحمه الله ورضي عنه.

---

[ختام ترجمة الشيخ العمراني،
وشروع المؤلف في ذكر رحلته إلى فاس لطلب العلم]

هذا ولم يزل شيخنا العمراني، المترجم، يعاني أوصابه، محتسبا صابراً على ما أصابه، إلى أن حان ختامه، ووافى حمامه، فلبى مولاه، مستنزلا غيث مغفرته ورحماه، في ثامن عشر من شوال من عام خمسين وثلاثمائة وألف (1350 )

وبتمام ترجمة شيخنا العمراني، ينتهي ذكر أشياخنا الذين أخذنا عنهم، واستفدنا منهم بمسقط الرأس من تطواننا، وموطن آبائنا وأجدادنا، ومربع انتناسنا بأصدقائنا وأحبابنا، ومقام إقامة أوقات مسراتنا وابتهاجنا، بين أنفاق أسحارها، وألوان أزهارها، ولطائف مناظر رُباها، ورقائق نسيم صباها.

والآن تتوجه الأفكار، شطر ذكر أشياخنا الأئمة الكبار، من فاس حاضرة المغرب الغراء، وقاعدة العلوم والمعارف التي تشد إليها رحال الدجناء، مفتتحاً هذا القسم بذكر الرحلة لطلب العلم وما إليها تشد، والأصول التي منها تستمد وعليها تعتمد، فأقول:

[مبحث عام في الرحلة
لطلب العلم منذ صدر الإسلام، وما يتعلق بها]

لم تزل الرحلة من قطر إلى قطر، ومن بلد لبلد، لطلب العلم واقتنائه، وأخذه من مجراه الصافي الخالص من [شوائب] غلطاته وأخطائه، وكانت الأنظار في أول الرسالة، إلى مكان الوحي متوجهة، وإلى مقام رسول الأمة منتهجة، الرسول الذي بعث فينا يتلو

علينا آيات الله، ويعلمنا الكتاب والحكمة، ويرشدنا إلى الحق والى طريق مستقيم، النبي الذي ورد اسمه مكتوبا في التوراة والإنجيل، يأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويحلّ لنا الطيبات، ويحرم علينا الخبائث، ويضع عنا الأصرار والأغلال التي كانت على من كان قبلنا.

فالذين آمنوا به، قاموا بتعزيره وتوقيره وتعظيمه، واتباع النور الذي أنزل معه من "القرآن الكريم"والذكر الحكيم، وصاروا يتلقون ذلك منه بهمم درّاكة، وإقبال متواصل، وقبول لا يقبل الردّ، واعتراف لا يمازجه وهم ولا ردّ؛ فالحاضر يأخذ بالمشافهة، والغائب يعمل الرحلة إليه ليأخذ لنفسه، ويبلغ غيره من قومه، ولهذا قال تعالى: (فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُون) قال العوفي، حسبما نقله ابن كثير عن ابن عباس، في هذه الآية:

{كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي، صلى الله عليه وسلم، فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون للنبي، صلى الله عليه وسلم: ما تأمرونا أن نفعله؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم. قال: فيأمرهم نبي الله، صلى الله عليه وسلم، بطاعة الله، وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا: إن من أسلم فهو منا. وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه. وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يخبرهم وينذرهم قومهم. فإذا رجعوا إليهم، يدعونهم إلى الإسلام، وينذرونهم النار، ويبشرونهم بالجنة.}هـ[التفسير:401/2].

ولا يخفى أن تلك الوفود التي كانت تفد إليه، قاطعة للقفار، من الجهات والأقطار، بعد الفتح المبين، وتمام النعمة عليه، صلى الله عليه وسلم، وعلى المسلمين؛ كانت من هذا القبيل.

[ذكر بعض الوفود التي أتت إلى النبيّ،
صلى الله عليه وسلم، لطلب العلم والإرشاد]

فهذا وفد عبد القيس يأتيه من البحرين، فيقول لهم، صلى الله عليه وسلم:" مِمَّن القوم؟" فيقولون: من ربيعة. فيقول لهم عليه السلام:"مرحبا بالوفد، غير خزايا ولا ندامى". فيقولون: يا رسول الله، إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك

إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل، نأخذ به ونأمر به من وراءنا، وندخل بـه الجنـة. قـال: "آمـركم بـأربع، وأنـهاكم عن أربـع. آمـركم بالإيمـان بـالله وحـده. أتـدرون مـا الإيمـان بـالله؟ شـهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمـدا رسـول الله، وإقـام الصـلاة، وإيتـاء الزكـاة، وصـوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس. وأنهاكم عن أربـع: عن الـدباء، والحنـتم، والنقير، والمزفت. فاحفظوهن، وادعوا إليهن من وراءكم".

وجاء إليه نفر من أهل اليمن، فقال لهم: "اقبلوا البشرى". فقالوا: قد قبلنا. ثم قالوا: يا رسول الله: جئنا لنتفقه في الدين، ونسألك عن هذا الأمر. فقال: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكتب في الذكر كل شيء ".

وممن وفد عليه، صلى الله عليه وسلم، للتفقه والسؤال عن العلم، ضمّام بن ثعلبة، عن بني سعد بن بكر، جاء إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: " سل عما بدا لك". فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى النـاس كلهم؟ فقـال: "اللهـم نعـم". فقـال: أنشـدك بـالله آلله أمـرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قـال: "اللهـم نعـم". قـال: أنشـدك بـالله. آلله أمـرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: "اللهم نعم". قال: أنشدك بالله. آلله أمـر أن تـأخذ هـذه الصدقة من أغنيائنـا، فتقسـمها علـى فقرائنـا؟ فقـال النبـي، صـلى الله عليـه وسـلم: "اللـهم نعم". فقـال الرجل: آمنـت بمـا جئـت بـه، وأنـا رسـول مـن ورائـي مـن قـومي، الـخ.[الجـامع الصحيح للإمام البخاري، بهامش فتح الباري:112/1].

ووفد عليه، صلى الله عليه وسلم، وفد خولان، وقالوا له، صلى الله عليه وسلم: نحن مؤمنون بالله، عز وجل، مصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال عليه الصلاة والسلام: "أما ما ذكرتم من مسيركم إليَّ، فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم: زائرين لك، فإنه من زارني بالمدينة، كان في جواري يوم القيامة". ثم قال عليه الصلاة والسلام: "ما فعل عَمَّ أنس؟"، وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه، قالوا: أبشر. بدلنا الله تعالى ما جئت به، إلا أن عجوزا وشيخا كبيرين يتمسكان به، وإن قدمنا إليه هدمناه، إن شاء الله تعالى. ثم علمهم عليه الصلاة والسلام، فرائض الدين، وأمرهم

بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وأن لا يظلموا أحدا. ثم أجارهم، ورجعوا إلى قومهم، وهدموا الصنم.[السيرة الحلبية:261/3 ].

وهكذا استمرت هذه الوفود تأتي إليه أفواجا ووحدانا، وتؤم مقامه الكريم، طالبة للعلم وسائلة عن مسائلها، رجالا وركبانا، وهو، صلى الله عليه وسلم، يعلمهم فرائض دينهم، ويدعوهم إلى طريق نجاتهم، ويرشدهم إلى تهذيب أخلاقهم، ويبين لهم فضائل سعيهم إليه لتصحيح عقائدهم، ويخاطب الكل على قدر فهمه، ويسأله عن حال بلده من جذبه أو خصبه. ثم يزوده، عليه السلام، بالدعاء الذي يقتضيه حاله، أو يستدعيه مقاله، حتى لانت بلين خطابه القلوب القاسية، واندكت أمام حججه الدامغة جبال الكفر الراسية. صلى الله عليه وسلم

[الأحاديث والآثار الواردة في الرحلة لطلب العلم]

وقد استدل الإمام البخاري في "صحيحه" للرحلة بقوله:

{ باب الخروج في طلب العلم. ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس، في حديث واحد. ثم جاء بسنده إلى ابن عباس، أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصن الفزاري، في صاحب موسى، فمر بهما أبيّ بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يذكر شأنه؟ فقال أبيّ: نعم. سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يذكر شأنه، يقول: "بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله تعالى إلى موسى: بلى عبدنا خضر. فسأل السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية. وقيل له: إذا فقدت الحوت، فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر. فقال فتى موسى لموسى: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ، وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ . قال موسى: ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا خضرا، فكان من شأنهما ما قصَّ الله في كتابه} هـ[صحيح البخاري:16/1]. قال الحافظ ابن حجر:

{ وفيه ـ أي في قصة سيدنا موسى ـ فضل الازدياد من العلم، ولو مع المشقة والنصب بالسفر، وخضوع الكبير لمن يتعلم منه. ووجه الدلالة منه قوله تعالى لنبيه، عليه الصلاة والسلام:(أولَئِكَ الذِينَ هَدى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقتَدِه) وموسى، عليه السلام، منهم. فتدخل أمة النبي، صلى الله عليه وسلم، تحت هذا الأمر إلا فيما ثبت نسخه} هـ قال:

{وفي حديث جابر، دليل على طلب علوّ الإسناد، لأنه بلغه الحديث عن عبد الله بن أنيس، فلم يقنعه حتى رحل فأخذه منه بلا واسطة. وسيأتي عن ابن مسعود في كتاب "فضائل القرآن" قوله: لو أعلمُ أحدا أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه. وأخرج الخطيب عن أبي العالية، قال: كنا نسمع عن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلا نرضى، حتى خرجنا إليهم فسمعنا منهم. وقيل لأحمد: رجل يطلب العلم؛ يلزم رجلا عنده علم كثير، أو يرحل؟ قال: يرحل؛ يكتب عن علماء الأمصار، فيسأل الناس ويتعلم منهم.}هـ [فتح الباري: 128/1].

هذا، وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر، الرحلة في طلب العلم وأفاض فيها، وذكر الآثار والأحاديث الواردة في أصلها، والترغيب فيها، وما فيها من الفوائد والفضائل، فروى حديث صفوان بن عسال، من طريق القاضي إسماعيل، عن زر بن حبيش، قال: جاء رجل من مراد يقال له صفوان بن عسال، إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر. قال: فقلت: يا رسول الله: إني جئت أطلب العلم. قال: "مرحبا بطالب العلم. إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها، فيركب بعضها بعضا حتى تعلو إلى السماء الدنيا من حبهم لما يطلب. فما جئت تطلب؟" قال: قلت يا رسول الله. لا أزال أسافر بين مكة والمدينة، فأفتني عن المسح على الخفين. وذكر الحديث.

قال أبو عمر: {حديث صفوان بن عسال هذا، وقفه قوم عن عاصم. ورفعه عنه آخرون، وهو حديث صحيح حسن ثابت، محفوظ مرفوع، ومثله لا يقال بالرأي} هـ [جامع بيان العلم وفضله: 1/32-33].

ثم ذكر حديث أبي الدرداء، وجاء بسنده عن جميل بن قيس، أن رجلا جاء من المدينة إلى أبي الدرداء، وهو بدمشق، فسأله عن حديث. فقال له أبوالدرداء: ما جاءت بك حاجة، ولا جئت في طلب التجارة، ولا جئت إلا في طلب الحديث؟ فقال الرجل: بلى. فقال له

أبو الدرداء: أبشر. فإني سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "ما من عبد يخرج يطلب علما إلا وضعت له الملائكة أجنحتها، وسلك به طريق إلى الجنة. وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكنهم ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر". وقال في آخره: وهو حديث حسن غريب.[جامع بيان العلم 1/33-34].

ثم ذكر في ترجمة ( باب ذكر الرحلة في طلب العلم)، الإحالة على هذين الحديثين، فقال:

{قد تقدم في كتابنا من حديث صفوان بن عسال، وحديث أبي الدرداء، مما يدخل في هذا الباب، ما يغني عن إعادته}. ثم روى عن الشعبي لما حدث بحديث: "أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها" الخ، قال للسامع: خذها بغير شيء. قد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة. ثم روى بسنده حديث جابر، الذي أشار له البخاري فيما تقدم. ثم روى أن أبا أيوب رحل إلى عقبة بن عامر، فلما قدم مصر أخبروا عقبة، فخرج إليه وحدثه بحديث: "من ستر مسلما على خزية، ستره الله يوم القيامة". فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة، وما حلَّ رحله.

ثم ذكر عن ابن عباس أنه قال: كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني فعلت. ولكني كنت أذهب إليه، فأقيل على بابه، حتى يخرج إليّ فيحدثني. وروى عن مالك أن سعيد بن المسيّب قال: إني كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد. وعن الشعبي قال: ما علمت أن أحدا من الناس كان أطلب لعلم في أفق من الآفاق من مسروق. وروى عن بشر بن عبيد الله الحضرمي قال: إني كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد.

ثم ختم أبو عمر هذا المبحث بما رواه عن مالك بن دينار، قال: أوحى الله إلى موسى، عليه السلام، أن اتخذ نعلين من حديد، وعصا من حديد، ثم اطلب العلم والعبر، حتى تخرق نعليك، أو تخلق نعلاك، وتنكسر عصاك. وقال الشعبي: لو أن رجلا سافر من

أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره ضاع. هـ [جامع بيان العلم: 1/92-95 ]

وعقد الإمام اليوسي في "قانونه"، فصلا للرحلة، وصدره بقوله تعالى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)، قال: {فهذا، وإن كان في الجهاد، فالعلم أيضا من جملة سبيل الله، إذا أريد به وجه الله، وقد روي حديث عن أنس بن مالك قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "من خرج في طلبَ العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع.}هـ [ص 167]

---

قلت: وتذكرت هنا أننا كنا أيام الطلب بفاس، في إكرام أحد الأعيان الفاسيين الفهريين، الموسوم بالفضل والصلاح، خطيب جامع القرويين، أبي زيد، سيدي عبد الرحمان الفاسي. ولما أخذنا في الخروج من بيته مودعين له، وهو يعانقنا ويقبل رؤوسنا، ويقول لنا: نسألكم الدعاء. فلم أستطع أنا السكوت، إذ هو الشيخ الوقور، الذي تمتلئ من جلالته وديانته الصدور. فقلت: يا سيدي عبد الرحمان: أنت أولى أن تدعو لنا. فقال: أنتم مهاجرون في سبيل الله. أو كلاما هذا معناه.

فانظر أيها القارئ، إن قرأت هذا، ترى كيف كان العلم معظما عند أهل الفضل، بل كان ذلك عند كل الناس، وقسه بزماننا ترى الفرق البين، والتناقض الواضح، وأن ذلك التعظيم انقلب إلى احتقار وإهانة. فالله يصلح أحوالنا، ويوفقنا لما يرضاه في أفعالنا وأقوالنا، إنه جواد كريم.

---

ثم استدل أيضا، أي اليوسي، للرحلة، بالآية التي أسلفنا الكلام فيها، وهي قوله تعالى: (فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ) الآية، ثم أتى بحديث: "اطلبوا العلم ولو بالصين". وحديث: "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل" الخ، الذي جعله العلماء في الإمام مالك، كما سيأتي. ثم ساق عن "الإحياء" حديث عدي بن حاتم، إذ جاء إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله، جئتك فاظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، وأنضيت راحلتي؛ لأسألك عن

مسألة، الخ. ثم جاء بحديث ضمّام وجابر وأبي أيوب، وما ورد من أن الله أوحى إلى موسى أن اتخذ نعلين الخ، كما سبق لنا ذلك كله.

[ من فوائد الرحلة]

ثم صار يبين فوائد الرحلة فقال: { منها التخلص من شواغل الوطن. ومنها التجرد لأخذ العلم. ومنها الغربة التي هي مظنة عدم الألفة والخلطة، ومعاشرة الناس التي هي إحدى العوائق. ومنها ما يرجو من ثواب خطواته ومشقته. ومنها ما يرجو من التيسير واتساع الرزق. ومنها ما يرجو من اعتناء الشيوخ. ومنها، وهو أعظمها، امتحان نفسه ليظهر صدقها، فإن النفس تدّعي حب العلم. ومنها ما يستفيد بالسفر والاغتراب من الأخلاق الحسنة والتجارب}. إلى غير ذلك.[باختصار،ص169]

ثم إنه لا يخفى على الخبير، أن الرحلة في صدر الإسلام، إنما كانت لأخذ الحديث والسنن، والتفقه في ذلك. وقد سبق لنا ما يرشد إلى ذلك، إذ كان ذلك شأن الصحابة مع الرسول، صلى الله عليه وسلم. وهو شأن التابعين مع أصحابه، صلى الله عليه وسلم، إذ هم الورثة له عليه السلام.

وهذا هو العلم المنور للقلوب، وبه يتقرب إلى علام الغيوب. فما العلم إلاّ ما كان عن الرسول، عليه السلام، ثم عن الصحابة من بعده. روى أبو عمر بن عبد البر في "جامعه" عن الأوزاعي أنه قال: العلم ما جاء عن أصحاب محمد. وما لم يجئ منهم، فليس بعلم. وروى عن قتادة في قوله تعالى: (وَيَرَى الذِينَ أوتُوا العِلْمَ الذِي أنْزِلَ إليْكَ مِن رَبّكَ هُوَ الْحَق) قال: أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم.

[الجهات التي كانت تشد إليها الرحلة]

ثم إنه، كما سبق أن الوجهة كانت في طلب العلم متولية نحو المدينة المنورة، مقام الوحي ومكان الرسول، عليه الصلاة والسلام، ثم لما انتقل إلى جوار ربه، تفرق أصحابه في الأقطار، فمنهم من استوطن الشام، ومنهم من استوطن العراق، ومنهم من أقام بمصر، فكان الراغب فيما عندهم من العلم، يرحل إليهم ويقصد مقر إقامتهم، كما أسلفنا.

ولكن بقيت للمدينة المنورة، المكانة المكينة، لأنها قبة الإسلام، ومتبوأ الخلفاء، وأكابر الصحابة الكرام، ومقصد الراغبين، ومعهد الطالبين المجتهدين، حتى نبغ فيها نوابغ، كان فيهم للأمة المحمدية في العلوم والمعارف دروع سوابغ. ولهذا نوه الحديث الشريف بعالمها، وأنه مما تشد الرحال إليه، وتضرب آباط الإبل إليه، إذ قال، عليه السلام، في الحديث الشهير الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: " يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل - أو آباط الإبل - في طلب العلم"، وفي رواية "يلتمسون العلم فلا يجدون عالما أعلم - وفي رواية أفقه - من عالم المدينة". وفيه روايات متعددة. ومنها بلفظ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة".

وهذا الحديث أتى بلفظين أحدهما: "من عالم المدينة"، والثاني: "من عالم بالمدينة". فالرواية الأولى بإشارة إلى رجل بعينه يكون بها. وقد قالوا إن ذلك ينطبق على مالك، لانتهاء علم المدينة إليه، وأنه كان العالم المقيم بها لم يخرج قط، ولا أفتى بالمدينة سواه، وحدث بها نيفا وستين سنة، وأخذ عنه أهل المشرق والمغرب، يضربون إليه أكباد الإبل. وأمـا رواية عالم بالمدينة، فقال ابن إسحاق: معناه ما دام المسلمون يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة، كان بها أو بغيرها، فيكون على هذا سعيد بن المسيب، لأنه النهاية في وقته، ومن بعده غيره ممن هو مثله، الخ.

قلت: وعلى كل حال، فهذا الحديث يعرفك أن العلم هو ما كان مأخوذا عن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سواء حملناه على العموم، أو على شخص معين، وهو مالك، كما عليه جماعة من محققي أهل العلم. وفي حمله على مالك، دليل من دلائل النبوة، لأنه، رضي الله عنه، تحقق أنه العالم الذي ضربت إليه أكباد الإبل، ورحل إليه الأعلام من سائر الأقطار، حيث لم يجدوا عالما يماثله، فكثر الآخذون عنه والراوون لحديثه، بحيث لم يوجد في عصره من يماثله.

قال الحافظ السيوطي في"شرح الموطا":{إنه لا يعرف لأحد من الأئمة رواة كرواته. وقد أفرد الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، كتابا في الرواة عن مالك، أورد فيه

ألف رجل إلا سبعة. وذكر القاضي عياض أنه ألّف في رواته كتابا ذكر فيه نيفا على ألف اسم وثلاثمائة اسم} هـ[10/1].

وفي "الديباج": {ويدل كثرة القصد له، على كونه أعلم أهل وقته، وهو الحال والصفة التي أنذر بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ولذلك لم يسترب السلف أنه المراد بالحديث. وعُدَّ هذا الخبر من معجزاته، صلى الله عليه وسلم} هـ[ص14]

---

وبهذا تعلم أن الرحلة للعلم كانت في صدر الإسلام، إلى المدينة المنورة. ثم بعد ذلك، صارت لا تختص بقطر من الأقطار، ولا بمصر من الأمصار، بل الرحلة كانت تتوجه إلى السكان، لا إلى المكان.

أمر على الديار ديار ليلى     أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي     ولكن حب من سكن الديارا

فحيث ما وجد العلماء الحاملون للحديث والسنة، شدّت إليهم مطايا وأرحل. فشدت المطايا للعراق إلى بغداد، محلة العلماء ودار الدنيا، ومجمع الرواة، ومعهد الفقهاء والأدباء والشعراء، ويعرفك شأنها وشأن من سكنها أو دخلها من أعلام الإسلام في كل مدة إمام، "تاريخ" الخطيب البغدادي، فإنه ذكر فيه من الأعيان ما يربو على ثمانية آلاف.

وأعملوا أيضا الرحلة للشام، ودخلوا دمشق، وهي التي اشتهرت بجامعها الأنيق، ذي المحاسن التي أشاد بها كل شعر لطيف رقيق، ونثر بليغ دقيق، إذ قد عقدت فيه مجالس للعلوم فائقة، واجتمعت داخل أروقته مجتمعات كانت فيها أسواق المعارف نافقة. وكم أمها من إمام، وتخرج من طيها نبهاء أعلام، كانت أركانا وعمدا لأهل الإسلام. وفي ذلك يقول بعض أهل الأدب، كما نقله الحافظ ابن عساكر في "تاريخه" [ 207/1] :

دمشق قد شاع حسن جامعها     وما حوته ربى ربائعها

إلى أن قال:

جامعها جامع المحاسن قد     فاقت به المدن في جوامعها

ثم قال:

مجالس العلم فيه متقنة     ينشرح الصدر في مجامعها

أما أهل الأدب من المتأخرين، فقد نوهوا بهذا الجامع، وجعلوه أحد عجائب الدنيا الأربع، وأنشأوا فيه أشعارا وقصائد، من ذلك قول ابن نباتة:

أرى الحسن مجموعا بجامع جلق     وفي صدره معنى الملاحة مشروح

فإن يتغالى في الجوامع معشر     فقل لهم باب الزيادة مفتوح

وناهيك بفضل دمشق وأسبقيتها لتحليق حلق التعليم، وانحشار الناس إلى مجالس علمائها، ما رواه ابن عساكر في "تاريخه"، عن مسلم بن مسلم، قال:{ قال لي أبو الدرداء: أعدد من يقرأ عندنا. يعني في مجلسنا هذا، فعددت ألفا وستمائة ونيفا. فكانوا يقرءون ويتسابقون عشرة عشرة، لكل عشرة منهم مقرئ. وكان أبو الدرداء قائما يستفتونه في حروف القرآن، يعني المقرئين. فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة، تحول إلى أبي الدرداء}. ثم قال: {وإن أبا الدرداء هو الذي سن هذه الحلق يقرأ بها. وقال أبو عمرو الكلبي: كان عند كل عمود من أعمدة جامع دمشق شيخ، وعليه الناس يكتبون العلم} هـ[69/1].

كما شدوا أيضا أرحلهم إلى البصرة، إذ صارت دار العلماء الأعيان، ومنزل النبلاء من أرباب العربية وعلوم اللسان، إذ كان بها أبو الأسود الدؤلي، واضع أصول النحو التي أخذها عن سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وأبو الأسود هذا من التابعين، وهو من شيعة سيدنا علي، فقصده الناس وأعملوا إليه الرحلة لأخذ النحو عنه. وأبرع من نبغ عنه عنبسة الفيل، فأقبل الناس إليه بعد موت أبي الأسود، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن، فرأس في الفن وزاد، فبرع من أصحابه عبد الله الحضرمي، ثم أبو عمرو بن العلاء، ثم نجمّ، من أصحاب عيسى بن عمر. ثم أخذ الخليل عنه، فلم يكن قبله ولا بعده مثله. ثم أخذ عن الخليل جماعة؛ أبرعهم سيبويه الشهير.

وبالجملة، فللبصرة في المعارف والعلوم المقام الأعلى، ولاسيما في علوم اللسان، فإن لها في ذلك التبريز في ميدانها، والفخر لعلمائها وأعيانها. وناهيك بأبي الأسود الدؤلي، والخليل بن أحمد. وإلى التنويه بهما عند ذكر مزايا البصرة وفضائلها، أشار الحريري في "المقامات"، إذ قال:

{وعالمكم علامة كل زمان، والحجة البالغة في كلّ أوان. ومنكم من استنبط علم النحو ووضعه، والذي ابتدع ميزان الشعر واخترعه} هـ[ص586]. فقوله: وعالمكم علامة الخ، أشار به إلى أبي الأسود. ومنكم من استنبط علم النحو الخ، أشار إلى الخليل بن أحمد. ولكن أخذت هذه المدينة بعد ذلك في التأخر، وفي تبدل حالها، وفقد رجالها، حتى قال صاحب "المقامات" في القرن السادس فيها: {وواهاً لمصركم، وإن كان قد عفا، ولم يبق منه إلا شفا} هـ[ص587 ].

كما أعملت الرحلة أيضا إلى القطر المصري، في صدر الإسلام، بعد فتح ذلك القطر الجديد، الذي انتقل إليه كثير من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصبحوا به ناشرين لعلومهم وما أخذوه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال الحافظ السيوطي:

{قد ألّف الإمام محمد بن الربيع الجيزي في ذلك كتابا في مجلد، ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا. وقد فاته مثل ما ذكر أو أكثر}. قال: {وقد ألّفت في ذلك تأليفا لطيفا استوعبت فيه ما ذكره، وزدت عليه ما فاته من "تاريخ" ابن عبد الحكم، و"تاريخ" ابن يونس، و"طبقات" ابن سعد، و"تجريد" الذهبي، وغيرها، فزاد في العدة على ثلاثمائة.}هـ[حسن المحاضرة: ص81].

قلت: وسمى هذا التأليف: "در السحابة، فيمن دخل مصر من الصحابة". ثم ساقه بتمامه في كتابه "حسن المحاضرة".

فهذا يدلك على أن مصر ارتفعت على بغداد في كثرة من انتقل إليها من الصحابة. ومع هذا لم يبلغ حتى نصف العشر من الصحابة الذين دخلوا الشام. قال أبو الوليد بن مسلم، حسبما ذكره ابن عساكر في" تاريخه": دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

...

## [أصل الرحلة في صدر الإسلام]

ثم أن أصل الرحلة في أول الإسلام، كانت لأخذ القرآن والسنن ورواية الأحاديث والآثار الواردة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في الدين وشئونه. ولهذا جعل أهل الحديث

من جملة آدابه وآكد وسائله لتحقيقه وكمال أسبابه، إعمال الرحلة لسماعه من أهل التحقيق، ونقله عن أكابر الرواة، لعلو إسنادهم، كما سبق لنا عن جابر وغيره، ولهذا قال ابن الصلاح:

{ويبدأ بالسماع من أسند شيوخ مصره، ومن الأولى فالأولى من حيث العلم أو الشهرة أو الشرف أو غير ذلك. وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمات التي ببلده، فليرحل إلى غيره. روينا عن يحيى بن معين أنه قال: أربعة لا تؤنس منهم رشدا: حارس الدرب، ومنادي القاضي، وابن المحدث، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث. وروينا عن أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، أنه قيل له: أيرحل الرجل في طلب العلو؟ فقال: بلى. والله شديدا. لقد كان علقمة والأسود - وهما من التابعين - يبلغهما الحديث عن عمر، رضي الله عنه، فلا يقتنعان حتى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه. وعن إبراهيم بن أدهم، رضي الله عنه، أنه قال: إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث"}هـ.[ص 101].

ولما كانت أنظار أهل الإسلام، وهممهم من صدور هذه الأمة، كلها مصروفة إلى تلقي العلوم الدينية التي جماعها الكتاب والسنة وما يتعلق بهما، وكانت الأقطار التي أضاءت بنور الرسالة تتفاوت في ذلك، حسبما أودعه فيها الراحلون إليها من الصحابة أو التابعين، كما أنها تتفاوت كذلك في الرجال الذين تلقوا تلك العلوم من أربابها توثيقا وضبطا وعلما وورعا، نبَّهَ النقاد من العلماء، على ما اختص به كل مصر من تلك الأمصار، وما وسمت به من الضبط أو عدمه في نقل الأخبار؛ فقال الإمام سفيان بن عيينة، حسبما نقله عنه الحافظ ابن عساكر في" تاريخه":

{من أراد المناسك، فعليه بأهل مكة. ومن أراد مواقيت الصلاة، فعليه بأهل المدينة. ومن أراد السير، فعليه بأهل الشام. ومن أراد شيئا لا يعرف حقه من باطله، فعليه بأهل العراق. وقال أيضا: إذا أردت الحديث الصحيح، والإسناد الجيد، فعليك بأهل المدينة. وإذا أردت النّسك، فعليك بأهل مكة. وإذا أردت المغازي، فعليك بأهل الشام. وفي لفظ آخر: من أراد الإسناد والحديث الذي يُسكن إليه، فعليه بأهل المدينة. ومن أراد المناسك والعلم

بها والمواقيت، فعليه بأهل مكة. ومن أراد المقاسم وأمر الغزو، فعليه بأهل الشام. ومن أراد شيئا لا يعرف حقه من باطله، فعليه بأهل العراق} هـ[70/1].

ففي النقل عن هؤلاء الأئمة، بيان وإرشاد للطالبين إلى ما يجدون فيه مرغوبهم في كل قطر. فمن رغب في فن من الفنون، أو علم من العلوم، فليرحل إلى القطر الذي اختص به ذلك القطر، بسبب ما استقر به من أهل ذلك العلم.

## [رحلة أهل المغرب إلى المشرق لأخذ الحديث وعلومه]

ولما كان أهل المشرق، على سبيل الإجمال، هم الذين حملوا هذا العلم رواية ودراية، كانت الرحلة تختلف إليهم من أهل المغرب؛ فتارة إلى المدينة، وخصوصا في حياة الإمام مالك، إذ رحل إليه جماعة كبيرة من علماء الأندلس، كيحيى بن يحيى الليثي المصمودي، وكابن حبيب، وغيرهما. وتارة إلى الشام، وتارة إلى العراق، وتارة إلى مصر.

والغالب أن الراحل يستوعب هذه الأقطار، كما كان يفعله الراحلون من أهل الأندلس، لأنهم كانت لهم همة عالية في اقتناء العلوم رواية ودراية، حتى انه رحل إلى المشرق من أعلامها ما لا يحصيه إلا الله تعالى، كما قاله صاحب " نفح الطيب"، على أنه ذكر منهم جماعة كثيرة، وقال: ما ترك ذكره ممن اطلع على رحلته، الجم الغفير. ولفظه في الباب الخامس في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى المشرق، إذ قال:

{اعلم جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال، أن حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علاّم الغيوب الشديد المحال. ولو أطلنا عنان الأقلام، فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام}.الخ[326/1].

هذا لما كان الشأن هو الرحلة للرواية، أما بعد أن غلب على الناس الاشتغال بالدراية، والاكتفاء بأخذ الكتب الحديثية الصحيحة الثابتة عن مؤلفيها، كالكتب الستة، و"السنن الكبير" للبيهقي، والمسانيد، كـ"مسند" الإمام أحمد، والجوامع المصنفة على أبواب الفقه، و"موطأ" الإمام مالك، وغير ذلك من الكتب المؤلفة في المتون وما يتبعها

من تفسير وشرح وبيان مشكلها، وضبط أسمائها. وذلك أن تخريج الأحاديث واستدراكها على هؤلاء الأئمة، الذين بذلوا مجهوداتهم، وصرفوا معظم أوقاتهم في روايتها عن أهلها، واستخراجها من مكامنها، وتمييز الصحيح من غيره، وتفسيرهم المجمل، وتقييدهم المطلق، في المائة الثانية والثالثة إلى الرابعة، أغنى المتأخر عن أن يستدرك عليهم شيئا. وهم النقاد الثقات، والمتقدمون في المعارف والأوقات. كلاً إن هذا من البعيد.

ولهذا قال العلامة ابن خلدون، وهو من أهل المائة الثامنة:

{ ولقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة، على تعددهم وتلاحق عصورهم، وكفايتهم واجتهادهم، لم يكونوا ليغفلوا شيئا من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر. هذا بعيد عنهم. وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها، والنظر في أسانيدها إلى مؤلفيها، وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام، لتتصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها. ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمس إلاّ في القليل} هـ[المقدمة: ص390 ].

قلت: وعن تلك الكتب الخمسة، أشار القائل لمؤلفها وتاريخ وفاته. قال أبو العباس الدقون:

إذا رمت الحديث فلذ بخمس    تكن مثل المشافه في الحياةِ
تعطّر درعـه مَا رصّ نسجٌ    بـنُور للمحدثِ والوفـــاةِ

وقد بيّن الإمام ابن الصلاح ترتيب أخذ هذه الكتب والعناية بها، فقال:

{ وليقدم العناية بالصحيحين، ثم بسنن أبي داود، وسنن النسائي، وكتاب الترمذي، ضبطا لشكلها، وفهما لخفي معانيها، ولا يخدعنّ عن كتاب السنن الكبير للبيهقي، فإنا لا نعلم مثله في بابه، ثم بسائر ما تمس حاجة صاحب الحديث إليه من كتب المسانيد، كمسند أحمد، ومن كتب الجوامع المصنفة في الأحكام، المشتملة على المسانيد وغيرها. وموطأ مالك هو المقدم منها}.

ثم نبّه الطالب إلى مزاولة الكتب المتعلقة بالعلل، وكتب الجرح والتعديل، وأوصاه بالعناية بالشكل وضبطه، وحفظه وفهمه، على أن المذاكرة من أقوى أسباب الانتفاع به. قال:

{روينا عن علقمة النَّخَعي، قال: تذاكروا الحديث، فإن حياته ذكره. وعن إبراهيم النخعي، قال: من سره أن يحفظ الحديث، فليحدث به، ولو أن يحدث به من لا يشتهيه. وليشتغل بالتخريج والتأليف والتصنيف، إذا استعد لذلك وتأهل له، فإنه، كما قال الخطيب الحافظ، يثبت الحفظ، ويزكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويكشف الملتبس، ويكسب جميل الذكر، ويخلده إلى آخر الدهر. وقلّ ما يتمهّر في علم الحديث ويقف على غوامضه، ويستبين الخفي من فوائده، إلا من فعل ذلك}. هـ [علوم الحديث: 103].

وزدنا في هذا الفصل فائدتين جليلتين عن هذا الإمام، وهما:

1) ذكر فوائد المذاكرة في العلم.

2) والحض على التأليف.

وهما من دواعي ما أعمِّر به أوقاتي، وأجعله من أفضل أعمالي في حال حياتي، راجيا منه تعالى إثابتي على مقاصدي ونيّاتي، وهو سبحانه الكريم الجواد، الذي لم يزل إحسانه إليَّ في الماضي والحال، وهو الذي يمنّ بأفضاله عليّ في الآتي. لا رب سواه، ولا نسأل إلا إياه.

----

<u>وكل ما أسلفناه إنما هو تمهيد لما أقوله:</u>

إن الرحلة في الأصل كانت لتخريج الأحاديث ونقلها عن رواتها. وغير خاف أنه لم يكن في العصر الأول الذي ابتدئت فيه الرحلة لرواية الحديث، كتاب مؤلف ولا ديوان مجموع، لأن الناس لصفاء أذهانهم، وقوة حفظهم، وشدة اعتنائهم، وذكاء أفهامهم، كانت أناجيلهم في صدورهم، ومؤلفاتهم مكتوبة في صحائف قلوبهم، فكأن علمهم نور يسعى بين أيديهم، فهم للمعارف والعلوم وعاة، وبمعانيها والعمل بها رعاة، ولاسيما وقد كان السلف يكرهون كتابة العلم، خوفا من الاتكال على تلك الكتابة، وعدم الاعتناء بالحفظ، كما قال الخليل:

ليس بعلم ما حــوى القمطر     ما العلم إلا ما حــواه الصــدر

وقال الإمام الشافعي:

علمي معي حيثمـــا يممت يتبعنـــي     صدري وعـــــاء له، لا بيت صندوقي
إن كنت في الدار، كان العلم فيه معي     أو كنت في السوق، كان العلم في السوق

وقال محمد بن بشير الأندلسي، في أبيات منها:

إذا لم تكن حـــافظا واعيـــا     فجمعــك للكتب لا ينفـــــع
أأحضـر بالجهل فـي مجلس     وعلمي في الكتــب مستودع

ورحم الله أبا محمد بن حزم، إذ يقول لما أحرق المعتضد ابن عباد كتبه باشبيلية:

دعوني من إحـــــــراق رق وكاغــد     وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي     تضمنه القرطاس، فهو في صـــــدري
يسيــــر معي حيث استقلت ركائبـــي     وينزل إن أنزل، ويدفن فـي قبــــــري

قال أبو عمر بن عبد البر:

{من كره كتابة العلم، إنما كرهه لوجهين: أحدهما، ألاَّ يتخذ مع القرآن كتابا يضاهى به، ولئلا يتكل الكاتب على ما كتب فلا يحفظ، فيقل الحفظ.} وكل هذا جريا على ما كان من شأن العرب الذين كانوا مطبوعين على الوعي والحفظ، إذ خصهم الله بذلك. وعلى هذا المنهج، كان ابن عباس والشعبي، وابن شهاب والنخعي وقتادة. قال ابن عبد البر:

{ فكان أحدهم يجتزئ بالسمعة. ألا ترى ما جاء عن ابن شهاب أنه كان يقول: إني لأمر بالبقيع، فأسدّ آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا. فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته. وجاء عن الشعبي نحوه}.هـ[الجامع:68/1 ].

## [ابتداء مرحلة كتابة العلم وضبطه]

ولكن، لما تبدل الحال، وصدئت مرآة الحفظ مما كدرها من تغير الأجيال، وتراكم الأوجال، فعاد النهي عن ذلك أمرًا، وصارت كتابة العلم هي الأحق والأحرى، إذ رجعت كراهة من كرهها إلى الاستحسان أو الوجوب، فروى ابن عبد البر عن ابن عباس، وهو

أحد الكارهين لها، أنه قال: قيدوا العلم بالكتابة. بل ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، هذا اللفظ مرفوعا عن النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ رواه ابن عبد البر عن أنس بن مالك، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:" قيدوا العلم بالكتاب". كما ورد هذا اللفظ عن عمر بن الخطاب، وورد عن غيره من الصحابة والتابعين.

وكان إمامنا مالك يوصي بكتابة العلم؛ فقد روى خالد بن خداش انه قال: ودعت مالك بن أنس فقلت: يا أبا عبد الله. أوصني. قال: عليك بتقوى الله في السر والعلانية، والنصح لكل مسلم، وكتابة العلم من عند أهله. هـ[جامع بيان العلم74/1].

ولهذا، لما آنس الخليفة العادل، الإمام الملحق بالخلفاء الراشدين، عمر بن عبد العزيز، انتقاصا من الناس في الحفظ، وفتورا في الهمم، أمر بالكتابة. ففي"صحيح" البخاري:

{باب كيف يقبض العلم. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: أنظر ما كان من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء. هـ[ 19/1].

والخلاصة هنا أن النبي، صلى لله عليه وسلم، في أوائل الوحي، نهى عن كتابة غير القرآن، لأن المتلقين لذلك كانوا عربا أميين، فإذا كتب غير القرآن، ربما أخذوه على أنه قرآن، والقرآن هو كلام الله المتلو المتعبد بتلاوته، فلا ينبغي أن يخلط بغيره، وإن كان حديث النبي، صلى الله عليه وسلم، هو من الله، وهو وحي أوحي إليه، كما قال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إنْ هُو إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) ولكن هناك فارق. فكان النبي، صلى الله عليه وسلم، إن أذن لهم في كتابة حديثه أن يلتبس الأمر، فقال في حديث أبي سعيد الخدري:

"لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن. فمن كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه".[جامع ابن عبد البر:63/1]

ولما اتسعت معارف الأميين، وتنورت أفكارهم بالكتاب والحكمة، التي انتشلوا بها من الضلال المبين، وعلموا الفرق بين الوحيين، وتبين الصبح في ذلك لذي عينين، أذن لهم في كتابة ما يلقى إليهم من الحديث لأمن الالتباس، كما روي عن أبي هريرة أنه قال: لما فتحت مكة، قام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذكر الخطبة - خطبة النبي، صلى الله

عليه وسلم ـ قال: فقام رجل من اليمن، يقال له أبو شاة، فقال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: اكتبوا لي. فقال صلى الله عليه وسلم: "اكتبوا لأبي شاة"، يعني الخطبة. رواه أبو عمر في جامعه[80/1 ].

وروى أيضا عن أبي هريرة أنه قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أكثر حديثا مني، إلاّ عبد الله بن عمرو بن العاص؛ فإنه كتب، ولم أكتب.

وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أريد حفظه. فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتكلم في الرضا والغضب؟!. فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأومأ بأصبعه إلى فِيهِ، وقال: "اكتب. فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّ حق". هـ[81/1]

وأما من منع من أهل العلم، فقد علمت أن منهم من رجع، حتى من الصحابة، لعلة دروس العلم إن لم يكتب. وقد روى أبو عمر بن عبد البر، عن إسحاق بن منصور، أنه قال: {قلت لأحمد بن حنبل: من كره كتاب العلم؟ قال: كرهه قوم ورخص فيه آخرون. قلت له: لو لم يكتب العلم لذهب. قال: نعم. ولولا كتابة العلم، أي شيء كنا نكون نحن. قال إسحاق بن منصور: وسألت إسحاق بن راهوية، فقال كما قال أحمد سواء.} هـ[ جامع ابن عبد البر: [75/1].

وبالجملة، فإن كتابة العلم وتخليده في الصحف، مما وُفّقت له هذه الأمة. وكان سابق الحلبة في هذا هو أمير المؤمنين، خامس الخلفاء الراشدين، عمر بن عبد العزيز، إذ أمر بجمع الحديث وتدوينه في الطروس، مبينا للعلة في ذلك، فكان من السنن الحسنة التي سنها للأمة، واستمر عملهم بها إلى عصرنا هذا؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ثم لما فتح هذا الباب، وكان أول الداخلين فيه الإمام ابن شهاب، على أحد الأقوال، تلاه في ذلك كل إمام من الأئمة الأعلام.

## [ابتداء مرحلة حفظ اللغة وتأسيس القواعد لحراستها]

ثم لما اتسعت دائرة أهل الإسلام، وفتحت لهم الأقطار، ودخل الناس في الدين أفواجاً من سائر البقاع والأمكنة، على اختلاف الألوان والألسنة، واختلطت الأعجام بالأعراب، والتبست اللحون بالإعراب، اقتضى الحال حفظ لغة القرآن، وضبطها بقواعد تحرسها من التغييرات الطارئة عليها بممازجة الألسن الأعجمية، فقام في ذلك سيدنا علي بن أبي طالب، إذ شاهد بعض ذلك، وأسس للغة قواعد، ثم أخذ ذلك منه أبو الأسود الدؤلي، كما سبق، وهو علامة البصرة، ثم أخذ ذلك أعلام البصرة، فضبطوا علوم اللسان، كما كان بجانبهم علماء الكوفة، واستمر الحال كذلك إلى أن تم ضبط اللغة العربية وكمل تحصينها، وفصلت أبوابها، وحررت وسائلها ومقاصدها، إلى أن وصلت إلينا مهذبة مستعذبة.

كما أنه، لما كان لهذه اللغة خصائص تخصها، وأسرار يعظم لدى البليغ وقعها، ودقائق هي سر العربية الذي يكبر لدى النبيل قدرها، وكان ذلك عند الرجل العربي القح بينا في طبعه لا يحتاج إلى تبيين وتوضيح، ولما غلبت العجمة، وضعفت الهمة، احتيج إلى تدوين قواعد هذه الدقائق، وضبط قواعد هذه الأسرار، التي هي أسرار هذه اللغة الشريفة، التي هي لغة الكتاب العزيز، كتاب الدين المحمدي، فوضع العلماء لذلك علما استنبطوه من كلام العرب، سموه علم المعاني، إذ به يعرف أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال من تقديم المسند تارة وتأخيره أخرى، وتعريفه آونة، وتنكيره آونة، ومعرفة الإسناد الخبري، ومعرفة أحوال متعلقات الفعل، والقصر والاستثناء، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والمساواة، إلى غير ذلك.

كما أن الخطاب في هذه اللغة، تارة على وجه الحقيقة بالألفاظ التي وضع لها اللفظ، وتارة على وجه المجاز، وتارة يكون على أصله دون تشبيه، وتارة يؤتى به على وجه التشبيه، وهذا الفن يستقل بنفسه ويسمى علم البيان. وهو أيضا مستنبط من لسان العرب الذين كانت لهم تلك العبارات، على اختلافها من مجاز وحقيقة، ينطقون بها دون معالجة قواعد مبينة، بل هي سليقة لهم، إذ هم القوم، إن خطبوا أجادوا في الخطابة، وان خاطبوا، لم يتخطوا ما يقتضيه مقام الخطاب. وسمّى العلماء هذا العلم علم البيان، وعرفوه

بأنه علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة، وهذه التي بها تدرى بلاغة القرآن، ويعرف إعجازه.

ويلحق بهذين العلمين؛ علم ثالث وهو علم البديع. وهو راجع إلى تحسين اللفظ وتنسيق الكلام، بعد مراعاة قواعد العلمين السابقين، من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وملاحظة الوضوح في الدلالة وغيرها.

...

وهكذا أحدثت قواعد واصطلاحات للعلوم الشرعية. وقد قدمنا ذلك في الجزء الأول، بقسميها، والواجب منها عينا، والواجب منها كفاية، بما لا يحتاج إلى إعادته وتكراره.

وهذه النبذة إنما أشرنا إليها، للتنبيه على أن أهل الصدر الأول لم يكن اهتمامهم إلا بعلم القرآن، وما يتبعه من الحديث، وما يوصل إلى فهمهما. ولأجل ذلك كانوا يشدون الرحلة، ويجهدون أنفسهم في تحري الرواية وبذل مجهوداتهم. ولم يأت القرن الرابع، حتى يسروا لنا العلم الصحيح، ودونوا الحديث في صحفٍ مكرَّمة مرفوعةٍ مطهرةٍ من كل افتراء خفي أو صريح، ولم يبق ممن بعد تلك القرون، إلاّ تصحيح تلك الصحف وإتقانها، وأخذها، تلقينا أو إجازة، عن أهلها وذويها.

ولهذا ألقى غالب العلماء عصا الترحال، واستقروا بمواطنهم عاكفين على نشر ما عندهم من العلم بالأقلام والأقوال، وإن كانت رحلتهم لم تنقطع لطلب التحقيق والعلو في الإسناد من رواة هذه الكتب. ولقد ارتحل لهذا الصدد كثير من علماء الأندلس وأكابرهم، كأبي بكر ابن العربي، وأبي الوليد الباجي، والحافظ ابن رشد، والحافظ ابن دحية، وكثير منهم.

ثم إن هؤلاء الراحلين انقلبوا إلى أهليهم ومواطنيهم يحملون من العلوم ما يغنيهم عن الارتحال.

فالحافظ أبو عمر بن عبد البر، لم يخرج من بلده، فما أعرق ولا أشأم ولا شدّ مطية، ولا طوى بيداء برية، ولا استوى على ظهر سفينة بحرية، وهو حافظ الأندلس وحجته وراويته، الذي انتشرت بالحديث والأخبار في أفقها راياته وألويته، وذكر معارفه، سار مسيرة الشمس في الآفاق، واخترق الأقطار من مصر والشام والعراق.

والحافظ أبو محمد ابن حزم، الذي لم يبرح من مقامه، ولا تعدى أندلسه في سائر أيامه، قد نفذ صيته، وعمت شهرته، وانتهت في المعرفة درايته وحدَّته، وعلت في علم الكتاب والسنة همته، ونفذت في الآداب والعربية والمنطق والشعر كلمته، واشتهرت في الناس روايته ودرايته، وعظم حفظه للآثار، كما شهدت له بذلك الأئمة الكبار. قال الإمام الغزالي:

{وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد ابن حزم، يدل على عظم حفظه، وسيلان ذهنه} هـ[بنقل المقري في نفح الطيب:359/1].

وعلى وجه الجملة، فإن أهل العلم من المرتحلين والمقيمين فيما مضى، لم يكونوا يبخلون بمعارفهم، بل كانوا إذا تعلموا، عملوا وعلّموا، وبلغوا للناس ما علمهم الله، رغبة في الثواب، من رب الأرباب، لا يريدون جزاءً ولا يسألون على ذلك أجراً، إقتداءً بالأنبياء الذين ورّثوا لهم هذا العلم.

----

[تطوع العلماء لنشر العلم وتعليمه بالمساجد]

وكان الشأن في سائر أقطار أهل الإسلام، أن الطالب إذا أكمل دروسه، وصح أن يطلق عليه وصف العالمية، يتصدى لنشر علمه في مسجده الذي يؤم فيه، أو المسجد الذي يجاور منزله، إن لم يكن له مسجد يؤم فيه، تبرعا دون راتب معلوم، ولا إجارة من الحاضرين في دروسه، إلا ما كان في بعض المساجد من أحباس خصوصية ضعيفة.

وعلى هذه الحالة، أدركنا الأشياخ في مدن المغرب، كما كان ذلك بغيره من الأقطار الإسلامية، فقد أدركت بتطوان، مسقط رأسنا، شيخنا البقالي يلقي دروسه بجامع القصبة، وهو المسجد العتيق، إذ كان هو إمام المسجد وخطيبه. وأدركنا شيخنا الزواقي كذلك بجامع السوق الفوقي. وكذلك شيخنا العمراني بمسجد لوقش. وشيخنا الرهوني كذلك في جامع العيون. أما شيخنا ابن الأبار، فكان يلقي دروسه بمسجد الرزيني، حيث إنه قرب داره. وقد كان شيخ الشيوخ العلامة السلاوي، يلقي دروسه بالجامع الأعظم، إذ كان هو إمامه وخطيبه.

وذلك أن العلم لم يكن يلقى بالمدارس، وإنما يلقى بالمساجد في سائر أقطار أهل الإسلام، من لدن زمن الرسالة، لأنها بيوت الله المقدسة التي أذن الله أن يذكر فيها اسمه وتقام فيها الصلوات. والعلم الديني من ذلك، قال تعالى (في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) قال الإمام البيضاوي في "تفسيره"، في قوله: (وَيُذْكَرَ فيهَا اسْمُه):{ عامٌ فيما يتضمن ذكره، حتى المذاكرة في أفعاله، والمباحثة في أحكامه} هـ[ص345 ].

أما المدارس، فلم تكن في الصدر الأول. وما أحدثت إلا في القرن الخامس الهجري، حسبما يأتي الكلام على ذلك. وبعد إنشائها وترتيب شيوخها وأساتذتها، وتعيين رواتبهم، لم تتصل دراسة العلوم بها. بل بقي الحال مستمرا على عمارة المساجد، كالمسجد الأزهر بمصر، ومسجد الزيتونة بتونس، ومسجد القرويين بالمغرب. وبقيت المدارس مأوى لسكنى الطلبة الغرباء.

[اعتناء الدولة المرينية بالمدارس،
وتواصل الدراسة بها]

ومع هذا، لم تنقطع الدراسة بالمدارس، حتى بالمغرب. فلقد كانت الدراسة أثناء القرن الثامن قائمة بمسجد القرويين، وبالمدارس أيام الدولة المرينية، التي صرفت عنايتها لتشييد المدارس بعاصمة فاس، واختيار أفاضل العلماء للدراسة، وإجراء المرتبات الكافية لهم. ففي أيامهم بنيت المدرسة الشهيرة المعروفة بمدرسة العطارين، والمدرسة البوعنانية التي اشتهرت برقة البناء، وإتقان التنميق، وبراعة الفن. وبنى أبو الحسن منهم، المدرسة التي بازاء مسجد القرويين، التي كان أول مدرس بها العلامة أبو الضياء، سيدي مصباح اليالصوتي، فسميت المدرسة باسمه، كما سبق في ترجمته قريبا، مع استمرار الدراسة في هذا القرن بمسجد القرويين، تفد إليه الطلبة من سائر الأقطار.

ومن المشاهير الذين وفدوا إليه، بنو العزفي، الأمراء السبتيون، لما أذن لهم أبو الربيع المريني في رجوعهم من غرناطة إلى المغرب، فكان أبو زكرياء وأبو زيد، ابنا أبي طالب بن أبي العباس العزفي، من سرواتهم وأهل المروءة والدين، يغشون مجالس العلم بالقرويين، وذلك سنة خمس وسبعمائة(705)، كما قاله في "الاستقصا"، أي في فاتح القرن الثامن الهجري.

ثم إن الذي يعطيه النقل، أنه وان اتخذت القرويين معهداً عاما للدراسة، لم تنقطع الدراسة بالمدارس تماما، بل استمرت إلى هذين القرنين الأخيرين. وإنه ربما كان بعض مشاهير العلماء أيام الدولة السعدية، يتعاطون الدراسة في القرويين وفي المدارس، كما كان يفعل ذلك العلامة القاضي، سيدي عبد الواحد الحميدي؛ فقد كان يملي دروسا بالقرويين من التفسير والفقه والنحو وغير ذلك، ويدرس "تهذيب" البرادعي بالمدرسة المصباحية.

كما كان أيضا سيدي يحيى السراج، يدرس "المدونة" زمن الشتاء بالعطارين، و"المدونة" و"المختصر" على الدوام بمدرسة الحلفاويين. وكلا هذين العالمين من أهل القرن الحادي عشر؛ فقد توفي الحُميدي سنة ألف وثلاث1003، والسراج سنة سبع وألف1007.

ويظهر أن الدراسة ما انقطعت تماما إلا بعد القرن الثاني عشر، إذ جعلت القرويين معهداً عاماً وأضيف إلى أحباسه تلك المرتبات التي كانت محبسة على مدرسي المدارس، وكأنهم اعتمدوا في ذلك فتوى الإمام العبدوسي، في جواز جمع أحباس فاس كلها، وجعلها لقطة واحدة، ونظم ذلك صاحب "العمليات" فقال: { وجمْعُ الأحبَاس لهُ تنفِيذُ}، قال شارحه: {هذا أيضا مما جرى به العمل، وهو جمع أحباس المساجد إلى حبس المسجد الأعظم، وكل ما إلى نظر الناظر. وربما زيد في هذه الأزمنة القريبة بعض ما ليس إليه النظر فيه، كالمدارس وغيرها، فتجتمع الخراجات كلها، وتقام مصالح المسجد الأعظم، ثم غيره، بحسب تعيين المحبس، أو ما اقتضته المصلحة.}هـ من "شرح" العلامة العميري. وانظر قوله: {وربما زيد في هذه الأزمنة القريبة بعض ما ليس إليه النظر فيه؛ كالمدارس}.

والإمام العميري كان من أعيان علماء الدولة العلوية الشريفة، إذ كان ولاه السلطان مولانا إسماعيل خطة التدريس والفتوى بحضرته. وتوفي في العشرة الرابعة من المائة الثانية عشر.

---

هذا وإذا أحطت بما أسلفناه في تاريخ الرحلة لطلب العلم والأصل فيها، وأنها كانت متوجهة إلى الشرق، حيث مهبط الوحي، ومقر الرسالة ومنبع التشريع، وبسطنا ذلك كل

البسط، وما أسبغته تلك المباحث الأصلية والفرعية من ذيول، بحيث لا تجده مجموعا في غير هذه الأوراق.

نرجع إلى الغرب فنقول: وحيث كانت الرحلة لطلب العلم مطلوبة على كل حال، فهل للغرب نصيب منها؟ نعم. له الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، ولكن ذلك بعد كمال التشريع، وتمام التأصيل والتفريع، لأن العلوم الإسلامية ما دخلت الغرب إلا بعد الفتح الإسلامي.

----

## [تأسيس مدينة القيروان
## التي أصبحت دار علم تشدّ الرحلة إليها لطلبه]

وأول فتح متصل وقع في شمال الغرب، كان أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، إذ ولى عقبة بن نافع على إفريقية. وكان ذلك سنة خمسين من الهجرة(50 ). فأسس هنالك مدينة القيروان، وبنى مسجدها الجامع، وبنى الناس هناك مساجدهم، واتخذ الفاتحون هذه المدينة مقر ولاتهم، ودار إمارتهم، ومعسكر جيوشهم، ومعهداً لنشر علوم ديانتهم، فصارت بهذا القطر العاصمة الدينية والعلمية والسياسية، فمنها يؤخذ الدين والعلم، وإليها كانت تشدّ الرحلة لطلب العلم. قال صاحب "المعجب":

{ وكانت القيروان هذه في قديم الزمان، منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب، دار العلم بالمغرب، إليها ينتسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم.} هـ[ص237 ].

وقد ألّف الناس، قديماً وحديثاً، في أخبار هذه المدينة وذكر أفاضل علمائها، ومناقب صلحائها، ومن ذلك: "معالم الإيمان"، لابن ناجي، الذي طبع في هذه السنوات الأخيرة. وناهيك في فضل هذه المدينة ومكانتها في العلوم والمعارف، ما أخرجته من أكابر الأعلام، الذين تفتخر بهم مدى العصور والأعوام، فكان الواحد منهم في معارفه يعدل الألف، كعبد الله ابن غانم، أحد أصحاب مالك، فأقام خطة القضاء بهذه الربوع، وأعطاها ما تستحقه من عزة وعلو همة، ونشر ألوية العدل، وصراحة في الحق، من غير تهيب صولة أمير، ولا خوف لومة لائم، مع الورع وقيام الليل، والحذر من الخطإ في الحكم، ولهذا كان يوجه بمسائله إلى مالك ليجيبه عنها. ولم يكن مدة ولايته مقتصرا على إقامة العدل فقط. بل

كان يتصدى لتعليم العلم ونشره. وعنه أخذ الإمام سحنون. وكانت ولايته سنة إحدى وتسعين ومائة، أيام إبراهيم ابن الأغلب، ووقع له معه مصادمات ذكرت في ترجمته.

وكمثل الإمام سحنون، وهو عبد السلام بن سعيد التنوخي، الملقب بسحنون. وهو من الطبقة الأولى من أصحاب مالك، إلاّ أنه لم يره، لأنه تعذرت عليه الرحلة إليه لقلة ذات يده، ولهذا قال: لعن الله الفقر، فلولاه لأدركت مالكا. وسمع من ابن القاسم، وابن وهب وأشهب، وغيرهم من أصحاب مالك، ومشاهير المحدثين. وقالوا فيه: إنه جمع ما لم يجمعه غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهد في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة. قال الشيرازي: إليه انتهت الرياسة في العلم بالمغرب، وعلى قوله المعول بالمغرب، وصنف "المدونة"، وعليها يعتمد أهل القيروان، وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك، وعنه انتشر علم مالك بالمغرب، كما في "الديباج". وقد أفردت ترجمة سحنون بالتأليف.

ولو لم يكن إلاّ هذا الرجل العظيم بهذه المدينة، لكفاها فخرا ومجدا وشهرة، تقتضي الرحلة إليها في حياة هذا الإمام وبعده، مما خلف بعده من وارثي علمه من القرابة وغيرهم؛ ففي "الديباج":

{وقال عبد الملك بن الخشاب الأندلسي ـ وكان ثقة ـ: رأيت في المنام النبي، صلى الله عليه وسلم، يمشي في طريق، وأبو بكر، رضي الله عنه، خلفه، وعمر، رضي الله عنه، خلف أبي بكر، رضي الله عنه، ومالك خلف عمر، رضي الله عنه، وسحنون خلف مالك، رحمهما الله تعالى. قال ابن فضل: فذكرتها لسحنون، فسرّ بذلك. قال ابن الحارث: أقام سؤددُ العلم في دار سحنون، نحو مائة عام وثلاثين عاما، من ابتداء طلب سحنون وأخيه، إلى موت ابن ابنه، محمد بن محمد بن سحنون}. هـ[ص165].

أما العلم الذي انتشر على يد أصحابه في هذه الربوع الإفريقية، فحدث عن البحر ولا حرج. وهو شيء معروف عند أهل العلم قديما وحديثا، وتوفي الإمام سحنون سنة أربعين ومائتين، وسنه ثمانون سنة. وتولى القضاء، وهو ابن أربع وسبعين سنة(74)، فقد أخذ من القرن الثاني والثالث، وهذه هي العصور التي أخذت فيها هذه المدينة التي أسست على الدين والتقوى، من أول يوم اختطها الفاتح عقبة بن نافع، إذ جرت فيها أنهار

من بحور أعلام بماء من العلوم غير آسن، وانشقت فيها أسرار مذهب مالك، محكمة الأبواب واضحة المسالك، فبحقٍّ كان هذا العصر غرة بيضاء في جبين هذه المدينة. قال ابن حارث:

{قدم سحنون بمذهب مالك، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع، والعفاف والانقباض. فبارك الله فيه للمسلمين، فمالت إليه الوجوه، وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد انمحى ما قبله. فكان أصحابه سرج أهل القيروان، وابنه عالمها وأكثرهم تأليفا، وابن عبدوس فقيهها، وابن غافق عاقلها، وابن عمر حافظها، وجبلة زاهدها، وحمديس أصلبهم في السنة، وأعداهم للبدعة، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحها، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث، وأشدهم وقارا وتصاونا. كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم}. هـ[الديباج لابن فرحون: ص162]

فهذه نبذة يسيرة، تشير إلى بعض ما كانت تتحلى به هذه المدينة في العصر السحنوني وما بعده، وقد قفى على هذه الآثار، إمام المالكية بالمغرب؛ أبو محمد، عبد الله بن أبي زيد القيرواني، صاحب كتاب"الرسالة"الشهيرة، و"النوادر"، وغيرهما من كتب الفقه وغيرها.

وقد كان متبحرا في المذهب المالكي. وهو الذي لخصه في كتبه، وجمع ما افترق منه، حتى كان يعرف بمالك الصغير. وأثنى عليه الناس كثيرا. قال القابسي:{هو إمام موثوق به في ديانته وروايته}هـ[الديباج137]. وقد اجتمع فيه العلم والورع، والفضل والعقل؛ شهرته تغني عن ذكره. وكانت وفاته سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

ولرئاسته في العلم، وشهرته في الآفاق، كانت تشد إليه الرحلة، فقد ارتحل للأخذ عنه جماعة، من أشهرهم من أهل سبتة ابن العجوز، وابن غالب، وخلف بن ناصر، ومن لا يعد كثرة. وكانت رحلة ابن العجوز، ورحلة الرجل الصالح، أبي محمد ابن غالب إلى القيروان من سبتة، في نحو الثمانين وثلاثمائة (380 )، كما في "الديباج". وقال قبل هذا في ترجمة ابن العجوز: {إنه لازم أبا محمد بن أبي زيد، واختص به، وسمع منه كتبه: "النوادر" و"المختصر"، وجاء بهما وبغيرهما إلى سبتة}. هـ[الديباج: ص153].

هذا، وكان الشيخ وأصحابه يعيشون في عصر كان إقليم القيروان تحت حكم الولاة الروافض الشيعيين. وبغير شك، كانوا يتلقون من هؤلاء الشيعة ما لا يرضاه أهل السنة.

وما محا هذه العقيدة الشيعية إلاّ الأمير البربري المغربي باديس. وذلك أن إقليم القيروان، كان إذ ذاك تابعا لملوك مصر العبيديين. ولما استبد بإفريقية المعز المذكور، وعظم شأنه بها، وتضخم ملكه، واتسعت ماليته، وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية، أعلن بالانحراف عن مذهب هؤلاء الرافضة، ودان بمذهب أهل السنة، مما أغضب عليه خلفاء العبيديين بمصر، وتصدوا للانتقام منه بإرسال من أرسلوه من العرب للتخريب والإفساد، ورغما عن دفاع المعز ومقاتلته بجيوشه وأنصاره الكثيرة، لم تغن عنه كثرتهم شيئا، فتمكنت يد هؤلاء الأعراب بالعبث والإفساد، والتخريب واستباحة الأموال والأعراض. فسقطت عاصمة القيروان، وذهب ما كانت تتحلى به من المعارف والعلوم. وكان ذلك إذ أظلم الجو بين مصر وإفريقية، وألغى المعز دعوة العبيديين، ورفض طاعتهم. وذلك سنة أربعين وأربعمائة، على عهد المستنصر العبيدي. ودعا للخليفة العباسي القائم بن القادر ببغداد، فورث القيروان بعد ذلك في الشهرة والحضارة، تونس. ولكن لم يكن هذا الإرث متصلا بتاريخ سقوط القيروان، بل بعد حين.

أما تراثها العلمي، فالذي يفيده صاحب "المعجب"، أنه وقع في يد مدينة فاس، كما سيأتي.

## [مدينة قرطبة وسبب تفوقها في مختلف العلوم]

في هذا العصر الذي كانت القيروان محط رجال العلم، ومقصد الطالبين، ومرمى الراحلين، كانت قرطبة إذ ذاك قبة الإسلام، ومجتمع علماء الملة الأعلام، إليها تتوجه أنظار النبلاء النظار، ونحوها تنحو أفكار الشعراء النبغاء، لاستجداء الكرماء. ومنها كان يقتبس الراحلون أنوار المعارف، وبها يلقي رحله كل نبيل عارف. قال الحجاري فيها:

{هي قرارة أولي الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر للعلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمر الخواطر،

وبحر درر القرائح. ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر. وبها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة. والسبب في تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلاّ على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب.} هـ[بنقل نفح الطيب:214/1].

هذا ما قاله الحجاري في سبب تفوقها في العلم والأدب.

وأنا أقول: إن السبب الأقوى في ذلك، هو ما كان لملوكها من الاعتناء بالعلوم والمعارف، واغتباطهم بها، وتقريب أهلها ورفع مكانتهم، والعناية بكتب العلم وجمعها من سائر الأقطار، وإسناد الوظائف الشرعية إلى أهلها من الفقهاء، حتى صار اسم فقيه من الألقاب الشريفة، يخاطب بها الوزير ومن في معناه. وسابق حلبة هؤلاء الملوك: الحكَم بن الناصر، الملقب بالمستنصر، فإنه، كما قال ابن خلدون: كان محبا للعلوم، مكرما لأهلها، جمّاعا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله. قال أبو محمد ا بن حزم:

{أخبرني تليد الخصي، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب، أربعة وأربعون فهرسة؛ في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير. وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر.}هـ [نفح الطيب:180/1]. قال ابن خلدون:

{ووفد عليه أبو علي القالي، صاحب كتاب"الأمالي" من بغداد، فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكَم المستنصر، واستفاد علمه، وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار، ويسرب إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه. وبعث في كتاب "الأغاني" إلى مصنفه أبي الفرج الاصفهاني، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه بالعراق، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري، المالكي، في شرحه لـ"مختصر" ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك. وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله. واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلاّ ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء} هـ [العبر:146/4].

فهذا هو الباعث الحقيقي، بحسب العادة، الذي جعل أهل الأندلس يحبون العلم وأهله، وللفقيه عندهم رونق ووجاهة، والعالم معظم من الخاصة والعامة، ويشار إليه وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك. قال في" نفح الطيب"، وسياقه من كلام ابن سعيد، مؤرخ الأندلس، ما لفظه:

{ومع هذا، فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة. فهم يقرأون لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جاريا، فالعالم منهم بارع، لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم} هـ[102/1].

وهذا لا ينافي الباعث الذي قدمنا، من أن التنافس في العلم، والتزايد منه، كان محركه الأول والمرغب فيه، هو منافسة الرؤساء والأمراء فيه. وانظر ما كان لأهل قرطبة من الاعتناء بجمع كتب العلم والتغالي في ثمنها. وما ذاك إلا لما كانوا يشاهدونه من عناية أمرائهم بذلك، كما قدمنا عن الحكَم.

فكانت هذه العاصمة السياسية والعلمية، أكثر بلاد الأندلس كتبا. قال ابن سعيد، حسبما نقله المقري:

{وهي، أي قرطبة، أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب. صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها، ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان، قد حصله وظفر به. قال الحضرمي: أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع، وهو بخط فصيح، وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إلي المنادي بالزيادة عليّ إلى أن بلغ فوق حده. فقلت له: يا هذا. أرني من يزيد في هذا الكتاب، حتى بلّغه إلى ما لا يساوي. قال: فأراني شخصا عليه لباس الرياسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه. إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك. فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده. قال: فقال لي: لست بفقيه ولا أدري ما فيه. ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها، لأتجمل بها بين أعيان البلد. وبقي

فيها موضع يسع هذا الكتاب. فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه. والحمد لله على ما أنعم به من الرزق، فهو كثير. قال الحضرمي: فأحرجني، وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك. يعطى الجوز من لا له أسنان. وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلا، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه.} هـ[نفح الطيب:215/1 ].

هذا، ولم تكن هذه الهمة العالية في محبة العلم واقتناء كتبه، قاصرة على الدولة المروانية. بل ما فتئت شنشنة معروفة بين أهل الرياسة وغيرهم، فتفوقت في ملوك الطوائف وغيرهم من الوزراء والكتاب والقضاة وأهل الفضل. كما أن هذه الهمم لم تبق منحصرة في دائرة العلوم الدينية فقط، بل اتسعت في سائر العلوم الأدبية والفلسفية.

فهذا ابن الأفطس، ملك بطليوس، كان، كما قال ابن الأبار: كثير الأدب، جمّ المعرفة، محبا للعلم، جمّاعا للكتب، وله خزانة عظيمة. لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة. هـ وله التصنيف الرائق المترجم بـ"التذكرة"، والمشتهر أيضا اسمه بـ"الكتاب المظفري"، في خمسين مجلدا، يشتمل على فنون وعلوم، من مغاز وسير، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب. أبقاه للناس خالدا. وتوفي المظفر سنة ستين وأربعمائة(460)

- - -

ولنرجع إلى عاصمة قرطبة، التي جرّ إليها ذكر أختها القيروان بإفريقية، فنقول: إن شأن قرطبة كان عظيما عند أهل العلم والفقه والأدب، وأهل القضاء والأحكام، حتى صار عمل قضاتهم وفقهائهم حجة، فيقول القاضي والمفتي في حكمه أو فتواه: بهذا جرى عمل قرطبة. وما ذاك إلا لما كان فيها من أكابر الفقهاء الأعلام، والقضاة العدول، ذوي التحقيق والاجتهاد، في مجاري القضاء والأحكام. ونـاهيك بقاضيها أبي الوليد ابن رشد، الذي قيل فيه:

إذا قالت حذام فصدقوها  فإن القول ما قالت حذام

وإذا اعتمد القاضي أحكام قضاة هذه العاصمة، فإنما اعتمد ما نقحته أفكار ثاقبة، وخلصته عقول صائبة، همتها تحقيق الحق، وإبطال الباطل، ومراعاة نصوص الشريعة، وحراسة حدود قواعدها المنيعة، من غير تساهل ولا تهاون.

وهكذا استمرت أحوال هؤلاء الأعلام، الى أن صار المسكن والساكن كأنهم أحلام. وهكذا الدنيا وأعراضها إلى انقطاع وتملم؛ فقد سمعت ما كان لهاتين العاصمتين الإفريقية والأندلسية من العظمة والعمران، ووفور العلم وعزة الأركان، تتلألآن بأنوار المعارف، وتختالان في جمال تلك المطارف، تفتخران بكل تليد من الفنون وطارف، والوفود تفد إليهما لاقتباس أنوارهما فرادى وطوائف، إلى أن أصابتهما عين الكمال، وأبلى جدتهما تعاقب الشهور والأعوام، فخبت تلك الأنوار، وخسفت بدورهما بعد الإقمار. وحق على الله أنه ما رفع شيئا من هذه الدار، إلا ووضعته تصاريف الأقدار.( ورَبُّكَ يفعَلُ ما يَشاءُ ويَختَار).

<u>أما عاصمة القيروان</u>، فإن الذي حط من علوها، وأنزلها من ذروة مجدها، هو ما كان وقع من الخلاف بين واليها المعز بن باديس، وبين العبيديين الشيعة القائمين بمصر، حتى رفض المعز دعوتهم، ونبذ عهدهم وطاعتهم، وخطب للقائم الخليفة العباسي ببغداد. وكان المعز رجلا سُنيا أراد محو بدعة الشيعة الرافضة من إفريقية، وصرح بلعن الرافضة، وأباح قتل من وجد منهم. فغاظ ذلك الخلفاء بالقاهرة، وكان ذلك سنة أربعين وأربعمائة (440) على عهد خليفتهم المستنصر، فدبر الانتقام منه بإغراء العرب الذين كانوا مع القرامطة الملحدين، وهم رباح، وزغبة، وأصبح. وبعثهم إلى إفريقية، وأباح لهم كل ما يفتحونه منها، وكتب إلى المعز:

{أما بعد. فقد أرسلنا إليك خيولا، وحملنا إليها رجالا فحولا، (لِيَقضِيَ اللهُ أمرًا كَانَ مَفعُولا}.

فالتحم القتال والهجوم، وتعددت الوقائع والملاحم، والمعز يدافع، حتى أعياه أمر هؤلاء الأعراب. وأخيرا انطلقت أيدي العرب على القيروان بالنهب والتخريب، وعلى سائر الحصون والقرى. وكان ذلك سنة تسع وأربعين وأربعمائة(449 ). وأصبحت هذه العاصمة الإفريقية فاقدة لمجدها، متراجعة في تقدمها. وصارت قرية من القرى البدوية، عارية عن

حلي الحاضرة. قال في "المعجب"إنها في عصره عادت شبه قرية يسكنها الفلاحون وأرباب البادية. والله وارث الأرض ومن عليها.

أما قرطبة أختها التي شاركتها في المكانةالعلمية والسياسية، ومجتمع أهل الإسلام، ومقر الرؤساء العظام، وموطن الأئمة الأعلام؛[فقد] رافقتها في تاريخ التراجع والانحطاط، إذ كان ذلك في أوائل القرن الخامس الهجري، كما سبق.

وفي هذا التاريخ، كان ابتداء تقويض أركان ما بقي من الخلافة الأموية بالأندلس، إذ شدّد البربر الحصار على هذه العاصمة، وترددوا إليها بأنواع النهب والفتك، إلى أن هلكت القرى وعدمت المرافق، واشتد الحصار، إلى أن اقتحموها عنوة، وذلك سنة ثلاث وأربعمائة، ووقع الفتك بالخليفة هشام، ولحق بأهل قرطبة في نسائهم ورجالهم وبناتهم ومنازلهم، ما أبكى العيون، وأنكى القلوب. واستولى البرابرة على الأعمال الواسعة، وتمزق شمل الخلافة، واستبد كل وال بناحيته، ونشأت من ذلك ملوك الطوائف، كما هو معروف في التاريخ.

وهنا فقدت قرطبة الغراء مقامها العالي، وجُردت بعبث البربر الدامي من حسنها المتلألي، ولم تسترجع مقعدها السامي بعد ذلك، وإن كانت تداولتها دول وملوك من بني حمود، وبني عباد، والملثمين والموحدين، إلا أنها كانت عندهم من جملة مدن الأندلس، يولّون عليها الولاة، دون جعلها كرسي المملكة، وعاصمة القطر.

ولكنها لم تفقد على ما يظهر رتبتها العلمية، يدل على ذلك أنه في أيام استيلاء الدولة اللمتونية عليها، لم تزل مقصد العلماء الراغبين في تصحيح معارفهم وأخذهم عن شيوخها، ففي تاريخنا "اللسان المعرب"، تحت ترجمة (الإشراف على التعليم):

لما أراد القاضي عياض، رحمه الله، إعمال الرحلة إلى حضرة قرطبة، التي كانت في ذلك العصر المدرسة العليا لأهل المغرب والأندلس، كتب له أمير المؤمنين، علي بن يوسف، رحمه الله، إلى القاضي بها إذ ذاك ابن حمدين، يقول فيه:

{وفلان أعزه الله بتقواه، وأعانه على ما نواه، ممن له في العلم حظ وافر، ووجه سافر، وعنده دواوين كأغفال، لم تفتح لها على الشيوخ أقفال؛ قصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها، ويعافي رمد عيونها، وله إلينا مائة مرعية، أوجبت الإشادة بذكره، والاعتناء

بأمره. وله عندنا مكانة حفية، تقتضي مخاطبتك بخبره، وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت، إن شاء الله، تسدد عمله، وتقرب أمله، وتصل أسباب العون له}.هـ[مخطوطة رقم2077 ص182]

فهذا الكتاب من أمير المؤمنين، في شأن القاضي عياض، وأمره قاضيه ابن حمدين بالوقوف معه في تصحيح كتبه على الشيوخ، يدل دلالة واضحة على أن هذه المدينة لا زالت أثناء المائة السادسة معهدا للعلوم، ومقرا لذوي التحقيق من الشيوخ الراسخين، الذين يستحقون أن يأخذ عنهم مثل القاضي عياض، كمثل القاضي ابن حمدين الذي قيل فيه:

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ... ولا تعظم بلاد الفرس والصين

فما على الأرض قط مثل قرطبة ... وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

---

[توجه أنظار طلاب العلم بالمغرب
إلى فاس، بعد أفول نجم القيروان وقرطبة]

هذا ولما أفل نجم هاتين العاصمتين الإفريقية وأختها الأندلسية، حسبما سبق، أخذت تراثهما مدينة فاس البيضاء، فصارت جامعتها القرويين هي المدرسة العليا لأهل المغرب، ونحوها تتوجه أنظارهم، وإليها تنصرف رحلتهم، وبها يقضون مما يزاولونه من العلوم أوطارهم، ولم يبق لهم تشوف للرحلة إلى سواها. قال صاحب "المعجب":

{ومدينة فاس هذه، هي حاضرة المغرب، في وقتنا هذا، وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس، كما كانت القيروان حاضرة المغرب، فلما اضطرب أمر القيروان، كما ذكرنا بعبث العرب فيها، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية، بعد موت أبي عامر، محمد بن أبي عامر وابنه، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة، فراراً من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس}.
ثم أفاض في ذكر محاسن هذه المدينة، حتى قال:{وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب، وبحق ما قالوا ذلك.} هـ[ص238 ].

ولهذا اكتفى طلبة أهل المغرب، من الحواضر والبوادي، بجعل الرحلة إلى هذه المدينة هي منتهى آمالهم، وخاتمة دراستهم، وفي تلك العاصمة يحرزون من أشياخها إجازتهم. فأصبح المغرب منذ زمان مستغنيا في تعلم أبنائه عن التشوف للرحلة للخارج.

نعم. كان أكابر علمائه عند توجههم للمشرق للحجاز، بقصد أداء فريضة الحج، يغتنمون الفرصة، فيدخلون مصر والشام، وربما دخلوا بغداد، فيأخذون عن علمائها رواية ودراية، ويستجيزون ويجيزون، ويفيدون ويستفيدون، وربما أطالوا المقام هنالك، فيعقدون مجالس للدراسة والتعليم، كما فعل ذلك من المتأخرين، إمام المغرب وحافظه ومؤلفه، الشيخ سيدي التاودي ابن سودة المرّي، شارح "التحفة"، و"طالع الأماني" وغيرهما؛ فإنه ارتحل للحج سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، ورجع سنة ثنتين وثمانين ومائة وألف(1182 ). قال الجبرتي في "تاريخه":

{وعقد،أي الشيخ التاودي، درسا حافلا بالجامع الأزهر، برواق المغاربة، فقرأ "الموطأ" بتمامه، وحضره غالب الموجودين من العلماء، وأجاد في تقريره وأفاد، وسمع عليه الكثير أوائل الكتب الستة، و"الشمائل"، و"الحِكم"، وغيرها، وأجاز. ولقي بمكة أبا زيد، عبد الرحمان بن أسلم العيني، وأبا محمد، حسين بن عبد الشكور، صاحب الشيخ عبد الله الميرغني، والشيخ إبراهيم الزمزمي وغيرهم، وبالمدينة أبا عبد الله، محمد بن عبد الكريم السمان، وأبا الحسن السندي، وعبد الله جعفر الهندي، وغيرهم. وأجازوه وأجازهم، وعاد إلى مصر، واجتمع بأفاضلها كالجوهري، والصعيدي، وحسن الجبرتي، والطحلاوي، والسيد العيدروس، والشيخ محمود الكردي، وعيسى البراوي، والبيومي، والعريان، وعطية الأجهوري.} هـ[عجائب الآثار، بهامش تاريخ ابن الأثير:196/5].

وكما فعل ذلك قبله الإمام الشهير، أبو سالم العياشي، صاحب "الرحلة" الشهيرة، وأحد تلامذة إمام المغرب، سيدي عبد القادر الفاسي. وكانت رحلته الأولى سنة تسع وخمسين وألف(1059 )، والثانية سنة أربع وستين وألف(1064)، فدخل مصر، ولقي أكابر شيوخها، كالشيخ الميموني، واللقاني، والشهاب الخفاجي. واستفاد هنالك، ودخل الأزهر وبات به، كما قال في"رحلته"، ليلة القدر. قال:

{وفي الحقيقة، كل الليالي بذلك المسجد ليلة القدر، لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار. لا تنقطع فيه العبادة، ليلا ونهارا، صيفا وشتاء، فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها، حاشا المساجد الثلاثة.} هـ[126/1].

وجئت بوصف هذا المسجد الأزهر بعبارة العالم، الذي كان في أول القرن الثاني عشر الهجري، ليقيس المطالع اليوم حالة هذا المسجد مع الحالة السابقة، وإلى الله تعالى يرجع الأمر كله.

### [أبو سالم العياشي، وذكر بعض فوائده من خلال "رحلته"]

أما إقامة الشيخ أبي سالم بالمدينة المنورة، فكان طويلا. فقد أخذ وأخذ عنه، وقرأ وقرئ عليه، فقد قرأ على الشيخ أبي الحسن الربيع الزبيدي ما تيسر، وأجازه، وذكر لفظ إجازته في "رحلته". وقرأ على علامة وقته في المنقول والمعقول، الشهير الملاّ إبراهيم الكوراني، والقشاشي، والثعالبي، وغيرهم مما ذكره في "رحلته" الجامعة لفوائد شيوخه وغيرهم، لأن "رحلته" كما قال هو: إن الغرض منها أن تكون ديوان علم. قال: فلا آلو ما أدخلت فيها من الفوائد.

قلت: ومن أنفس الفوائد التي وقفت له فيها، ما ذكره بعد إطالة الكلام في مسألة وحدة الوجود، التي يميل إليها بعض أهل التصوف، ما لفظه:

{أخبرني الشيخ الملاّ إبراهيم، أنه كان في أول اتصاله بالشيخ، يضيق عليه النطاق في أمثال هذه المباحث، من وحدة الوجود، ووحدة الصفات، وغير ذلك مما لم يوافق عليه العارفون بآراء المتكلمين، لأنه كان متضلعا بعلوم أهل الكلام. وكان الشيخ الصفي، رضي الله عنه، إذا أحس منه بشيء من ذلك، يقول له: اثبت، فسيشرح الله صدرك لقبول الحق. وليس هذا الأمر بسهل، فإنما هو كالخروج من دين إلى دين. قلت:أي قال الشيخ أبو سالم: والمعتقدات هي أعلى الدّين فلا يخرج الإنسان من معتقد ألفه إلى معتقد أعلى منه، إلا ببرهان واضح، ونور لا ئح، يظهر به عدم مخالفة الاعتقاد الثاني للمعتقد الحق الذي قامت عليه دلائل الكتاب والسنة، إلا أن المعتقد الثاني يكون أعلى من الأول، وأبين وأوضح، إذ لا يكون الاعتقاد الثاني مباينا للأول، إلا إذا كان أحدهما فاسدا. ومعتقدات أهل السنة والحق،

قامت البراهين القطعية التي لا تحتمل شكا ولا ترديدا على صحتها، إلا أن بعضها أكمل من بعض في الوضوح والبيان، وإن كانت كلها بينة واضحة، فليس معتقد عوام المؤمنين المستند أولا إلى تقليد علماء الأمة، ثم ثانيا بعد انتهاء عقولهم إلى نظر جملي، كمعتقد علماء الأمة العارفين بأدلة الكتاب والسنة، وقضايا العقول الضرورية والنظرية؛ فمعتقدات هؤلاء لا يطمع في تزلزلها شيطان مريد، ولا ملحد عنيد، لتشييدها بالأدلة القاطعة، والحجج الساطعة، ومع ذلك فليست معتقداتهم بالنسبة إلى معتقدات كبراء العارفين أهل الكشف الصحيح، والذوق الصريح، والبصائر النورانية، إلاّ كنسبة معتقدات العوام إلى معتقداتهم، لأن معتقد العوام مستند إلى الشهود والعيان، ببصائر الإيمان والإيقان، فلا يحتاجون إلى إقامة دليل، ولا وجود برهان}هـ ثم أفاض، رحمه الله، في الموضوع. أنظر تمامه في الجزء الأول من "رحلته"، صحيفة365. وهو مبحث نفيس قلما تجده مبينا في غير هذا الكتاب.

ثم نرجع إلى ما قاله الشيخ العياشي في "رحلته"، وأنه جعلها ديوان علم، فهو كلام حق، فإنه، رحمه الله، أفاد وأجاد، وتفنن في إيراد الفوائد التي تقر عين الناظرين وتسر الفؤاد، وكأنه اتبع في ذلك منهاج الحافظ أبي عبد الله ابن رشيْد الفهري السبتي، دفين فاس، فإنه كان من أكابر علماء المغرب في القرن السابع، وشارك في القرن الثامن، لأنه توفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة(721). فإنه اتصل في وجهته للحج بأكابر علماء المشرق، وأخذ عنهم، واستفاد فوائد جمة، وألف في ذلك رحلة سماها " ملء العيبة، بما جمع بطول الغيبة، في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة "، هذا ما كان يختلج في ذهني.

ثم وجدت الشيخ المسناوي صرح بهذا، فقال في الثناء على "رحلة" العياشي، ما لفظه:

{ورحلته جمة الفوائد، عذبة الموارد، غزيرة النفع، جليلة القدر، جامعة من المسائل العلمية المتنوعة مما يفوق الحصر، سلسة المساق والعبارة، مليحة التصريح والإشارة، كرحلة العلامة الضابط، أبي عبد الله، محمد ابن رشيد، السبتي الولادة، الفاسي الوفاة، المسماة بـ"ملء العيبة، بما جمع بطول الغيبة، في الوجهة الكريمة إلى مكة وطيبة"}. هـ[بنقل صاحب نشر المثاني:46/2].

ثم نحا نحو الشيخ أبي سالم، تلميذه أبو العباس الناصري، شيخ الطريقة، وناصر الحقيقة، وكأنه في "رحلته" هذه اختصر"رحلة" شيخه في موضوعها ومسائلها، كما يعلم ذلك من مراجعة الرحلتين. ثم وجدت في ترجمته من " نشر المثاني" ما لفظه:

{ألف، أي صاحب الترجمة، "كتاب الأجوبة"، وكتابا آخر في رحلته للمشرق؛ جمع فيه كثيرا من فوائد "الرحلة العياشية".} هـ[116/2].

وفي "الصفوة"، قال في ترجمته:{ وله"رحلة" حسنة، ذكر فيها أشياخه، وما جرياته في وجهته الحجازية. وشحنها بفوائد علمية، واعتمد فيها على "رحلة" شيخه أبي سالم.} هـ[ص223].

[ختام مبحث الرحلة لطلب العلم]

هذا، وقد أطلنا الذيل في مبحث الرحلة لطلب العلم، وجمعنا في ذلك ما لا يوجد مجموعا في كتاب، جريا على ما أشرنا إليه في هذه "الفهرسة" مراراً من أن مقصودنا فيها هو المذاكرة في المسائل العلمية المختلفة، وتحقيق ما أمكن تحقيقه فيما يعرض من كل فن من الفنون، من غير تقييد. والله الموفق.

وقد ذكرنا في موضوع الرحلة تاريخها وسببها، والدواعي إليها، والعواصم التي تشد الرحلة إليها من أول يوم نزول الوحي، إلى أن ختمنا بذكر عاصمة المغرب فاس، وجامعها القرويين، الذي كانت تشد الرحلة إليه في عصرنا، ولذلك وقعت وجهتنا إليها، وولينا همتنا إليها:

كيف تيسرت رحلتنا لحضرة فاس،
بعد ما ضاقت النفس من معاناة الإياس

لما أخذ بعض الرفقاء الذين كانوا يشاركوني في الدروس، يجدُّون للرحلة للحضرة الفاسية، وكان يجري ذكر ذلك بحضرتي، كنت أعد سفري من قبيل المحال العادي، لأني كنت آيسا من سماح والدي بالإذن لي في ذلك، لأني كنت الوحيد عنده، ولا يسمح بمفارقتي. ولهذا لم يكن يخطر بالبال ذلك الارتحال، بوجه ولا بحال، إلا أنه في تلك الحالة التي كانت في نفسي أكتمها ولا أبديها، اتفق أن كنت جالسا في المسجد الأعظم أنتظر ابتداء

الدرس الذي كان يلقيه شيخنا الرهوني، رحمه الله، إذ أنا بالشيخ المذكور واقف أمامي، فقمت إليه، فقال لي: ما ذا تنتظر هنا في تطوان؟! اذهب إلى فاس، فإنه لم يبق لك عندنا شيء تأخذه. فصرت أشير له إلى الصدر، وهو يقول لي: لا. لابد من ذهابك لفاس.

فتأثرت من هذا الكلام، وتبدل اليأس بالرجاء، وأقدمني ذلك على مشافهة والدي وطلبته بأن يأذن لي. فصرح بالمنع، وأعانه على ذلك بعض أشياخي، وحسن له متابعة القراءة بتطوان، وعدم السفر لفاس؛ فتقوى جانب المنع، وصار والدي يحتج علي بمقالة هذا الشيخ، ولكن ذلك أغاظني، حتى صرحت لوالدي في جانب ذلك الشيخ بكلام خرج مخرج الغضب.

ثم بعد ذلك رجعت إلى التفويض، وأسندت الأمر لمن يفعل ما يريد، لأنه سبحانه المتولي أمر العبيد، وهو، جل وعلا، مقلب القلوب، يقلبها كيف يشاء، وإذا أراد أن يكون شيئا هيأ له الأسباب. فكان من الأسباب التي فتحت لمقصدي الأبواب، أن تكلمت مع الشريف الجليل، الذاكر الناسك، سيدي إدريس بن سيدي الحسين ابن العارف الكبير، العلامة الشهير، سيدي محمد الحراق، فتكلم في ذلك مع والدي، وأقنعه بأن رحلتي لفاس فيها من الخير والنجاح، ما لا يقاس بمقياس، ففتح لي هذا الباب المغلق بسعيه الصادق في قصده، وأتى الله بالفتح في هذه القضية من عنده، وساعد والدي وأذن لي في السفر، فامتلأ قلبي فرحًا، وأزمعت المسير، وجمعت لطياتي مطايا وأرحل.

## [التحاق المؤلف بفاس، ووصف الدراسة بجامع القرويين]

فدخلت الحضرة الفاسية، فألفيت إذ ذاك جامعها القرويين، سماء مزينة بكواكب أكابر العلماء، زاهية زاهرة بمحققي الفقهاء النبلاء، حافلة بنوابغ الأدباء والشعراء، تبتدئ الدراسة فيه في الإشراق، وتستمر إلى قرب العصر، فالداخل إليه في هذه الآونة، لا يرى إلا حلقا مستديرة في كل ناحية، كأنها أفلاك يتوسطها شيخ ويحيط به التلاميذ، فتتخيله كبدر منير، وحوله نجوم تستمد من نوره. وما ذاك النور إلا ما يلقيه عليهم من المعارف والعلوم.

هكذا وجدت هذا الجامع، وكان في عصرنا هذا لتمامه، كأنه يؤذن بالزوال، ولاتساق حاله، ينذر بالاختلال، حتى إن بعض أشياخنا كان يرى من شفوف التغيرات، أن الحال آن ارتحاله، وأوشك انتشاله، وأن سماء هذا المعهد العالي كأنها قد انشقت، وأن كواكبها الوقادة قد انتثرت، وألقت ما فيها من فنون العلوم الإسلامية، وعن الإضاءة بأنوارها قد تخلت.

فصدق الظن، وتحقق التفرس، وجاء الاحتلال، ووقع الاختلال، ومدت الأيدي إلى هذا المعهد الديني المغربي باسم الإصلاح، والتنظيم في التعليم الذي هو كفيل بالنجاح، فعين لذلك المجلس التحسيني وقدم له أكابر العلماء، تضليلا لأفكار العوام الدهماء، فكان ما كان مما لست أذكره. وسيأتي ذكر ذلك المجلس في ترجمة شيخنا ابن الخياط. والله غالب على أمره.

---

### [ترجمة الشيخ العلامة
### سيدي أحمد ابن الخياط، ومقروءات المؤلف عليه،
### وذكر نسبه، وجملة من أوصافه]

وقرأت على شيخنا عالم المغرب بالإطلاق، ومحقق فقهائه بالاتفاق، الشريف الجليل سيدي أحمد ابن الخياط، جملة من "مختصر" الشيخ خليل، بـ"شرح" المحقق سيدي عبد الباقي الزرقاني، قراءة تحقيق وتدقيق، وتتبع لكلامه جملة جملة، ولفظة لفظة، بحيث لم يكن الدرس يتجاوز نحو العشرة أسطر من صفحة "الشرح" المذكور، وفي طي ذلك التقرير، فوائد جليلة، وقواعد علمية من فنون مختلفة. وبالجملة، فكان هذا الدرس وحده مما يتعين على الطالب النبيل الرحلة إليه.

وشيخنا هذا، هو أبو العباس، سيدي أحمد بن محمد بن عمر بن عبد الهادي بن العربي بن امحمد، بفتح الميم، الزجاري المدعو الخياط. ثم سرد أجداده في "فهرسته" إلى القاسم بن مولانا إدريس.

فشيخنا هذا شريف إدريسي، وهو عالم محقق، رباني خاشع خاشع، جامع لأشتات المعاني، ريان من علوم الشريعة، من تفسير وحديث، سابق في أصولها وفروعها، مبرز

في علوم اللسان، من نحو وصرف ومعاني وبيان، متقدم في أصول الدين، محرز لقصبات السبق في أصول الفقه، لا يجارى في تحريرها وتحقيق مباحثها، فهو إمام المغرب في وقته لا يبارى، وفارس ميدان العلوم والفنون لا يجارى ولا يمارى.

وقد كنت كتبت في دفتر التذكرة أيام حياته، بعد قفولي من فاس، ما لفظه:

شيخنا العلامة الشهير، سيدي أحمد ابن الخياط، قد خاط شقة العلوم، وبرز في فهم المنثور منها والمنظوم. شارك في الفنون، وكشف فيها عن الظنون. أما الفقه فهو لفروعه مالك، وسلك في مسالكه أوضح المسالك. وأما الأصول فقد صال فيها على مؤلف المحصول. وأما المعاني والبيان، فقد استخرج من بحرهما اللؤلؤ والمرجان، وأخر بتفوقه فيهما عالم جرجان. وبالجملة، فهو في الفنون كلها ماهر، وإحسانه فيها لدى الكل ظاهر. أقر بتحقيقه المحب والشاني، وانقاد له القاصي والداني. وهو اليوم الشيخ الأكبر بالمغرب، يرقص فيه ويطرب. إذا ألف يريك الدرر الخرائد، ويريك الفوائد كالفرائد، مع الاعتناء بالتحقيق، وكشف مخدرات التدقيق، إلى الديانة المتينة، والنسبة الشاذلية المكينة، وتخلق أخلاق هي المسك عرفا، ونسيم الأسحار لطفا. يتواضع للناس على رفعته، ويبادر بالسلام على عزته. وله تآليف مشهورة، مرغوب فيها بين الطلبة غير مهجورة. ثم سردت بعضها كما سيأتي ذلك.

هذا ما أمليته من عندي على وجه الإجمال، وسمح به التعبير وإن كان في جانب التقصير والإقلال. ولابد أن نأتي بتأييد بعض ما قلناه، مما وصفه به أهل العصر وبحلاه حلاه. ويعجبني في ذلك ما حلاّه به صاحب "الدرر البهية"، إذ قال تحت ترجمة أولاد ابن الخياط:

{وأما أولاد ابن الخياط، فلهم شهرة بالنسب الشريف. وكان منهم أفراد مشهورون، كما لازال منهم سراة مذكورون، منهم الشريف الفقيه العلامة، الصوفي المشارك الفهامة، مفتي فاس، ومحيي رسوم العلوم الذي جاد به الدهر، واستنار بوجوده وجه هذا القطر، السري الأمجد، السيد أحمد بن محمد، الشهير بالخياط }.هـ[60/2].

ثم سرد باقي النسب إلى القاسم بن إدريس، كما سرد ذلك الشيخ في "فهرسته"، وتقدمت الإشارة إليه، ثم قال صاحب "الدرر":

{ فصاحب الترجمة إمام همام، وأحد الأئمة الأعلام، شريف الأصل والفعال، جميل الأوصاف والخلال، جامع جوامع المعارف والمعاني، وعلم مقدمات الأصول والمؤسس لفروعها والباني، والموضح لدلائلها التفصيلية والإجمالية، والعارف بطرق استفادتها ومستفيدها على المناهج الكمالية، فهو الفقيه العالم بالأحكام الشرعية العملية، والمكتسب من أدلتها التفصيلية، ما صار به علما يُهتدى به في كل سبْسبٍ وبرية، والعارف بأحكام خطاب الله المتعلق بالأفعال التكليفية، الموقن بحكم الله في كل ما يترتب في العاجل والآجل على الضوابط الشرعية، المتمسك بالفرض والواجب في كل من الأوامر الإلهية والسنن المحمدية، وتطوعاتها ومستحباتها القولية والفعلية. فهو السبب الموصل لكل مزية، والمانع من سلوك الطرق الموصلة لكل رزية، والملتزم لصحة اعتقاده للوجوه الحقة المرعية، ذو النظر السديد الذي لا يعتريه التغير بوجه ولا حال، والعلم المقترن بالعمل في الأقوال والأفعال، المتمسك بكتاب الله المنزل على رسوله، المعجز بإعجازه المتعبد بتلاوته في آصاله وبكوره، العامل بمنطوقه ومفهومه في وروده وصدوره، والمتحقق بأحوال مقيده ومطلقه وظاهره ومؤوله وناسخه ومنسوخه وسائر أموره، والآخذ بالسنة المحمدية في جميع حالاته، الذي وقع الإجماع على فضله وعلو طبقته، وشماخة علمه وعلاماته، حكم القياس بأنه البحر الغطمطم الزاخر. وأجمع الناس على أنه واسطة عقد الأوائل والأواخر، لاستدلالهم بما يرصعه يراعه في صفحات لجين القراطيس من نفيس الجواهر، مع تعليل المعاني وتراجيح الأقوال من محرر وظاهر، إذ هو المجتهد ذو الملكة المدركة العارف بالدليل الواضح القاهر، المحيط بمعظم قواعد الشرع الممارس لها، الخبير بمواقع الإجماع وتوابع ذلك المحيط بها، ختم أعماله بمعرفة أسرار جلال الله وجماله، وربأ بنفسه عن سفساف الأمور في سائر أحواله} هـ.[61/2] ثم صار يذكر أشياخه الذين أخذ عليهم حسبما سيأتي

[فنّ التوجيه بأسماء الكتب]

ولقد أطنب الشيخ الفضيلي في ترجمة شيخنا، بالتوجه بأسماء مصطلح عليها في فنّ الأصول، مما يشير إلى أنه انفرد بهذا الفن، واختص به، وهو صحيح. ولكن شيخنا، رحمه الله، هو كذلك في علم الفقه والنحو، والمعاني والبيان والفرائض.

والتوجيه من أنواع المحسنات البديعية، إذا لم يخرج به صاحبه عن السلاسة ورقة التعبير، كقول بعضهم في خطاب أصولي: الذي أظهر بمنهاج تحقيقه أسرار جمع الجوامع، وأمحل بتدقيقه همع الهوامع. وفي النحوي: الذي سكن الضمائر بما فتح من أسرار لسان العرب، والمغني للطلبة بتوضيح مسالكه عن مراجعة غيره من ذوي الأدب. وللغوي: الذي أقام فصيح كلامه على أقوى أساس محكم، وبين الصحاح من غيره بما لديه من قاموس الفهم وأحكم.

فخاطب الأصولي موجها لكتب في الأصول مشهورة؛ فـ"المنهاج" للبيضاوي، و"جمع الجوامع" لتاج الدين السبكي، و"همع الهوامع" شرح له. ووجه خطاب النحوي بالسكون والضمائر والفتح، و"المُغني"وهو اسم كتاب في النحو لابن هشام، وهو مشهور، و"التوضيح" وهو شرح له على "الألفية". ووجه خطاب اللغوي بأسماء كتب في اللغة وهو: "الفصيح" لـ[ثعلب] و"أساس البلاغة" للزمخشري، و"المُحكم" لابن سيدة، و"الصّحاح" للجوهري، و"القاموس" للزبيدي.

وممّا اتفق لنا في هذا الموضوع، ما كنت أنشأته في أول خطبة شرحنا "التحفة" ابن عاصم، المسمى بـ"الروض الباسم"، إذ قلت :

الحمد لله الذي جعل الحكم بالعدل من أفضل الأعمال، والإشراف على إرشاد الأمة نهاية للمقصد المحمود، ومفيداً لإكمال الآمال، كما جعل تعلم الفقه تحفة للطالبين، وتبصرة لقلوب القاصرين، ومعياراً لنباهة النابغين، وعملا جامعاً بين مصالح الدنيا ومقاصد الدين، نحمده ونشكره على مواهبه الجليلة، ومننه الواسعة الجميلة، ونستعينه، وهو المعين، على كل عمل اقتحمناه .. الخ.

وهكذا استمررت في هذا الفن إلى آخر الخطبة. وكلها توجيه بأسماء المؤلفات الفقهية؛ كـ"الإشراف"، و"الإرشاد"، و"النهاية"، و"المقصد المحمود"، و"المفيد"، و"الإكمال"، و"التحفة"، و"التبصرة"، و"المعيار"، و"الجامع"، و"المواهب"، و"المِنَن"، و"المُعين". واتسق في ذلك التعبير دون تكلف ولا تعقيد.

----

## [رجوع إلى ترجمة الشيخ ابن الخياط، وذكر شيـوخه في علمي الظاهر والباطـن]

ثم نرجع إلى ترجمة شيخنا ابن الخياط، فنقول: أخذ شيخنا عن علماء أجلة، وفقهاء هم في سماء الفقه أهلة. وذكر جماعة كثيرة في "فهرسته"، فقال:

{أول شيوخي والدي، رحمه الله تعالى، وغفر لي وله وللمسلمين. فقد أدبني في صغري، بل وبعد كبري. وعلمني كيفية الوضوء والصلاة، ونحو ذلك، وأخذت عنه أذكارا وأورادا، وحزب البحر للإمام الشاذلي، رضي الله عنه، وحزب الإمام النووي، وغير ذلك. كان، رحمه الله، من أهل الدين والخير، عالما فاضلا مشتغلا بما يعنيه، مقبلا على شأنه، شاغلا نفسه بطاعة الله، وذكر الله، و"دلائل الخيرات"، ونوافل الصلاة، وقراءة العلم، وملازمة قراءة الحديث في رجب وشعبان ورمضان}.

ثم ذكر له، رحمه الله، مرائي رأى فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك، مما يدل على صلاحه وفضله. ثم ذكر نسبه، كما سبق، إلى أن أوصله للقاسم ابن المولى إدريس. ثم قال بعد ذلك:

{ ثم قرأت "القرآن"، كتاب الله عز وجل العزيز، على عدة شيوخ. وعمدتي فيه شيخنا الشريف الأجل، الأستاذ المسن الأفضل، أبو العباس، سيدي أحمد بن سيدي محمد العلمي الموسوي، المدعو الفلاق، من آل يوسف الفلاق، دفين جبل كورت من المغرب، وأصله من شرفاء سماتة}. قال:

{ أخذت عنه، رحمه الله، قراءة نافع برواية ورش، ورواية قالون، وقراءة المكي برواية قنبل، ورواية البزي، إلا سورة الأنبياء، وسورة سبأ، وما بينهما؛ فلم أقرأ ذلك بقراءة المكي، بل قراءة ورش وقالون فقط. ثم اشتغلت بقراءة العلم}.

ثم ذكر شيخنا في "فهرسته" فوائد، من عزائم وأذكار، وخواص آيات تذكر في الرُّقى، كما أتى بذكر اسمه اللطيف، وما للعلماء في ذلك من أعداد مختلفة، وخواص بينة يدفع بها البلاء، ويستشفى بها من أنواع الأمراض. وسنأتي ببعضها عند التعرض لذكر الفوائد المنقولة عن هذا الشيخ المبارك". ثم قال بعد أوراق كثيرة:

{ ولنرجع إلى المقصود بهذا التقييد بالأصالة، وهو ذكر شيوخنا، رحمهم الله تعالى، ونفعنا بهم آمين، فأقول: وأخذت ما أخذته من علم التجويد عن الأستاذ المجوّد، الشريف الفقيه البركة، الزاهد الخامل، أبي الحسن، سيدي علي الحسني الداودي الفاسي}.

ثم جاء بسند شيخه إلى نافع المقرئ، عن سبعين من التابعين، عن أبي هريرة وابن عباس، عن زيد بن ثابت، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن سيدنا جبريل، عليه السلام، عن المولى جل جلاله، ثم قال:

{ وأروي صحيح الإمام علم المحدثين، ورأس الحفاظ المتقنين، حجة العلماء الجهابذة الراسخين، زين الأمة المحمدية، أمير المؤمنين في الآثار النبوية، وإمامهم في الصناعة الحديثية، أبي عبد الله، سيدي محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف ابن برد زبة الجعفي، مولاهم، البخاري بلدا، الفارسي منشأ، رضي الله عنه، عن عدة شيوخ، منهم شيخنا الشريف الجليل الماجد الأصيل، الفقيه النوازلي العلامة المحدث، المسن البركة، الصالح المتواضع، قاضي مدغرة، أبو عبد الله سيدي محمد الصديق بن مولاي الهاشمي العلوي المدغري، أنشدني، رحمه الله، عند أول اجتماعي به، وهو في السماء، وأنا في الأرض، قول القائل} :

بيني وبينك في المحبـة نسبة　　مكنونـة في طي هـذا العـالم

نحن الذين تعـارفت أرواحنا　　من قبـل خلـق الله طينـة آدم

قال:{وأجازني إجازة واسعة عامة. ومنهم شيخنا العلامة، المحقق الأصولي المحدث، محقق أهل المغرب، وشيخ الجماعة، الذاكر البركة المسن، أبو العباس، سيدي أحمد بن أحمد بناني، وقد أجازني إجازة عامة. ومنهم شيخنا وعمدتنا، الفقيه العلامة، المحدث المشارك الفهامة النفاعة، شيخ الجماعة، أبو عبد الله، سيدي الحاج محمد ابن المسن البركة، السيد الحاج المدني كنون. ومنهم الفقيه البركة، سيدي محمد بناني المراكشي، وقد أجازني إجازة مطلقة شاملة عامة أيضا. ومنهم العلامة المشارك، سيدي الحاج صالح التادلي، الآتي ذكره، وقد أجازني إجازة عامة أيضا. ومنهم الفقيه العلامة المحدث المشارك، الشريف النقيب، مولاي عبد الله ابن الشيخ الإمام سيدي إدريس الودغيري الحسني، وقد أجازني إجازة مطلقة شاملة، عامة تامة أيضا. ومنهم الفقيه

العلامة المشارك الفهامة، ذو التآليف العديدة، والحواشي المحررة النافعة المفيدة، المؤرخ الأديب، اللوذعي الأريب، ذو الأخلاق الجميلة والأوصاف، وسلامة الصدر وترك سبيل الاعتساف، المسن أبوالعباس، سيدي أحمد ابن العلامة سيدي محمد ابن الحاج السلمي، أجازني فيها، رحمه الله، وفي غيرها إجازة تامة شاملة، مطلقة عامة. وهو، رحمه الله، أخذ عن أئمة أعلام، طالعين في سماء العلوم طلوع بدر التمام}. وذكر منهم الشيخ الحراق، فقال فيه:

{ومنهم الفقيه العلامة، شيخ الطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، العارف بالله الصمداني، سيدي محمد الحراق الحسني. أخذ عنه التفسير}. ثم قال شيخنا:

{وأخذت "صحيح" البخاري أيضا عن جماعة من أهل العلم، غير المذكورين}.

ثم صار شيخنا، رحمه الله، يذكر طرق روايات أشياخه الذين روى عنهم "صحيح" البخاري، ووصلها بالإمام البخاري. ثم ذكر شيخنا، رحمه الله، روايته باقي الكتب الستة عن شيخه بناني. ثم صار يذكر شيوخه الباقين شيخا فشيخا، وما قرأ عليهم من الفنون المختلفة، كشيخ الجماعة بفاس، سيدي محمد بن عبد الرحمان، والشيخ مولاي عبد المالك العلوي، وأبي جعفر ابن سودة، وأبي عيسى المهدي ابن سودة، والقاضي أبي عبد الله العلوي، وأبي القاسم القادري، وأبي عبد الله بن الطيب ابن كيران، والفقيه المرنيسي، وغيرهم من مشاهير علماء عصره. هذا ما ذكره في شيوخه الذين أخذ عنهم علم الظاهر.

وأما علم الباطن، الذي ليلاه فيه تجلت، وجواهره الثمينة همته بها تحلت، فإنه أخذه عن شيوخ ألقت ما في قلبها من زهرة الدنيا وعن عرضها الفاني تخلت، وأذنت لربها وبذكره اشتغلت، والى حضرته ارتحلت، فقد قال في "الفهرسة":

{وأخذت الطريق الشاذلية، و"حِكَم" ابن عطاء الله، وبعض ما يتعلق بها، عن شيخنا ولي الله تعالى، المحب لله ولرسول الله، صلى الله عليه وسلم، العارف بالله، أبي العباس، سيدي الحاج أحمد ابن السيد الحاج محمد ربيع الأندلسي، وعن شيخه وشيخنا العارف بالله، أبي محمد، سيدي عبد الواحد ابن السيد الحاج البدوي بناني، من آل الشيخ الإمام سيدي محمد بن عبد السلام بناني النفزي، شارح "الاكتفاء"، وصاحب الضريح بحومة الصاغة من فاس، دفع الله عنها كل بأس. فمما أخذت عنهما، ورد الطريقة، وهي

مائة من الاستغفار، بلفظ: أستغفر الله، ومائة من الصلاة، بلفظ: اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم، ومائة من الهيللة، بلفظ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير}.

{وأخذت عنهما أيضا ذكر الإسم المفرد، إسم الجلالة عموما، بشرط الطهارة الكاملة، بتشخيص حروفه قبالة عين البصيرة، فإنه أعون على جمعية القلب على الله، وخصوصا دبر كل صلاة بعد المعقبات، عدد حروفه وستة وستين، وذكر اسمه تعالى اللطيف عدد حروفه، بصيغة النداء: يا لطيف، مائة وتسعة وعشرين، على ما تقدم، والحسبلة؛ وكيفية ذكرها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (الَّذينَ قالَ لهُم النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قدْ جَمَعُوا لكُم فاخْشَوْهُم) إلى ( فَضْلٍ عَظِيم) مرة، (حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل) خمسين مرة، (وَإنْ يُرِيدُوا أنْ يَخْدَعُوكَ فَإنَّ حَسْبَكَ اللهُ) إلى (مَنِ اتبَعَكَ مِنَ المُومِنِين)، ثلاث مرات، (الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ) إلى (عَظِيم) مرة، (حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيل) مائة مرة، ثم كذلك إلى أربعمائة زيادة على الخمسين الأولى، وعند تمام المائة الرابعة تقرأ (وَإنْ يُرِيدُوا أنْ يَخْدَعُوكَ) إلى(المُؤْمِنِين) ثلاث مرات، ثم سورة الإخلاص 3، ثم سورة الفلق3، ثم سورة الناس3، ثم الفاتحة مرة، ثم صلاة الفاتح 3، ثم (سُبحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ) إلى السورة، مرة. ثم يقول: عزيز كافي، قوي لطيف، أربعمائة وخمسين مرة قبل الفاتحة. وهذا العدد هو عدد هذه الأسماء الأربعة. والله أعلم}.

{وسيدي عبد الواحد بناني، وسيدي ربيع المذكوران، أخذا عن الشيخ المربي، العارف المحبوب، أبي عبد الله، الشريف سيدي محمد ابن سيدي الغالي أيوب. وهو عن الشيخ المربي، العارف النوراني، أبي العباس، الشريف سيدي الحاج أحمد الغماري بن عبد المؤمن. وهو عن شيخ الشيوخ، العارف الأكمل، أبي عبد الله، مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي الحسني. وهو عن العارف الأكبر، مولاي علي العمراني، المعروف بالجمل} الخ. ساق شيخنا، رحمه الله، السند الدرقاوي إلى مولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حسبما سبق في الجزء الأول.

----

## [كلام في حقائق التصوف للشيخ بناني]

قال شيخنا:{ولشيخنا المذكور، العارف الرباني، المحقق الصمداني، أبي محمد، سيدي عبد الواحد بناني، أفاض الله عليه وعلى المسلمين سحائب الإحسان، في جنان الفردوس والعرفان والرضوان، كلام في الطريق رفيع، نظما ونثرا}. قال: { ومما كتب به إلى بعض إخوانه وأحبائه، ومن خطه نقلت}:

{ بسم الله الرحمان الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. إلى أخينا في الله، وودنا وصفينا حقا وصدقا، طالب مقامات الرجال، بالهمة والحال. حقق الله لك ذلك، ووصلك إلى ما هنالك، ويسر لك أمره، وجعلك من خواص أهله. وبعد}:

{أخي. الحذر الحذر من النفس وحظوظها. فلها في كل مقام حظ، وحظها في البسط أقوى وأشد. وفي البسط زلت أقدام الرجال، لأن القبض لا حظ للنفس فيه. ويا أخي، الحذر الحذر من إظهار العلم قبل إبانه، أو الحال قبل تمكنه وقراره، والتداني قبل وقته وأوانه. وقِف على البساط، وإياك والانبساط. قال بعض العارفين: فتح علي يوما في البسط، فزللت زلة، فحجبت عن مقامي ثلاثين سنة. وكن كما قال طالب الأدب}:

وقفت بالباب ولازمت الأعتاب وقلت للبواب هل ترى وصلا
قال لا يا صاحْ مهرها الأرواحْ كم عاشق راحْ يعشق القتلى

{قال أبو المواهب: خمرة الذوق تكشف معنى اللطافة، وتمحق الكآبة. كؤوسها المعاني، وحانها حضرة الداني، ودنها العارف، وندماؤها المعارف، وخلاّعها العقلاء، وجلاّسها النبلاء. تقلب الأعيان، وتمشي المقعد، وتبصر الأعمى، وتنطق الأخرس، وتروي الظمآن وتحيي الميت بعد اليأس}:

ومُقعد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سقيناه ثلاثا فأبصرا
وآخر لم ينطق ثمانين حجة أدرنا عليه الكأس يوما فأبصرا
وآخر بين الناس لا يعرفونه سقي قطرة من خمرنا فتبخترا
وميت دعا الساقي به فأجابه وسبح للحصباء طوعا وكبرا
ولو عاين الرهبان سرعة بعثه لدلوا له مثل المسيح وأكثرا

فخمرتنا التقوى، وعاصرها الهوى     وما عصرت في دن كسرى وقيصرا

{هـ. وحاصله، دُم على الذكر مع الحضور والأوراد، واطلب المزيد، والقناعة من الله حرمان. وإياك والوقوف، لئلا تغيب المعاني وتبقى الظروف، من لم يكن في زيادة، فهو في نقصان، وصن السر، وغض الأمر عن كل أحد. واستعن من البلد بأهله، وعلى الفن بأربابه. وإياك أن تجني الثمر قبل الإبان، فتفوز بالحرمان. نعوذ بالله من الخذلان. واطلب ما عند الله،(ومَا عِندَ اللهِ خَيرٌ وأبقَى)، لأن إظهار الحال للناس، قبل التمكن هو من الإفلاس. وعمّر أوقاتك بذكر الله، ولاحظ الأنفاس أن تميل للسّوى. ولا تسامحها باللحظات، واستعن بقولك باطنا: أعوذ بالله، من كل ما يشغلنا عن الله. وإياك أن تقنع بالحضور، ورفع الستور. وخُض بحر الفناء، في مركب النجاة، وإياك أن تحجب بالأسماء والصفات، عن شهود الذات. فليس كل من وصل حصّل، ولا كل من حصّل فصّل. وليس كل من ذاق شرب، ولا كل من شرب روي، ولا كل من روي صحا، ولا كل من صحا صحّى. أعاذنا الله من السلب بعد العطا، ورزقنا الثبات في بابه، والتعلق بأهل وده وخطابه، حتى يكون لنا الحظ الأوفر من الغيبة عن وجودنا، والبقاء بربنا. والسلام}. هـ[من "فهرسة" الشيخ ابن الخياط].

وما نقل شيخنا، رضي الله عنه، هذه الرسالة عن خط شيخه، إلا لما فيها من الحقائق العرفانية، والرقائق التي تروق أهل القولة في الحضرة الإلهية. وشيخنا ابن الخياط، رضي الله عنه، إليهم ينتسب، وبهداهم يقتدي، وعلى مناهجهم يسير، فقد كان آثر التجريد، ورفض الأسباب، وفر من الدنيا فرار الآبق، وفر من كل مخالف من الناس وموافق، ولبس الدون من الثياب، وصار يسأل الناس في الأسواق والأبواب، واتبع ما رسمه في ذلك الشيخ الأكبر، شيخ طريقته الدرقاوية، مولاي العربي، رضي الله عنه، إذ قال:

{والتجريد ينحصر في أربعة مسائل: في الفرار من الدنيا، والفرار من الناس، وإهمال الجسد، وإهمال البطن، فلا يعبأ بهما المتجرد كالناس، بل ولاشك أن الصدق يحمل صاحبه على أن يظهر للناس ما يكرهون منه.} إلى أن قال: {إذ لاشيء أحب إلى أهل الصدق من الأسباب التي تسقطهم من أعين الناس. فهذا دأبهم وهذا حالهم. ولاشك أن الأحوال التي ذكرنا، هي نُسكٌ عندنا، وسيئات عند غيرنا.}هـ.[الرسائل: ص46].

## [طريق الشيخ ابن الخياط في التجريد، وامتحانه من أجله]

وكذلك كان الأمر لما تظاهر شيخنا بهذه الحالة المردية عند الناس، وتزدريه بها أعين المحافظين على العوائد من العام والخاص، إذ يرون فيه أنه أحد الأعلام الذين يجب عليهم تبليغ ما حملوه من قواعد دين الإسلام، وانتصابهم للإرشاد، في كل مجلس وناد. وهذه الحالة تخل بمنصبهم العلمي، وتجرد مقامهم من نفع العباد الذي إليه علمهم يرمي. وآل ذلك الإنكار إلى امتحان شيخنا، رضي الله عنه، بالسجن، هو ورفيقه في التجريد، العالم الصالح، أبو عبد الله ابن إبراهيم. وكان ذلك أيام القاضي أبي حفص الرندة. ولم يزالا في السجن إلى أن مات القاضي المذكور، فأفرج عنهما. ولكن ذلك لم يصرفهما عن توجههما، ولم يؤخرهما عن حال تجريدهما، واستمرا على ذلك حينا. أما ابن إبراهيم، فلم يبرح عن حاله.

وأما شيخنا، فإنه رجع إلى مقامه العلمي، وآثر الإقامة في الأسباب الظاهرة، مع التجريد الباطني، إذ أداه اجتهاده أن رأى أن خير الأمور الوسط، إذ أخذ من الطرفين. أخذ من طرف التجريد تجريد القلب مما سوى الله، ومن الظاهر التصدي للتبليغ بمقتضى ما تتطلبه الوراثة العلمية من مقام الرسالة؛ فأفاد، رحمه الله، العباد، وأخذ عنه الناس أفواجا، حتى أنه لم يبق أحد ممن ينتمي إلى العلم في مغربنا إلا وأخذ عنه، إلاّ النادر، وانتفع بعلمه فيما أدركنا.

ولا يخفى أن شيخنا المذكور، وإن تخلى عن التجريد، بقيت آثاره عليه، إذ لم يكن، رضي الله عنه، يتأنق في ملبسه، ولا يتزين بالملابس الفاخرة، بل يميل في الغالب إلى الدون من الملبس، ولا يمشي في الأرض مرحا، ولا يبغي علوا ولا يميل للترفع. بل شأنه التواضع وخفض الجناح للكبير والصغير. ولا يخفى أن شيخنا له المقام العالي في علم التصوف، وهو الخبير بتلك المقامات، والمتحقق في معانيها ودقائقها. وتعلّم أن من علامة الإذن في مقاصد الله، تيسره عليه وإدامته، وحصول ثمرته. وتعلم قول"الحِكم": {من علامة إقامة الحق لك في الشيء، إدامته إياك فيه، مع حصول النتائج}.

وفي "التنوير" لابن عطاء الله، حسبما نقله الشيخ ابن عباد، قال بعضهم:

{تركت السبب كذا كذا مرة، فعدت إليه. ثم تركني السبب، فلم أعد إليه}. قال:

{ودخلت على الشيخ، رضي الله عنه - يعني أبا العباس المرسي - وفي نفسي العزم على التجريد، قائلا في نفسي: إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة، بعيد من الاشتغال بالعلوم الظاهرة، ووجود المخالطة للناس. فقال لي، من غير أن أسأله: صحبني إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة، ومتصدر فيها، فذاق من هذه الطريق شيئا، فجاء إلي فقال: يا سيدي، أخرج عما أنا فيه، وأتجرد لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا. ولكن امكث فيما أنت فيه. وما قسم الله لك على أيدينا، فهو إليك واصل. ثم قال الشيخ، ونظر إلي: وهكذا شأن الصديقين؛ لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم. فخرجت من عنده، وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى. ولكنهم، كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم."} هـ كلام ابن عطاء الله في"التنوير"، بنقل العارف ابن عباد[في شرحه للحكَم: ص5].

وهنا تذكرت ما كنتُ قرأته في وصايا "فتوحات" محيي الدين، قدس سره:

{والذي أوصيك به إذا فتح الله عين بصيرتك، ورزقك الرجوع إليه المسمى توبة، فانظر إلى أي حالة أنت عليها من الخير؛ لا تزل عنها. إن كنت واليا، اثبت على ولايتك. وإن كنت عزبا، اثبت على ذلك. وإن كنت ذا زوجة، فلا تطلق. واثبت على ذلك مع أهلك، واشرع بالعمل بتقوى الله في الحالة التي أنت عليها من الخير، كانت ما كانت، فإن لله في كل حال باب قربة إليه تعالى، فاقرع ذلك الباب يفتح لك. ولا تحرم نفسك خيره}هـ[476/4].

----

### [التجريد وتفسيره من طرفي الشيخ ابن عجيبة، والشيخ الحرَّاق]

وإلى مسألة التجريد، أشار صاحب "الحكَم" بقوله: {إرادتك التجريد، مع إقامة الله إياك في الأسباب، من الشهوة الخفية. وإرادتك الأسباب، مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العلية.}.

وهنا قسّم شراحها، أي "الحِكم"، التجريد إلى ثلاثة أقسام؛ تجريد الظاهر فقط، أو الباطن فقط، أو هما معا. قال الشيخ ابن عجيبة:

{فتجريد الظاهر، هو ترك الأسباب الدنيوية، وخرق العوائد الجسمانية. والتجريد الباطني، هو ترك العلائق النفسانية، والعوائق الوهمية. وتجريدهما معا، هو ترك العلائق الباطنية، والعوائد الجثمانية.} ثم قال:

{والتجريد الكامل في الظاهر؛ هو ترك الأسباب، وتعرية البدن من معتاد الثياب، وفي الباطن؛ هو تجريد القلب من كل وصف ذميم، وتحليته بكل وصف كريم، وهو أي التجريد الكامل الذي أشار إليه شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمان المجذوب بقوله:

أقاريينْ علم التوحيدْ هنا البحور اللّي تغبي

هذا مقام أهل التجريدْ الواقفيـــن مـع ربـّي

قال: { وأما من جرد ظاهره دون باطنه، فهو كذاب} هـ[شرح الحكَم لابن عجيبة: ص13].

وقد شرح الشيخ الحراق كلام الشيخ المجذوب بقوله:

{وذلك، والله أعلم، لأن بحور أهل التفريد، تغبي وتغيب جميع ما عليه أهل التوحيد من الدليل والبرهان، لأن هذا التجريد يصير الدليل عين المدلول. وقد كان الله ولاشيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، بشهود ذي العرش المجيد. ولا يتأتى ذلك إلا بهذا النوع من التجريد، ولذلك قال:

هذا مقام أهل التجريد الواقفين مع ربّي

لا مع شيء سواه.}هـ[من القطعة الموجودة من "شرح الحِكم"، ضمن مخطوطة النور اللامع: ص160].

ولقد مال الشيخ ابن عجيبة إلى ترجيح القسم الأول، وهو تجريد الظاهر والباطن، بل إلى جعله هو التجريد الحقيقي. وكان أن رفض حتى تجريد الباطن فقط، إذ قال فيه:

{ومن جرد باطنه دون ظاهره، إن تأتى ذلك، فهو حسن، كمن كسا الفضة بالنحاس، وهو قليل، إذ الغالب أن تسبب ظاهره، تسبب باطنه. ومن اشتغل ظاهره بالحس، اشتغل باطنه به. والقوة لا تكون في الجهتين}. هـ[شرح الحِكَم: ص13].

فمقتضى كلامه، رحمه الله، أن المعتبر هو التجريد الكامل، وهو رفض الأسباب، والتعلق برب الأرباب، والتخلي عن الزينة ولبس المرقعات من الثياب، والتعرض لازدراء أعين الكبراء، والمتشبثين بالعادات من أهل الألباب.

أما الشيخ الحرّاق، فقد تلطف وجعل أعلى الأقسام - كما هو محل اتفاق عند أهل التصوف - التجريد ظاهرا وباطنا، ويليه تجريد الباطن. وأما تجريد الظاهر فقط، فجعله لا يعتبر إلا من حيث كونه وسيلة لتجريد الباطن، ولفظه:

{القسم الثالث: تجريد الظاهر والباطن جميعا. وهو تجريد الظاهر من كل ما يشغل عن عبادة الله، وتجريد الباطن من كل ما يشغل عن الحضور مع الله. وهذا أعلى أقسام التجريد عند أهل الفن. ثم يليه تجريد الباطن. وأما تجريد الظاهر دون الباطن، فلا يعتبر عندهم أصلا، إلا من حيث إنه وسيلة لتجريد الباطن.} هـ. من القطعة الموجودة من "شرحه" للحِكَم .[مجلد: 2050 . ص160].

---

وعلى وجه الإجمال، فحال الشيخين مختلفة. وكل نطق بما يقتضيه حاله؛ فحال الشيخ ابن عجيبة، هو التجريد الكلي ظاهرا وباطنا، وتخريب الظاهر، وتعمير الباطن، ولبس المرقعات، والتسول في الطرقات، ومخالفة العادات. وبه نطق، وبه حاله اتَّسق.

وحال الشيخ الحراق، مجاراة العوائد، مع ترك ما يشغل عن عبادة الله، وتجريد القلب عن ما يشغل عن الحضور مع الله، تابعا لمقتضى قوله تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ)، جاريا على ما تقتضيه الآداب الشرعية، وسيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في أقواله وأفعاله المرضية، كما في قوله، رضي الله عنه، في التائية:

إذا شئت أن تلقى السعادة والمنّى ... وتبلغ ما عنه الرجال تولتِ
فطهِّر بماء الذكر قلبك جاهدا ... بصدق اللّجَ، واغسله من كل زلةِ
ومكِّن بكف الشرع أمرك كله ... فدونك إن لم تفعل الباب سدتِ

فلم يكن من شأن الشيخ في تربيته تخريب الظاهر، ولا رغب أصحابه في لبس المرقعات، والتسول في الطرقات. بل كان في أصحابه من يتزيّى باللباس الحسن، وفيهم من

رضي بالدون من اللباس. وكانت سيماهم إظهار نعم الله عليهم، وهجيراهم حمد الله وشكره عليها، ويقولون: إن ثياب الدون والمرقعات، تقول بلسان حالها أعطوني، ولباس الزينة يقول: الحمد لله. كذا أدركنا عليه عمل من ينتمي للشيخ الحراق، كوالدنا وغيره. وهو معنى ما نقل عن إمام الطريقة، أبي الحسن الشاذلي، رضي الله عنه. قاله لذي لباس رث أنكر عليه جمال هيأته: يا هذا. هيأتي هذه تقول: الحمد لله، وهيأتك هذه تقول: أعطوني من دنياكم شيئا لله.

وقد تقدم كل هذا مستوفى في ترجمة الشيخ ابن عجيبة في الجزء الأول. وكان الأولى الاكتفاء بذلك، وعدم الإعادة. ولكن جرنا إلى إثبات ما ذكرنا، تجريد شيخنا المترجم، وما وقع له من الرجوع إلى الأسباب. وذلك لا يخلو عن زيادة فوائد لم تذكر فيما سبق. وقد أشرنا هنالك إلى أننا جمعنا ثمّ في الموضوع مالا تجده مجموعا في كتاب. والكل من عند الله.

* * *

[مواصلة ترجمة الشيخ ابن الخياط]

وأرجع الآن إلى ترجمة شيخنا ابن الخياط، فأقول:

كان شيخنا المذكور عين المغرب، ولسانه الذي ينطق فيه بدقائق المعارف ويعرب، عماد فقهائه، وصدرا في مجالس علمائه، جامعا لأدوات العلوم الشرعية، فائزا في سهامها بالأقداح العلية، آخذا بأطرافها القوية. فله الرتبة الكبرى في الفتوى، والمكانة المكينة في الأصلين يعتصم فيهما بجانب التحقيق الأقوى. ويدع "المحصل" إلى ورا، و"المحصول" لدى تحصيله لا يروى. وهو في المعاني والبيان، مبرز في الميدان، تجد لدى دروسه من مسائله"المختصر"و"المطول"، وتلقى عنده في علم الإعراب والنحو كل مجمل كا"لمفصل". أما علم الفرائض، فهو فيه البحر الفائض، وهو المنقاد في عنانه إذا استصعب على كل رابض.

وبالجملة، فشيخنا كان وحيد دهره، وفريد عصره. جمع صحة الديانة، إلى صدق الإنابة، وتواضع في رفعة، وخفض جناح في جلالة، وتحقق في تصوف، وحماية شريعة،

في رعاية حقيقة. وقد تقدم أنه، رحمه الله، أخذ الطريق الشاذلية الدرقاوية عن الشيخ سيدي عبد الواحد بناني، وعن سيدي أحمد ربيع الأندلسي. وهما أخذا عن الشيخ المربي سيدي محمد أيوب. وهو أخذ عن الشيخ المربي سيدي أحمد بن عبد المومن. وهو أخذ عن شيخ الطريقة مولاي العربي الدرقاوي، كما سبق مفصلا.

### [لماذا لم يأخذ الشيخ ابن الخياط عن الشيخ الحرَّاق؟]

فشيخنا بينه وبين مولاي العربي ثلاثة رجال: الشيخ بناني، أو الشيخ ربيع، والشيخ أيوب، والشيخ ابن عبد المومن. وكان يمر بخاطري أن شيخنا لو كان أخذ عن الشيخ الحراق، لكانت الواسطة بينه وبين مولاي العربي رجلا واحدا، ولكان سنده إليه غالبا لاجتماعهما في زمن الحياة، ولكن بعد مراجعة تاريخ مولد شيخنا ووفاة الشيخ، ألفيت أن سن شيخنا أيام ظهور الشيخ الحراق، لم يكن قابلا للأخذ والتلقي، إذ ولادة شيخنا كان سنة1252،أي اثنين وخمسين ومائتين وألف، ووفاة الشيخ كانت سنة1261، أي واحد وستين ومائتين وألف، فيكون سن شيخنا إذ مات الشيخ الحراق، تسع سنين . وهذا زمان لا يمكن فيه الأخذ، إذ هو زمان الصبا.

نعم. كان شيخنا ابن الخياط يعظم قدر الشيخ الحراق، وينوه بذكره، وربما فيما بلغني أنه كان يساويه بابن الفارض أو يفضله؛ فقد قيل إنه ذكر يوماً بمجلس شيخنا كلام الشيخ الحراق، فقال بعض الحاضرين: إن هذا المشرب مشرب فارضي، أو نحو هذا الكلام. فقال شيخنا ابن الخياط: ولم لا يقال العكس؟.

وشيخنا قد أخذ عن تلاميذ الشيخ الحراق، كأبي عيسى ابن سودة، وأبي العباس ابن الحاج. ففي "الفهرسة" في ذكر من أخذ عنهم شيخه ابن الحاج المذكور:

{ ومنهم الفقيه العلامة، شيخ الطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، العارف بالله الصمداني، سيدي محمد الحراق الحسني، أخذ عنه التفسير} هـ[ص74].

ولقد أنصف شيخنا، على عادته من تنزيل أهل العلم منازلهم، وإعطاء أهل الله الذاكرين الله من التعظيم حقوقهم. والشيخ الحراق حقيق بكل مدح وثناء، وأن تتحلى بجواهر محاسنه لبات الأوراق.

---

### [ ترجمة الشيخ الحرّاق
### من خلال ما كتبه تلميذه الصادق العلامة محمد بن العربي]

وبهذه المناسبة، أعيد ذكره في هذا الباب، وإن سبق في حقه ما راق وطاب، إذ ترجمته تقتضي مجاوزة حدود الإطناب، لما يستدعيه مقامه الأعلى من الإعادة والتكرار، إذ المكرر من أحاديث أولياء الله ألذ وأحلى. ألا بذكرهم تتنزل الرحمات، وتنجلي بنشر أحوالهم ما ضمته الخواطر من الكربات.

اذكر حديث الصالحين وسمّهم  فبذكرهم تتنزل الرحمات

هذا، وإن الشيخ الحراق، رضي الله عنه، وإن كان شرّف مدينة تطوان بسكناه في حياته، وطابت تربتها بمواراة ذاته الطيبة بعد وفاته، لم يقم أهلها بحقه الواجب في نشر شيمه المرضية، ولا تصدى عالم منها لجمع شمائله الحميدة السنية. فوقع له، رضي الله عنه، ما وقع لعمه مولانا عبد السلام، إذ غاص نوره ـ كما قالوا ـ في جبل العلم، وتفجر بالأسكندرية، أي بتلميذه أبي الحسن الشاذلي.

فكذلك الشيخ غاصت أعظمه بتربة تطوان، وأشرق نور أسراره وشيمه بفاس، بتلاميذه الشيوخ السادات السوديين، كما سبق، وبالرباط بتلميذه الصادق، ولسان طريقه الناطق، العلامة الأديب، المطلع الخبير، السيد الحاج محمد بن العربي، الرباطي دارا، الدلائي نجارا.

فإنه تصدى، رحمه الله، لجمع مؤلف في ترجمته ورسائله، وحكمه وتقاييده وقصائده، وشروحه لبعض كلام العارفين. وقد افتتح ترجمته بقوله:

{ وبعد، فإن معرفة المشايخ، أول واجب في طريقة القوم، وذكر شمائلهم، والتنويه بشأنهم، من علامة محبتهم، أمر مقرر معلوم. فهذا تقييد شيء من بعض بعض ذلك في جانب شيخنا العلامة، القدوة الفهامة، مصباح الظلام، وحجة الإسلام، شيخ الطريقة،

ولسان الحقيقة، شريف النسبتين، ومفتي المذهبين، الشريف الحسني، القطب الرباني، أبي عبد الله، سيدي ومولاي محمد بن محمد الحراق إبن عبد الواحد}.

ثم ساق نسبه إلى سيدي موسى بن مشيش، أي مولانا عبد السلام. ثم وصله إلى سيدي محمد بن إدريس، ثم إلى مولانا الحسن ابن سيدنا علي، ومولاتنا فاطمة، بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم قال:

{كان هذا الشيخ، رضي الله عنه، إماما جليل القدر، متضلعا في علم الظاهر؛ انتهت إليه فيه الرياسة، مشاركا في أنواعه من تفسير وحديث، وفقه وفتوى، ومعقول بجميع فنونه. وأما الأدب والشعر، فكاد أن ينفرد به في عصره. قد شهد له بذلك كل من عاصره أو خالطه، أو وقف على كلامه. وقد قال مولانا علي، كرم الله وجهه: المرء مخبوء تحت لسانه، تكلموا تعرفوا. وقال التاج ابن عطاء الله: كل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذي منه برز. ولما أخذ من علم الظاهر الحظ الأوفر، أكمل الله عليه نعمه بعلم الباطن ليكون رحمة في البلاد، وقدوة للعباد، فكان، رضي الله عنه، سراجا وهاجا، وسحاب الرحمة بمياه العلوم ثجاجا. وقد قال سيدي يوسف الفاسي: إذا أراد الله أن ينفع عباده بأحد من خواص خلقه، أغفله علم الباطن في ابتداء أمره، حتى يتغلغل في علم الظاهر، ثم يرده لعلم الباطن وطريقة القوم. ولقد كان هذا الإمام، رضي الله عنه، أوحد أهل زمانه في علم الباطن أيضا. وقد حرر طريقة القوم بين شريعة وحقيقة، حتى سهلها للسالك، ونهجها في أوضح المسالك، وأتى فيها بالعجب العجاب من علم الإشارة، بألطف بيان وأوجز عبارة، وكشف غوامض من إشارات القوم، وحل رموز ما ليس بمعلوم، وأسس طريقه على أربع قواعد: ذكر ومذاكرة، وعلم ومحبة. وكان يحض على كثرة الذكر غاية، ويقول: ما رأيت أنفع لقلب المتوجه الصادق من ذكر الله. وكان، رضي الله عنه، يقول: إني ربحت من باب الفضل فلا أدل إلا عليه. وما من شيخ إلا ولا يدل إلا على السبيل الذي مر عليه، ولا يوصل إلا للمقام الذي انتهى إليه، لأنهم، رضي الله عنهم، أهل حق وصدق. وما رأينا أجود منه بالعلوم والأحوال، حتى إنه يغني من لقيه من حينه، إن يسر الله عليه. وكان مؤهلا لما أكرمه الله به، من كثرة العلم، وسعة الصدر، وحسن العبارة، وشدة التحصيل، مع ما توجه الله به من مكارم الأخلاق، وتواضع وتنزل مع عامة المسلمين، حتى إن جليسه لا يمل مجلسه أبدا، ويود أن

لو استغرق فيه يومه وليله، بل عمره كله، لما يجد فيه من علوم وأذواق، وأحوال وأشواق، وحضور بين يدي الكريم الخلاق. ومع شدة تواضعه وتنزله، قد كساه الله من الحسن والإجلال، والمهابة والإقبال، ما لا يستطيع أحد أن يطيل النظر إليه. بل كان من أصحابه من لا يستطيع أن يرفع طرفه إليه. وقد قال الإمام ابن عطاء الله: إذا أراد الله أن يظهر أحدا من أوليائه، كساه كسوتي الجلال والجمال، للدفع والنفع، أو كلاما هذا معناه. وكان، رضي الله عنه، إذا أخذ في المذاكرة يكسوه حال عظيم، ويعلوه بهاء جسيم، وتحمر عيناه ويقوى ضياؤهما، حتى لا يستطيع أحد أن يطمح فيه النظر. وأخبرني بعض من حضر مجلسه، وهو يدرس "الحِكم" العطائية، أنه في بعض الأيام يغشى وجهه نور حتى لم يميز ذلك الجالس بين لحيته وعينيه، وشفتيه وأسحان وجهه. وكأنما هو دارة قمر، وما سمعنا ألين ولا أعذب ولا ألطف من عبارته حين التقرير، وكانت همته، رضي الله عنه، في جميع الأمور عالية. وكان يقول: إن الهمة العالية هي التي لم ترض بدون الله، إذ ليس وراء الله وراء. وكان، رضي الله عنه، متواضعا في لباسه، يلبس جبة الصوف وحائك الصوف الخشن، ويأكل ما تيسر من الطعام، مع ما كان عليه من الكرم مواساة وإعطاء وإكراما، حتى إن بعض ضعفاء الناس، من ثغر تطوان، وحاضرة فاس، كادت أن تكون عالة عليه، وكان يقول: الكلفة في الطريق، هي عبادتها الكبرى. ولا يزال العبد يتكلف حتى تسقط عنه الكلفة، وتصير ألفة. وكان، رضي الله عنه، يعطي عطاء الكرام؛ كاد أن لا يرد سائلا. وكان، رضي الله عنه، لين الجانب والعريكة، يُسيّد الناس على عمومهم في ندائه وخطابه، حتى كان ينادي الأمَة والوصيف بالسيادة. ومع ذلك، كان في الحق والصواب ذا عزم شديد، وحزم أكيد، لا يقبل رخصة من دون موجب شرعي، ويقول: اقتدوا بأهل الجد في جدهم، ولا تقتدوا بأهل الهزل في هزلهم. ويحب أهل الجد والاجتهاد ويثني عليهم، ويرغبهم في الازدياد، ويجمع همة المريد على الله، وينهاه عن الحظوظ والالتفات لسواه، ويقول: القلب محجوب عن النظرة، ولو بالالتفات لأدنى من ذرة}.

{وبالجملة، ذكر فضائله وشمائله وأحواله، يحتاج أن يفرد بالتأليف، وأن توضع في ديوان. ولسنا بصدد ذلك ولا من فرسان هذا الميدان، وإنما هي نقطة من بحر اقتبسناها تبركا} هـ.

هنا انتهى ما نقلناه في الجزء الأول من هذه "الفهرسة"، في ترجمة الشيخ عن تلميذه ابن العربي. ولكن لم يكن النقل من الأصل مباشرة، وإنما هو من تقييد عن الأصل. ثم إن الناقل قد قطع كلام ابن العربي، ولم يصله بما هو مرتبط بما قبله، وسنأتي بكلامه ونربط كلامه بما قبله.

---

وهنا قد ورد وارد، وعرضت بشارة أوجبت فصل الموضوع، وإدراج هذه البشارة هنا، لكونها تتصل بترجمة شيخنا ابن الخياط. وذلك أنه في ليلة هذا اليوم، وهو اليوم الرابع والعشرون من شهر رمضان المعظم، من عام 1385، رأيت شيخنا ابن الخياط المذكور، في هيأة حسنة، ووجه مسفر، ومحياه ضاحك مستبشر، وهو يدنيني منه، ويثني علي الثناء الجميل، ويصفني بأوصاف علمية، وأنا أسأل منه أن يزودني بالدعاء، وأقول له إن لي شرفا ورفعة بملاقاتكم. ومن جملة ما قال لي، أي بعد وصفه لي بصفات العلم: إني لابد أن أتكلم مع هؤلاء الناس في شأنك. يشير إلى إعطائي رتبة علمية، ولقبا عرفانيا، وهو يؤكد لي أنه يحبني كما أحبه، في عبارات وإشارات فهمت منها أن محبتي في جانبه، قد سبق بها الأزل، وأن حبي إياه وحبه لي ممتزج. وكأنه أشار إلى قول القائل :

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا جسدا

وهذا مأخوذ من قول السري السقطي: لا تصلح المحبة بين اثنين، حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا. هذا مضمن الرؤيا. وقد استيقظت فرحاً بها مستبشرا، آخذاً منها ولاية شيخنا ورضاه بما كنت أكتب في ترجمته. جعلها ربي حقا، ونفعنا به وبأمثاله.

---

ولنرجع إلى وصل كلام ابن العَرَبي [الرباطي] بما قبله، وهو قوله:

{ وإنما هي نقطة من بحر اقتبسناها، تبركا ومقدمة لما أردناه من ذكر نسبتنا إليه، ونسبته هو إلى مولاي العربي الدرقاوي، وسندهما متصلا إلى مولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووضع رسائله وحكمه وتقاييده على آي قرآنية، وأحاديث نبوية، وحل أقفال، وإزالة إشكال، في بعض إشارة الصوفية، وقصائده وشروحه على بعض كلام الأئمة، حسبما وجدناه وتلقيناه منه وأخذناه، بعد استقصاء ذلك والبحث عنه في مظانه. فأردنا

جمعه وترتيبه، ومناسبته وتبويبه، ليسهل استنساخه وحفظه، ويعلم قدره وحظه، وينتفع به من دخل في طريقته، أو كان معتنيا بالعلم الشريف من أهل محبته. والله المستعان، ومنه التوفيق وعليه التكلان، فنقول}:

{هو شيخنا، رضي الله عنه، وأستاذنا وسندنا ووسيلتنا إلى ربنا. قد أكرمنا الله تعالى بملاقاته، والأخذ عنه، والإذن منه، بمحض الفضل والكرم، من غير معاناة ولا خدمة، ولا تعب ولا مشقة، ولكن كما قال هو، رضي الله عنه:

فهي إن ترضا على حب لها تأتيه رغما على أنف لحى

وقال رضي الله عنه:

ثمن الوصول على الأحبة غالي متعذر في سائر الأحوال

لو أنفق الإنسان فيه روحه وجلائل الأموال والأعمال

ما نال منه بذاك أدنى ذرة إلا بمحض الجود والأفضال

[قال]: {وكان سبب ملاقاتي معه، رضي الله عنه، أن بعض العلماء العاملين، والصلحاء الواصلين، كنت آوي إليه، وكان يحبني، ويدلني على الخير ويحضني، فقال لي ذات يوم: يا ولدي، إني أريد أن أكرمك كرامة خاصة. فقلت: يا سيدي، أكرمك الله بكل خير. فدفع لي قصيدة الشيخ التانية التي أولها: "أتطلب ليلى وهي فيك تجلتِ". فكنت أطالعها وأذكرها أمامه، ويذاكرني في بعض معانيها، ويستعظمها الغاية، ويثني على قائلها فوق النهاية. فبقيت عندي أياما وأنا مولع بها، وقلبي منتشب بحب واضعها، إلى أن قدر الله سبحانه لقيه بحاضرة فاسز وذلك في شهر الله ربيع النبوي، سنة سبع وخمسين ومائتين وألف. فاجتمعت معه يوما في مجلس عند أحد العلماء بفاس من أصحابه، فأخذ بمجامع قلبي، فلم يسعني إلا أن حاولت ملاقاته، وتوسطت بواحد من أصحابه، وأتيت إليه إلى داره، رضي الله عنه، فاستأذنا عليه، فأذن لنا. فدخلنا، فجلست بين يديه متأدبا خاضعا، ومحبا خاشعا. فواجهني، رضي الله عنه، ببشاشة وإقبال، ومذاكرة وإزالة إشكال. وأطال المذاكرة معي نحو الثلاث ساعات. فكان من كرامته، رضي الله عنه، أن وعيت كل ما ذاكرني به، فتلقيت منه الإسم، وأكرمني، رضي الله عنه، غاية الإكرام.}هـ.

ثم استمر هذا التلميذ الصادق، يذكر ما جرى له مع الشيخ، إلى أن صرح له بأنه جعله رئيس الطائفة ببلده، وأذن له في إعطاء الأوراد العامة والخاصة والأسماء، ونشر كلامه وقصائده، ودرس ذلك، وإعطائه لمن يستحقه ويريده. ثم قال:

{ ثم هو، رضي الله عنه، أخذ الطريقة عن شيخ المشايخ، القطب الكبير، العارف بالله، ذي الأحوال السنية، والأخلاق المرضية، الولي الشهير، الشريف الغطريف، المستغني بشمائله عن التعريف، سيدي مولاي العربي الدرقاوي، رضي الله عنه، ونفعنا ببركاته آمين. وكان سبب أخذه عنه، أنه لما تغلغل في علم الظاهر والفتوى، وكانت له في ذلك الصولة الكبرى، والرتبة القصوى، فبنما هو في غاية ذلك، إذ حصل له مرض كبير، بسبب ما أصابه أو سمعه ممن كان يحسده من معاصريه. وكانت نفسه عالية، وهمته سنية، فمرض مرضا أشرف به على الموت. فلما اشتد به مرضه، قال: سبحان الله. ما فائدة هذا العلم والجاه الذي لا يوصل صاحبه إلى الله، ولا يعرفه بمولاه؟ والله لئن عافاني الله، لأدخلن في طريقة القوم، ولألجأن إلى باب الكريم، آناء الليل وأطراف اليوم، عسى أن يمنحني بالعلم النافع، والفتح الواسع. فلما عافاه الله، سبحانه وتعالى، أتى إليه طلبة العلم بتطوان، على عادتهم، لأن يقرأ معهم علم الظاهر، فقال: لا، إلا أن نقدم شيئا من علم القوم. فطلبوا منه "الحِكم" العطائية. فقال: نعما هيّه. فشرع في تدريسها في الزاوية الدرقاوية. فكان يحضر مجلسه العلماء وأعيان الفقراء. فاتفق في تلك الأيام أن ورد الشيخ مولانا العربي لزيارة تلميذه الولي الفرد، سيدي محمد البوزيدي، بقبيلة غمارة. فلما كان بها، أرسل بعض الفقراء إلى تطوان، وأرسل معهم بغلته مسرجة، ولم يكلمهم في شأنها. فلما وصلوا إلى تطوان، بقي الفقراء كلهم متحيرين في أمرها. فقال لهم الشيخ سيدي محمد الحراق: إنما أرسل الشيخ مولاي العربي هذه البغلة، إشارة إليّ أن نتوجه لزيارته وملاقاته. وهاأنا ذا متوجه إليه بحول الله وقوته. فقال له بعضهم: الله الله يا سيدي. انتهز الفرصة، واغتنم هذه الكرامة. فخرج إلى القبيلة المذكورة. فلما وصل إلى عين ماء بقرب الشيخ، توضأ وضوء أبي الحسن الشاذلي، حين ملاقاته مع أستاذه مولانا عبد السلام بن مشيش، متبرئاً من علمه وعمله، إلا ما يأتيه على يد الشيخ. وأخبرني، رضي الله عنه، أنه لم يكن له علم بقضية الشاذلي وإنما هو محض الهام من الله سبحانه وتعالى. وبعد ذلك،

وقف على أن هذا الوضوء شرط في الطريقة الشاذلية. فلما التقى مع الشيخ مولاي العربي، قال له: اذكر الله، وذكّر في الله. وأخبرني صهره، وكان معه، أنه لما جلس بين يدي مولاي العربي، أتته امرأة بآنية من الصامت الحلو الخاثر، فدفعتها إلى مولاي العربي، فشرب وأعطاه فضلته، فشرب الشيخ سيدي محمد الحراق، رضي الله عنه. فكان كما قال في تائيته:

شربت صفاء في صفاء فمن يرد  من القوم شربا لم يجد غير فضلتي
تقدم لي عند المهيمن ســـابق  من الفضل واستدعاه حكم المشيئةِ

{ وأخبرني بعض خواص مولاي العربي، وكان معهما حين اللقاء، أن أول مذاكرة كانت بينهما، أن قال له مولاي العربي: إن الشيخ الكامل، هو الذي يكون في غاية السكر، وفي غاية الصحو، وفي غاية الجذب، وفي غاية السلوك، وفي غاية الفناء، وفي غاية البقاء. فقال له سيدي محمد الحراق: يا سيدي، ظهر لي بحسب عقلي الفاتر، وفهمي القاصر، أن هذا جمع بين متناقضين، وهو محال. فقال له مولاي العربي: ورد في الحديث:" إن لله ملكا نصفه ثلج، ونصفه نار، وتسبيحه: اللهم يا من ألف بين الثلج والنار، فلا الثلج يطفئ النار، ولا النار تذيب الثلج، ألف بين قلوب عبادك المؤمنين". فشرح الله صدره للفهم. فقال له: الآن ظهر لي أن السكر يكون باطنا، والصحو ظاهرا، والجذب والسلوك كذلك، كما يقال في الإيمان والإسلام. فسرّ مولاي العربي بذلك، وقال: والله يا سيدي إلاّ كذلك؛ وصار يكررها. فانظر، رحمك الله، إلى عطفة المشايخ ونظرتهم بعين القبول، كيف تحل الأقفال، وتزيل الإشكال، وما هي بأول بركاتهم، رضي الله عنهم. ثم لقنه الأوراد، وبين له المراد. ولم يأمره بخرق عادة، ولا كشف رأس، ولا سؤال ولا لبس مرقعة، ولا ذكر في الأسواق. وإنما حضه على كثرة ذكر الله، وجمع القلب على الله، وإخلاص العبودية إلى الله. وأذن له في إعطاء الأوراد والتربية، فكانت مهيأة تنتظره، فاغتنمها ورجع بسلام}:

وإذا سخر الإلـه أناسًا  لسعيدٍ فإنهم سعداءُ

{(ما يفتَح اللهُ لِلنَّاس مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)، ولقد واجهته العناية بالسعادة فنالها، وخاطبته المراتب العالية فحلها، وألزمه الله كلمة التقوى وكان (أحَق بهَا وأهْلَهَا). وما أحسن الأشياء تحل محلها. فلما رجع إلى منزله، دخل بيته، واعتكف على ذكر الله،

معرضا عما سواه، إلى أن فتح عليه، رضي الله عنه، بالكشف الرباني، والشهود العرفاني، والعلم اللدني النوراني، فاشتغل، رضي الله عنه، بتقييد الواردات، مواجها بخلع نقاب المخدرات، فظهر سر الإذن عن قريب، وعومل بالمواهب من حضرة الحبيب. فكان، رضي الله عنه، لا يذكر مولاي العربي، إلا بالتعظيم الكبير، والثناء الكثير، ويقول: مولاي العربي هو العارف بالله، العالم بالله. ويشهد له بالمشيخة العظمى، والحال الأسمى، ويقول: هو أستاذنا وسندنا، ووسيلتنا إلى الله سبحانه. وإذا ذهب لزيارته، يقول لأصحابه: إنما أنا واحد منكم، فلا تفعلوا معي أدبا بحضرة الشيخ أبدا. ويجلس بين يديه متأدبا، خاضعا منصتا خاشعا مستفيدا ما يسمع منه أو يرد عليه من قبله، كعادة أهل الصدق مع مشايخهم. وقال له: والله لو كان الإمام مالك موجودا وأمرني بشيء، وأمرتني أنت بشيء، لاتبعتك وتركته اكتفاء بكم. وقال له مولاى العربي مرة: إذا رجعت إلى تطوان، فمر على مولانا عبد السلام فزره. فقال: نعم. نفعل ذلك امتثالا لأمرك، وإلا فوالله لو كان حيا ما زدته على سنة السلام، لأننا قوم أغنانا الله بكم. وهذا حال أهل الصدق مع مشايخهم، لأن الاكتفاء شرط في الطريقة. وأحواله رضي الله عنه مع شيخه، وأدبه ومودته له، لا نستطيع حصرها، وإنما ذكرنا هذه النبذة تبركا وتنبيها، وثناء عليهما وتنويها. وأخبرني هو، رضي الله عنه، أنه قرب وفاة الشيخ مولاي العربي، رأى في عالم النوم ملأ من الناس كثيرا، ومعهم الشيخ مولاي العربي، وعلى رأسه شاشية جديدة، والناس كلهم كشف الرءوس. فأتى إليه مولاي العربي، وأخذ الشاشية الجديدة التي كانت على رأسه، وجعلها على رأس الشيخ سيدي محمد الحراق. فلما استيقظ أوّلها بالخلافة من بعده. فلما مرت ثلاثة أيام، جاء خبر وفاة الشيخ مولاي العربي، فكان الخليفة من بعده، رضي الله عنه، من غير شك ولا إشكال، والحال يشهد، والرجال تعرف بالحق، لا الحق يعرف بالرجال. وقد أخذ عنه، رضي الله عنه، خلق كثير لا يعد كثرة من طلبة العلم، وأعيان الناس، وأهل الاعتناء بدينهم بحاضرة فاس ونواحيها، كصفرو، والبهاليل، وجبل كندر، وقبائل الغرب، وأهل الجبال والمداشر من نواحي تطوان، وجم غفير من أهل تطوان. وأما شفشاون كاد أهلها كلهم أن يدخلوا في طريقته. وانتشر مدده إلى أن بلغ الرباط، مع أنه لم يصل إليها بنفسه، وكان مهتما بالوصول إليها غاية الاهتمام، لأن اهتمامه كان في الدلالة على الله. وكان، رضي الله عنه،

يقول: لو كنت أعلم أن أحدا بقنة جبل يريد الوصول إلى الله، لأتيت إليه، وأخذت بيده، ابتغاء مرضاة الله، وترغيبا في الإقبال على الله}.

{ واشتاق إلى ملاقاته خلق كثير من أهل مراكش ونواحيها، وغيرهم ممن لم يصل إليه، لما بلغهم عنه من حسن سياسته، وسعة علمه. كان، رضي الله عنه، عطاني الطريق، فارضي المحبة والتحقيق. فجزاه الله عن المسلمين خيرا، وأبقى مدده في خلقه منتشرا، وجعل لنا من خلفائه سراجا منيرا. وما ذاك على الله بعزيز، لأن المدد المحمدي لا ينقطع إلى يوم القيامة، وقد أذن، رضي الله عنه، لأقوام وأوصى بهم، وقال: من ظهر خيره فليتبع. فهي إشارة إلى الخلافة من بعده. و(اللهُ أعلمُ حَيثُ يَجعلُ رسَالاتِهِ)، ويكرم من يشاء بولايته وخلافته. (ذلكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يشَاءُ، واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيم)}هـ.

ثم صار هذا المؤلف يذكر سند مولاي العربي في الطريق، موصولا بسيدنا الحسن، عن أبيه سيدنا علي، عن جده مولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حسبما سبق في الجزء الأول. ثم قال بعد:

{ وكانت ملاقة هذا الشيخ، رضي الله عنه، مع أستاذه مولاي العربي، حسبما رويناه عن معاصره، سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف 1228، وعمره إذ ذاك نحو الأربعين سنة. فمكث في طريقة القوم شيخا مربيا إلى أن توفي، رضي الله عنه، يوم واحد وعشرين من شعبان، سنة إحدى وستين ومائتين وألف 1261. فتحصل أن مدة عمره ثلاث وسبعون سنة ( 73). وأخبرني بعض أصحابه أنه، رضي الله عنه، رأى رؤيا وهو مريض في بعض الأيام، ورأى فيها إشارة. فأولها أنه يموت على رأس الثلاث والسبعين سنة، وفي رواية عن بعض ملازميه، أن عمره خمس وسبعون سنة. والله تعالى أعلم}هـ.

### [نماذج من رسائل الشيخ الحراق،<br>وكتاباته على آيات قرآنية، وأحاديث نبوية،<br>وبعض كلام الصوفية]

ثم شرع المؤلف، رحمه الله، في المقصود من تأليفه، من ذكر رسائل الشيخ وحكمه، وتقاييده وقصائده، وشروحه لبعض كلام العارفين. وجعل ذلك في خمسة أبواب. وسأقطف من أغصان تلك الأبواب ثمارًا يانعة، ونجتبي من رياضها أزهارًا رائقة زاهية.

فمن الباب الأول، خطبة تلك الرسالة الأولى التي صدرها بخطبة رائقة، جامعة لمحاسن البلاغة، رائعة الإنشاء بديعة البراعة، تعرب بطلعتها الرقيقة عن مقام الشيخ في بدائع المعاني والبيان، يقف عاجزا دونه صاحبا "المقامات"، و"قلائد العقيان". ولفظ الخطبة المذكورة:

{ نحمدك اللهم على أن شرحت بأنوار معرفتك أفئدة وصدورا، وسرحت عيون العيون من خلقك إليها بحكم السابقة فلم تجعل لهم عن ورود مائها صدورا، ونشرت أوصالهم بنفحة القدم، حتى هدّ ما طوت من وصالهم نفخة العدم هدّا، وقلت لئلا يأنف عن خدمتك الشريفة أنف خديم، أو يستنكف إذلال نفسه لك في موطن إعزازه ذو منصب عظيم، ( إنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إلاَّ آتي الرَّحمَانِ عَبْداً). فهدمت المراتب كلها بوصف العبودية، وهزمت عزة النفوس قاطبة بمهابة الربوبية، حيث ألزمتها مقاما لا يقوم أحد بحقوقه، فهي أبدا تخشى من جنابك الرفيع طردا وبعدا، ووسمت الجميع بسمة الفقر إليك، ونبهتهم من فضلك بوصفك بالرحمانية على التعويل عليك، فتعلق النبهاء منهم بأذيال فضلك، وتبرأوا من سواك، وإن أركبهم ذلك تعبا وكدا، وجعلوا حضرتك معتكف أسرارهم، وذكرك محل إعلانهم وإسرارهم، وشدوا بصدق العزائم رحال الهجرة إلى حصن الكون عندك شدا. ونصلي ونسلم على من جعلته في الخلق أول المظاهر الكونية، وعند البعث أول المظاهر الشخصية، تنبيها على أنه باب المعرفة بك في الدارين عكسا وطردا، فكان مشربه، عليه السلام، أول المشارب من نور القدم. ولذلك كان لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أول ما كتب القلم، وعلى آله وأصحابه الذين أسكرتهم بخمر شهودك، فبرزوا في الحروب ملوكا وأسداً.}هـ

ثم صار في هذه الرسالة يوصي الفقراء بالاشتغال بالله، والإقبال عليه، وترك كل ما سواه، والعكوف على ذكر الله، ويحضهم على الاجتماع بالزاوية يوم الجمعة وبغيرها من الأيام، إن أمكن، ولو في منازل بعض الإخوان. وصار يوجه الاحتياج إلى الإخوان والشيخ، الخ.

وليس القصد إلى ما تضمنته تلك الرسائل من وصاياه، رضي الله عنه، لأصحابه، المرشدة إلى حقائق الطريق. وإنما القصد بيان نسق تلك الرسالة الأولى التي تُري المطالع الأديب؛ مكانة الشيخ في النثر الفني، والإنشاء الرائق، الذي نسج عليه سائر رسائله.

ومن رسائله، رضي الله عنه، الرسالة الثامنة عشر؛ تلك الرسالة التي ذكر فيها معنى التجريد، واعتمد فيه على ما ذهب إليه من أن التجريد، المعتبر فيه تجريد الباطن، حسبما أسلفناه عنه في "شرح الحِكم"، خلاف ما ذهب إليه الشيخ ابن عجيبة، وأنه لابد من تجريد الظاهر مع الباطن. وفيها:

{وأعلمكم، يا إخواننا، أن مدار السالكين والواصلين، أو نقول الطالبين والمحصلين، على قول مولانا جل ثناؤه، وتقدست صفاته وأسماؤه: (فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِين)، لأن الفار إلى الله تعالى، يلزمه أن يفر من ماله وولده وزوجته، وعزه وذله، وفقره وغناه، وقوته وضعفه، وجميع ما شم عليه رائحة العدوى بالقلب، أيا ما كان، حتى يكون قلبه مزلقة الأكوان؛ كلما وقع عليه شيء من الكون زلق وسقط، فالسائر لا بلد له، ولا ولد له، ولا زوجة له، ولا مال له، ولا حال له، ولا عمل له، ولا صاحب له، ولا أنيس له. وهذا هو المتوجه إلى الله بصدق العناية، وهمه مجموع على الله وحده: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، خارجا عن أعماله وأحواله ونفسه وجميع الأكوان والوسائط، ويكون انقطاعه إلى ربه. ولا أعني بما ذكر فرار الجسم، بل فرار القلب، إلاّ إذا لم يكن فرار القلب إلاّ بفرار الجسم، فيفعله السالك. ومثله الواصِل إذا خشي شيئا من ذلك على قلبه. ولذلك دعا أبو يزيد على ولده فمات من حينه، حيث خشيه على قلبه. والحاصل، كلما خاف على قلبه شيئا تجرد منه، ولا نقيد حاله بشيء. ولذلك قال، صلى الله عليه وسلم: " كُنْ في الدنيا كأنك غريب". والغريب حاله ما تقدم. وقال عليه الصلاة والسلام: "من فرَّ بدينه شبرًا من أرض، وجبت له الجنة."} هـ[النور اللامع البراق، في ترجمة الشيخ سيدي محمد الحراق]

هذا، وقد كنا ذكرنا في الجزء الأول تلك الرسالة القيّمة التي بين الشيخ فيها أنه لا تخالف بين الشريعة والحقيقة. وهي رسالة فريدة في بابها، كما كنا ذكرنا هنالك جملة من حِكَمه، رضي الله عنه.

## [ما كتبه على بعض الآيات القرآنية]

وأما ما قيده، رضي الله عنه، على الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وبعض كلام الصوفية، فهو كثير، فمن ذلك قوله في الآية الكريمة:(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ):

{هو تشريف عظيم من الله تعالى لرسوله، عليه الصلاة والسلام، من جهة أنه تعالى ألبسه نور الربوبية، فشاهد الصحابة، رضي الله عنهم، فيه، عليه السلام، نور الربوبية، دون ظل البشرية، فلذلك بايعوه على الموت. ورضي الله عنهم شهود أنوار ذاته سبحانه، فهو الرضوان الذي يحله على أهل الجنة، فكأنه سبحانه قال: (إن الذين يبايعونك) على الموت، لم يبايعوك من جهة البشرية، وإنما يبايعونك من حيث أشرقت على قلوبهم نوري منك. فبايعوا الله محضا، لأن يد الله، قوته، (فوق أيديهم)، أي قوتهم وقوة العبودية مضمحلة بين يدي قوة الربوبية، إذ انتسخت قوتهم بقوة الحق سبحانه، بشدة الكشف عن أصل القوة، حتى تبين بيانا يقينيا أن موتهم عين حياتهم، فلذلك بايعوا عليه. قال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلَ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ) مما عاينوا من حياتهم في قتلهم، حتى أقدموا على الموت، بدليل قوله سبحانه: (قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ)، فهو دليل الشهود، ولذلك سمي قتيل المعترك شهيدا} هـ.

ومن ذلك ما قيده في قوله تعالى:(إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ. وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) قال، رضي الله عنه:

{يفيد بطريق الإشارة أن الحق سبحانه نصب عن الصلاة المعتبرة عنده دليلا. وهو أن المصلي حقيقة يجد نفسه ينتهي بها عن الفحشاء وكل أمر منكر شرعا. فمن لم تنهه صلاته عن ذلك، فليعلم يقينا أن صلاته ليست معتبرة عند الله سبحانه، ولو كانت معتبرة عند الله، لظهرت عليه علامة ذلك، وهي كونه منهيا عن الفحشاء والمنكر. وقال سبحانه(وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)، فأعلم سبحانه أن الذاكر حقيقة، تظهر عليه علامة هي أعظم من علامة الصلاة، فيزيد صاحبه عن ترك الفحشاء والمنكر، بترك المباحات. ولم يزل يرتقي حتى يترك الوجود الفاني في شهود الوجود الباقي. فمن لم يجد من نفسه هذه العلامة التي نصبها الحق سبحانه على الذاكر الصادق في ذكره، فليعلم يقينا أن ذكره مقدوح فيه، وأنه ليس بصادق في ذكره. والله سبحانه أعلم بمراده} هـ.

ومن ذلك ما كتبه على قوله تعالى:( قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)، قال:

{إشارة له، عليه الصلاة والسلام، إلى العكوف على الاسم المفرد الشريف، فإن ذكر هذا الاسم الشريف مجرب صحيح في تحصيل كل خير، وإليه يشير قول مولانا عبد

السلام: مَنْ دلكَ على الله فقد نصحك. لأنه أخصر طريق إلى الحصول على الخير مع سهولة، بخلاف غيره من الأعمال، فإنها شاقة بالنسبة إليه، فمعنى قوله: مَن دلكَ الخ، والله أعلم، أي ذكرا وتعلقا واعتمادا، ومعنى قوله، والله أعلم: ومَنْ دلكَ على الأعمال فقد أتعبك. لأن رؤيتها حجاب عن العامل، غالق للباب} هـ.

وقال، رضي الله عنه:

{ما يقع في القرآن من قسم مولانا، جل وعلا، بالفجر، والتين، والنجم، وغير ذلك من الأكوان، فإنما هو قسَم بطريق الإشارة بصفات الحق المشرقة عليها، التي بها أوجدها. أو نقول هو قسم بالمحجوب، لا بنفس الحجاب، وإلى ذلك يشير قول مولانا الحكيم (فَلاَ أُقسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَالاَ تُبْصِرُونَ) أي بما تبصرون من مظاهر الصفات، وما لا تبصرون من محاسن الذات. والله أعلم بمراده. ويؤيد هذا قول الإمام ابن عطاء الله: من شاهد الكون، ولم يشاهد الحق فيه، أو قبله أو بعده أو معه، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار. أي لم ير أنوار الذات التي هي صفاتها} هـ.إلى غير ذلك مما أخذه على سبيل الإشارة من آيات القرآن الكريم.

- - -

## [ما كتبه على بعض الأحاديث النبويـة]

وأما ما كتبه على بعض الأحاديث النبوية، فمن ذلك قوله، رضي الله عنه:

{ العامل إن نوى بعمله شيئا، يحصل عليه قطعا، عملا بقوله، عليه السلام: "وإنما لكل امرئ ما نوى". فإنه ساقه مساق الحصر. فمن نوى بعمله أن يعلم الناس منه أنه عامل لذلك العمل وقف عمله على الناس فقط، فهم يجازونه إن قدروا، ولا يصل إلى الله بمعنى أن الله لا يثيب عليه، لأنه موكول للذي عمل من أجله، فهو يثيب عليه. ويصدق عليه قوله مولانا: (وَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ). ومن نوى بعمله أن يعلمه الكتبة الكرام منه، أخر جزاؤه ليوم نشر الصحائف، وإنما أخر جزاؤه لأنه في حال عمله، لم يستشعر اطلاع الله عليه إلا حين ينشر كتابه، فله ما نوى. ومن رأى اطلاع الله عليه، عجل جزاؤه في هذه الدار، وجُوزِي في تلك الدار}.

{ واستشعار اطلاع الله عليه متفاوت: فمن مشاهد أن الحق عليه رقيب؛ فهو يعمل له، ومن مستشعر أن عمله بالله من جهة قدرة الله وعجزه هوَّ، وهُمْ أهل الفناء في الصفات، لأن الأسماء مقتضبة من الصفات، ومن مشاهد أن الله فاعل بذاته، غائب عن الصفات، لاشتعال نور الذات في جملته، وهُم أهل الفناء في الذات. وهؤلاء عملهم بالله من الله، ومن غائب في الذات لاتحة عليه آثار الصفات، وهُم الكمّل الذين عملهم بالله ومن الله والى الله. والله تعالى أعلم} هـ.

وقال، رضي الله عنه، في قوله صلى الله عليه وسلم:" لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُم، أولَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ وُجُوهِكُم":

{يفيد بطريق الإشارة، أن المصلين يطلب منهم تسوية القلوب والأسرار، عند صلاة الأجسام بين يدي الملك الغفار، من حيث الغيبة عن شهود الأغيار، وملاحظة الآثار. وإن لم يفعلوا خالف الله بين وجوه الأجسام، ووجوه القلوب، بأن يكون وجه الجسم ظاهر الإقبال على العبادة، ووجه القلب ناظرا لشهوته ومعتاده. وسبق الإمام بالرفع والخفض، دليل على عدم الحضور مع الله فيها، بشهادة قول النبي، صلى الله عليه وسلم: "أمَا يَخشَى أن يحوّل اللهُ رأسَهُ رأسَ حِمَار". وذلك لأنه تعطل فهمه بتراكم الأغيار، فصار في سره حمارا معنى، فتواعده الشرع بخوف كشف الله عن حاله كشفا ظاهرا للعيان، حتى تكون صورته ظاهرا موافقة لحاله باطنا. فيسترو ح من الحديث، أن الغائب في شهود الأغيار، هو في المعنى عين الحمار، فيخشى أن يحوله الله حمارا كشفا لسره، ليذيقه وبال أمره} هـ.

---

[شرحه لكلام بعض الصوفية]

ومن كلامه، رضي الله عنه، في شرح قول بعض الصوفية، قال:

{ قول الصوفية: إن العارف لا تقله أرض ولا تظله سماء. يعنون بذلك، والله أعلم، من تحقق العبودية منه لله سبحانه، فهو على مجد عظيم، وافتخار جسيم، إذ أصبح عبدا حقيقيا للرب الكريم، السميع العليم، العزيز الحكيم، فهو لا يسعه الكون بأجمعه، أو خرج من الكون إلى المكون.} هـ.

----

## [شعره وقصائده، والمقارنة
## بين "تائيته"، و"تائية" ابن الفارض في السلوك]

أما شعره، رضي الله عنه، وقصائده، فهي كثيرة قد جمعت في ديوان. وأظنه كان طبع بفاس.

ومن أشهر قصائده، "التائية" التي أشرنا إليها في الجزء الأول. وهذه القصيدة موضوعها إرشاد المريد، والسعي به إلى مراقي أهل الذوق والأشواق، والاستغراق في معرفة الواحد الخلاق، وإفراده جلّ جلاله بالوجود الحقيقي، ورؤية ما سواه عدماً محضاً [على طريقتهم] في التفنن في العبارات، وانتحال ألفاظ مما يعبر به عشاق الصور الحسية، كالوله والكلف والهوى، والهجر والإعراض، والرقيب واللائم، والوصل والقطع، والحبيب والمحبوب، وذكر أسماء العاشقين والمعشوقين المشهورين في أشعار الشعراء، كليلى، ونُعْم، والتشبيهات بالبدر والشمس، والمبالغة في وصف نار الهجر والجوى، ومقاساة حر البعد، ووصف الخمر وما تفعله في النفوس من السكر والغيبة، وما وصفها به أصحابها من الرقة [الخ].

وهذا باب واسع، اتسع فيه أهل هذا المشرب، وأفاض فيه سلطان العشاق، العلامة الشاعر المفلق، الذي قيل فيه إنه أشعر من المتنبي. وهو العارف الشهير [سيدي عمر بن الفارض]. وأتى في ذلك بما يسحر ألباب المبرزين في هذا الميدان؛ فقد راض الله له سحر البيان، حتى انقاد في عنانه، وحشر له جنود البراعة والبلاغة، حتى انهزم بقلمه الأعلى كل شاعر، وخضع لإحسانه.

وعلى منواله نسج الشيخ الحراق، وكلهم، وإن اختلفت عباراتهم، وتنوعت إشاراتهم، فإلى التوحيد الخاص الخالص يشيرون، وإن رفض السوى والغير يقصدون.

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

وقد نسق الشيخ الحراق في "تائيته" هذه على ما يشبه نسق العارف ابن الفارض في "تائيته"، التي تسمى بتائية السلوك. ولكن ابن الفارض آثر الخفاء والاستتار لمعاني تائيته، وحجبها عن العموم، فلم ينكشف حسنها إلا لأهل المعرفة بالطريق. وأما الشيخ الحراق، فإنه تارة يأتي فيها بالمتواري المستتر، وتارة بالمجلوّ الظاهر لكل ناظر.

فانظر إلى مطلع "تائية" ابن الفارض إذ يقول:

سقتني حميًا الحب راحةُ مقلتـي — وكأسي محيا من عن الحسن جلتِ
فأوهمت صحبي أن شرب شرابهم — به سر سرى في انتشائي بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحي ومن — شمائلها لا من شمولي نشوتي
ولما انقضى صحوي، تقاضيت وصلها — ولم يغشني في بسطها قبض خشيتي
وأبثثتها ما بي ولم يك حاضري — رقيب بَقَاء حَظ بخلوة جلوة
وقلت، وحالي بالصبابة شاهد — ووجدي بها ماحي، والفقد مثبتي
هبي قبل يُفني الحب مني بقية — أراك بها لي نظرة المتلفتِ

وهكذا استمر في التستر والحجب، إلى أن قال:

لها صلواتي بالمقام أقيمها — وأشهد فيها أنها لي صلتِ
كلانا مصل واحد ساجد إلى — حقيقته بالجمع في كل سجدةِ
وما كان لي صلى سواي ولم تكن — صلاتي لغيري في أداء كل ركعةِ

وفيها من الإشارات، مع وضوح الألفاظ وفهم معانيها، قوله، وهو ممّا يعجبني:

ترى صور الأشياء تجلّ عليك من — وراء حجاب اللبس في كل خلعةِ
تجمعت الأضداد فيها لحكمة — وأشكالها تبدو على كل هيئة
صوامت تبدي النطق وهي سواكن — تُحركُ تهدي النور غير ضوية
وتضحك إعجاباً كأجذل فارح — وتبكي انتحاباً مثل ثكلى حزينة
وتندب، إن أنتْ، على سلب نعمة — وتطرب، إن غنت، على طيب نغمة
ترى الطير في الأغصان يطرب سجعها — بتغريد ألحان لديك شجية
وتعجب من أصواتها بلغاتها — وقد أعربت عن ألسن أعجمية
وفي البر ترى العيس تخترق الفلا — وفي البحر تجري الفلك في وسط لجة
وتنظر للجيشين في البر مرة — وفي البحر أخرى، في جموع كثيرة
لباسهم نسج الحديد لبأسهم — وهم في حمى حدي ظبى وأسنةِ
فأجناد جيش البر ما بين فارس — على فرس، أو راجل رب رُجْلَةِ

وأكنَــاد جيش البحر مـــا بين راكــب مَطَـا مركب، أو صـــاعد مثل صعـْـدَةِ

وصار في هذا المعنى إلى أن ختم القصيدة بقوله:

ولـولا حجـــاب الكون قلت وإنمـا قيامي بأحكـام المظــاهر مسكتي

فلا عبث والخلق لم يخلقـوا ســدى وإن لم تكـن أفعـــالهم بالسديـدة

على سمـة الأسماء تجري أمورهم وحكمة وصف الذات للحكم أجرت

تصــرفهم في القبضتيـــن ولا ولا فقبضـة تنعيـــم وقبضــة شقـوة

وختم القصيدة بقوله:

ومن فضل ما أسأرت شرب معاصري ومن كان قبلي فالفضائل فـضلتي

فهذه القصيدة، من أولها إلى آخرها، لا يفقهها إلا العالمون برموز القوم وإشاراتهم.

أما الشيخ الحراق، فإنه افتتح قصيدته بما يشبه هذا النسق، فقال:

أتطلب ليلــى وهي فيـــــك تجلّتِ وتحسبهـا غيراً وغيرك ليسـتِ

فـــذا بلهٌ في ملة الحب ظـــــاهر فكن فطناً فالغيـر عيـن القطيعــة

ألم ترهـــا ألقت عليك جمـــــالها ولو لم تقم بالـذات منك اضمحـلت

تقـــول لهـــا ادنُ، وهـي كلُّك، ثم إن حبَتْكَ بوصــلٍ، أوهمـتـك تدلّــت

عزيز لقـــــاها لا ينــــال وصالهـا سوى من يرى معنى بغير هـويـة

كلفت بهـــا حتـى فنيــت بحبهــا فلو أقسمـت أني إيـــاهـا لـبرتِ

وغالطت فيها الناس بالوهم بعد مـا تبينتهــــا حقـا بـداخل بـردتــي

ثـم استمر علـى هـذا المـنهج، حتـى قـال مبالغـاً وناهجـاً مـنهج أهـل الشـعر مـن المبالغـة والإغراق:

وبي من هـواها ما لو ألقي في لظـى لذابت لظى منـه بأضعف زفـرة

وبالبحر، لو يلقـــى، لأصبح يابســاً وبالشـم دكّت، والسحاب لَجفّتِ

قلت: وهذا من نحو قول ابن الفارض:

ولولا زفيري أغرقتـني أدمعي ولولا دموعي، أحرقتني زفرتي

وحزني مـــا يعقـوب بث أقلّــه وكل بلاً أيـــــوب بعض بليتي

قال الكاشاني في شرح "التائية" المذكورة إثر الأبيات:

{لا إشكال في معانيها، إلا انه بالغ في التشبيه تمهيداً لقاعدة الشعر، حتى شبه الطوفان والنيران بدمعته ولوعته، لا بالعكس. وأخبر عن اعتدال حصل من تصادم إغراق دمعته، وإحراق لوعته، وكسر كل منهما سوْرة الآخر. واعتذر عن بث شكواه، وشكوى بثه إلى المحبوبة، كما بث يعقوب، عليه السلام، بقوله: (إنَّما أشكُو بَثِّي وحُزنِي إلى الله). وأيوب، عليه السلام، بقوله:(ربِّ إنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ) بأنهما ابتليا ببعض ما ابتلي به}هـ[شرح التائية:67/1]

والمبالغة والإغراق، والإفراط والغلو عند علماء الأدب وأهل البديع، مما يعد من المحسنات البديعية عند بعضهم، وأنه يزيد في الشعر رقة وحلاوة. ورآه بعضهم عيباً، وهو نوع من الكذب والخروج عن الحقيقة، قال الحاتمي، وهو أحد علماء الفن:

{ وجدت العلماء بالشعر يعيبون على الشاعر أبيات الغلوّ والإغراق، ويختلفون في استحسانها واستهجانها، ويعجب بعض منهم بها، وذلك على حسب ما يوافق طباعه واختياره، ويرى أنها من إبداع الشاعر الذي يوجب الفضيلة له، فيقولون: أحسن الشعر أكذبه. وأن الغلو إنما يراد به المبالغة والإفراط. وقالوا: إذا أتى الشاعر من الغلو بما يخرج عن الموجود، ويدخل في باب المعدوم، فإنما يريد به المثل وبلوغ الغاية في النعت. واحتجوا بقول النابغة، وقد سئل عن أشعر الناس، فقال: من استجيد كذبه، وأضحك رديئه. وقد طعن قوم في هذا المذهب، لمنافاته الحقيقة، وأنه لا يصح عند التأمل}.هـ من "العمدة" لابن رشيق[50/2].

[تأثر ابن الفارض والحراق في"تائيتهما"
بالمحبة والشوق، وبيان المقبول من ذلك والمردود]

ومن هذا تعلم أن مقصود العارفين، ابن الفارض والحرَّاق، إنما [هو] ضرب مثلهم في المحبة والهوى والشوق، وتأثرهم بذلك. لأن الحب والشوق بلغ بهم الغاية التي ما فوقها غاية. ولأهل الفن في هذا الباب تقسيم وتفصيل، وبيان المقبول من ذلك والمردود. وقد لخص ذلك صاحب "التلخيص"، فقال:

{ ومنه، أي من أنواع البديع، المبالغة المقبولة. والمبالغة أن يدعي لوصفٍ بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً، لئلا يظن أنه غير متناهٍ فيه. وتنحصر في التبليغ والإغراق والغلوّ، لأن المدعَى إن كان ممكنا عقلا أو عادة، فتبليغ. وإن كان ممكنا عقلا لا عادة، فإغراقٌ، وهما مقبولان، وإلا فغلوّ. والمقبول منه أصناف. منها ما أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة، ومنها ما أخرج مخرج الهزل والخلاعة}. هـ بحذف الشواهد، ولينظر تمام تفصيل ذلك في محله.[ص367]

وإنما أتينا بهذه النبذة تنبيهاً على أن كلام هذين العارفين؛ جارٍ مجرى البلاغة والتحسين عند علماء الأدب ونبغاء الشعراء. والمراد بهذه العبارات التفنن والمبالغة في التشبيه، والتعبير بما يفيد أن هذا الوصف المدعَى بلغ فيه صاحبه أقصى غاياته، وأعلى درجاته. والله الموفق.

ولنرجع إلى تائية الشيخ الحراق، فنقول:

إنه بعد أن استمر في وصف حبه ووجده بهذا المحبوب، وتفريده بالمحبة وذهوله عمن سواه، وغيبته في لطافة حسنه، ورفضه مقالة العاذل وإعراضه عن ملامه، على طريقة أهل المحبة من الشعراء من دعوى الاتصال والمشاهدة، صار يصف ذوقه ومشربه من خمر المعرفة وحميًا الحب الصادق، فقال:

وفي حانها دارت عليَّ كؤوسُها فصرت بها أسمو على كل ذروة
وما أبصرت عيناي للخمر جامها لأن جامها منها لها عين حكمة
تلألأ منها كل شيء فما أرى سوى نورها الوقاد في كل وجهتي

الخ. وقال ابن الفارض في هذه الخمر:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها قبل أن يخلق الكرمُ
لها البدر كأس، وهي شمس يديرها هلال، وكم يبدو إذا مزجت نجمُ
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصوَّرها الوهمُ

إلخ، إلى أن قال:

تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسمُ
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهمُ

الخ. قال البوريني في أول "شرح" هذه القصيدة الخمرية:

{ اعلم ان هذه القصيدة مبنية على اصطلاح الصوفية، فإنهم يذكرون في عباراتهم الخمر بأسمائها وأوصافها ويريدون بها ما أدار الله على ألبابهم من المعرفة أو من الشوق والمحبة.} هـ[154/2].

وبالجملة؛ فإن تائية العارف ابن الفارض، وتائية الشيخ الحراق، لا ينبغي إلقاؤهما على عوام الفقراء، بل حتى على كثير من العلماء الذين لم يزاولوا اصطلاح الصوفية، لأن الجاهل لا يفهم كلامهم، أو يفهمه على غير وجهه.

وأما العالم الذي لا يفهم رموزهم، ولا ينقاد لإشارتهم، فإنه ربما أخرجهم ببعض عباراتهم من الملة، ونسبهم للحلول والاتحاد، كما حكم ابن تيمية وغيره على ابن الفارض وغيره بذلك.

[تأويل كلام من ثبت صلاحه
وتواتر حسن مقصده من أهل التصوف]

والحق في هذا المبحث؛ هو أن من ثبت صلاحه من أهل التصوف، وتواتر حسن مقصده وصفاء عقيدته، ووقع في كلامه ما وقع في "تائية" ابن الفارض و"تائية" الشيخ الحراق من العبارات التي بظاهرها تفيد الاتحاد والحلول، فإنها تقبل منهم، وتصرف عن ظاهرها بتأويل مناسب لمقاصدهم، وإلا فيرمى بها عرض الحائط.

ولهذا قال شهاب الدين الخفاجي، في "شرح الشفاء"، لما ذكر القاضي عياض أثناء: "ويحكم بكفره في اعتقاده، أو ادعى حلوله في أحد من الأشخاص، كقول بعض المتصوفة" الخ:

{وأما المتصوفة، فقد نسب لبعضهم أمورٌ وعبارات تقتضي في بادئ النظر ذلك، أي الكفر، وهي مؤولة بما يوافق الحق. وأجلة مشايخهم بريئون مما ينسب إليهم، فإن ما هم عليه من الزهد والعبادة، وما يظهر منهم من الكرامات، يقتضي أنهم على قدم النبوة. فما نقل عنهم إما دسيسة من بعض الملاحدة، أو كلام على اصطلاحاتهم يعرفه أهله.}هـ [537/4].

----

## [إنكار أكابر علماء التصوف إطلاق
## الكلام الموهم المنافي للعقائد، المعبَّر عنه بالشطح]

ثم إن هذا النوع من الكلام الموهم، الموقع الجاهل في اعتقاده، ما لا يليق بالباري جل جلاله، وينافي العقائد المقررة في علم التوحيد، وإن وقع من أهل التحقيق في الحقائق من أهل التصوف، فإن أكابر علمائهم لا يرضونه، بل أنكروه، ورأوه عظيم الضرر، يأتي على الديانة بالخطر، وهذا النوع يعبرون عنه بالشطح، قال الشيخ مرتضى الحسيني في تفسيره:

{وهو عند أهل الحقيقة كلام يعبر عنه اللسان، مقرون بالدعوى. ولا يرتضيه أهل الطريقة من قائله، وإن كان محقاً}. هـ[شرح الإحياء:250/1].

قال حجة الإسلام في "الإحياء":

{وأما الشطح، فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية. أحدهما الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا.} ثم قال:

{وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي}. انظر تمامه. [27/1].

كذلك أنكر مثل هذه المقالات من أكابر الصوفية، صاحب "عوارف المعارف"، في باب من انتمى إلى الصوفية وليس منهم.

وهذا المبحث قد حررنا الكلام فيه في مقدمة "شرح الصلاة المشيشية"، بما يكفي ويشفي.

<u>وخلاصة القول</u>، إن من اشتهر في هذه الطريق، وثبت صلاحه وتقواه، وتواتر بين الناس زهده في الدنيا، وإقباله على عبادة المولى، فهذا، كما سبق، إن صدرت منه شطحات، فإنها يلتمس لها المخرج بتأويل ونحوه، أو يرجع في ذلك لكلامه المُحكم، ولقوله المفصل، ولتفسيره المتين، فيحمل متشابهه على محكمه، ومبهمه على مفصله، ومجمله على مبينه، كما قدمناه في كلام الشيخ محيي الدين. فإذا قرأنا قول الشيخ الحراق:

كلفت بهـــا حتى فنيـــــت بحبهـــا      فلو أقسمـت أنـي إياها لبرتِ

وغالطتُ فيها الناس بالوهم بعد ما      تبينتُها حقاً بداخل بردتــي

تسبقَ إلى الفهم أنه يشير إلى الحلول والاتحاد. فإذا قرأت قوله:

فدع عنك أقـــوالاً ترى إن أتيتها      أخـا ظمإ يوماً ســـــراباً بقيعةِ

وألق لنـا أذن الفــــؤاد مصيخـة      وع القول منّي واستمع لنصيحتي

إذا شئت أن تلقى السعادة والمنـى      وتبلغ مـــا عنــه الرجـــال تولتِ

فطهر بمـــاء الذكر قلبك جـــاهـداً      بصدق اللّجَا واغسله من كل علةِ

ومكن بكف الشــرع أمــرك كلـــه      فدونك إن لم تفعل البـــاب سدتِ

ودع ما مضى إن ثبتَ لا تكترث به      ولا تلتفت في طــــاعة لمثوبـة

وشــمر ذيــــول الحزم لله طـالبا      ولا تقصدن حظـا بسير الطريقـة

فمن عمَـهِ القصّادِ بـل مِـن عَمـاهُمُ      توجُّهُهُم نحو الحظــوظ الـدنيّـة

ومن يبتـغ غيـر الإلـــه بسيــــره      إليـه تـــراه راجعـــاً أيَّ رجعـةِ

تبيَّن لكَ براءته من تلك العقائد الفاسدة، وأن عقيدة الشيخ، رضي الله عنه، عقيدة صحيحة على طريقة أهل التوحيد الخالص، والاعتقاد الموافق لأهل السنة.

---

[قول ابن الفارض: وإذا سألتكَ أن أراكَ. إلخ
والانتقاد الذي وجه إليه في ذلك]

وانظر إلى قول العارف ابن الفارض:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة      فاسمحْ، ولا تجعل جوابي لن ترى

فإن هذا البيت مما رد على ابن الفارض، وأنكره عليه حتى الصوفية. قال شارح "ديوانه": {واعلم أن كثيراً من الصوفية يعترض على هذا البيت ويقول: إذا كان موسى، عليه الصلاة والسلام، قد مُنِع الرؤية عند ما طلبها، فكيف ترقت همة الشيخ إلى طلبها؟!} هـ[شرح الديوان للبوريني:208/1].

ولهذا أنكر بعض السادة الكبار، نسبة هذا البيت لابن الفارض . قال السيوطي، حسبما نقله عنه الشيخ مرتضى في شرح "الإحياء":

{ وقد أخبرني بعض القضاة، ممن أثق به، أن الشيخ عبد الكبير الحضرمي، أحد السادة الكبار، وقد اجتمعت أنا به بمكة المشرفة في مرض موته، سُئل عن بيت من كلام ابن الفارض، وهو قوله: "وإذا سألتك أن أراك" الخ. فقال: ليس هذا من كلامه، فإن ابن الفارض عارف، والعارف لا يقول مثل هذا.} هـ[251/1].

قلت: وقد كنت سئلت قديماً أيام الإقراء، إذ كان سألني أحد الطلبة عما قاله سلطان المغرب إذ ذاك، وهو المولى عبد الحفيظ الشريف العلوي، في "شرح خطبة مختصر" الشيخ خليل، إذ انتقد بيت ابن الفارض، وربما قال: فأي كفر أصرح من هذا. وكنت كتبت في ذلك جواباً طويلاً، وملخصه بعد كلام عن أسئلة كان قدمها هذا الطالب مع السؤال عن هذا البيت، ما لفظه:

وأما قصده هذا المنتقد من الطعن على ابن الفارض في قوله: وإذا سألتك أن أراك الخ؛ إذ ظاهره يعطي أنه سأل الرؤية التي أجيب عنها سيدنا موسى، عليه السلام، بقوله تعالى (لَنْ تَرَانِي) وفيه ما لا يخفى، إذ مقام النبوة لا يوازيه مقام، والآيات القرءانية صرحت بشدة الرد على من سأل الرؤية، فقال تعالى: (فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم) وقال: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) وقال: (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْنَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً).

وهذا الانتقاد لا يتم إلا لو كان كلام ابن الفارض نصًّا لا يحتمل. أما حيث إن كلامه، رضي الله عنه، يحتمل احتمالات، فلا يتم الانتقاد:

منها أنه قال هذا الكلام على لسان النبي، صلى الله عليه وسلم، وذلك كثير في كلامه. وبهذا جزم العلامة جسوس في" شرح الشمائل".

ومنها أن يكون قصد حقيقة تناسب حاله. وعلى ذلك حمله الشيخ الأمير في "حواشي الجوهرة"، إذ قال: {إن قلتَ: كيف يقول ابن الفارض: وإذا سألتك أن أراك الخ، وهل يكون أعلى من مقام الكليم؟ قلتُ: حقيقة كل بحسبه.}هـ قلت: أي فكأنه قصد رؤية البصيرة، ورؤية البصيرة عندهم في مقام العيان، فيكون راجعاً إلى تحقيق التوحيد. قال مولانا عبد السلام، رضي الله عنه: {وأغرقني فِي عيْن بَحْر الوَحدَةِ}.

ومنها أن يكون قصد الرؤيا المنامية، وهي جائزة صحيحة. قال القاضي عياض: {اتفق العلماء على جواز رؤيته تعالى في المنام، كسائر أنواع الرؤيا}. هـ بنقل العلامة حلولو. قال الجلال المحلي: {وقد ذكر وقوعها في المنام الكثير من السلف، منهم الإمام أحمد}هـ. قلت: روي عنه أنه قال: رأيت ربي العزة في المنام فقلت: يارب: ما أفضل ما يتقرب به المقربون؟ قال: كلامي يا أحمد. قال: قلت: يارب، بفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم أو بغير فهم.

ومنها أن يكون قصد رؤيته تعالى في الآخرة، وهي حق وجائزة عند أهل السنة، بدليل قوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)، وإن خالف في ذلك أهل الاعتزال. ولم يزل السلف من هذه الأمة مبتهلين إلى الله تعالى أن يريهم وجهه الكريم، كما قاله العلامة حلولو. وربما يفسر هذا المراد، قول صنوه في "العينية" الملحقة بديوان الشيخ:

فيـارب بالخلِّ الحبيب محمد نبيك وهو السيد المتواضعُ
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التي إليها قلوب العارفين تسارعُ

ومن قوله في "الميمية"، وهو أصرح:

ها قد أظلَّ زمان الوصل يا أملي فامنُن وثبت به قلبـي وأقدَامي
وقد قدِمتُ وما قدَّمتُ لي عمَـلاً إلا غرامي وأشــواقي وإقدامي
دار الســلام إليها قد وصلت إذاً من سُبُلٍ أبواب إيماني وإسلامي
يـا ربنا أرنـي أنظر إليك بهـــا عند القدوم، وعــاملني بإكرامي

ومنها أن يكون الخطاب للنبي، صلى الله عليه وسلم، إذ قيل إن خطابات الناظم، رحمه الله، كلها للنبي، صلى الله عليه وسلم، فيكون: "وإذا سألتك يا رسول الله أن" الخ. واعلم أن مدعي رؤية الله تعالى ببصره في الدنيا لا يكفر، حسبما أفتى به سيدي عبد القادر الفاسي، وإنما هو غالط مخطئ، أو مفتر كذاب. قال سيدي مَحمد القادري، في"حواشي البردة":

{وحاصل جوابه، أنه إن كانت أحوال من ادعى الرؤية أحوال العارفين بالله، فهو غالط مخطئ، حيث أثبت للبصر ما كان بالبصيرة، وإن لم يعترف هو بكونه مخطئاً. وإن

كانت أحوال من ادعى الرؤية، ليست كأحوال العارفين بالله تعالى، فهو مفتر كذاب، ولا يبلغ به حد الكفر، لأن غايته أن يكون من الكبائر.} هـ[ملزمة52].

قلت: وصرح أئمة الشافعية بكفر من زعم أنه يرى الله عياناً في الدنيا، ويكلمه شفاهاً. ثم قال:

{قال ابن حجر: ولا يشترط في كفر من زعم أنه يرى الله عياناً في الدنيا، ويكلمه شفاهاً، اجتماع هذين، خلافاً لما توهمه عبارة "الأنوار". بل يكفر زاعم أحدهما.هـ. ثم رأيت الكواشي صرح في "تفسيره" بكفر معتقد الرؤية بالعين. وهو صريح فيما ذكرت. لكن عندي في إطلاق ذلك نظر. والذي يتجه حمله على رؤية أو كلام متضمن للإحاطة بذلك تعالى، لما مر أن الأصح أن لا نكفر الجهوية ولا المجسمة، إلا إن صرحوا باعتقادهم للوازم قولهم، كالحدوث، أو ما هو نص فيه، كاللون والتركيب والاحتياج}. هـ كلام الشهاب.

قلت: ويعني [بـ] الشهاب ـ والله أعلم ـ ابن حجر الهيثمي، إذ نحو هذا الكلام له في "الأجوبة الحديثية". وقال اللّقاني في"شرح الجوهرة":

{ومن ادعاها ـ أي الرؤية ـ غيره، أي غير النبي، عليه السلام، في الدنيا يقظة، فهو ضال بإطباق المشايخ. وذهب الكواشي والمهدوي إلى تكفيره.} هـ[ص112].

ورفع لمولانا عبد القادر الجيلاني، رضي الله عنه، شخص ادعى أنه يرى الله عز وجل بعيني رأسه. فقال له: أحق ما يقولون عنك؟ فقال: نعم. فانتهره ونهاه عن هذا القول، وأخذ عليه أن لا يعود إليه. فقيل للشيخ: أمحق هذا أم مبطل؟ فقال: هذا محق ملبس عليه. وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال، ثم خرق من بصيرته إلى بصره لمعة، فرأى بصره ببصيرته، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده، فظن أن بصره رأى ما شهد ببصيرته. وإنما رأى بصره ببصيرته فقط، وهو لا يدري. قال الله تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَايَبْغِيَانِ)هـ ما نقل عن مولانا عبد القادر، من "طبقات الشعراني"[109/1]

<u>ولنرجع</u> إلى الوجوه التي يحتملها قول العارف ابن الفارض فنقول:

إن أحسن الوجوه، هو حمل الرؤية التي طلبها على رؤية الله في الآخرة. ويؤخذ ترجيحه من كلام سبطه الذي هو في الحقيقة تفسير لمقصد الشيخ، إذ هو أدرى بمقاصد كلامه، وأعرف بما تشير إليه عبارته، والله أعلم. وجاء في هذا البيت بتلك العبارة الواردة

في "القرءان" في حق سيدنا موسى عليه السلام، إنما هي لتحسين الكلام بالاقتباس. ويحقق القول بأن الشيخ لم يقصد الرؤية، قوله في "تائية السلوك" التي كشف فيها عن أسرار لم يصرح بها في غيرها، قوله:

ومنّي على سمعي بلن إن منعت أن    أراك فمن قبلي لغيري لذتِ

وجماع القول في هذا المقام، كما أشرنا إليه مراراً، أن من ثبت جده واجتهاده، وصح في الله قصده واعتقاده، ولم يخرق للشريعة سياجاً، ولم يتخذ للتسلل منها منهاجاً، وصدرت منه الشطحات، المعبر عنها بالرموز والإشارات، فإنها تحمل محملاً جميلاً، ولا يبادر في الطعن في كلامه تكفيراً وتضليلاً، ويفسر ذلك القول المجمل المبهم، بما يؤثر عنه من التعبير المفصل المفهوم المحكم، كما قاله الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي، في كلام محيي الدين الحاتمي. وقد أشرتُ لذلك في قصيدة قلتها في هذا الإمام، وهي:

### [قصيدة للمؤلف في الشيخ<br>محيي الدين الحاتمي، و"فتوحاته"]

أمُحيي الدين، يا بحر الحقائقْ    ويا شمس المشايخ في الطرائقْ
طلعت لنا، وأنت الشمس غرباً    ففاجأت المشارق بالخوارقْ
وكنت علامة كبرى ولكن    بأنك خاتم الأقطاب سابقْ
رفعتم من معارفكم سماء    بنتها في"الفتوحات" كف حاذقْ
يراها بالزواهر زاهرات    ذوُو العرفان والهمم السوابقْ
ويجعلها الجهول وراء ظهر    ويغلق أذنه حذو الصواعقْ
وما يدري الجهول بأن فيها    جواهر في قلائدها شوارقْ
حياض معانيها للذوق فاضت    مواردها مفجرة دوافقْ
لها في وحدة التفريد حوضٌ    يخف لكرعه والِهٌ وشائقْ
يرونَ الكون لا يرَوْن إلا    هيأة في هواء وهو طالقْ
فهمتُهم ووجهتُهم إليه    على اللحظات قاطعة العلائقْ
فهم لله مرجعهم إليه    وهم في الله أرواحهم غوارقْ

أماتـوا أنفسهـم فنــــــاء		فـأحيـُوا في البقـاء بقرب الخالقْ
فغيبتهم إذا غـابوا حضـــور		وإن سكـروا، فما سكروا ببـاذقْ
وإن شربوا فخمرتهم حـــلال		صفت من دون تصفيـة الرواوقْ
تراهم في الحقائق أهل جمـع		وفي التشريـع تلحظهم بـفـارقْ
لهم في الشرع معتصم وثيق		يعدون المخـالف كالمنـــافـقْ
وفي التوحيد عقدهمُ جميعا		على عقد الجمـاعة دون فـارقْ
فلا جبرٌ ولا قـدرُ اعتـــزالٍ		ولا رفـضٌ ولا نصب مشـاقـقْ
يقـرون الصفات كما روَوهـا		وإن قالــوا بتأويـلهــا فلائـقْ
هجيراهـم صــلاة أو صيـامٌ		أو التقديـس مطلـعَ كل شـارقْ
لهم فتـح من اللـه ونصـرةٌ		لنصـرهم الأوامـر والمـواثـقْ
فتـقـوى الله تصحبهم وجـدٌ		وإدمـان التهجـد كـل غـاسقْ
أبـانوا عنـهم الدنيا عزوفـاً		وقالوا إن تكـن حسنًـا فطـالـقْ
وفي الأخرى يرون البعث قد آن وأن عـــذابهــا بالخلـق لاحـقْ
فهم في خوفهم أبداً في قبض		وإن بسطوا، فأرواحهـم خـوافقْ
مقامـات ترقت فـي ثبـــوت		وأحـوال تحول كلمـح بــــارقْ
أمحيي الديـن جئـت لنــا بسر		عن الفِكَر السـوابق واللواحقْ
خفـا عن كل ذي فقـه فأفتـى		بأن كتـــابــكم ككتـاب مـارقْ
رءا في جل أسطره اشتبـاها		يوقع فهمـه فــي غيـر لائـــقْ
ونحْنُ لا نسيء بـه ظنـونـاً		ونحمـلـه على معنــى يــوافـقْ
على أن الكتـاب أتى بختـــم		أبـان ما تشابـه بالوثــــائـقْ
وصـايـا بالكتاب لها اعتصام		وبالسنن المصححـة الصـوادقْ
ومن حكَم بنسج محكمــــاتٍ		عبـــارتها صوامـتٌ نـــواطـقْ
أقامت في الورى شيخاً يـربي		تلاميــذ المغــارب والمشـــارقْ
فلا سفـر يشـق ولا اغتـــرابُ		ولا طلبُ المصــاحب والمـرافـقْ
فخـذ منها بأحسن مـا تــــراه		ودع ما الصدور من معناه ضائقْ

وكن بالشرع معتصماً وباعد فريقاً بالضلالة عنه زاهقْ
ولازم سنة المختار وانهج سبيل صحبه، ولهم فرافقْ

وقد جادت القريحة بهذه القصيدة في مدح الشيخ محيي الدين و"فتوحاته"، والإشادة بذكر أحوال أهل الصدق من الصوفية. وكان إنشاؤها أثناء اشتغالي بمطالعة "الفتوحات" المذكورة، التي كنت أجتني من قطوفها الدانية ما لذَّ وطاب، وأشرب من حياضها الجارية ما صفا وعذب، وأدع مسالك ما تشابه بفهمي، وتقاصر عنه علمي، وأقف عند حدود التسليم دون إساءة ظن، أو إفاضة في طعن. وهذا هو الموضوع الذي دعاني لإثبات هذه القصيدة هنا، لما فيها من الإشارة إلى ذلك. والله سبحانه العليم بما تكنه الصدور وما تبديه، وبمن يهديه من خلقه ومن يرديه.

[الرجوع إلى تتميم ترجمة الشيخ الحرَّاق]

ثم نعود الآن إلى تتميم ترجمة الشيخ الحراق، فأقول: ومن شعره الذي كثيراً ما ينشد في زاويته، قوله، وهو من ألطف شعره:

ما للعذول غدا باللوم يؤذيني أليس يعلم في نهج الهوى ديني
إني على مذهب في الحب لو عدلت فيه البرية لم تكن لتلويني
والله لا أرعوي عنه ولو لقيت نفسي على حبه حَيْنِي من الحين
تبحر الحب في معناي فانبجست عيناي منه بسيحونٍ وجيحون
لم أعش عن ذكر من أهوى فليس يرى شيطان عذل عن الأحباب يلهيني
لقد رضيت بذلي في محبتهم وإن دعيت به من المجانين
وهبهم قتلوني في الهوى أسفا فالموت في حبهم والله يحييني
وإن جفوني فلا عار على دنف ببابهم قام في أحوال مسكين
يرجو نوالهم إذ الندى لهمُ غدا شعاراً وكاد الشوق يعنيني
إذا تفنن تعذيبي بصدهم يوما يقابله في الحب تفنيني

ولا أريد اصطباراً عنهم أبداً عندي، ولا أتمنى ما يسليني

ومن شعره، رضي الله عنه، من قصيدة:

إن طار عقل الذي قد شمَّ ريَّاكِ فكيف حال الذي قد نال رؤياكِ
لا عتب إن ذاب من نار الغرام ومن يبقى من الكون إذ يبدو محياك
سبقت في الحسن حتى صار كل جمال في الخليقة من إشراق معناك

ومن شعره، وهو مما يتغنى به العامة:

أحبتنا إن الغرام أصابني وغيَّبني حتى تحيَّرْتُ فيكمُ
فإن رُمت نوماً، فارق النوم مقلتي وإن رمت بسطاً، خفت سلوايَ عنكمُ
وإن كنت من أهلي قريباً أخاف أن تروا من محب حالة البعد منكم
وإن كنت ناءٍ عنكم خلت أنني أقصرٌ عن نهج العبيد لديكم
على كل حال ليس في الحب راحة أموت شهيداً، والسلام عليكم

ومن شعره:

نحن في مذهب الغرام أذلة إن أقمنا على الحبيب أدلَّة
كيف يظهر للعقول سواه وسناه كسا العوالم جملة
فتراه في كل شيء تراه فهو الكل دائماً ما أجلَّه
فافنَ فيه صبابة وهياماً إنَّما الصب من يعيش مولَّه

وقد كانت وقعت المذاكرة مع بعض الإخوان في قول الشيخ: "نحن في مذهب الغرام أذلة"، الخ؛ فكان يفهم ان قوله "أذلة" الأولى، بالدال المهملة، جمع دليل من الدلالة. فكنتُ بيّنتُ له مقصد الشيخ. وبعد ذلك كتبت إليه ببسط الموضوع، فقلتُ، بعد صدر الخطاب:

جمع الله قلبي وقلبكم على محبته تعالى، وألهمني وإياكم شكر نعمه التي في كل لحظة تتمدد وتتوالى، وحرسنا من اتباع خطوات الشيطان، ووقانا شر حصائد اللسان، وزيغ الجنان، وسلام عليكم ورحمة الله. وبعد فتتميماً للمذاكرة القيمة مع سيادتكم آنفاً في قول العارف سيدي محمد الحراق:

نحن في مذهب الغرام أذلة      إن أقمنا على الحبيب أدلة

فلا يخفى أن كلام الشيخ، رضي الله عنه، جار على طريق أهل الله، أهل الشهود والمعاينة، إذ يقدّسون الله في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، إذ هو الذي نصب الدليل، فأهل الاحتياج إلى الدليل عوام عند أهل الشهود، فدرجتهم منحطة عندهم، فهم ناقصون ذليلون عند هؤلاء. ولهذا قال: "نحن في مذهب" الخ. أي نحن إن اتخذنا الأدلة والبراهين على وجوده تعالى عند أهل المحبة الكاملة، الواصلين إلى مقام العرفان، ذليلون وناقصون، إذ هو تعالى ظاهر لا يخفى على من له بصيرة نافذة.

وليس يصح في الأذهان شيء      إذا احتاج النهـار إلى دليل

وقال بعض العارفين:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد      إلا على أكمه لا يعرف القمرا

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي، شيخ الطريقة، رضي الله عنه: { إنا ننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان}.

---

ثم إن شعر الشيخ الحراق كثير، وهو مجموع في ديوانه، كما أشرنا إليه سابقاً، وله في الملحون شيء كثير، ومما هو مشهور ومحفوظ في ألسنة العامة، وكثيراً ما يتغنون به، قوله:

جـــــاد عليَّ برضـــاه      الحبيـــب اللّي حبيتُ

زارني وانعم لي بالوصال      حين اشرق نور ابهاهْ

مـا بي غير هـواه

---

[لماذا اعتنى المؤلف
بشعر الحرّاق، ولم يعتن بشعر ابن عجيبة]

وهنا يرد سؤال، وهو لماذا اعتنيتُ بشعر العارف الحراق، ولم نعتن بشعر العارف ابن عجيبة، وهما فارسا رهان، عند تسابق أعيان أهل التصوف في عصرهما، في الميدان، وكلاهما من رؤساء الطائفة الدرقاوية في ثغر تطوان؟ فالجواب هو ما تقدم في الجزء الأول

من"الفهرسة"، من أن الشيخ ابن عجيبة، قد أخرج نفسه من دائرة الشعراء، واعترف بأنه لم تكن له فيه سجية، ولا كان ينساق إلى طبعه لتعلم علم العروض. وبيّنا في آخر "شرح المشيشية"، لما نقلنا نظمه الذي حاذى به تلك التصلية، وأوله:

وصلّ إلـه العرش في كل لمحة      على عنصر الوجود سرّ محمد

الخ. انـه لا يتوجه انتقاد ولا بحثّ على نظم الشيخ من جهة انكسار في الوزن، أو عدم اتساق في العبارة، من مراعاة المحسنات البديعية، واتباع الفنون الشعرية، من المجازاة الرقيقة، والمبالغات الخيالية، التي يعذب بها الشعر ويرق ويروق قبوله لدى أهل هذا الفن الأدبي. فالشيخ ابن عجيبة، لا يعدّ من هذه الحيثية من الشعراء، ولا يرسم في لائحة الأدباء.

أما الشيخ الحراق، فهو في شعره من أرق الشعراء، وأبلغ الأدباء. وذلك أنهم قالوا: بناء الشعر من أربعة أشياء: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية. قال في "العمدة":

{ فهذا هو حد الشعر، لأن من الكلام موزوناً مقفىً وليس بشعر، لعدم الصنعة والبنية}هـ[77/1]. وقالوا: الشعراء أربعة؛ شاعر خنذيذ وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره، وشاعر مفلق، وهو الذي لا رواية له، إلا انه مجوّد كالخِنذيذ في شعره، وشاعر فقط، وهو فوق الرديئ بدرجة، وشُعرُورٌ، وهو لاشيء. قاله في"العمدة". وأنشدوا:

الشعراء فاعلمنَّ أربعـــة      فشاعر لا يرتجى لمنفعة

وشاعر ينشد وسط المجمعة      وشاعر آخر لا يجرى معه

وشاعرٌ يقالُ خمر في دعة

[هـ-73/1]

وعليه، فالشيخ ابن عجيبة أراحك من هذا النقد، ولم يعقد معك في هذه المشاركة أي عقد. أما الشيخ الحرَّاق، فإنه برز في هذا الميدان، وأجرى فيه سوابق الإحسان، وأحرز قصبة التفوق في هذا الشأن، وعليه، فالواجب الأدبي يقتضي الإشادة بشعره، والإشارة إلى بعض بنات فكره، إذ لو كان أدركه الفتح ابن خاقان، لأدرجه في كتابه "قلائد العقيان".

## [سبب افتراق الشيخ الحراق والشيخ ابن عجيبة
## في منهج التجريد والتربية]

هذا مع أن كلاً من الشيخين يعدّان في طبقات الفقهاء والمفسرين، والعلماء العاملين، والصوفية العارفين. وهنا يفترقان؛ فالشيخ الحراق، كما قدمنا، كان اهتمامه بالباطن وتعميره بذكر الله، وأن التجريد يكفي فيه تجريد الباطن، لأن عليه المدار لأنه محل القلب، والقلب هو أمير الأعضاء الظاهرة، فإذا صلح صلحت الأعضاء التي هي أعوانه، وإذا فسد فسدت تلك الأعوان، وهو مقتضى قوله، عليه السلام: " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".

فكان الشيخ، رضي الله عنه، لا يربي أصحابه إلا على هذا المنهج، فلا يأمرهم بتخريب ظواهرهم، من كشف الرأس، ولبس المرقعات، والتسول في الطرقات، لأن شيخه، كما تقدم، لم يأمرهُ بشيء من ذلك؛ إنما أمره بالدعوة إلى الله. فكان، رضي الله عنه، على الطريق المحمدي، يدعو أصحابه إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويردهم إلى الله بالتي هي أحسن، كما يرى ذلك كل من يطالع رسائله التي فيها بيان أسس طريقه، وذلك لأن تجريد الظاهر وتخريبه، وترك الأسباب بالكلية، مركب صعب، ومسلك موحش، وفيه مهابة يحار فيها جل السالكين، ولهذا كثير ممّن سلكها يرجع القهقرى، ولأن أهل العلم الظاهر المتمسكين بمراسم الشريعة، لا يروقهم وقوع ذلك ممن له ارتسام في دائرة أهل العلم الشرعي، ولاسيما من يكون مشتغلا منهم بالتدريس والتعليم، لإعراضهم عما كلفوا به من تبليغ ما أمروا بتبليغه الأمة. وهم وإن حسنت نيتهم في الزهد في هذه العاجلة والتخلي عنها، فقد أخلوا بما هو الأولى، فقد قال إمام المالكية وحافظها، أبو بكر ابن العربي المعافري:

{ لقيت أبا حامد الغزالي ـ وهو من أشياخه الذين كان ينوه بهم ـ وهو يطوف، وعليه مرقعة، فقلت: يا شيخ: العلم والتدريس أولى بك من هذا، إذ بك يقتدى، وبحكمك إلى معالم المعارف يهتدى}هـ[بنقل ابن سلطان في شرح الشفا،509/2].

وبمقتضى هذا، قام علماء تطوان في وجه ابن عجيبة، لمَّا تجرد ولبس المرقعة، وصار يطوف في الطرقات يتكفف الناس، كما تقدم ذلك لنا مفصلا في ترجمته. كما قام أيضا علماء فاس في وجه شيخنا ابن الخياط ،حتى امتحن بالسجن، كما سبق.

هذا وقد تقدم لنا أن الشيخ ابن عجيبة كان يقول إن تجريد الظاهر والباطن هو التجريد الكامل، وهي طريقه التي جرى عليها وقاسى الأمرين في سبيلها، وبها كان يأمره شيخه البوزيدي، كما سبق في ترجمته. وقد قال في" شرح الحكَم":

{والتجريد الكامل في الظاهر، هو ترك الأسباب، وتعرية البدن من معتاد الثياب، وفي الباطن، هو تجريد القلب عن كل وصف ذميم، وتحليته بكل وصف كريم. وهو التجريد الكامل الذي أشار إليه شيخ شيوخنا، سيدي عبد الرحمان المجذوب، بقوله:

أقارْيينْ علم التوحــيد      هَنَا البْحُور اللّي تغْبِي

هذا مْقامْ أهل التجريد      الواقفِيــــن مْــع ربِّي

هـ13/1}.

وهذا التجريد هو الذي ينطبق عليه الخروج من الدنيا والتخلي عنها، وهو الموت في عين الحياة عن جميع التصرفات والحركات والإرادات. وهو الرجوع إلى الله اختياراً. قال الشيخ محيي الدين:

{الرجوع الاختياري إلى الله يشكر عليه العبد، قال عز وجل:(وَإِلَيْهِ يرْجِعُ الأمْرُ كُلُّهُ). فإذا علمت هذا، فارجع إليه مختاراً ولا ترجع إليه مضطراً، فإنه لابد من رجوعك إليه، ولابد أن تلقاه، كارهاً كنت أو محباً، فإنه يلقاك بصفتك لا يزيد عليها، فانظر لنفسك يا وليّ. قال صلى الله عليه وسلم: "من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه". وأخبرنا في الكشف بالإخبار الإلهي، المنفوث في الروع من الوجه الخاص، فقيل لنا: من استحَى من لقاء الله آنسه الله وأزال خجله. وذلك أن العبد ما يجعله يستحي إلا ما ظهر به من المخالفة أو التقصير عن حق الاستطاعة، وما ثمّ غير هذين، فأنس الحق في ذلك، أن يقول له: يا عبدي إنما كان ذلك بقضائي وقدري، فأنت موضع جريان حكمي. فيأنس العبد بهذا القول، فلو قال هذا القول العبد لله لأساء الأدب مع الله، ولم يسمع منه. وبهذا بعينه يؤنسه الحق؛ فهو من جانب الحق في غاية الحسن، ومن جانب

الخلق في غاية القبح. قال صلى الله عليه وسلم: " الحياء خير كله" قال: "والحياء لا يأتي إلا بخير". وأي خير أعظم من هذا الخير، أن يقيم الحق حجة العبد، أنساً لهُ ومباسطة، وإزالة خجل، ورفع وجل. فسبحان اللطيف الخبير، المنعم المتفضل}. ثم قال:

{ وقد علمنا أن لقاء الله لا يكون إلا بالموت. علمنا معنى الموت، فاستعجلناه في الحياة الدنيا، فمتنا في عين حياتنا عن جميع تصرفاتنا وحركاتنا وإرادتنا. فلما ظهر الموت علينا في حياتنا التي لا زوال لها عنا حيث كنا، التي بها تسبح ذواتنا وجوارحنا وجميع أجزائنا، لقينا الله فلقينا، فكان لنا حكم من يلقاه محباً للقائه. فإذا جاء الموت المعلوم في العامة، وانكشف عنا غطاء هذا الجسم، لم يتغير علينا حال، ولازدنا يقيناً على ما كنا عليه، فما ذقنا إلا الموتة الأولى، وهي التي متناها في حياتنا الدنيا، فوقانا ربنا عذاب الجحيم، فضلا من ربك، ذلك هو الفوز العظيم. قال علي، رضي الله عنه: لو كشف الغطاء، ما ازددت يقينا. فمن رجع إلى الله هذا الرجوع سعد، وما أحس بالرجوع المحتوم الاضطراري، فإنه ما جاءه إلا وهو هناك عند الله، فغاية ما يكون الموت المعلوم في حقه أن نفسه التي هي عند الله، يحال بينها وبين تدبير هذا الجسم الذي كانت تدبره، فتبقى مع الحق على حالها، وينقلب هذا الجسد إلى أصله وهو التراب الذي منه نشأت ذاته، فكان داراً رحل عنها ساكنها، فأنزله الملك في مقعد صدق عنده إلى يوم يبعثون، ويكون حاله في بعثه كذلك، لا يتغير عليه حال من كونه مع الحق}. أنظر تمام كلامه في (وصل)، من الجزء الثالث، صحيفة 223، وختم هذا (الوصل) بأبيات منها:

إن الرجوع هو المطلوب للهِ    إليه عن كل كون فيه بالله

ثم قال:    فكن مع الله في الأحوال أجمعها    ولا تكن عن شهود الله بالسّاهي

[هـ]

ومن هذا المعنى، ما أجاب به حجة الإسلام الغزالي تلميذه أبا بكر ابن العربي، لما لامه على التجريد ورفض الدنيا، وأسلم وجهه إلى الله، واستمسك بالعروة الوثقى: {هيهات. لما طلع قمر السعادة في فلك الإرادة، أشرقت شموس الأفول على مصابيح الأصول، فتبين الخالق لأرباب الألباب وذوي البصائر، إذ كل لما طبع عليه راجع وصائر} وأنشد:

تركت هوى ليلى وإني بمعزل    وصرت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأكوان حتى أجبتها    ألا أيها الساري رويدك فانزل
فعرست في دار الندى بعزيمةٍ    قلوب ذوي التعريف عنها بمعزل
غزلت لهم غزلاً رقيقا فلم أجد    لغزلي، نساّجاً فكسرت مغزلي

[هـ شرح الشفا لابن سلطان:509/2].

---

### [الرجوع إلى مسألة اختلاف الشيخ الحرّاق والشيخ ابن عجيبة في السلوك]

ولنرجع إلى طريقي الشيخ الحراق، والشيخ ابن عجيبة، وأنهما يفترقان في السلوك، وأن الأول ينظر إلى قول صاحب "الحِكَم": {إرادتك التجريد، مع إقامة الله إياك في الأسباب، من الشهرة الخفية}، وأن الثاني لقوله:{وإرادتك الأسباب، مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العلية}. [13/1].

فإن الأول، فيبقى في ظاهره سالكا مسلك أهل الأسباب، متمكناً في باطنه من مقام التجريد، فلم يخرق في حاله عادة، ولم يبدل لباساً، ولا خالف في التشريع أساساً، حسبما سبق ذلك. وذلك والله أعلم، أن حال الشيخ الحراق كان كما رءاه شيخه، يقتضي أن يكون سالكاً هذا المنهج، لينتفع به الجم الغفير في ذلك العصر. وإليه إشارة شيخه في عدم إرشاده إلى طريق تجريد الظاهر، لأن الطريقين، الإقامة مع الأسباب أو الخروج عنها بالتجريد، لا تكون ثمرتهما إلا بإذن؛ ومن علامة الإذن التيسير.

وعليه، فمن أقامه الله في الأسباب، فلا ينبغي أن يطلب غيره، ويتشوف للتجريد، إلا بإذن وإخراج من الله. وإنما العارف شأنه السكون، والمكث حيث أقامه المولى، حتى يكون سبحانه هو الذي يتولى نقله عما أقامه فيه. وانظر إلى ما ذكره صاحب "الحِكَم" أنه دخل على شيخه، يعني أبا العباس المرسي، قال:

{وفي نفسي العزم على التجريد، قائلا في نفسي: إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة التي أنا عليها، بعيد من الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس. فقال لي من غير أن أسأله: صحبني إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها، فذاق من هذا

الطريق شيئا، فجاء إليَّ فقال لي: يا سيدي. أخرج عما أنا فيه، وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا. ولكن امكث فيما أنت فيه. وما قسم الله لك على أيدينا، فهو لك واصل. ثم قال الشيخ، ونظر إليَّ: وهكذا شأن الصديقين. لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم. فخرجت من عنده، وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى} هـ[شرح ابن عجيبة للحِكَم: ص14]. وكأن هذه الطريقة، هي التي قيل للشيخ الحراق إنه عطائي الذوق.

وأما الشيخ ابن عجيبة، فإن شيخه البوزيدي كان يرى فيه استعدادا لتجريد الظاهر، فكان يأمره بالإمعان فيه، حتى إنه كان يأمره بأشياء كانت تثقل عليه أولا، كالتسول في أبواب المساجد يوم الجمعة. ولكنه ما وسعه إلا الامتثال، حتى سهل عليه ذلك، وصار عنده من المعتاد. فأقامه الله في التجريد، فشوقه للأسباب، مع إقامة الله له في هذا المقام من انحطاط الهمة. فهو آخذ بقوله: "وإرادتك الأسباب، مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العلية".

وكأني ألاحظ أن وجه المناسبة في إشارة شيخ الحراق بالوقوف مع الأسباب الظاهرة، هي الأوفق به، من حيث إن تربيته، في الغالب، كانت في الحواضر، كتطوان وفاس والرباط وغيرها. وأهل الحاضرة يصعب عليهم خرق العوائد، وارتكاب ما يسقط مقامهم، في نظرهم، عند العامة، ولا يرضون بلباس الدون من الثياب والمرقعات، بخلاف الشيخ ابن عجيبة؛ فإن الغالب في تربيته كانت في البادية. وأهل البادية هم متجردون في الملابس والمآكل دائماً، لأنهم يرضون بالثياب البالية المرقعة، وعدم التأنق في المآكل والمشارب، فهم يأكلون في الأسواق، ويحملون أزوادهم على ظهورهم ولا يبالون. فإن تجلّى لهم شيخ بلباس التجريد، أو أمرهم به، فإن ذلك لا يصعب عليهم.

هذا ما جال في فكري، والله أعلم. والمؤمن من حيث هو مؤمن، ينظر بنور الله، فضلا عن العارف المربي الذي يرشد المريد إلى ما يليق به، ويأمره بحسب استعداده وقبول فطرته.

---

[موافقة كتابة المؤلف في هذا الموضوع للأيام العشر]

هذا، وقد وافق الكتابة في هذا الموضوع، اليوم الثامن من شهر ذي الحجة. وهو أحد الأيام العشر التي أقسم الله بها في "القرءان" في قوله: (وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ)، على ما ورد عن بعض المفسرين، ومنهم سيدنا عبد الله بن عباس، وابن الزبير ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقد ثبت في "صحيح" البخاري عن ابن عباس مرفوعاً:

"ما من أيام العمل الصالح، أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام". فإني أرجو منه سبحانه أن يكون هذا العمل من الأعمال الصالحة التي هي من أحب الأعمال إلى الله، إذ هي من قبيل ذكر الصالحين الذين بهم تتنزل الرحمات. ومنها اليوم التاسع الذي هو يوم التعريف، ومقام التقرب والتشريف، واستمطارالرَّحمات، وتلقي البركات والمبرات، ومناجاة العلي الأعلى. وتبدو هنالك للمعتبر الآيات، وتتجلى مشاهدة الأمم المختلفة الألوان، متباينة اللهجات في النطق واللسان، كلها تضج بأصواتها، وتنادي الواحد القهار بصنوف لغاتها، وهي خاضعة بذواتها، خاشعة بوجوهها، سائلة لحاجاتها، متضرعة لسد خلَّاتها.

هذا يوم تجلِّي رفيع الدرجات، لعباده بوافر البركات، وجميل المبرَّات، وفي هذا اليوم يقبل، جل جلاله، التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وفي هذا اليوم تلبِّي الأشباح، بعد أن لبَّت منها الأرواح.

فهذا أنا عبدك الخاضع لجلالك، المعترف بعجزه عن الوصول إلى ذلك المقام العظيم، وضعفه عن سلوك تلك المسالك، ولكن رجائي أن تدخلني بفضلك في جملة من لبَّى وطاف، وحظي بتلك الأوصاف. وهاأنا في هذه العشية أحضر بقلبي ونيتي في تلك البقاع الشريفة، وأدعو أولا، بما قاله النبي، صلى الله عليه وسلم، وإنه دعاؤه ودعاء من قبله من الأنبياء : "لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير". ثم ثانيا، بالدعاء الثابت في"معجم" الطبراني: "اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخير مما نقول. اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي. اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة

الصدر، وشتات الأمر. اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح. اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري. أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عيناه، وذل جسده، ورغم أنفه لك. اللهم لا تجعلني بدعائك ربي شقيا، وكن بي رءوفا رحيما، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين". هـ بنقل صاحب سِفْر السعادة: [ص72].

----

[القصيدة التي أنشأها المؤلف
ووجه بها لتقرأ على الروضة الشريفة]

وفي هذه الأيام الشريفة، كنتُ أرسلت إلى سيدي وسندي، ومن هو في القرب من الحضرة العالية معتمدي، وبه في الدنيا والآخرة اعتصامي، ومن مدده الفائض من حضرة الحق استمدادي، قصيدة لتقرأ على روضته الشريفة. فقام المرسل معه بتبليغ الرسالة وإشرافه عليها، حتى قرئت على قبره الشريف، وكان تولى قراءتها ـ حسبما أخبرني المرسل معه ـ أحد شرفاء المغرب الكتانيين. وهذه القصيدة كنت أنشأتها شوقاً واعتذاراً، وصدّرتها بقولي:

وقلتُ معتذراً ومتشوقا، وبأسباب الرجاء والآمال متعللا ومتعلقاً، منوهاً بالروضة الشريفة، مع ذكر فضائل المدينة المنورة، وما احتوت عليه من المزارات المباركة، والأماكن المقدسة، ثم التَّحسُّر على ما فات من فريضة الحج، والترنم بذكر تلك الشعائر المرسومة، والمناسك المحترمة المفروضة والمسنونة. وهي رسالة من هذا العُبَيْد إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

| | |
|---|---|
| إليكَ رســـول الله يـا روحَ مهجتِي | أقـدِّم تسليـمي وأزكَـى تحيَّـةٍ |
| إلى روحك العليـــا وتربتـك التـي | لهـا الشرف الأعلـى على كل تربـة |
| وأشرح عـذري في التخلف عنكـمُ | وعن فرض حجّـي واستناني بعمـرة |
| لضعفِ عـرَا جسمي، ووهنٍ بأعظمي | ورقـة صبـري، واختـلالٍ بصحـة |

أراني لا أقوى على شقة النَّوَى ولا أستطيع حمل تلك المشقة
وإن كان بذل النفس فيكُم لهيِّناً إذا حظيت عيني إليكم بنظرة
أهُم بأمر الحزم، لو أستطيعُه وقد حيل ما بيني وبين عزيمتي
فجُودُوا، إذا لم يكن الوصل يقظة على عبدكم في النوم منكم برؤية
على أنني رغم العوارض لم أزل أأمِّل تسهيلاً لإدراك رغبة
أتيتُ بقلبي للحمى متوسلا ومستغفراً من كل ذنبٍ وزلّة
فباب الرجَا فيه التعلل بالمنَى وفي اليأس قبض الروح عن روْح رحمة
لأسعد في لثم التراب الذي مشتْ بها قدم لا تنتْ لها صمّ صخرة
أشاهد ثمَّ مهبط الوحي والهدى ومأوى به الأملاك حامت وحفت
أزُور به قبراً يواري نبينا ويكبر تعظيماً لخير البرية
هو المشهد الأسنى، هو الموضع الأسمى، هو الروضة العليا على كل روضة
هو البقعة الشمّا التي فاقت السَّما هي جنة قد طاولت كل جنة
ضريح به خير الورى وشفيعهم وسيّدهم مجداً، وواحد رفعة
ضريحٌ توارَى النُّور فيه وما خبا على أنه يزداد في كل لحظة
ضريحٌ يضيعُ الطيب إن ضاع عرفه ونفحته تعلو على كل نفحة
مكان له عند الإلهِ مكانة فرتبته قد صغَّرت كل رتبة
يجاوره صدّيقه خير صاحبٍ وأخلصهم في خلّة ومودة
وأولهم من بعده في خلافة وأقومهم فيها بأحسن سيرة
وكم جاء في القرءان من آي فضله وفي غار ثور مَفْخرٌ في المَزية
إذا هو ثانيَ اثنين لا ثمّ غيره يزجي النبي حزنه بالمعيَّة
وناهيك فضلا صهره لنبيه وتقديمه للناس في حال حضرة
ويتلوه قبر قائل الحق جهرة وفي الله لا يخشى إثارة لومة
هو عمر الفاروق أعدل حاكم وأصدقهم لله في كل لهجة
هو فاتح الأقطار شرقاً ومغرباً وبابٌ حصينٌ مانعٌ كل فتنةِ
فيا طيبة الزهراء فزْتِ برفعة من العليّ الأعلى وخير وحرمة

فأنتِ لك الفضل العظيم الذي به — أرى عمراً أعلاكِ من فوق مكة
وذاك به أفتى إمامنا مالك — وأيَّد فتواه بأوضح حجة
وكيف وقد ضُمّت إليكِ خصائص — تقاصر عن إحرازها كل بلدة
فلا يعبث الطاعون فيك بساحة — وأنت من الدجال في حرز عصمةِ
وأنت التي تنفي الخبيث لخبثه — وينصع فيكِ طيّبٌ بالطويةِ
وإن أحد أومَى إليك بمكْرهِ — أهينَ وأضحى حاملا وزر لعنةِ
وأهلكِ قد أوصى بهم سيّد الورى — وقال حقيق عندكم حفظ جيرة
وسكناكِ في قيد الحياة مفضل — وميْتك يهنأ باقتناء الشفاعة
دعا لكِ بالخير خاتم رسْله — دعاء مجاباً لا يشاب بخيبة
ترابكِ فيه البرء من كل عارضٍ — من الداء في إخلاص عقد ونية
وفي تمركِ المعسول جاء مبينا — شفاء سريع من تطاول علة
فعجوتكِ السمرا مِن السم نافع — تناولها للناس أول بكرة
بها عالج المختار سعداً وقد شكا — فؤاداً بسبع عجوةٍ بعدَ وجْأة
فعالِج بها في صدق قصد تبركا — وتحسين ظنٍ، واعتقاد لِحكمَة
وفي رمضان إن يصم بكِ صائم — يضاعفْ له في الأجر في ألف مرّة
كمثل صلاة جمعة إذ أتى بها — حديث كما قد قيل في كل قُربة
ومسجدكِ الأسمى أناف بفضله — وخُصّ بقطع في تحقق قبلة
ومن قرَّ فيكِ ثم أقلع جافياً — فقد ساء في مسعاه أسوأ جفوة
ومن عاب فيكِ تربة وازدرى بها — فحقّ له التأديب ضرباً بدرة
وقد كان قال مالك في الذي أتى — بذا القول وهو ذو اعتلاء وعزة
بسجن وضرب من ثلاثين ضربة — وقال حَريٌّ أن يقاد بقتلة
وأنتِ كبيت الله في الحرمة التي — تصانُ بها عن طرد وحشٍ وظبية
وفيكِ مزاراتٌ جليل مقامها — لها صالحو الزوار زارتْ وأمَّتِ
ويحظى البقيع إذ حوى كل فاضل — من الآل والأصحاب أو ذي مبرَّةِ
به خير الأصحاب والعمَد التي — بها قام هذا الدِّين في خير ملةِ

وقد قيل في تعدادهم في قبورهم ... بعدة ءالاف تحد بعشرة
ومن فضله أن كان مدفن آله ... وبضعته الأزكى لدى كل بضعة
به دفنت مولاتنا نخبة الورى ... وذروة هذا الكون من دون مرية
هي الزهرة الزهرا، هي الغرة الغرا ... هي الذروة العليا على كل ذروة
ابنها جليل القدر وابن جليلة ... وسيد ذي الدنيا بمجد وفطنة
هو الحسن الموصوف بالعلم والتقى ... هو المصلح المحمود في كل خصلة
به أصلح الله الفساد الذي سعى ... إليه ذوو الأهواء في بثّ ثورة
ومشهد إبراهيم نجل نبينا ... يضيء به نوراً كثاقب نجمة
فقِيدُ رسول الله حال حياته ... صغيرا، ولكن أكبرٌ في المصيبة
بكاه الرسول خاشعا لفراقه ... وأجرى عليه دمعة بعد دمعة
ويروى لدى الحفّاظ أنه لو بقي ... لكان حريا قدره بالنبوة
وفيه لأزواج النبي مَشاهد ... تفردْن في تلك القبور بقبة
وفيه ابن عفان توارى لفضله ... شهيدا من الأعداء في سوء نكبة
أحاطوا به في وقعة خجلت لها ... وجوه ذوي الإسلام، والأرض رجتِ
ولكنه الموسوم بالجود والندى ... وبسط الأيادي للنبي ببهجة
وقد قام في الحال الشديد ببذله ... وجهز جيشا للغزاة بعُسرة
فأنفق مالاً لا يعد كثرة ... وأعطى عطاء دون خشية عيلة
وقال النبي إنه بعد هذه ... يفوز ولا يخشى انخزالاً بعثرة
وفضل قباء في المساجد بَيِّن ... إذ أسِّس للتقوى من أول مرة
وفيه رجال جاء في الذكر فضلهم ... وأنهمُ في الطهر أهل محبةِ
وفيه صلاة المرء يعظم قدرها ... كأجر اعتمار في توفر أجرة
وكان رسول الله يركب نحوه ... بسبت وفي الاثنين من كل جمعة
ولم تزل الأصحاب بعد وفاته ... تؤمه حفظاً واتباعاً لسنة
وفي مسجد الفتح الفضائل جمة ... فكل دعاء آيب باستجابة
به نزلت "إنا فتحنا" ففتحت ... بها لدخول الدين أبواب نصرة

وقال النبي إذ تلقاها إنها … أحب من الدنيا ومن كل زهرة
وفي أحُدِ نور السعادة ساطع … لقد خصَّ من بين الجبال بأثرة
يحب النبي والنبي يحبه … وحبه حقاً واقع عن حقيقة
به شهداء لا يقاس لفضلهم … شهيد وإن أربى على كل نسبة
وفيه مقام للشهيد الذي سما … وعُذّب في ذاتِ الإله بشدة
شهيد له أهل السماوات[ ] … وغاظ له المختار أكبر غيظة
هو عمه الأدنى، ومن أسد غابة … فاعزز به من حمزة خير أسرة
مزارته في كل حين يؤمها … جموع تَوالى دون قطع وفترة
وقد كانت الزهراء تاتي لقبره … فتبكي إذا اشتاقت إليه وحنَّت
وكان يزور المصطفى شهداءه … ويأتي إليهم كل عام وحجة
ومن بعده قد زار كل خليفة … وجاء إليهم لاعتبار بعبرة
ووادي العقيق إن ترد برد مائه … تجده رحيقا في انسجام ولذة
وفيه بسيطٌ للمُقام مبارك … له عن رسول الله أبلغ مدحة
وقال أبو حفص إذا جاء ماؤه … أتينا فمسحنا به خير مسحة
وحسن هواه في نواحيه منتجٌ … مَشيد قصور رائقات لنزهة
وراق لأهل الشعر لطف مناخه … فجادت بأحلى الشعر فيه وغنت
معاهد تندى العين عنها بدمعها … وتشتاقها الأرواح في كل روحة
ولكنه إن حال لوصلها … فليس محالاً وصفها حال فكرة
ويا حسرتى أن فاتني غسل رَايغ … ولبس ردائي واشتمَالي بأزرة
وأخذي هديي واستناني مصلياً … صلاة تقام ركعة بعد ركعة
وتلبيتي للهِ في كل ما علتْ … به ناقتي في ربوة بعد ربوة
ألم إلى تلك البنية مُحرماً … بقرن اعتمار، أو بإفراد حَجة
وفي ذي طوى أطوي ذنوبيَ قاصداً … لباب كداءٍ حيث تلك الثنية
وأدخل من باب السلام مسلماً … على الحجر الأسنى بلمس وقبلة
أطوف ببيت الله سبعا مواليا … طواف قدوم وهو أول قدمة

وأصفو من الأدناس بالسعي في الصفا، ويُحلي مَـــرارتي المُرور بمـــروة

وترْويتي في ثـامن الشهر في منىً ثـروي أواري، إذ أبلـــغ منيـــتـــي
وفي عـرفـاتٍ أجتني من معارف بها تنجلي عنـي جهـــالـة غفلتي
أرى أمـة المختـــار تعنو وجوهها وأصـــواتها لله بالذكـر ضجّـــتِ
لغـــاتهم شتى، وقصدهم واحــدٌ وكل إليـه مسلـــمٌ وجـهَ وجهـــة
وأشهد جمعاً لا يحـــاط بحصرهم كأنـه يـوم الحشـــــر أول وقفـــة
وأرمـي الجمار رامياً كل خطـوة يوسوس لـي الشيطان فيهــا بخطـأة
وعنـد إفاضتي أرى الفضل فائضـاً على الركب من سهل ومن فوق هضبة
وفي مشعري أرجو قبول شعائري وإدمـــان ذكـري، في مسيري ورحلتي

[بعد هذا ترك المؤلف، رحمه الله، بياضا وكتب بهامش الصفحة: هذا بياض أبقي لأجل إلحاق ما بقي من 10 أبيات ضلّ عني موضعها. انتهى من خطه. ثم استأنف قصيدته بقوله]:

وأبكي بكـاء لا تكُفّ دموعـــــه على بيْن بيت الأمن من كل شقوةِ
فيامن له حل الأمـــور وعقدها وليس يغيب عنـه مثقـــال ذرة
ولا يخفى في أرض عليه ولا سما خفيّ ولا أخفى، ولو مر خطـــرة
أضفني إلى ركب الحجيـج وعمّني بأفضالك الفيـاض في ذي العشيـة
وهب لي منك نصرة ورعـــاية تكون لي الحسنى بها عند ختمتي
بحـق الـــــذي فضلته وأضأتـه سراجا لنا كالشمس لاحت بضحـوة
عليـه صـــلاة منك ما هبّت الصبا وطابت لنا الأنفـاس من طيب طيبة

---

وهنا انتهت القصيدة التي أرسلتها إلى الروضة الشريفة، راجياً من الله أن تكون حظيت بالقبول.

ولا بأس بإلحاقها بتوشيح كنت أنشأته في معنى المولد والإسراء، والإشارة إلى الليلة التي كان فيها للمختار على البراق استواء، وناسب إثباتها إقبال ليلة المولد الشريف، وهو:

هل دَرتْ شمس الضحى إذ طلعت     وأذاعت نـــــورها في الأفُق
أدَرتْ من أي نـــور سطعـــــت     نور أسمى الخلق سامي الخُلق

دُرة الكـــــون وسـر الثقلـين
مرشد الخلق إلى مُثلى الطريقْ
نــاصر الحق بتشديـــد ولين
فهْو في اللـه بـرق وبريــــقْ
يَعد الطـائع مـــأوى الجنتـين
يُوعد الطاغي بعذاب الحريقْ

نوره الوقاد في الكون سرى     فمحا عنهم سوء الضلال المحدق
وانجلى الشك لديهم وانمرى     إذ بدا الدين كبـدر مُشــــــرق

جـــــاد من أنفسنا أنفسنـــا
علـم الحكمة والذكر الحكيمْ
ضاءت الأرض بهـاء وسنـا
إذ هداها للصـــرط المستقيمْ

[ ]

بـدأ الوحي برؤيا ارتسمت     وأتت في صدقها كالفلق
يالها من رؤيا حق بشرت     برقى في العلا بـعْد رمق

ألِـف الخلوة عن كـل أليــــفْ
فأتاه الحق في غار حـــراءْ
جـاءه جبريل بالديـن الحنيفْ
خاليا عن كل اشتباه وافتـراءْ
ضمّه في صدره ضم اللطيفْ

لتلقي النور من رب السماءْ

عاد والخشية تعلو والحياءْ     من شديد الجهد مما لقِي

زملوني زملوني بغطـــاءْ     إنني من حالتي في قلــق

وأتى في حالـــه مرتعـــــــدًا

مخبرا زوجته خيـر النســـاءْ

فسرت عنه بلطـف مـــا بـــدًا

بيمين لاترى خـزي البـــلاءْ

أنت تقري الضيف والدهر عدًا

تحمل الكل وتغني الفقـــرًا

وتوالى الوحي بعد وانجلى     بنزول الذكر حال العرق

وتلقى بثبـــــات وتـلا     فاتحاً باللـه ءاي العلق

زاد في تشريـــفه إذ قدمـــا

سيد الأمـلاك برقيه البـــراقْ

رق فـي تدليله لمــــا رَقَـى

جامعا في نفرة عن أن يساقْ

رد فـي نفـرتـه إذ أقسمـــا

انـه خيـر نبـي لـــــه راقْ

فنحا المقدس يسري في الدجـا     طاويا في الحين أقصى الطرق

وهنـا الوفد الرسولي ابتهجـــا     إذ بـه صلى الرســـول المرتقِي

ثم في المعـراج من بعد سما

إلفـه الروح الأمـــين المنتـقى

فارتقـا السبـع سمـــاء فسما

وبهـا خير النبـــيئين ٱلتَقـــى

وجــرى في إسرائه إذ يـمَّما

مرتقى عنه السوى قد أحجما

فاستوى السدرة حيث المنتهى     ودنا يسمع خط [     ]
رتبة من ربه قد نــــالها     خصه الباري بها في الأسبق
زجٌ بالنور به نور النُهى
عالم العزة والملك البري
في مقامات علت أمَّ لها
للتجلي واللقــا والنظر
ومعان ومعــال حلّها
لم تكن إلا لــهُ في القدر
وأتى من إسرائه مبتهجا     مخبراً أمته حسن اللّقــي
سعد المؤمن حيث انتهجا     منهج التصديق، والخب شقِي
طلعت طلعته والكفــر عم
وظلام الجهل يكسو كل حيْ
فمحا بالنور مسود الظلم
وطوى الكفر بحق أي طيْ
وتحلى العلم في محلاه الأتَم
وغدا مفخر كهل وفتِيْ
ألّفت البعثة ما افترقا     من قلوب وزعت في فرق
وبدا الكل بكل مشفقا     وعلى مورد ودٍّ يلتــقِي
لم تزل أمته رغم العــدا
تهتدي في إسلامها طلق العنانْ
بذلوا الجهد بتحكيــم المُدى
وبتضليل وتحبيــر البَنانْ
وهو نور في القلــوب اتقدا
ليس يطفيه لســان أو سنانْ
أمة مسبوقة في الزمن     وهي في تفضيلها لم تسبق

كم لها من ربـها من منن　　من نبي في العـلا لم يلحق

أمة الإسلام قومـوا وانـهضـوا

واقصدوا في سعيكم نحو الأمامْ

وهُم القوم العــدا قد ركضـــوا

واستعَدوا بـصـــواريخ السهامْ

فاجعلوا الوحـــدة أنتـم تفرضُ

واتّـحـــاداً بينكم قبل السهـامْ

لو أقمنا الدين ما خفنا العدا　　ولكُنـا في الرعيــل الأسبــــق

وعلت دولتنا طـول المَدى　　في رُبى الغرب وأقصى المشرق

ربنـا إننـــا مددنـــــا كفنـــا

بخُضوع وانكسار في القلوبْ

فبعـزّ وبنصـــر حُفَّنـــــــا

لا تـؤاخذنـا بتكثـير الذنوبْ

وارحـم اللهـــم ربي ضعفنـــا

يـا كريماً مـن دعـــاه لا يخيبْ

---

[رجوع إلى ترجمة الشيخ ابن الخياط،
وذكر بعض فوائده]

والآن ينقلب القلم إلى ما كنا فيه من ترجمة شيخنا ابن الخياط.

إن شيخنا المذكور، كان آية كبرى، وغرة غرا، في زمانه، وحائز قصبات السبق في ميدان المعارف والعرفان عند سابق أعيانه، ومكنه الله في أرض العلوم، وجعل إليه التصرف في فنونها من المنثور والمنظوم، هجيراه الكتب والتقييد لنفائس الفوائد، وجمع ما دقّ منها من الروائع والشوارد، مع غبطة تامة، وعناية فائقة في تبليغها لذويها، وإذاعتها بين طلابها ومحبيها، مدروسة ملنـى بالنكت.

ومؤلفاته، على صغرها، بحور يخرج منها لؤلؤ المعاني والمرجان. فهذه "فهرسته" الصغرى على رقة جسمها، وقلة حروف رسمها، لم يخلها عن رقائق فوائده، وروائع فرائده. وقد استدل على استطراده تلك الفوائد، وحرصه على تعميم النفع بها؛ بقوله عليه السلام: " من قدر منكم أن ينفع أخاه فليفعل ".

قلت: وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجة. وكان وروده على سبب خاص يعني بالنفع بالرقية التي يقول لها العامة (العزامة)، ففي حديث جابر المذكور قال: نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الرقى. فجاء عمر بن حزم فقال: يا رسول الله: كانت عندنا رقية نرقي بها العقرب، وانك نهيتنا عن الرقى؟ فعرضوها عليه. فقال: "ما أرى باساً". ثم ذكره، يعني الحديث. وعلى هذا ونحوه نزّله الشيخ، رضي الله عنه، فقال، بعد ما ذكر رقى تعالج بها الحمى والصرع، ونحو ذلك:

{وهاهنا فوائد من هذا النمط، أخذتها عن علماء وفضلاء وعارفين، أردت إثباتها هنا حرصاً على الإفادة؛ ففي الحديث الشريف: "من استطاع " الخ. ثم أعلم أن هذا الحديث، وإن ورد على سبب خاص فعمومه معتبر. قال العلامة المناوي في" فيض القدير": وحذف المنتفع به، أي في الحديث، لإرادة التعميم، فيشمل كل ما ينتفع به، نحو رقية أو علم أو مال أو جاه أو نحوها.} هـ.

ومن فوائده في "فهرسته"؛ أنه ذكر دواء الحمى، وهو مركب من نباتات وروح الكينا، حسبما هو مبين فيها. وكان بعض تلاميذه يصفه للناس عندنا ويباشر تركيبه، وكان الناس ينتفعون بذلك الدواء.

ومن فوائده، آداب كتابة الحرز. ومنها معالجة المصروع، ومنها دواء مقاومة السحر، ومنها لتيسير الرزق، ومنها رقية لتخليص النفساء. ومن ذلك ما يقرأ في التحصن من الوباء، ومن ذلك لإبراء الدماميل، وما يمنع من إذاية البرغوث، وغير ذلك مما هو من هذا القبيل.

ومن الفوائد عنه؛ ما يفعل عند الضيق وطلب الفرج، والتوسعة في الرزق، قال: {يصلي ركعتين بالفاتحة وسورة الكهف في الركعتين معاً، ثم يستغفر الله مائة مرة، ويصلى على النبي، صلى الله عليه وسلم، مائة مرة، ثم يقول: يا لطيف يا خفي اللطف

ادركني بخفي لطفك. سبعة آلاف مرة، وكل ذلك ليلا. ويكرر ذلك ثلاث ليال وإلى سبعة. والله أعلم}.

### [من فوائد الشيخ ابن الخياط<br>ذكر اسمه تعالى"السريع"، وتفصيل القول في ذلك]

قال شيخنا: {ومن ذلك اسمه تعالى السريع، أخذته عن ولي الله تعالى، العارف بالله تعالى، سيدي الجيلالي الشاوي الأصل، القصري الدار}، قال:

{ من كانت له حاجة إلى الله تعالى من حوائج الدنيا والآخرة، فليصل ركعتين: أولاهما بـ"ألم نشرح"، والثانية بـ"إذا جاء نصر الله"، بعد الفاتحة. ثم بعد سلامه، يرفع يديه، ويسأل الله حاجته، ويستحضرها في قلبه، ثم يستغفر الله، إن كان في الوقت سعة مائة مرة، وإلا فعشر مرات. ثم يصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم. ثم يشرع في ذكر الاسم المذكور عدد حروفه، خمسمائة وثمانين مرة، وعلى رأس كل مائة يقول: اللهم إني أسألك باسمك السريع القريب المجيب، الذي خزنت به فواتح رحمتك، وخواتم إرادتك، وسرعة إجابتك. يا سريع لمن قصده، يا قريب لمن سأله، يا مجيب لمن دعاه. أسألك قضاء حاجتي - وهي كذا - يا سميع يا مجيب، يا سريع يا قريب، يا ألله. ويكرر اسم الجلالة إحدى عشر مرة، ثم بعد فراغه من الذكر، يصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، بالصلاة المذكورة أيضاً خمسمائة مرة وثمانين مرة، ثم يدعو الله تعالى بما شاء، ويتيقن حصول الإجابة قطعا إن شاء الله تعالى. ويستصحب في الدار البخور والطيب إن أمكن. وآداب الذكر كآداب الصلاة، من حضور القلب، وعدم الالتفات يمينا ويساراً. فإن لم تظهر له الإجابة في المرة الأولى، أي لقلة الأدب ونحوه، فليعد ثانيا وثالثا. والله سبحانه الموفق للصواب} هـ

هذا ما نقله شيخنا ابن الخياط، آخذاً له عن الولي الشاوي، في اسمه تعالى السريع. وهو بظاهره يعطي أن اسمه تعالى السريع، من الأسماء الحسنى الوارد بها النقل. وسلّم ذلك شيخنا المذكور ولم يتعقبه، مع أن هذا الإسم لم يرد في الأسماء التسعة والتسعين الواردة في الروايات، ولا ذكره أحد ممن زاد على تسعة والتسعين، كأبي بكر ابن

العربي؛ فإنه ذكر في "أحكام القرءان" من أسماء الله تعالى، مائة وستة وأربعين اسما. وليس فيها هذا الإسم.

كما أن شرَّاح غريب الحديث، الذين شأنهم أن يتعرضوا في شروحهم إلى تفسير ما ورد من أسماء الله الحسنى في الأحاديث والروايات، كصاحب "النهاية"، فإنه ذكر مادة سرع ولم يذكر "السريع" أنه من أسماء الله الحسنى. وهو من شدة اعتنائه بذلك، يصدر المادة بما ورد فيها من أسماء الله تعالى. يقول في مادة (سلم) في أسماء الله تعالى: "السلام". وفي مادة (سمع) في أسماء الله تعالى: "السميع". وفي مادة ( بدع) في أسماء الله تعالى: "البديع". ثم يفسر الإسم، وهكذا شأنه في سائر المواد، وهو دليل واضح أنه لم يرد هذا الإسم في الروايات، إذ شأن ابن الأثير في هذه "النهاية" أنه يذكر ألفاظ الأحاديث والآثار وإن كانت ضعيفة.

نعم. ورد هذا الاسم في القرءان مضافاً في قوله تعالى: (وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ) (وسَرِيعُ العِقَابِ)، وفسَّر ذلك الراغب في "مفرداته" بقوله:

{ وقوله (سريع الحساب) (وسريع العقاب)؛ فتنبيه على ما قال: (إنَّمَا أمْرُهُ إذَا أرَادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)} هـ[149/1].

وقد جاء الشيخ مرتضى، في"شرح القاموس"، بنص ابن الأثير، بعد تتبعه شرح لفظ الفيرزبادي، إذ قال في "القاموس":

(والله عز وجل، سريع الحساب، أي حسابه واقع لا محالة). وكل واقع فهو سريع (أو) سرعة حساب الله أنه (لا يشغله حساب) واحد ( عن حساب) آخر،(ولا) يشغله( شيء عن شيء أو) فمعناه (تسرع أفعاله فلا يبطئ شيء منها عما أراد، جل وعز، لأنه بغير مباشرة ولا علاج. فهو سبحانه) وتعالى (يحاسب الخلق بعد بعثهم وجمعهم في لحظة بلا عد ولا عقد، وهو أسرع الحاسبين). وفي "المفردات" و"البصائر": وقوله عز وجل: إن الله سريع الحساب، وسريع العقاب، تنبية على ما قال عز وجل: (إنَّمَا أمْرُهُ إذَا أرَادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) هـ كلام "القاموس"، و"شرحه". [تاج العروس:377/5].

وهو لا يستلزم إثبات أنه من أسمائه تعالى الحسنى، المنصوص عليها. وغاية ما في كلام الراغب وصاحب "القاموس"، إنما هو تفسير هذه الصفة المضافة، فهي كقوله

تعالى أيضا: (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)، وقوله: (شَدِيدُ الْعِقَابِ). وهو لم يأت أيضا في الرواية التي اعتمدوا عليها.

[مبحث أسماء الله الحسنى،
وتخالف الآراء والنقول حولها]

وبكل حال، فإن مبحث أسماء الله الحسنى، مبحث طويل الذيل، متشعب الفروع، تضاربت فيها النقول، وتخالفت فيها الآراء. والخلاصة أن يقال: إنه ورد في القرءان الكريم: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا). وورد سرد بعضها في قوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة، رواية، قال: "لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدة. من حفظها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر". هذا لفظ البخاري. وهذه الرواية، أطلق ابن عطية، كما في "تفسيره"، ونقل ذلك عنه الحافظ في "الفتح": أنها متواترة عن أبي هريرة. ولكن رد ذلك الحافظ، وأن غاية أمر هذا الحديث، أن يكون مشهوراً.[167/11]

وأما سرد الأسماء، ففيه اختلافٌ هل هو مرفوع، أو مدرج في الحديث من بعض الرواة. قال الحافظ:

{فمشى كثير منهم على الأول، واستدلوا به على جواز تسمية الله تعالى بما لم يرد في القرآن بصيغة الإسم، لأن كثيراً من هذه الأسماء كذلك. وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج، لخلو أكثر الروايات عنه}.[فتح الباري:167/4].

ثم أفاض القول بعد هذا في الموضوع، وذكر عن جماعة استضعاف حديث التعيين. منهم ابن حزم، وابن العربي.

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسيره": {والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه} هـ[269/2].

وشدّد الحافظ ابن حزم في ذلك، ومنع من الزيادة على التسعة والتسعين، قائلاً في "المُحلى":

{ولا يحل لأحد أن يجيز أن يكون له اسم زائد، لأنه، عليه السلام، قال: "مائة إلا واحد"، فلو جاز أن يكون له تعالى اسم زائد، لكانت مائة اسم. ولو كان هذا، لكان قوله، عليه السلام: "مائة غير واحد"؛ كذبا. ومن أجاز هذا، فهو كافر.} هـ[30/1].

ولكن ما قاله ابن حزم، ردَّه المحققون. قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره":

{ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في "مسنده"، وساق بسنده إلى عبد الله بن مسعود؛ لفظ الدعاء المعهود عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال في أثنائه: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك". الخ}. قال الحافظ ابن كثير، بعد أن نقل ما اختصرنا من كلامه: {وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي، أحد أئمة المالكية في كتابه "الأحوذيّ في شرح الترمذي": أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف إسم. فالله أعلم} هـ[269/2].

وقال الحافظ ابن حجر:

{وقد اختلف في هذا العدد، هل المراد به حصر الأسماء الحسنى في هذه العدة، أو أنها أكثر من ذلك، ولكن اختصّت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة. فذهب الجمهور إلى الثاني. ونقل النووي اتفاق العلماء عليه، فقال: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين. وإنما مقصود الحديث أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة. فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء. ويؤيده قوله، صلى الله عليه وسلم.} ثم ساق حديث الإمام أحمد الذي تقدم عن ابن كثير، ثم قال:

{وعند مالك، عن كعب الأحبار، في دعاء: وأسألك بأسمائك الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم.} ثم نقل الحافظ معنى هذا عن الخطابي، ثم قال:

{وحكى القاضي أبو بكر ابن العربي عن بعضهم، أن لله ألف اسم. قال ابن العربي: وهذا قليل فيها.} ثم قال: {ونقل الفخر الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم.}

ثم فصل الفخر تقسيمها. ولكن قال الحافظ: {إنها دعوى تحتاج إلى دليل.} هـ[فتح الباري:172/11].

ثم أشار الحافظ إلى ما ذهب إليه ابن حزم من الحصر في التسعة والتسعين، وانه جمع فيها من الكتاب والسنة قريبا من ثمانين اسماً. وجاء في ذلك بتنويه أبي حامد الغزالي، في شرح الأسماء، بابن حزم، إذ قال في "المقصد الأسنى"، بعد ما أتى بما للجماعة في عدها، وعدم حصرها:

{ولا يمكن معرفة جميعها إلا بالبحث من الكتاب والسنة، إذ يصح جملة منها في كتاب الله تعالى، وجملة في الأخبار. ولم أعرف أحداً من العلماء اعتنى بطلب ذلك وجمعه، سوى رجل من حفاظ المغرب، يقال له علي ابن حزم، فإنه قال: صحّ عندي قريب من ثمانين اسماً يشتمل عليها الكتاب والصحاح من الأخبار. والباقي ينبغي أن يطلب من الأخبار بطريق الاجتهاد. قال أبو حامد إثره: {وأظن أنه لم يبلغه الحديث الذي فيه عدد الأسامي، فإن كان بلغه، فكأنه استضعف إسناده، أو عدل عنه إلى الأخبار الواردة في الصحاح، وإلى التقاط ذلك منها} هـ. من "المقصد الأسنى" [ص94].

قال الحافظ في"الفتح"إثره:{قلت: الثاني هو مراده، أي استضعافه لحديث الترمذي}. ثم ساق الحافظ نصّ ابن حزم الذي فيه التصريح بذلك.[169/11]

أما القاضي أبو بكر ابن العربي، فإنه ردّ ما ذهب إليه ابن حزم رداً عنيفاً، وعدّ قائله، من جملة المغاربة سخيفا، وتعدى إنكاره إلى شيخه الغزالي، وتعجب من قبوله كلام ابن حزم، فقال:{قال سخيف من جملة المغاربة عددت أسماء الله فوجدتها ثمانين، وجعل يعدّد الصفات النحوية. ويا ليتني أدركته، فلقد كانت فيه حشاشة، لو تفاوضت معه في الحقائق، لم يكن بد من قبوله، والله أعلم، وليس العجب منه. وإنما العجب من الطوسي، يعني الغزالي، أن يقول: وقد عدّد بعض حفاظ المغرب الأسماء فوجدها ثمانين}. ثم قال: {وإنما وقع في ذلك أبو حامد، بجهله بالصناعة}. ثم قال: {والعالم عندنا اسم كزيد اسم. واحدهما يدل على الوجود، والآخر يدل على الوجود، ومعنى معه زائد عليه. والذي يعضد ذلك، أن الصحابة وعلماء الإسلام، حين عددوا الأسماء، ذكروا المشتق والمضاف

والمطلق في مساق واحد، إجراء على الأصل، ونبذاً للقاعدة النحوية} هـ[أحكام القرآن:330/1].

قلت: وهذا كله من القاضي تأسيس لما ذهب إليه من أن هذه الأسماء لا يعتبر فيها اصطلاح أهل النحو، من الفرق بين الاسم والصفة. وقد قال فيما يأتي له في المسألة الخامسة، بعد ذكره ما جرى عليه الإمام سفيان وابن شعبان، من تعديد الأسماء، مما أخذاه من "القرءان" الكريم، وجاء بالنص في ذلك من سورة الحمد إلى سورة الإخلاص:

{ومن هذا، ما جاء على لفظه في كتاب الله وسنة رسوله. ومنها ما أخذ من فعل، ومنها ما جاء مضافا فذكره مجرداً عن الإضافة. وكذلك وجدناه في سائر الأسماء المتقدمة. فهذه هي الأسماء المعدودة بصفاتها قرءانا وسنة وفي الحديث المطلق أسماء غير ذلك، كقولنا: الطيب، والسيد، والطبيب، وأعداد سواها. وما منها إسم إلا جميعه مشتق، حتى إن أهل اللغة اتفقوا عن بكرة أبيهم، على أن الله (أي لفظة الجلالة) مشتق. وقد بيناه في "الأمد". فلا وجه لقولهم الفاسد المتقدم. وقد شرحنا معنى كل اسم في "الأمد" على الاستيفاء. فلينظر هنالك. وعددناها على ما ورد في الكتاب والسنة، وذكره الأئمة، فانتهت إلى ستة وأربعين ومائة.}هـ ثم صار يسردها، ويفسر كل اسم منها بوجه مختصر. فانظره في "أحكامه"، في سورة الأعراف، جزء 1 صحيفة 332 . ومع هذا كله، لم يذكر اسمه تعالى "السريع".

وبعد مواصلة البحث وتكرار الاستطلاع، ألفيت أن القاضي أبا بكر، ذكر، فيما نقله عن سفيان، وابن شعبان، عدَّ هذا الإسم من أسماء الله الحسنى التي استخرجها من "القرءان"، قبل أن ذكر ما استخرجه هو من "القرءان" والسنة، حسبما سبق، وذاك في سورة البقرة، أي في قوله تعالى:(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[الأحكام:331/1].

قلت: وكذلك ورد في سورة الرعد، في قوله: (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ). وقد تقدم لنا تفسير معنى هذا الاسم عن الراغب في "المفردات"، وعن صاحب "القاموس" وشرحه.

وفي "الفتح"، ما يفيد أن استخراج هذه الأسماء من "القرءان"، ليست من عمل سفيان بن عيينة. ولكن ابن عيينة كان وعد باستخراجها فلم يفعل. قال راوي حديث" إن لله تسعة وتسعين" الخ، عن سفيان: {فوعدنا سفيان أن يخرجها من القرءان فأبطأ. فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا، فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال: نعم. هي هذه.} قال الحافظ: {وهذا سياق ما ذكره جعفر وأبو زيد}، وبدأ بالفاتحة. وذكر في البقرة الاسم "السريع".[ 169/11].

فبانَ لك بهذا أن "السريع" قد عُدّ من أسمائه تعالى الواردة في "القرءان"، فزال التوقف الذي أبديناه، وسقط التعقب الذي استدركناه، وظهر الحق وبطل الإشكال، وتحقق لدينا أن العلم بحر لا يلتقط درره إلا الغواصون، وان جواهر مسائله[لايحيط] بها إلا الخائضون المجدُّون.

فيا من علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، هب لنا من لدنك علما نصير به كاملين في المحيا والممات، سالمين به من آفات المعاصي والمخالفات، واجعله لنا نوراً نستضيء به في أفعالنا وأقوالنا، وننال به رضاك في جميع مقاصدنا وآمالنا، آمين.

هذا، ومن مباحث الأسماء الحسنى، ما ذكره أهل الكلام من أنها توقيفية، أي يتوقف إطلاقها عليه تعالى على الإذن فيها من الشرع كتابا أو سنة. وهي مسألة خلافية. قال العلامة حلولو في شرح "جمع الجوامع":

{اختلف في هذه المسألة. فذهب الإمام إلى أن ما ورد الشرع بإطلاقه أطلقناه، وما ورد بمنعه منعناه، وما لم يرد فيه إذن بإطلاقه ولا منعه، توقفنا فيه. قال المقترح: وذهب بعض أصحابنا إلى أن ما لم يرد فيه إذن في إطلاقه ولا منعه، فهو ممنوع. قال: وظاهر كلام الإمام، وغير واحد، أن الخلاف في الصفات والأسماء. وقال ابن خليل السكوني: الخلاف إنما هو في الصفات، وأما الأسماء، فليس إلا التوقيف. وعزَا ولي الدّين القول بالمنع من الإطلاق عند عدمه للأشعري، والجواز للقاضي. قال: واختار الغزالي الفرق بين الإسم والصفة، فيشترط التوقيف في الإسم دون الصفة.} هـ[319/3]. قلت: ويعني بالإمام، الفخر الرازي. قال حلولو عن المقترح:

{ وفصّل آخرون بين المُوهم وغيره، فأجازوا ذلك في غير المُوهم، ومنعوه في الموهم}. قال: {فالأقوال في غير الموهم ثلاثة: المنع، والجواز، والوقف.} قال المقترح: {وأطلق أئمتنا أن القياس لا يجوز في أسماء الله تعالى، فانحصر مدركها في الكتاب والسنة وإجماع الأئمة.} هـ[319/3].

وهذا هو قول الإمام الأبِّي في "شرح مسلم" :

{أسماؤه تعالى توقيفية؛ لا يجوز أن يسمى إلا بما سمى به نفسه سبحانه، أو سماه به رسوله، صلى الله عليه وسلم، وانعقد على التسمية به إجماع. واختلف فيما لم يرد فيه إذن ولا منع. فقيل فيه بالوقف، وقيل بالمنع. وعزاه ابن رشد للأشعري ومالك}. ثم قال الأبِّي:

{قال ابن رشد: وقال الباقلاني: يجوز أن يسمى بكل ما يرجع إلى ما يجوز في صفته؛ كسيدٍ، وحنّان، ما لم يجمع على منع ما يجوز، مثل عاقل وفقيه}. قال: {وأما ما لا يجوز في أصله فلا يسمى به، وإن كان تعالى وصف نفسه بالفعل المشتق منه ذلك الإسم، نحو: (اللهُ يَستهزِئُ بِهِم). و(سَخِرَ اللهُ مِنهُم). فلا يقال: يا مستهزئ. ولا: يا ساخر. لأن ما يستحيل عليه، لا يجرى منه عليه إلا قدر ما أطلقه السمع، مع اعتقاد أنه على ما يجب كونه عليه من صفاته الجائزة}هـ[116/7]

قلت: ولم يتعرض حلولو، ولا الأبِّي لما يقوله غير أهل السنة من الكرامية والمعتزلة في هذا. وفصّل في ذلك العَضُد في "المواقف"، ولفظه مع شرحه للسيد الشريف الجرجاني:

{تسميته تعالى بالأسماء، توقيفية، أي يتوقف إطلاقها على الإذن فيه. وليس الكلام في أسمائه الأعلام الموضوعة في اللغات. إنما النزاع في الأسماء المأخوذة من الصفات والأفعال. فذهب المعتزلة والكرامية إلى أنه، إذا دل العقل على اتصافه تعالى بصفة وجودية أو سلبية، جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها، سواء ورد بذلك الإطلاق إذن شرعي أو لم يرد، وكذلك الحال في الأفعال. وقال القاضي أبو بكر من أصحابنا: كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى، جاز إطلاقه عليه بلا توقيف، إذا لم يكن إطلاقه موهماً لما لا يليق بكبريائه. فمن ثمَّة لم يجز أن يطلق عليه لفظ "العارف"، لأن المعرفة قد يراد بها علم

يسبقه غفلة. ولا لفظ"الفقيه"، لأن الفقه فهم غرض المتكلم من كلامه، وذلك مشعر بسابقة الجهل، ولا لفظ "العاقل"، لأن العقل علم مانع من الإقدام على مالا ينبغي، مأخوذ من العقال. وإنما يتصور هذا المعنى فيمن يدعوه الداعي إلى مالا ينبغي. ولا لفظ "الفطن"، لأن الفطانة سرعة إدراك ما يراد تعريضه على السامع، فتكون مسبوقة بالجهل. ولا لفظ "الطبيب"، لأن الطب يراد به علم مأخوذ من التجارب، إلى غير ذلك من الأسماء التي فيها إيهام بما لا يصح في حقه تعالى.}هـ[210/8]. هذا لفظ "المواقف" وشرحها.

وقد كنت كتبت على:"ولا لفظ الطبيب"، ما لفظه:

وانظر في هذا مع ما ورد عن سيدنا عبد الله بن مسعود، لما عاده الخليفة سيدنا عثمان، وهو مريض، فقال له: ألا ندعو لك الطبيب؟ فأجابه سيدنا عبد الله بقوله: الطبيب أمرضني. قلت: بعد ما كتبت هذا، ألفيت المُحشّي عليها ـ أي على المواقف ـ كتب ما لفظه: {اعترض عليه بأنه قد ورد في حديث المصابيح أنه، عليه السلام، قال لمن قال إني طبيب: " أنت رفيق، والله الطبيب"}. وما كتبه هذا المُحشّي، هو أقوى مِمَّا كتبته.

ثم بعد ذلك ألفيتُ القاضي أبا بكر بن العربي، ذكر لفظ الطبيب من أسمائه تعالى التي أخذها من "القرءان" أو الحديث، وفسره بقوله:{وهو العالم بالمنافع}هـ[الأحكام:333/1]. والعلم كله لله.

ثم قال في "المواقف"، متصلا بما تقدم:

{وقد يقال: لابدّ مع نفي ذلك الإيهام من الإشعار بالتعظيم، حتى يصح الإطلاق بلا توقيف. وذهب الشيخ ومتابعوه إلى أنه لابد من التوقيف، وهو المختار، وذلك للاحتياط، احترازاً عما يوهم باطلا، لعظم الخطر في ذلك، فلا يجوز الاكتفاء في عدم إيهام الباطل بمبلغ إدراكنا، بل لا بد من الاستناد إلى إذن الشرع. والذي ورد به التوقيف في المشهور، تسعة وتسعون إسماً} هـ[210/8].

فهذا من "المواقف"، ميلٌ إلى الحصر في التسعة والتسعين، وقد علمت ما في ذلك. وعلى الإجمال، فإنه صحَّ عن النبي، صلى الله عليه وسلم:"أن لله تسعة وتسعين اسماً". لكن تعيين تلك الأسماء، لم يرد في حديث صحيح. ثم إن الجمهور على أن الأسماء لا تنحصر في التسعة والتسعين، كما سبق. واختلف أهل العلم على هذا في وجه الحصر في

هذه التسعة والتسعين وجعل إحصائها سبباً لدخول الجنة، مع أن أسماءه تعالى لا تنحصر.
قال في "المقصد الأسنى"، في بيان فائدة الإحصاء والتخصيص بتسعة وتسعين:

{وفي هذا الفصل أنظار}. ثم قال: { الأشبه أن الأسامي زائدة على تسعة وتسعين لهذه الأخبار. وأما الحديث الوارد في الحصر، فإنه يشتمل على قضية واحدة لا على قضيتين، وهو كالملك الذي له ألف عبد مثلاً، فيقول القائل: إن للملك تسعة وتسعين عبداً من استظهر بهم، لم تقاومه الأعداء. فيكون التخصيص لأجل حصول الاستظهار بهم، إما لمزيد قوتهم، وإما لكفاية ذلك العدد في دفع الأعداء من غير حاجة إلى زيادة، لا لاختصاص الوجود بهم}هـ[ص91].

ثم ذكر الاحتمال الآخر، وهو أن تكون الأسماء زائدة على التسعة والتسعين. ثم مال أخيراً إلى الحصر فيها، وانتصر لما ذهب إليه ابن حزم، حسبما سبقت الإشارة إليه، كما سبقت الإشارة إلى رد القاضي أبي بكر بن العربي على ابن حزم، وتقوية ابن العربي به. ولخصَّ هذه الفذلكة القاضي عياض، وكتب على حديث " إن لله تسعة وتسعين إسماً"، الخ ما لفظه، حسبما نقله الأبِّي عنه:

{وليس فيه ما يدل على حصر الأسماء في التسعة والتسعين، لأن المراد من الحديث، الإخبار بأن التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، لا الإخبار بحصر الأسماء في التسعة والتسعين، بدليل ما جاء في حديث آخر: " أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك} هـ [ شرح مسلم115/7]

ثم إن من ذهب إلى الحصر في التسعة والتسعين، اختلفت أنظارهم في التعيين. فمنهم من قال إنه حيث لم يصح تعيينها في حديث سالم الإسناد، فإن تلك التسعة والتسعين تطلب من القرءان والحديث. ومنهم من اعتمد حديث الترمذي في عدّها وتعيينها. وعليه جرى جمعٌ ممَّن شرح الأسماء، كالغزالي وغيره. وربما قالوا إنه مجمع عليه. قال في "روح المعاني":

{إلا أن يقال حصل الإجماع على ما في حديث الترمذي، دون ما في حديث غيره المخالف له}. ثم قال: {لكن لم أقف على من حكى ذلك} هـ.

ومنهم من قال: التسعة والتسعون صحَّ بها الحديث، ولم يصح التعيين. ثم هي بعد ذلك محجوبة عن الخلق. أخفاها الله في جملة أسمائه كالإسم الأعظم منها، وليلة القدر في السنة، وكساعة الجمعة، وكالصلاة الوسطى، ومن ذلك يقول القائل:

وأخفيت الوسطى كساعة جمعةٍ كذا معظم الأسماء مع ليلة القدر

وحكمة الإخفاء، ليجتهد العباد في طلب ذلك، ويعمروا أوقاتهم بالتعبد. وإلى هذا ذهب القاضي أبو بكر بن العربي، فإنه قال في "أحكامه"، في المسألة الخامسة في الكلام على قوله تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)، من سورة الأعراف، ولنأتِ بها بتمامها، لما فيها من الفوائد. قال القاضي:

{المسألة الخامسة. ما هذه الأسماء التي أضافها الله؟ وفي ذلك ثلاثة أقوال؛ الأول: أنها أسماؤه كلها التي فيها التعظيم والإكبار. الثاني: أنها الأسماء التسعة والتسعون التي ورد فيها الحديث الصحيح: "إن لله تسعة وتسعين إسمًا من أحصاها دخل الجنة". الثالث: أنها الأسماء التي دلت عليها أدلة الوحدانية، وهي سبعة تترتب على الوجود: العلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والحياة. تقول: القادر، العالم، المريد، الحي، المتكلم، السميع، البصير}. قال:

{وكل اسم لله فإلى هذه الأصول يرجع. لكن الصحيح عندي أن المراد بها التسعة والتسعون التي عددها، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح فإن قيل: وهل إلى معرفتها سبيل؟ قلنا: حلق العلماء عليها وساروا إليها، فمن جائر وقاصد. والقاصد في الأكثر واقف دون المرام، والجائر ليس فيه كلام، فأما من وقف على الأمر، فما عرفته إلا الاسفرايني، والطوسي، إلا أن الطُّوسِي تقلقل فيها، فتزلزل عنها. وأما الاسفرايني، فأسند طريقه، ووضح تحقيقه. والذي أدلكم عليه، أن تطلبوها من القرءان والسنة، فإنها مخبوءة فيهما، كما خبئت ساعة الجمعة في اليوم، وليلة القدر في الشهر رغبة، والكبائر في الذنوب رهبة، لتعمّ العبادات اليوم بجميعه، والشهر بكليته، وليقع الاجتناب لجميع الذنوب. وكذلك أخفيَت هذه الأسماء المعددة في جملة الأسماء الكلية؛ لندعوه بجميعها، فنصيب العدد المدعو به فيها.} هـ[331/1].

ولكن ما قاله القاضي هنا، استبعده الأبّي في "إكمال الإكمال" قائلا: {هذا بعيدٌ لا يكاد يعقل، لقوله: "من أحصاها دخل الجنة"، وكيف يحصى ما لا يعلم} هـ[116/7].

وأحسن ما ينقدح إليه الفكر، ويميل إليه النظر، أن نقبل رواية الترمذي التي فيها التعيين، لأنها الرواية التي قبلها جل شراح الأسماء، وعلى ذلك درجوا، كالغزالي، وصاحب "المواقف"، والشيخ زروق، وربما قيل انه مجمع عليها، كما سبق عن "روح المعاني"، وإن كان الإجماع غير مسلم، لكن في قبولها من هؤلاء قوة لا تخفى، لأنهم، وإن رجّحوا أن التعيين مدرج من قول الصحابة، فإننا نقول: هو أثر من الآثار. وربما يقال إن مثل هذا في حكم الرفع. وإن قلنا إنه استنبطه من الكتاب والسنة، فامر به، لأن أخذ الصحابي أصوب من غيره، وأحق بالقبول، وقد قال الشيخ زروق في "شرح الأسماء"، الذي جرى فيه على تعيين رواية الترمذي، ما لفظه:

{وقد اختلفت الروايات في تعديد الأسماء وتعيينها، بعد الاتفاق على أن الموعود عليها الثواب، تسعة وتسعون. والذي أتينا به هو في جامع الترمذي. ورجّح أن تعيينها ليس من المرفوع، إنما هو مدرج من قول الصحابي الذي رواه. مع ذلك فهو أثرٌ، لأن بصيرة الصحابي أوْعَى من غيره} هـ[المقصد الأسمى: مخطوطة ص73].

وعليه، فلنذر القيل والقال، ونبادر إلى ما تأمر به الآية الكريمة في الأعمال، وندعو الله بأسمائه الحسنى، ونرغب منه سبحانه أن يبوّأنا بها عنده في المقام الأسنى، فإن المقصود من العلم العمل، والمبادرة به قبل حلول الأجل، فإن الآية جاءت بعد ذكر الغافلين عن ذكر الله، الذين استحقوا بغفلتهم عنه دخول جهنم، إذ بين أن الموجب لدخول الجنة، هو ذكره تعالى ودعاؤه بالأسماء الحسنى. قال الإمام الفخر:

{لما وصف المخلوقين لجهنم بقوله: (أولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)، أمر بعده بذكر الله تعالى فقال: (وَلِلَّهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا). وهذا كالتنبيه على أن الموجب لدخول جهنم، هو الغفلة عن ذكر الله، والمخلص عن عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى. وأصحاب الذوق والمشاهدة، يجدون من أرواحهم أن الأمر كذلك؛ فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله، وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في باب الحرص وزمهرير الحرمان. ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة. فإذا انفتح على قلبه باب ذكر

الله، ومعرفة الله، تخلص عن نيران الآفات، وعن حسرات الخسارات، واستشعر بمعرفة رب الأرض والسماوات} هـ[التفسير:322/4].

ونحا نحو الفخر؛ صاحب "البحر"، فزاد ووضح ولخّص، فقال:

{ومناسبتها، يعني الآية، لما قبلها، أنه تعالى لما ذكر أنه ذرأ كثيراً من الجن والإنس للنار، ذكر نوعاً منهم، وهم الذين يلحدون في أسمائه. وهم أشد الكفار عتيّاً: أبو جهل وأضرابه. وأيضا لما نبَّه على أن دخول جهنم، هو للغفلة عن ذكر الله، والمخلص من العذاب هو ذكر الله، أمر بذكر الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلى . والقلب إذا غفل عن ذكر الله، وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في الحرص، وانتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة. وقد وجدنا ذلك بالذوق، حتى إن أحدهم ليصلي الصلوات كلها قضاءً في وقت واحد. فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله تعالى، تخلّص من آفات الغفلة، وامتثل ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه}. ثم قال: {ومعنى (فَادْعُوهُ بِهَا)، أي نادوه بها كقولك: يا ألله ، يا رحمنُ يا رحيم، يا مالك، وما أشبه ذلك} هـ[تفسيرالبحر لأبي حيان:429/4].

وفي قوله تعالى:(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ): { إن الدعاء والطلب منه والتعلق به، إنما يكون بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، التي مدارها على التقديس والتنزيه. وان كل ما مال عن ذلك، وزاغ عن تلك الطريقة، فإنه متروك ومرفوض}. قال الفخر في" تفسيره":

{قال المحققون: الإلحاد في أسماء الله يقع على ثلاثة أوجه. الأول: إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله، مثل أن الكفار كانوا يُسمُّون الأوثان بالآلهة، ومن ذلك أنهم سموا أصناماً لهم باللات، والعزى، ومناة، واشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز، واشتقاق مناة من المنّان. وكان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمان. والثاني: أن يسموا الله بما لا يجوز تسميته به، مثل تسمية من سماه أباً للمسيح، وقول جمهور النصارى: أب، وابن، وروح القدس. ومثل أن الكرامية يطلقون لفظ الجسم على الله سبحانه، ويسمونه به}. ثم قال: {والثالث: أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه، ولا

يتصوَّر مسمَّاه، فإنه ربما كان مسمَّاه أمراً غير لائق بجلال الله. فهذه الأقسام الثلاثة هي الإلحاد في الأسماء.} هـ[325/4].

[الأدعية والأذكار المستحدثة]

ومن هنا استخرج الحافظ أبو بكر بن العربي؛ الردّ على هؤلاء الذين يبتدعون أدعية وأحزاباً يُسمّون فيها الباري بغير أسمائه التي ورد التوقيف فيها، فقال:

{قوله:(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ). يقال ألحد ولحد، إذا مال. والإلحاد يكون بوجهين، بالزيادة فيها، والنقصان منها، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يُسمون فيها الباري بغير أسمائه، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله، إلى غير ذلك مما لا يليق به. فحذار منها، ولا يدعوّن أحد منكم إلا بما في الكُتبِ الخمسة، وهي كتاب البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود، والنسائي. فهذه الكتب هي بدء الإسلام، وقد دخل فيها ما في "الموطا" الذي هو أصل التصانيف، وذروا ما سواها. ولا يقولن أحد أختار دعاء كذا. فإن الله قد اختار له، وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله} هـ[الأحكام:335/1].

ومن كلام القاضي هذا، ما يفيد الحضّ على الاكتفاء بالأذكار الواردة والأدعية النبوية، ورفض ما سواها، وأن في تلك الأدعية المنوَّرة بنور الرسالة، والأذكار المتصلة بالوحي المحمدي، لكفاية ومقنعا، لمن يرغب في الاتباع، ويرغب عن منهج الابتداع. وفيه ما يفيد إنكار هذه الأحزاب المحدثة، والأذكار المبتدعة.

[جهود علماء الحديث
في جمع وتبويب الأذكار والدعوات النبوية
وتيسير مآخذها]

وإني، وأنا القاصر الفهم، الناقص في المعرفة والعلم، لأعجب ممّن يقرأ "القرءان" الكريم، ويطالع كتب الحديث الشريف، ويرى ما فيهما من الأذكار والدعوات، ويراجع ما جمعه في ذلك أهل الحديث، في القديم والحديث، من تلك الأدعية التي تُتلى عند أسبابها، وتقرأ موزعة على حسب أوقاتها في اليوم والليلة، ثم هو بعد ذلك يطلب سواها، ويتوكّف الإجابة والقبول من غيرها، مع أن أهل العلم الصحيح، والدِّين المتين، قد سهّلوا

لنا مآخذها، وبوَّبوا لنا مباحثها، وجمعوا لنا منها ما فيه الكفاية لمن يرى، وأدرجوا ذلك في مؤلفاتهم، كالكتب الخمسة، كما أشار لذلك القاضي، وهم العمدة. ولهذا، كان من ألَّف في ذلك بعدهم، فإنما هو على آثارهم دارج، وعلى منهجهم القويم ناهج.

هذا، ومن المتقدمين الذين ألّفوا في خصوص الدعوات والأذكار، الحافظ أبو بكر بن السنّي، صاحب النسائي، ألّف كتابه الشهير لعمل اليوم والليلة. وتوفي هذا الإمام آخر سنة أربع وستين وثلاثمائة.

ثم جاء بعد ذلك الإمام المُجمع على جلالته وعلمه وديانته، محيي الدين النووي الشافعي، فألّف كتابه الشهير في سائر الأقطار، الذي سماه:"الأذكار، المنتخب من كلام سيد الأبرار"، فجاء جامعاً للمقاصد والوسائل، كافيا لكل باحث وسائل، يهدي لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، يُرشد لمن أراد أن يذكر اسم ربه ويتبتل إليه تبتيلا. وذكر في أوله أنه اختصره من المطولات في الموضوع بالأسانيد والتكرار. قال:

{ وقد صنّف العلماء، رضي الله عنهم، في عمل اليوم والليلة، والدعوات والأذكار، كتباً كثيرة معلومة عند العارفين، ولكنها مطولة بالأسانيد والتكرير}. قال: {فشرعت في جمع هذا الكتاب مختصراً مقاصد ما ذكرته، تقريبا للمعتنين}. ثم قال: {وأقتصر في هذا الكتاب على الأحاديث التي في الكتب المشهورة، التي هي أصول الإسلام، وهي خمسة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي. وقد أروي يسيرا من الكتب المشهورة غيرها. وأما الأجزاء والمسانيد، فلست أنقل منها شيئا إلا في نادر من المواطن. ولا أذكر من الأصول المشهورة أيضا من الضعيف إلا النادر، مع بيان ضعفه. وإنما أذكر فيه الصحيح غالباً} هـ[ص2].

أما الإمام الحافظ، إمام القراء وسابقهم في الميدان، أبو الخير محمد ابن الجزري الشافعي، أحد أعيان أول القرن التاسع الهجري، إذ توفي، رحمه الله، سنة 833، فإنه اختصر في الموضوع في جزء لطيف سماه:"الحصن الحصين". وهو مما وقع عليه الإقبال، واتخذ حرزاً وتميمة تعلق على الآباء والأنجال. وله فضائل وخصائص ذكرها أهل العلم فيه، لأنهم قالوا: ما حمله أحد إلا حماه، ولا كان مع أحد في مصيبة إلا نجاه، ولا استنصر به مستنصر إلا نصره، ولا حمله أحد إلا حصل له السرور منه، ولا كان مع

مكروب إلا فرج الله تعالى عنه، ومن حفظه حُفِظ، ومن اتعظ به وُعظ، ومن استغاث به رُحم. إلى غير ذلك مما ذكره في أول الكتاب، هذا وقد قال مؤلفه في طالعته:

{وبعد، فإنه لما كان كتابي: "الحصن الحصين، من كلام سيد المرسلين"؛ مما لم أسبق إلى مثله من المتقدمين، وعز تأليف نظيره عمن سلك طريقه من المتأخرين، لما حوى من الاختصار المبين، والجمع الرصين، والتصحيح المتين، والرمز الذي هو على العزو مُعين، حداني على اختصاره في هذه الأوراق من أصله المذكور، بعد أن كنت سئلت في ذلك مراراً في سنين وشهور، ممن آنس غربتي، وكشف كربتي، وأوجب الحق علي مكافاته، ولم أقدر عليها إلا بالدعاء له، فأسأل الله تعالى نصره ومعافاته. وجعلته في عشرة أبواب؛ كل باب يتعلق بأنواع وأسباب}. ثم سرد تلك الأبواب، ثم قال:

{فجاء بحمد الله كبير المقدار، غاية في الاختصار، جامعا للصحيح من الأخبار، فلم يؤلف مثله في الأعصار، جمع الذكر النبوي، والحديث المصطفوي، والخير الدنيوي، والأجر الأخروي. ولو كتب بماء الذهب، لكان من حقه أن يكتب، بل بسواد الحدق، لاستحق، وكان أجدر أن يسطر على كل حديث منه في بابه: صحيح مجرَّب. أسأل الله تعالى أن ينفع به أهله، وأن يولينا جميعا فضله، وأن ينصر به كل مظلوم، وأن يرزق به كل محروم، وأن يجبر به كل مكسور، وأن يؤمن به كل مذعور، وأن يفرج به عن كل مكروب، وأن يرد به عن كل محزوب} هـ[ص15].

قلت: ومما أخذته من هذا الكتاب، وجرَّبته فظهر سره من الأدعية، ما في الباب الرابع من حديث رواه البيهقي، قال:

{وعنه، صلى الله عليه وسلم: تصلي اثنتي عشرة ركعة، من ليل أو نهار، وتتشهد بين كل ركعتين. فإذا جلست في آخر صلاتك، فاثن على الله تعالى، وصل على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم كبر واسجد. واقرأ وأنت ساجد: فاتحة الكتاب؛ سبع مرات، وآية الكرسي؛ سبع مرات، و"قل هو الله أحد"؛ سبع مرات، ولا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ عشر مرات. ثم قل: اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، واسمك الأعظم، وجدك الأعلى، وكلماتك التامات. ثم سل بعد ذلك حاجتك، ثم ارفع رأسك، فسلم عن يمينك وعن شمالك.

واتق السفهاء أن يعلموها، فيدعون ربهم بها فيستجاب لهم.} وأشار ابن الجزري برمز "قي"، يعني به البيهقي. ثم قال: قال البيهقي: {إنه قد جرِّب، فوجد سببا لقضاء الحاجة}. قال ابن الجزري: {ورويناه في "كتاب الدعاء" للواحدي. وفي سنده غير واحد من العلماء، ذكر انه جرَّبه فوجده كذلك. وأنا جربته فوجدته كذلك، على أن في سنده من لا أعرفه} هـ[ص136].

قال كاتبه: محمد المُرير، جامع هذه الفهرسة: إني وقفت على هذا الدعاء المبارك، فجرّبته أواخر شوال من عام 1366، فظهر لي في ذلك سرٌّ عجيب. ثم كررت ذلك، فظهرت الإجابة لذلك. وفضل الله واسع، وكرمه لا يحيط به فكرٌ ولا يحصره حد، ولا يعقله عقل.

[إسمه تعالى الأعظم،
وما قاله العلماء في تفسيره وتعيينه وأفضليته]

قلت: وفي هذا الدعاء قوله: "واسمك الأعظم". في هذا تصريح بأن في أسماء الله الحسنى إسما هو أعظمها. وقد ورد في أحاديث أن هذا الإسم الأعظم إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؛ ففي حديث رواه أبو داود والترمذي وصححه الحاكم وابن حبان، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأنك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد. فقال: "إنه سأل الله باسمه الأعظم"، وورد مثله في أحاديث أخر.

وهو أمر ذائع شائع بين أهل العلم والصلاح. وهم دائماً يجهدون أنفسهم في معرفته والاطلاع عليه، ليسألوا به ربهم، وينالوا به مطالبهم. ومع هذا، فقد أنكر بعض العلماء تفضيل بعض أسمائه تعالى على بعض، كما قاله الحافظ ابن حجر. وقالوا أسماء الله كلها عظيمة، منهم أبو الحسن الأشعري، والطبري، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وابن حبان. ونسبت الكراهة للإمام مالك. وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم، العظيم. قال الطبري:

{والذي عندي أن الأقوال كلها صحيحة، إذ لم يرد في خبر منها أنه الإسم الأعظم، ولا شيء أعظم منه. فكأنه يقول: كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه

بكونه أعظم، فيرجع إلى معنى عظيم.}هـ وقال ابن حبّان: الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك. وقيل المراد بالإسم الأعظم، كل اسم من أسمائه تعالى دعا العبد به ربه مستغرقا بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى، فإن من تأتى له ذلك استجيب له. ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق}. قاله في "الفتح": [176/11].

قلت: ونحو هذا ما ذكره صاحب "الفتوحات"، في الباب 366 في معرفة وزراء المهدي، من الجزء الثالث، صحيفة 329،أنه قيل لأبي يزيد البسطامي: {أرنا اسم الله الأعظم. فقال لهم: أروني الأصغر حتى أريكم الأعظم. أسماء الله كلها عظيمة، فما هو إلا الصدق أصدق، وخذ أي اسم شئت، فإنك تفعل به ما شئت} هـ.

ونحوه ما وقع لأبي الحسن الشاذلي في مجلس شيخه مولانا عبد السلام. قال أبو الحسن: {كنت جالسا بين يدي الأستاذ، فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله العظيم الأعظم؟ فقال ولده، وهو في آخر المكان الذي نحن فيه: يا أبا الحسن. ليس الشأن من يعلم الإسم. وإنما الشأن أن يكون عين الإسم هو أنت. فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرّس فيك ولدي} هـ.

قال الحافظ في "الفتح": {وقال آخرون: استأثر الله تعالى بعلم الإسم الأعظم، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه. وأثبته آخرون معيّناً واضطربوا في ذلك}. قال: {وجملة ما وقفت عليه من الأقوال أربعة عشر قولاً}. ثم سرد تلك الأقوال، ثم قال:

{التاسع: الله لا إله إلا هو، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. أخرجه أبو داود والترمذي، وابن ماجة وابن حبان، والحاكم، من حديث بريدة، وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.} هـ[176/11].

---

<u>وعليه، فالمذاهب والأنظار في الإسم الأعظم ثلاثة، وهي:</u>

الأول : الأسماء كلها عظيمة لا فضل لأحدها على ما سواه، وإنما التأثير يرجع لصدق توجه من يدعو بها.

الثاني: إن الإسم الأعظم، من الأمور التي استأثر الله بعلمها.

الثالث: إثباته، واختلاف الأقوال في تعيينه، وكل صاحب قول استند إلى حجة وردت فيه. وقد علمت أن الحافظ قال: {الأرجح من حيث السند في التعيين، هو حديث بريدة.} والله أعلم.

---

[ فوائد الذكر]

ثم إن الذكر من حيث هو ترياق يُستشفى به من داء الغفلة، وسراج منير يستضاء به في ظلمة القسوة، وبه تلين القلوب، وتطمئن إلى رضى علام الغيوب. ثم هو منشور لتولي مقام الولاية، ومفتاح لدخول دار السعادة، ومعراج إلى سماء الوصول، إلى حضرة التقديس التي هي منتهى المأمول. قال الإمام الدقاق، أحد أفراد رجال التصوف:

{الذكر منشور الولاية، فمن وُفّق للذكر، فقد أعطي المنشور، ومن سُلِب الذكر فقد عزل. وقيل: ذكر الله بالقلب سيف المريدين، به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم. وان البلاء إذا أظل العبد، فإذا فرغ بقلبه إلى الله تعالى، يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه.}هـ قاله في الرسالة: [ص110].

وهذا كله مستغنى عنه، بعد قوله تعالى: (أَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)، لأن من ذكر الله، فقد فاز بخير الدارين. قال ثابت البناني: إني أعلم متى يذكرني ربي، عز وجل. ففزعوا منه، وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني. وبعد قوله في الحديث القدسي: "إذا ذكرني عبدي في نفسه، ذكرته في نفسي. وإذا ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير من ملئِه". وناهيك أن ذاكر الله تعالى ممّن يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما في الحديث الشهير في البخاري وغيره:" سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله". ثم ذكر رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه. وقد كنت قلتُ في أبيات:

تجرَّد عن الدنيا ودع زهـــراتها فإنك عمـــا أنت فيـه مُســـافر
وأعدد لذاك القصد زاداً من التُقى فما فــــاز إلا من بتقواه ظافر
وأكثر من الأذكار في كل ساعــةٍ وقدِّس إلهكَ بالجـــلالةِ ظاهر
وكن لكتــــاب الله بالقلب تــاليا تدارسهُ لفظاً وبالفكر حـــاضر

فإنـه أمر اللـه فِيــــنا وسِـــرُّهُ ونورٌ على الأكوان ضوؤه باهر
سراجٌ منـــير في قلــوب منيرة وسيف على الأعداء بالحق باتر
فـدم تــاليأ في حبلـه متمسكـــاً تجده مجيراً يوم تُبلى السَّرائــر

---

[أفضل الذكر تلاوة القرءان الكريم]

قلت: والإشارة لقولنا:"وكن لكتاب الله بالقلب تالياً"الخ.

إن تلاوة القرءان من أفضل الأعمال، بل هي أفضل الأذكار، وأجمعها على الله لذوي الاعتبار والاستبصار، ففي "التذكار" للقرطبي، بعد أن ذكر قول الإمام سفيان الثوري: سمعنا أن قراءة "القرءان" أفضل الذكر. قال:

{إنما كان "القرءان" أفضل الذكر، والله أعلم، لأنه مشتمل على جميع الذكر، من تهليل وتذكير، وتحميد وتسبيح وتمجيد، وعلى الخوف والرجاء، والدعاء والسؤال، والأمر بالتفكر في آياته، والاعتبار بمصنوعاته، إلى غير ذلك مما شرح فيه من واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام، ونص فيه من غيب الأخبار، وكرر فيه من ضرب الأمثال، والقصص والمواعظ للأفهام، حسبما قال، وقوله الحق: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ). فمن وقف على ذلك وتدبره، فقد حصّل أفضل العبادات، وأسنى الأعمال والقربات، ولم يبق عليه ما يطالب به بعد ذلك من شيء. وقد روى الترمذي في "جامعه"، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله قراءة "القرءان" عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". قال: فأخبر، صلى الله عليه وسلم، أنه من قرأ "القرآن"، واشتغل به عن الدعاء، أعطاه الله تعالى أفضل سؤال سأله أحد من خلقه.} هـ[ص40].

وقد وجّه الأفضلية الحكيم الترمذي، حسبما نقله عنه في "التذكار"، بقوله: {لأن الذكر هو شيء يبتدعه العبد من تلقاء نفسه، من علمه بربه. و"القرءان" هو شيء قد تكلم به الرب تبارك وتعالى. فإذا تلاه العبد، فإنما يتكلم بشيء قد كان عند الرب، سبحانه وتعالى، ولم يخلق منذ نزل إلى العباد ولا يخلق

ولا يدنس، فهو على طراوته وطيبه وطهارته. وله كسوة. والذكر الذي يذكره العبد مبتدعاً من عند نفسه، لا كسوة له. وأيضا هو الذي يؤلفه العبد. وليس تأليف الله تعالى كتأليف العبد.} هـ[ص40].

وقد تقدم تعليل مؤلف "التذكار"، وعلى هذين التعليلين؛ فلا يحتاج إلى الجواب عن قوله، صلى الله عليه وسلم،: "أفضل ما قلته أنا والنبيئون من قبلي: لا إله إلا الله" الخ. وما ورد أيضا في أفضلية التَّحميد، والتسبيح والتكبير، لأن ذلك كله بعد "القرءان" الذي هو كلام الله. والله أعلم.

## [لماذا يُلقن شيوخ الطرق
## الأذكار، ولا يلقنون تلاوة القرءان؟]

وهنا سؤال يقال فيه: إذا كان أفضل الأذكار على الإطلاق، هو تلاوة "القرءان" الكريم، فلماذا يقتصر شيوخ الطرق الصوفية على تلقين غيره من الأذكار، من تسبيح وتهليل واستغفار، ولا يلقنون المريد تلاوة "القرءان"؟ قلت: الذي يستجليه ضميري، ويستحليه نظري القاصر وتفكيري، أن الشيوخ شأنهم الإرشاد العام الذي يشمل الأمي والقارئ. والقارئ منهم في الغالب لا يحفظ، فتلقين التلاوة للجميع مما يتعذر أو يتعسر. وهم، رضي الله عنهم، أحرص الناس على تعميم النفع. على أن هذه الأذكار كلها، لها فضائل وخواصّ وردت بها السنة، لأنها إما أذكار فيها ثناء على الباري، أو دعاء بأسمائه الحسنى أو استغفار، على أنهم، رضي الله عنهم، جعلوا لكل مقام ما يناسبه، ولكل مريض بداء الغفلة ما يعالجه، فيصفون الدواء محل الداء، فيقع البرء بإذن الله. وقد كنت وقفت على معنى هذا الكلام في "إحياء" حجة الإسلام، وضل عني الآن موضعه.

ثم إن كبار الطريق من أهل التحقيق، لم يهملوا هذا الموضوع، ولم تخف عنهم هذه الأفضلية التي هي في المحل المرفوع. بل بينوا للمريد أن تلاوة "القرءان" هي الحبل الذي يجب به الاعتصام، وأنه لابد للمبتدئ من أخذه حظه الوافر من هذا النور الباهر، وحذروه من إلقاء سمعه إلى من يأمره بالاقتصار على

الذكر الواحد. ففي "عوارف" الإمام العارف، سيدي عمر السهروردي، المتوفى سنة 632، فهو من أهل القرن السادس والسابع، ما لفظه:

{ولابدَّ للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة "القرءان" ومن حفظه، فيحفظ من "القرءان" من السبع إلى الجميع، إلى أقل أو أكثر، كيف أمكن، ولا يصغى إلى قول من يقول: ملازمة ذكر واحد، أفضل من تلاوة "القرءان"، فإنه يجد بتلاوة "القرءان" في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى. وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه. ومن لازم التلاوة في الخلوة، وتمسك بالوحدة، تفيده التلاوة والصلاة أوفى ما يفيده الذكر الواحد}. أنظر تمامه في الباب الثالث والستين، في ذكر شيء من البدايات والنهايات، من "العوارف".

وفي"الإحياء"، في بيان أعداد الأوراد في ذكر الوظيفة التي بعد الفجر إلى الطلوع، قال:

{ينبغي أن تكون أربعة أنواع: أدعية وأذكار ويكررها في سبحة، وقراءة "قرءان"، وتفكر}. ثم قال بعد ذكر الأذكار، قال: {فهذه وظيفة القراءة. فإن أضاف إليها شيئا مما انتهى إليه ورده من "القرءان"، أو اقتصر عليه فهو حسن، فإن "القرءان" جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء، مهما كان يتدبر} هـ[302/1].

---

### [الرجوع إلى مبحث<br>الأدعية المخترعة وغيرها من الأحزاب والأذكار]

ثم لنرجع هنا إلى إنكار ابن العربي لهذه الأدعية المخترعة، الذي يجر ذيله على هذا الدعاء الذي أخذه شيخنا ابن الخياط، عن العارف الجيلالي الشاوي. وما أنكره ابن العربي، هو مذهب الإمام مالك، لأنه كان، رضي الله عنه، يكره اختراع هذه الأدعية، ويقول: إنه ليس من عمل من أدركه من أهل العلم والقدوة. والمسألة، كما ذكر الشيخ زروق في" شرح حزب البحر" للشاذلي، فيها قولان، ولفظه:

{فإن قلت: قد قررتم حقيقة الحزب وحكمته، فما حكمه؟ قلت: حكمه الجواز عند الجماعة الصوفية وكثير من الفقهاء، لأنه مما يتعبد به. وليس في الشرع ما يدل لنفيه، بل ما يؤيد إثباته في آحاده، وإن لم يرد بجملته. وقد حكى ابن الحاج في فضل الذكر بعد صلاة الصبح في "المدخل" في هذا الأصل قولين: الجواز للشافعي، رضي الله عنه، والكراهة لمالك. واستدل للأول بقوله، عليه الصلاة والسلام: " ما تركته لكم، فهوعفو". وقد أعلم بما يكون من أمته مما رغب في نوعه. وأصل مالك أنه لم يجر به عمل السلف، فلا خير فيه، لأنهم كانوا أحرص على الخير، وأعلم بالسنة. وكافة أهل الأقطار في هذه الأعصار وما قرب منها، مطبقون على تسويغ ذلك اليوم. وهو أصل الصوفية فيما يجمع قلوبهم على مولاهم}.

ثم ذكر عن الشيخ أبي عبد الله في "رسائله" على حزب الإرادة، وما روي من كراهة العمل به عن مالك. قال:

{إنما يكره هذا، حيث كان الناس على طريق التحفظ في الاتباع ونحوه، وأما اليوم، فينبغي أن يتمسك به لأنه من روائح الدين التي إذا انقطعت، ذهب أثره بالكلية}. قال الشيخ زروق: {هو حسن في العموم، فانظره. وقد جاء في الحديث ما يؤيده}. ثم قال:

{ثم ما يذكر في هذه الأحزاب من الأذكار ونحوها، لا يخلو من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون مستعملا بالتكليف والصناعة، وهذا منهي عنه. الثاني: أن يكون بغير ذلك، ولكنه محتو على موهمات ومبهمات لا وجه لها في إطلاق الشرع، وإن كان لها وجه في المعنى. وهذه تمنع في العموم، وقد تباح في الخصوص بقيد الحال، أو ما يقوم مقامه، تأدباً مع الله، وحفظاً لعقائد الضعفاء. الثالث: أن تكون سالمة من ذلك، وفيها رموز واقعة في "القرءان" والسنة، أو مواطئة فيهما، فيجري الخلاف فيها على ذلك، ما لم تكن منقولة بلفظها، فيقع البحث في وضعها. وهذا الوجه عن الشاذلية}. قال:

{وجوابه أن ذلك جار بحكم الإلهام الصحيح، أو الإلقاء الصريح في المنام. والإلهام معمول به فيما لا ينافي الحكمة، ولا يغير الحكم، ولا يثبت الأحكام. وهذا

منه لقوله، عليه السلام: "كان يكون في الأمم محدثون. فإن يكن في أمتي؛ فعمر منهم". وقوله، عليه السلام: " الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة". وفي رواية:"وما كان من النبوة، فلا يكذب". نعم. وأحزاب سيدنا، رضي الله عنه، قد صح كونها من أحد الوجهين. بل صرح، رضي الله عنه، بأنه ما وضع منها حزبا إلا بإذن من الله ورسوله. وقال رضي الله عنه: من دعا الله بغير ما دعا به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فهو مبتدع. نعم. الإذن الذي أشار إليه، إما أن يكون بالرؤيا في النوم، وإما أن يكون بالوجه الحكمي، على معنى أنه لم يضع فيه إلا ما أذن الشرع في وضعه، وإما أن يكون بالإذن الحالي الذي عد منه الإلهام. والأول أولى، إذ لا خصوصية للثاني. والثالث أحسن، لأنه مقتضى الطريقة؛ لكن بشرط موافقة الذي قبله، ولو بوجه ما، جمعاً بين الحقيقة والشريعة. ثم إن تأيّد ذلك برؤيا في المنام، فهو أتم.} هـ[مخطوطة ص4].

فحاصل كلام هذا الإمام، الذي هو إمام أهل التحقيق من الصوفية، ومحتسبهم القائم على موازين طريقهم، والصيرفي البصير بالرائج من نقود أقوالهم وأفعالهم، أن كل ما جاء من هذه الأذكار والأحزاب، المنسوبة لأهلها، من أهل الصلاح والاستقامة، يُتلقّى بالقبول بهذه الشروط التي ذكرها. ومآلها إلى أن المقبول منها ما وافق الكتاب والسنة، وشهدت له نصوصهما وقواعدهما. أما ما خالف ذلك، ومال عن قواعد الشريعة، فهو ردّ. ثم أورد سؤالا قال فيه:

{فإن قلتَ: فما دليلكم على جواز استعمال ما يجري به الإلهام من الأذكار والأدعية، وإثبات خاصيتها بالاستنباط؟ قلتُ: الدليل على ذلك، صريح السنة، والأحاديث النبوية متواترة عنه، صلى الله عليه وسلم، لأذكار وأدعية سمعها من كثيرين في أوقات مختلفة، بألفاظ متباينة، ومعان واضحة، وثنائه عليها وعليهم باستعمالها، مع أنهم لم يتقدم لهم تعليم منه، عليه الصلاة والسلام، في ألفاظها، وإن عرَّفهم معانيها، وعرفوا مبانيها، فمن ذلك حديث عبد الله بن بريدة، رضي الله عنه، أنه، صلى الله عليه وسلم، سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال:

"إنه سأل الله باسمه الأعظم؛ إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى". رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وصححه الحاكم، وابن حبان، وقال على شرط مسلم}هـ[ص5]. ثم ذكر حديث أبي هريرة في آية الكرسي الذي رواه البخاري وغيره.

وكنت كتبتُ على هذا ما لفظه:

ربما يقول المعارض إن كل ما استدل به الشارح هنا، لا يكون حجة في الموضوع، لأن كل ما ذكره كان يحضره النبي، صلى الله عليه وسلم، وعرض ذلك عليه وتقريره. ومعلوم أنه بذلك صار بمنزلة قوله وسنته، لأن السنة، كما قال أهل الأصول، أقوال النبي، صلى الله عليه وسلم، وأفعاله، ومنها تقريراته، بخلاف ما هنا، فهو محدث بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا أن يقال: إنه لما عرضت تلك الأدعية والأحزاب على قواعد الشريعة ونصوص السنة، ولم يلق فيها ما ينافيها، صارت كأنها عرضت عليه، صلى الله عليه وسلم، وقررها. والله أعلم.

قلت: وبقي عليه من أوجه تلقي الأدعية والأوراد والأحزاب، وما لها من الخصائص والفضائل، تلقيها مشافهة عن السيد الخضر، الذي اتفق أهل الله على حياته، واجتماعهم به وأخذهم، كالمسبعات التي تلقاها الشيخ ابراهيم التيمي عن الخضر، عليه السلام، وصارت من الأذكار المعمول بها عند الشيوخ، وشعار طريقهم، ومن أهم أورادهم. وقد ذكرها السهروردي في "عوارفه"، وأبو حامد في "إحيائه". ولفظ الثاني، في بيان عدد الأوراد وترتيبها، إثر ذكر آيات يستحب قراءتها:

{وإن قرأ المسبعات العشر التي أهداها الخضر، عليه السلام، إلى إبراهيم التيمي، رحمه الله، ووصاه بأن يقولها غدوة وعشية، فقد استكمل الفضل، وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة، فقد روي عن كرز ابن وبرة، رحمه الله، وكان من الأبدال، قال: أتاني أخ لي من أهل الشام، فأهدى لي هدية، وقال: يا كرز، اقبل مني هذه الهدية، فإنها نعمت الهدية. فقلت: يا أخي، ومن أهدى لك هذه الهدية؟ قال: أعطانيها إبراهيم التيمي. قلت: أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها؟ قال بلى.

قال: كنت جالساً في فناء الكعبة وأنا في التهليل والتسبيح، والتحميد والتمجيد، فجاءني رجل فسلم عليّ، وجلس عن يميني. فلم أر في زماني أحسن منه وجها، ولا أحسن منه ثيابا، ولا أشد بياضا، ولا أطيب ريحا منه. فقلت: يا عبد الله، من أنت ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر. فقلت: في أي شيء جئتني؟ فقال: جئتك للسلام عليك، وحباً لك في الله. وعندي هدية أريد أن أهديها لك. فقلت: ما هي؟ قال: أن تقول قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض، وقبل الغروب: سورة الحمد، و"قل أعوذ برب الناس"، و"قل أعوذ برب الفلق"، و"قل هو الله أحد"، و"قل يا أيها الكافرون"، وآية الكرسي، كل واحدة سبع مرات، وتقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، سبعا، وتصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، سبعاً، وتستغفر لنفسك ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبعاً، وتقول: اللهم افعل بي وبهم عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل. إنك غفور حليم، جواد كريم، رءوف رحيم. سبع مرات، وانظر أن لا تدع ذلك غدوة وعشية. فقلت: أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة. فقال: أعطانيها محمد، صلى الله عليه وسلم. فقلت: أخبرني بثواب ذلك. فقال: إذا لقيت محمدا ، صلى الله عليه وسلم، فاسأله عن ثوابه، فإنه يخبرك بذلك. فذكر إبراهيم التيمي أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة، فرأى ما فيها، ووصف أمورا عظيمة مما رآه في الجنة. قال: فسألت الملائكة، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: للذي يعمل مثل عملك. وذكر أنه أكل من ثمرها، وسقوه من شرابها. قال: فأتاني النبي، صلى الله عليه وسلم، ومعه سبعون نبيا، وسبعون صفا من الملائكة، كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب. فسلم علي وأخذ بيدي. فقلت: يا رسول الله: الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث. فقال: صدق الخضر، صدق الخضر، وكل ما يحكيه هو حق، وهو عالم أهل الأرض، وهو رئيس الأبدال، وهو من جنود الله تعالى في الأرض. فقلت: يا رسول الله: فمن فعل هذا أو عمله، ولم ير مثل الذي رأيت في منامي، هل يعطى شيئا مما أعطيته؟ فقال: والذي بعثني بالحق نبيا، ليعطى العامل بهذا وإن لم يرني ولم ير الجنة، إنه ليغفر له جميع

الكبائر التي عملها، ويرفع الله عنه غضبه ومقته، ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة. والذي بعثني بالحق نبيا، ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيداً، ولا يتركه إلا من خلقه الله شقياً. وكان ابراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب. فلعله كان بعد هذه الرؤيا}هـ من "الإحياء": [304/1].

فهذا الوجه من تلقي فضائل الأذكار عن الخضر، مما لا يتردد فيه أحد من أهل الطريق، ولا يماري فيه فرد من أفراد الصوفية من أهل الاستقامة والتحقيق. قال الشيخ أبو عبد الله الخروبي، كما نقله عنه سيدي العربي الفاسي في "المرآة":

{هذه[أي المسبعات] من ألأوراد العظيمة التي جرت عادة الصالحين والعبّاد يقرأونها ويضيفونها إلى وظائفهم وأورادهم، قديماً وحديثاً، غدوة وعشية. ولم يزل الشيوخ يأمرون إخوانهم وأصحابهم بقراءتها، ويحضونهم عليها. وما زال أشياخنا، رضي الله عنهم، يحضوننا على قراءتها منذ كنا صغاراً}هـ[ص67].

قلت: وعلى هذا أدركنا أهل الطريق الدرقاوية يلحقونها بأورادهم، كما كان يفعل ذلك والدنا، رحمه الله.

قلت: ومما يمكن أن يضاف إلى هذه الأوجه، التجربة. ويمكن أن يكون من ذلك ما يذكر من خواص الأسماء التي يذكرونها إثر كل إسم من أسماء الله الحسنى، كما فعل الشيخ زروق في "المقصد الأسمى"، وقال في آخره:

{وغالب ما اعتمدته في الخواص، إنما هو من كتاب"كيمياءالسعادة" للإمام محيي الدين ابن العربي، وبعضه لأبي العباس البوني} هـ[ مخطوطة ص 73].

قلت: ويمكن أن تكون التجربة استندت للإلهام أو الفتح أو الكشف، أو رؤيا صادقة، أو نحو ذلك، والعلم كله لله. وبوجه خاص، فإن كل ما لم يرد من فضائل الأذكار والدعوات عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أو عن أصحابه الكرام، الذين أقوالهم التي لا دخل لاجتهاد الرأي فيها، ويحكم لها بحكم المرفوع، وإنما وردت عمّن بعدهم من أهل الصلاح والديانة، والثقة والأمانة؛ فإنما يعمل بها على وجه حسن الظن بهم، ولاسيما، وكل ما يوصون به من أذكارهم وأحزابهم وخواصها،

يكون له أصل في الشريعة، ووردت فيه فضائل؛ إن لم تكن في جميعها، فقد وردت في مفرداتها، كما في هذه المسبعات. قال سيدي العربي الفاسي في "المرآة":

{ ولا يضر في ذلك ضعف الحديث، بل ولا وضعه، لأن هذا مما شهد الشرع بجنسه، وثبتت فضائل مفرداته، وعمل به العلماء والأولياء في جميع الآفاق والأمصار.( أولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِه). وقد أوضح الأئمة هذا المسلك ومهدوه، وقد أغنت شهرته عن الإطالة به.}هـ[ص67].

قلت: ونظيره ما قالوه في مسألة فدية "لا إله إلا الله"، فإن الحديث بها حكم علماء الحديث ببطلانه ووضعه. قال شيخنا العارف بالله، سيدي محمد بن جعفر الكتاني في "شفاء الأسقام"، لما ذكر بطلان حديث الفدية، ووضعه عن ابن حجر وغيره، قال ما لفظه:

{ولكن ينبغي العمل به اقتداء بالمشايخ، وامتثالا لقول من أوصى بها، كالشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي، والشيخ جمال الدين اليافعي، حسبما نبه على ذلك نجم الدين الغيطي}.

قلت: ونحو هذا الكلام في"شرح"الشيخ الطيب ابن كيران، لتوحيد ابن عاشر عند قوله: {ومن أفضل وجوه الذكر}. قال شيخنا: {فالمعول عليه حينئذ في هذا، هو كلام أهل الكشف الذين فراستهم لا تخطئ، وقد كوشفوا بصدق هذا الأثر، وعملوا به وحضوا عليه، وتبعهم الناس على العمل به، مشرقا ومغربا، علماء وغيرهم، وشاهدوا بركته، ورأوا منامات تدل على صحته}. أنظر تمام كلامه [ص50].

ويلحق بهذا كل ما ذكره من فضائل الصلوات التي استند فيها إلى الإلهام أو الكشف أو الرؤيا، كصلاة الفاتح التي ألهمها العارف البكري، وتبناها الشيخ التجاني، وذكروا لها خصائص وفضائل، وكالصلاة التازية، وكالصلاة المنسوبة لسيدي محمد بن علي بن ريسون، وكالصلاة المشيشية الشهيرة،التي عدها الشيوخ من لوازم أذكارهم وأورادهم، واعتنى العلماء والأئمة بشرحها، وهي أشهر من نار

على علم. وكل ذلك [وإن] لم يرد النص فيه من صاحب الشريعة، فإن في أصولها ما يشهد بحسنه.

أما المسبعات، فقد ورد في مفرداتها الفضل العظيم، كما لا يخفى. وفدية "لا إله إلا الله"، يشهد لكونها فداء من النار ما في الحديث: " من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة "، وما ورد من قوله، صلى الله عليه وسلم: " وإن زنى وإن سرق، رغم أنف أبي ذر". وفضل الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، مطلقا ما ورد من أن من صلى على النبي، صلى الله عليه وسلم، مرة، صلى الله عليه بها عشراً. وما بعد هذا الفضل من مزيد.

***

[ التعلق باسمه تعالى اللطيف وخاصيته وكيفية استعماله ]

ويدخل في هذا، التعلق باسمه تعالى اللطيف، وهو رجوع منا إلى ترجمة شيخنا ابن الخياط، فأقول: قال شيخنا المذكور، عاطفاً على ما يقرأ في ضيق الوقت، وطلب الفرج، وسرعة الإجابة:

{ومن ذلك إسمه تعالى اللطيف}.

قلت: وهذا القِسم هو، والله أعلم، مما جربه أهل العلم والفضل، ووصلوا به إلى مطالبهم، فهو مما ذكرنا أن سنده التجربة. وهذا الإسم من خاصيته سرعة الإجابة، ففي"نفح الطيب"، في ترجمة الشريف أبي القاسم السبتي، أحد شيوخ لسان الدين ابن الخطيب، أثناء حكايته، قال:

{وأنا أظن أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف، فإنه سريع الإجابة في تفريج الشدائد والكرب. نص عليه البوني في "منتخبه"، وهو مجرب في ذلك}. هـ. من الجزء 3 صحيفة 108. وقال الشيخ زروق في "المقصد الأسمى":

{وخاصيته دفع الآلام؛ فمن ذكره عدده الواقع عليه، وهو يشاهد الحالة، ومن ذكره مائة مرة، أو مائة وثلاثا وثلاثين؛ وسع عليه ما ضاق، وكان ملطوفاً به في كل أمره} هـ[ص31].

ثم تعرض شيخنا ابن الخياط المذكور، إلى ذكر كيفيات استعمال هذا الإسم الشريف، وإلى أعداده المختلفة، فقال:

{وللناس في ذكره كيفيات وأعداد مختلفة بحسب الاعتبارات. وغاية ما وقفت عليه من الأعداد سبعة عشر ذكر منها صاحب "المنهج الحنيف" في معنى اسمه اللطيف، تأليف الشيخ أبي بكر الكتامي، وعزا للشيخ زكرياء الأنصاري، خمسة عشر، وهو تأليف عجيب الشأن في بابه}. ثم قال شيخنا:

{منها العدد الأصلي بقدر عدد حروفه بحساب الجمل، وهو أبجد الخ. وذلك مائة وتسعة وعشرون. ثم قال: ومنها العدد الوسط الخارج من ضرب المائة والتسعة والعشرين المذكورة في نفسها. وذلك الخارج ستة عشر ألفا، وستمائة وإحدى وأربعون، والعدد الكبير المشهور، الذي هو مائة ألف وستة عشر ألفا، وأربعمائة وسبعة وثمانون، وهو المشار إليه بقول الإمام السنوسي}:

إذا كنت في هم وضيق وشــدة      فقل يالطيف عدّ فزت على الولا

وزد نقط قاف من ألوف وستة      وعشرة ءالاف بهــا العد كمــلا

ثم قال شيخنا:

{الذي روينا عن شيوخنا وأخذناه عنهم من تلك الوجوه، أربعة: العدد الأصلي، وهو المائة والتسعة والعشرون، والعدد الوسط، وهو ستة عشر ألفا وستمائة وواحد وأربعون، والعدد الكبير، وهو مائة ألف وستة عشر ألفا وأربعمائة وسبعة وثمانون. [قال]: وأربعة آلاف [وأربعمائة وأربعة وأربعون]، كما مر. وهذه الأربعة هي المتداولة بين أهل الوقت، فيما علمت. والله أعلم}.

{أما العدد الأصلي؛ فقد أخذته عن غير واحد من شيوخنا العارفين، رضي الله عنهم، وشاهدت له البركة العظيمة، وما خشينا من شيء من أمر السماء والأرض، وتوجهنا إلى الله تعالى به، إلا وكفانا ببركته هم ما خشينا، فلله الحمد والشكر على ذلك، وعلى جوده العام، وإحسانه التام. لا إله إلا هو، له الأسماء

الحسنى، والصفات العلى. ونسأله تعالى أن يكفينا ما أهمنا، وما لم يهمنا من أمر الدنيا والآخرة، ويختم لنا بخير، آمين}.

{كيفية ذكره: اللهم إني أسألك بحق اسمك اللطيف، وجاه نبيك الشريف، سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، الطف بنا يا لطيف - وتذكر يا لطيف تسعاً - ثم تقول: الله لطيف بعباده. يرزق من يشاء، وهو القوي العزيز. اللهم إني أسألك بحق اسمك اللطيف، وجاه نبيك الشريف، سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، ألطف بنا يا لطيف. - تذكر يا لطيف عشرين مرة - ثم تقول: الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء، وهو القوي العزيز. اللهم إني أسألك بحق اسمك اللطيف، وجاه نبيك الشريف، سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، ألطف بنا يا لطيف. - تذكر يا لطيف مائة مرة - ثم تقول: الله لطيف بعباده، يرزق ما يشاء، وهو القوي العزيز. اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير. الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء، وهو القوي العزيز. اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء، وهو القوي العزيز. اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير:

يا لطيف الصنع يا من كلما ... دهم الأمر جلا ما دهما
ياغياث المستغيثين ويا ... مضي الحكم إذا ما حكما
نفّس الأمر علينا سرعة ... إنما الأمر علينا عظما
واستجب منا دعانا كرماً ... يا كريماً أنت رب الكرما
وسألنا اللطف منك عاجلاً ... يا حليماً أنت رب الحلما

---

بمحمد وبينته وبعلها ... وابنيهما السبطين أعلام الهدى
وبصحبه والتابعين لهم فهم ... ساداتنا أهل المكارم والندى
فرج كروب المسلمين وضيقهم ... يا خير من مد العصاة له اليدا

---

يا ربنا أنت المجيب لمن دعاك ... اغفر لنا وانشر علينا رحمتك

{ثلاثاً. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضي لنا بها جميع الحاجات، وتطهرنا بها من جميع السيئات، وترفعنا بها أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات، من جميع الخيرات في الحياة وبعد الممات. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، والحمد لله رب العالمين}. هـ قال شيخنا:

{وفي "المنهج الحنيف"، ما نصه: السابع، يعني من الأوجه، أن تستعمله بقدر عدد الإسم، وهي تسعة وعشرون ومائة. وفيه أيضا: ومن أكثر من ذكره، أحيى الله باطنه بنور المعارف ونور اللطائف، وزهده في الدنيا وبسطها عليه، وحببه في الآخرة ويسرها عليه، وحفظه في نفسه وأهله وماله وأولاده وأحبائه، وكفاه ما يخافه. ومن أراد تسهيل الرزق، حتى لا يحتاج إلى الخلق، يذكره كل يوم تسعة وعشرين ومائة مرة، ومثله من الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو عدده، ويذكر: الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء، وهو القوي العزيز. يرى البركة في رزقه وماله. ومن أراد الخلاص من السجن أو من الضيق كله، فليذكر العدد المذكور ومثله من الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، ويقول مثله من العدد: (إِنَّ ربيّ لَطِيفٌ لِمَا يشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ)، ثم الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، كذلك، ثم يسأل الله حاجته، فيكون الخلاص لوقته. قال: وذِكرُ مثل ذلك العدد من الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، شرطٌ في كل إسم وفي كل آية ودعوة هـ. وهو من الحسن والكمال، ومراعاة الأدب، وإعطاء الوساطة مقتضاها بالمحل الأرفع، والنصح الأتم، إذ منه، صلى الله عليه وسلم، انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، ولاشيء إلا وهو به منوط}. قال:

{وأما العدد الوسط، فقد أخذته عن شيخنا ومولانا عبد المالك العلوي، أبقى الله بركته، عن بعض الصالحين، عن الشيخ سيدي الغازي بن العربي. كيفية العمل فيه: أن يستغفر الله ما شاء، ثم يصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، كذلك وهو متوضئ مستقبل القبلة. ثم يشرع في الذكر بياء النداء، يقول: يا لطيف، احدى

وأربعين مرة، ثم يقول: الله لطيف بعباده. يرزق من يشاء، وهو القوي العزيز. (ألاَ يَعلَمُ مَن خَلقَ وهُو اللّطيفُ الخَبير). ثم كذلك على رأس كل مائة. ثم بعد تمام العدد يقول: اللهم يا لطيف يا خبير، يا خلاق يا خالق، أغثنا أغثنا أغثنا، والطف بنا في قضائك السابق، بجاه سيدنا محمد الصادق، صلى الله عليه وسلم وعلى آله. اللهم إنا نتبرأ من حولنا وقوتنا، واستوثقنا بحولك وقوتك، فأرنا عجائب صنع لطفك، وغرائب حكمتك، واتنا بفرج قريب من عندك، كما فرجت على نبيك سيدنا يوسف الصديق، عليه السلام، بجاه سيدنا محمد الصادق، صلى الله عليه وسلم وآله}. قال شيخنا:

{وأما العدد الكبيرالمذكور، فقد أخذته عن شيخنا مولانا عبد المالك المذكور، وهو أخذه عمن أخذه عن الشيخ الكامل العارف بالله، المربي الواصل، أبي العباس، سيدي أحمد التجاني، نفعنا الله به آمين. وكيفية عمله: أن تصلي ركعين، وتنوي عند تكبيرة الإحرام حاجتك؛ تقرأ في كل ركعة الفاتحة أربعاً، وآيات اللُّطف، وهي قوله تعالى:(لاتُدْرِكُهُ الأبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَار. وَهُوَ اللّطِيفُ الخَبِير)، (إنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لمِا يَشَاءُ. إنّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ)، ( ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصبِحُ الأرْضُ مُخْضَرَّةً. إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، ( يَا بُنَيّ إنّهَا إنْ تَكُ مِثقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أوْ فِي السَّمَاوَاتِ أوْ فِي الأرْضِ يَاتِ بِهَا الله. إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، (وَاذكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ ءايَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةَ. إنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً)، ( اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ. يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ. وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ)، ( ألاَيَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللّطِيفُ الخَبِيرُ). ثم تقول قبل الركوع من الركعة الأولى: يا لطيف، تسعاً، وفي الركوع، عشراً، وفي الرفع منه، عشرا، وفي السجدة الأولى، عشراً، وفي السجدة الثانية، عشرا، وفي القيام للركعة الثانية قبل الفاتحة، عشراً. ثم تفعل في هذه الركعة الثانية مثل الأولى، إلا أنك لا تذكر فيها شيئاً بعد القراءة وقبل الركوع، اكتفاء بما قبل القراءة. وبعد الرفع من آخر سجدة عند الجلوس للتشهد تقولها عشراً، فيخرج من مجموع ذلك مائة وتسعة وعشرون، عدد الأصلي}.

{ثم إن أردت ذكره مسبعاً في سبعة أيام وحدك، فبعد سلامك من الصلاة، تصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، عشراً بأي صلاة شئت، بعد قراءتك سورة الفاتحة. ثم تقول: يا لطيف، إحدى وأربعين مرة، وستمائة وستة عشر ألفا( 16 641) وهو عدد الوسط، كما مر، لأنه سبع الكبير. وتقول عند تمام الأحد والأربعين والستمائة، وعلى رأس كل ألف: يا لطيف الطف بي في قضائك، واقسم لي من جزيل برك وآلائك. تفعل هكذا في كل يوم إلى تمام الأسبوع، بشرط اتحاد المجلس والساعة في خلوة، ماعدا الركعتين، فلا تصليهما إلا في اليوم الأول، فكل يوم بعد الأول، تبدأ الذكر فيه بالفاتحة والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم. وبعد الفراغ من الذكر في اليوم التاسع، تقول ثلاث مرات: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، وأيقنت بحولك وقوتك، فأرني عجائب صنع لطفك، وغرائب حكمتك، وانتني بفرج من عندك، كما فرجت على نبيك سيدنا يوسف الصديق، بجاه سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، يا أرحم الراحمين. فإن زدت بعض الأدعية نحو: يا لطيف الصنع، يا من كلما، الخ الأبيات المارة ونحوها، فحسن}.

{هذا كله إن أردت ذكره وحدك مفرقاً على الأسبوع، فإن أردت تفريقه على أشخاص سبعة، في وقت واحد، في مكان واحد، من غير زيادة على السبعة، ولا نقص، من غير حضور غيرهم معهم، إلا مشتغلا بنحو الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، سراً، فليقدموا واحداً منهم، فيصلي وحده تلك الصلاة السابقة على وجهها، وينوي نيابة عنهم وعمن ذكر له اللطيف عند تكبيرة الإحرام، ما قصده صاحبه، وإن لم يعينه لـهُم طالبُه. ثم بعد سلامه يقرأون الفاتحة، ويصلون على النبي، صلى الله عليه وسلم، عشر مرات، كما تقدم، بلسان واحد. ثم يذكر كل واحد في نفسه، يا لطيف، إحدى وأربعين وستمائة وستة عشر ألفا، ذاكراً عند تمام الإحدى والأربعين والستمائة، وعند رأس كل ألف: يا لطيف الطف بنا في قضائك، واقسم لنا من جزيل برِّكَ وآلائك. وبعد فراغ جميعهم، يذكرون مجتمعين الدعاء السابق ثلاثا، وهو: اللهم إنا نتبرأ من حوننا وقوتنا الخ. ولا بأس إن سُبق بعض منهم أن يعينه غير منهم، بإشارة منهما من غير كلام. ولا بأس بكلام من تم عدده،

ولم يُعِن غيره في أمر ضروري قبل اجتماعهم على دعاء الختم، أو قيامه للحاجة، ثم يرجع للدعاء معهم}.

{هكذا رأيناه ورويناه عن شيخنا المذكور، وأذن لنا فيه وفي تلقينه لمن فيه أهلية. نفعنا الله به آمين، في تاسع محرم عام إحدى وتسعين ومائتين وألف. وأخذته أيضاً عن غيره، على أن يجتمع على ذكره تسعة أشخاص، إذ لا كسر فيه حينئذ كالسبعة، بل تخرج القسمة صحيحة، وينوب كل واحد من التسعة اثنا عشر ألفاً، وتسعمائة وثلاثة وأربعون، وفي غير هذين العددين لا تجده إلا منكسراً، إلا إن قسم على ثلاثة}.

{قلت - أي قال شيخنا ابن الخياط - والغالب أن الناس اليوم في استعمالهم العدد الكبير، لا يبالون بانكسار عدده، فيذكر العدد الكثير من الناس، وبعضهم أكثر من بعض، ولا بأس بذلك. لكن عدم الكلام على كل حال، شرط من الابتداء إلى التمام. والله تعالى أعلم}.

ثم ذكر شيخنا للعدد الكبير وجهاً آخر، فانظره في "الفهرسة". ثم قال شيخنا:

{وأما العدد المنسوب لابن حجر، وبه يعرف، ولا أدري هل هو ابن حجر الحافظ العسقلاني، الإمام صاحب "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"، أو هو الشيخ العلامة ابن حجر الهيتمي، شارح "الهمزية" و"الشمائل"، وهو متأخر عن الأول، وكلاهما اسمه أحمد. لم أر من تعرض لذلك، ولم أجد سندا في ذلك}. قال شيخنا:

{ثم رأيت في "رحلة" الشيخ عفيف الدين، أبي سالم عبد الله العياشي، عن شيخه الإمام العلامة، العارف بالله، الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري، أن شيخه وشيخ شيخه، الشيخ أبا المواهب، أحمد بن علي الشناوي، رضي الله عنه، قال: كل اسم من الأربعينية منه، يذكر أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين، وأنه ساق في كتابه "بستان العابدين" الأسماء الإدريسية بسنده إلى الحافظ ابن

حجر العسقلاني، بسنده إلى عبد الله بن محمد القراطي، وهو ابن أبي الدنيا، في "كتاب الدعاء"، بسنده للحسن البصري].

{والأسماء الإدريسية عددها أربعون، أولها: سبحانك لا إله إلا أنت، يا رب كل شيء ووارثه. وتمامها مكمل أربعين؛ يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، الخ. ومنها: يا حميد الفعال، ذا المن على جميع خلقه بلطفه. وهذه الأسماء الإدريسية رواها في "القوت"، والسيوطي في "فتاويه" وغيرهما عن الحسن البصري أنه قال: لما بعث الله إدريس، عليه الصلاة والسلام، إلى قومه علمه هذه الأسماء، وبهن دعا، فرفعه الله مكانا عليا. ثم علمهن موسى، صلى الله عليه وسلم، ثم علمهن الله تعالى محمداً، صلى الله عليه وسلم، وبهن دعا في غزوة الأحزاب. أنظر بسط ذلك في "الرحلة" المذكورة}. قال شيخنا:

{ ثم رأيت بخط شيخنا، سيدي الحاج محمد جنون، ما نصه: وأما اللطيف المنسوب لابن حجر العسقلاني، رحمه الله، وهو أن تذكر الإسم اللطيف بالتعريف أربعا وأربعين وأربعمائة وأربعة آلاف، في موضع خال بعد صلاة ركعتين، الأولى بالفاتحة، و"ألم نشرح"، والثانية بالفاتحة، و"إذا جاء نصر الله"، ثم تسلم وتستغفر الله عشراً، وتصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، عشراً؛ تقول: اللطيف، أربعاً. ثم تقرأ الإخلاص والمعوذتين. ثم تقول: اللطيف، أربعين} الخ.

قلت: والظاهر أن هنا انتهى ما وجده شيخنا من خط شيخه جنون. ثم قال شيخنا:

{أخذت هذا العدد المعزُو لابن حجر، عن جماعة من أهل العلم والفضل، منهم شيخنا مولانا عبد الملك المذكور. وكيفية ذكره أن تصلي ركعتين بـ"ألم نشرح"، في الأولى. والكافرون في الثانية بعد الفاتحة فيهما، إن كان الوقت وقت نافلة. ثم تستغفر الله تعالى وتصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، بما تيسر، وقيل مائة مرة لكل منهما. ثم تقول: اللطيف، بلام التعريف، أربع مرات. ثم تقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين، مرة مرة. ثم تذكر الأربعين، ثم الإخلاص والمعوذتين ثم المبين، إلى تمام العدد. تقرأ على رأس كل مائة الإخلاص والمعوذتين، تقول: لا

حول ولا قوة إلا بالله، خمسمائة مرة، تقرأ على رأس كل مائة، سورة الإخلاص بعد تمام سورة يس، ثم سورة تبارك الملك. وتسأل من الله تعالى ما شئت. وإن شئت، قلت في دعائك:

{اللهم فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا، اجعل لي كذا وكذا. وتذكر حاجتك، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. وقد تم عملك، إلا أن شيخنا عبد الملك أخذناه عنه بياء النداء؛ يا لطيف يا لطيف. بدون أل وهكذا، وهذا الوجه هو الأحسن من حيث الموارد الشرعية في الأدعية. وسيأتي مزيد تحقيق لذلك} هـ. قلت: يعني ما قاله في الفائدة الخامسة من فوائد الدعاء، إذ قال:

{ذكرُ اسمه تعالى اللطيف، تارة يذكر بياء النداء: يا لطيف يا لطيف، وهكذا. وهو اللائق بعامة الناس وأهل البدايات. وهو المتفق عليه الجاري على طريق الأدعية الواردة. وتارة يذكر مقرونا بأل اللطيف،اللطيف، وهكذا. وهذا الاستعمال هو الغالب من العدد المنسوب لابن حجر. وأخذناه أيضا بياء، النداء كما قدمنا}.

{وقد اختلف العلماء في ذكر اسم الجلالة مجرداً من ياء النداء. والمعتمد جوازه، كما في صلاة القطب مولانا عبد السلام بن مشيش، رضي الله عنه: الله، الله، الله. وهل يستطيع أحد أن يتكلم في ذلك الجناب، كما قال الشيخ الإمام، سيدي عبد القادر الفاسي، رضي الله عنه، ونفعنا به، لما سئل عمن يقول "الله"، كما في "أجوبته الكبرى"}.

\---

## [خلاصة موضوع التعلق باسمه تعالى اللطيف]

هذا، وأنت خبير بأن الشيخ قد توقف في العدد المنسوب لابن حجر، هل هو ابن حجر العسقلاني أو الهيتمي. لكنه جاء بنقل الأسماء الإدريسية عن أبي سالم العياشي، عن الشيخ الشناوي، بسنده إلى ابن حجر المذكور، كما نقل عن شيخه جنون التصريح بذلك. والله أعلم.

وقد استوعب شيخنا ابن الخياط، رحمه الله، في هذه الفائدة الجليلة أوجه استعمال اسمه تعالى اللطيف الأربعة المتداولة، التي هي سلاح المؤمنين في هذه الأعصار، وملجأ يلجأ إليه ذوو الاستبصار، عند هجوم الملمات المؤلمات من الأهوال والأكدار، فتنفتح لهم به أبواب الانتصار، وتنجلي لهم آيات الإجابة من الواحد القهار. وهذه الأربعة هي:

- اللطيف الأصلي، كما سبق.
- واللطيف الوسط.
- واللطيف الكبير.
- واللطيف المنسوب لابن حجر.

وتقدم لنا عن شيخنا المذكور كيفية استعمال الجميع، مسنداً إلى بعض شيوخه. وهي فائدة جليلة ما أجملها وما أنفعها في هذا العصر الذي عمّ فيه الجهل بمثل هذه التوسلات الدينية، التي هي مرجع أهل التفكر والاعتبار.

قلت: ويزاد من فوائد شيخنا، رحمه الله، في اسمه اللطيف، ما أخذه عن شيخه سيدي ربيع. وتقدم بيان استعماله في أثناء هذا الجزء[المخطوط] صحيفة 295، فجاءت الأوجه التي ذكرها، رحمه الله، خمسة.

ثم أتى شيخنا بعد ذلك بفوائد جليلة تتعلق بالدعاء. أنظرها في "فهرسته" المذكورة.

---

[مواصلة ترجمة الشيخ سيدي أحمد ابن الخياط]

هذا، ولا يخفى أن شيخنا ابن الخياط المترجم، نشأ من أول أمره نشأة بعيدة عن استعداده للوظائف المخزنية، غير مستشرف لها، ولا متخذ وسائل للاندماج فيها،إذ كان منذ طلوع نجم ظهوره، سالكا مسالك العلماء العاملين، الراكعين الساجدين، الآخذين بطريق أهل الله، والقابضين أنفسهم عن الجولان مع أهل البطالة والغفلة، المعتصمين بالجد والاجتهاد في التحلي بأحوال الطريقة الشاذلية،

حتى أداه صدقه في التمسك برسوم الطريق، أن آثر طريق التجرد الكلي، واغتبط بترك الأسباب، والتعلق برب الأرباب، حسبما سبق تفصيله.

نعم. كنت أسمع أنه في أولياته [جرى] إدماجه في هذه الخطط الخسفية، والوظائف المخزنية، وعين بالفعل كاتباً بدار المخزن في ذلك العصر، فأظهر الانقياد والطاعة. ولكنه صار يرتكب أشياء لتأخيره وعزله عن ذلك، إذ كان من عادة ذلك العصر، أن كل كاتب تنفذ له دابة، ويعين له علفها في المصلحة المختصة بذلك. فكان شيخنا يفعل أفعالا مزرية بقدر الكاتب، ويحمل علف دابته، ويجعله في غرارة، ويضعها على كتفه، ويمشي بذلك بين الناس في الأسواق. فكان ذلك سبباً لتأخيره عنها، وبلغ بذلك مناه.

كما أني كنت سمعت أنه ولي الخطة القضائية بالقصر الكبير. ولكن هذا كله لم يذكره أحدٌ ممن ترجمه، والله أعلم.

### [ المجلس التحسيني العلمي بالقرويين، وتقديم شيخنا ابن الخياط لرئاسته]

أما توظيفه في رئاسة المجلس التحسيني العلمي بالقرويين، فكان سياسية اقتضاها حال الوقت الاستعماري، إذ كان هذا المجلس من أصله صادراً عن رأي الحكومة المستعمرة. وكان من سياسة الخداع التي هي شنشنة قديمة، يعرفها كل ذي لب له على التاريخ اطلاع. فكان حسواً في ارتغاء، وإبداء إصلاح للتعليم آيل للمحو والإلغاء، ظاهره الرحمة، وباطنه فيه عذاب وتضليل لهذه الأمة.اتخذه المحتلون أسلوباً للقضاء على العلوم الإسلامية، فجاءوا إلى معهدهم العلمي الشهير الذي كان قذى في أعينهم. إذ هو المعهد العالي، والمدرسة الرئيسية في المغرب التي كانت مقصد الراغبين، ومحط رحال القاصدين، والجامعة التي يتخرج منها أعلام المغرب وأئمته، ومن خريجيه تنتقى قضاته ومفتوه، وأساتذته ومرشدوه ووعاظه، بل وأرباب وظائفه الكبرى من الوزراء وغيرهم، إذ كان وزراء الدولة ينتقون غالباً من الكتاب، والكتاب ينتقون من العلماء الأدباء، كبني الفشتالي في الدولة السعدية،

وكالفقيه أكنسوس مؤرخ الدولة العلوية، وابن إدريس أديب المغرب وشاعره المفلق، وكالصفار،الفقيه المفتي التطواني، وكالفقيه الأديب المشارك ابن المواز، وأضرابهم الذين تقلبوا في الوزارات في الدولة العلوية الشريفة.

وكان تقديم شيخنا لهذه الرئاسة أيام السلطان مولاي يوسف، عام 1336.

وهذا لفظ "ظهير" يوسفي شريف، صدر لشيخنا بهذا الصدد، بعد التصدير:

(( الفقيه الأرضى، رئيس المجلس التحسيني لكلية القرويين، عمرها الله بدوام ذكره، الشريف السيد أحمد ابن الخياط، سددك الله، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد: فلا يعزب عن علمكم ما لجنابنا الشريف من الاهتمام الكلي بالعلم والعلماء، وما قام به جنابنا العالي بالله منذ أعوام من تمهيد الوسائل التي تتحسن بها حالة التعليم، ابتغاء الحصول على النفع العميم. إذ انتشار العلم في الأمم، هو الشرط الأول في حياتها، وحفظ كيانها وشريعتها. ولذلك لما تكررت منكم استعطافات جنابنا الأسمى، وطلب النظر فيما تنتعش به هذه الفئة المنتسبة لجانب العلم الأحمى، اقتضى نظرنا السديد، ورأينا الموفق الرشيد، بعد التأمل في القضية، وإعطائها حقها من الأهمية، أن أصدرنا أمرنا الشريف، بترقية رواتب العلماء ذوي المراتب، بشرط مواظبة كل منهم على تدريس فنون العلم التي يرشحون لتدريسها بعد.)).

((أما العلماء ذوو الرتبة الأولى؛ فيشترط في حقهم التدريس كذلك. لكن لا يتقيدون بتعليم فن دون آخر، لاستحقاقهم تدريس سائر العلوم. وقدر ما ينفذ سنوياً من الأحباس لكل واحد من مدرسي الرتبة الأولى، اثنتا عشرة مائة بسيطة مخزنية، ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثانية، سبعمائة وعشرون بسيطة، ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثالثة، أربعمائة وثمانون بسيطة، ولكل واحد من مدرسي الرتبة الرابعة، ثلاثمائة وستون بسيطة. ثم يجري كل قدر على التقسيط للمنفذ له شهرياً زيادة على الصلات السنوية.)).

((كما اقتضى نظرنا الشريف، إبقاء إدارة شؤون القويين منوطة بمجلس تحسين التدريس، كما كان. نعم. لمزيد الاهتمام والرغبة في سير الحالة على ما

يرام، صدرت أوامرنا العالية بالله، بأن يكون يعرض على خديمنا وزير العدلية الشريفة، كل ما يتعلق هناكم بالمعارف الإسلامية، على مجلس مرتبة العلوم الدينية، المنعقد تحت رئاسة جنابنا الأسمى، متركباً من خدامنا: الوزير الصدر الأعظم، وزير العدلية، ووزير الأحباس، وحاجب حضرتنا الشريفة، وبأن يعين أمين من جانبنا الشريف من أعيان أبناء فاس، يكون مكلفاً بدفع رواتب العلماء، مع السهر على تعاهد أحوال التدريس، وقيام كل عالم بوظيفه بحيث لا يقبض الرواتب المسطرة؛ إلا من استكمل الشروط المذكورة المقررة. ويعلم الله أن القصد من هذا كله هو زيادة انتشار العلوم وتوفر جمْع العلماء، وتحسين التعليم، حقق الله الرجاء.))

((وعليه فنأمرك أن تجمع سائر العلماء ذوي المراتب الأربعة، وتقرأ عليهم كتابنا الشريف هذا، ليقوم كل منهم بما يجب عليه ويعلم أن المرتب شرطه التدريس والقيام، لا مجرد الاتصاف بالعلم، والسلام 16 ربيع الثاني عام1336 )).[الدرر الفاخرة:ص136].

...

فامتثل شيخنا الأمر المولوي، وقابله بالسمع والطاعة، وقام برئاسة المجلس العلمي وما يقتضيه وظيفه جهد الاستطاعة. ولم يكن شيخنا، رحمه الله، يضيق صدره من مجاراة الأمور التي اقتضاها الحال، وحكم بها الوقت، مما لا ينافي قواعد الشرع ولو ظاهرا، لأنه الرجل الصوفي الذي يقرأ دائما قول "الحِكَم": {ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه}.

ولهذا لم يكن يشاقق الجمهور، ولا يفارق الجماعة. وكان يجامل أهل السطوة من الرؤساء والأمراء، في غير معصية.

[حضور الشيخ في المجلس العلمي السلطاني]

فقد كان يحضر المجلس العلمي الذي كان يعقده السلطان مولاي عبد الحفيظ، في جمع من أكابر العلماء، أول سلطنته إذ ذاك بفاس.

وكان السلطان يجله ويقدر قدره. ولهذا انتقاه لشرح نظمه لـ"جمع الجوامع". وانتقاؤه لذلك، مع توفر العلماء بفاس وغيرها في ذلك العصر، دليل واضح على ما كان للسلطان من تنزيله المنزلة العليا، والمكانة المكينة في العلم والمعرفة والمشاركة، إذ شرح مثل هذا النظم، يقتضي الاطلاع الواسع، والمشاركة التامة، والتحقيق والإتقان، والإحاطة بالفنون النقلية والعقلية، ليضاهي بذلك علماء الأصول، كالآمدي والفخر الرازي، والتاج السبكي وأمثالهم. فامتثل شيخنا، رحمه الله، أمر سلطانه وشرع بالفعل في شرح النظم المذكور، بنشاط تام، واعتناء متواصل، حتى كتب من ذلك كراريس عدة، كانت كما قال من طالعها في غاية التحرير والتدقيق في الفن على عادته، رحمه الله. وأتته المنية قبل إكماله.

---

## [السلطان مولاي عبد الحفيظ، ومقامه العلمي، وآثاره]

كما أن شيخنا المذكور، كان يشهد لهذا السلطان بالمعرفة والعلم والاطلاع، لأن بعض الناس كانوا يمارون في علمه، ويزعمون أن تلك المؤلفات التي تصدر باسمه، هي منتحلة وليست له؛ إنما هي لبعض أهل شنقيط الذي كان ملازماً لمجلسه. ولما سئل شيخنا عن ذلك، أجاب بما ذكرنا.

قلت: وما شهد به شيخنا لهذا الملك المرحوم، هو صحيح. وذلك أنه اتفق لي أن اجتمعت في احتفال كان أقامه الفقيه الكاتب سيدي العباس الفاسي، وهو إذ ذاك قائم مقام الصدر الأعظم، السيد المدني الكلاوي، للسلطان المذكور، ممن شهد له الناس بالنجابة والمعرفة والاطلاع. وكان جلوسه في ذلك الاحتفال حذائي، فصرت أحادثه ويحادثني في موضوعات مختلفة، حتى استلطفته بالكلام على السلطان مولاي عبد الحفيظ. وكان هذا الفقيه ممن رافق السلطان المذكور وصاحبه، واتصل به أيام أن كان السلطان بحضرة مراكش قبل بيعته. قال لي الفقيه المذكور، لما أشرت له بطرف خفي إلى ما ينسب للسلطان من العلم، فتفطن الفقيه

المذكور لمرادي، وأني أريد أن يكشف لي عن حاله، وأن يبين لي وصفه الحقيقي، فقال لي ما معناه:

إن مولاي عبد الحفيظ، رجل عالم، ذو ذكاء وفطنة، وإدراك تام. قال: ولقد كنت التزمت معه مطالعة "مطول" السعد، لسعد الدين التفتازاني، شرح "تلخيص" القزويني في المعاني والبيان. قال لي: وكنت أجهد نفسي وأسهر ليلي، وأصرف وقتي لفهم دقائق الشرح المذكور، وفتح مقفله، وحل مشكله، وآتي إلى مولاي عبد الحفيظ وجعبتي، فيما أظن، ملأى، وفكري مفعم بما انفتح لي من أسراره، وما التقطه ذهني من درر تحقيقه وتحريره، حتى ما وراءه من مرمى، ولا بعده مطلب يستدعي إمعاناً ونظراً؛ فإذا حضرت المجلس، وصرت معه في البحث وسرد الفصول، ألفيته فاقني في ذلك. أو كما قال.

قلت: وهذا الفقيه، كما كنت أسمع عنه أنه لسان صدق، ومتحر للحق، غير مداهن أو منافق.

و"مطول" السعد في هذا العصر كان هو محك اختبار الطالبين، وميدانا لامتحان السابقينز وعنده يعز الطالب المبرز فيه، أو يهان المتأخر في ذلك المقام.

وقد بلغني أن شيخنا سيدي محمد بن جعفر الكتاني، كان يشهد لهذا السلطان بالعلم، إلا أنه كان يقول: إنه كان ينقصه الاعتقاد في أهل الله، أو كلاما هذا معناه. بل إن السائل لشيخنا الكتاني، هو صديقنا الشريف الجليل، سيدي محمد ابن المكي الريسوني، حسبما أخبرني هو بذلك. قال لي: إنه سأله بنفسه عن هذا السلطان، فقال له: هو عالم، ولكن ليس فيه بذرة لأهل الله. أي ليس في قلبه اعتقادٌ فيهم. وهذا هو الحق.

أما من كان يماري في علمه، ويزعم أن مؤلفاته منتحلة وليست له، وإنما هي لغيره، فهذا فيما يظهر قول باطل، ومن أدلة الصواب عاطل، إذ مولاي عبد الحفيظ، وهو الملك في جلالته، لا تسمح له همته العالية بأن يتنزل لهذا الانتحال الذي هو معرض فيه لوصم النقص وعار القصور، لأن صاحب تلك المؤلفات التي

نسب إنشاؤها له، لابد أن يكون له صديق يُسرّ إليه الحقيقة، ويفشي إليه ما استكتم من السر. وذلك مما لا يرضى به ذو النفس الأبية.

ولكن شأن الناس في كل عصر وزمان، أن لا يتركوا لأحد أديما صحيحاً، ولا يألون جهدهم في ذوي الكمال والحسن تنقيصاً وتقبيحاً.

ولمولاي عبد الحفيظ مؤلفات منها: شرحه لخطبة "مختصر" الشيخ خليل. طبعت في جزء. وقد اطلعت عليه، وفيه ما يشعر بأنه يميل لمذهب تقي الدين ابن تيمية، في الإنكار على أهل الشطحات من كبار الصوفية، كالحاتمي وابن الفارض. وقد تقدم لنا ما قاله في قول ابن الفارض:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح، ولا تجعل جوابي لن ترى

ونسبته ابن الفارض للكفر، إذ قال: {أي كفر أصرح من هذا}. وتقدم لنا الجواب عن مقالة ابن الفارض، إذ سألني عن ذلك بعض طلبة العصر.

وأظن أنه سلك هذا المنحى في مؤلفه للرد على متصوفة الزمان، وهو من مطبوعاته، ولكني لم أره. وله أشعار وأنظام منها: نظمه "الياقوتة" في الفقه. وكأنه حاذى بها "تحفة" ابن عاصم، وسماها "ياقوتة الأحكام"، وأمر شيخه الشيخ المهدي الوزاني بشرحها، فشرحها في أربع مجلدات. ونظمه لـ"جمع الجوامع"، وقد أمر شيخنا ابن الخياط بشرحه، كما سبق. وهذا كله كان مشهوراً بين العلماء والطلبة بفاس، ونحن إذ ذاك بها.

كما أن له أشعاراً، منها قصيدته الشهيرة التي عارض بها "لامية العرب" للشنفرى، لأنه أتى بها على وزنها وقافيتها، وموضوع القصيدة في إقبال الدنيا على أهل الجهل، وإدبارها عن أهل العلم، ثم تقسيم أهل العلم، ثم التصدي لمدح العلم وبيان أنه الركن الوثيق الذي إذا انهدَّ، انهدّت أركان الشريعة، وأبرز ذلك في صورة جدل ومناظرة، في نسق حسن. وقد كانت شائعة متداولة بين الطلبة، ومطلعها:

أناختْ ببابي ربة الجهل تسألُ وأبدت أموراً ربّما العقل يقبلُ

وقالت أرى أن تترك الحي مُعزفاً فللحي أقوام تسير وتدْألُ

أما إنهم سادوا وشيدت قصورهم أما إنهم في حبها الدهر أوغلوا

فمن ذا رأيت للعلــــوم مسارعـــا  بلى كسبه من غير شك سيهملُ
أألــــت خبــير أن للعلـم غربـــــة  تقطع أكبـــــاد اللبـيب وتذهلُ
لـذاك رأيت أهلــه في ثلاثـــــــة  ألا قبّحــت تلك الرجــال وقتلُوا
سفيه بأخلاط الكـــلام معـــانــد  إذا خطته بالحق للوعـــظ يهملُ

[هنا ترك المؤلف نصف صفحة فارغة]

...

## [آثاره التاريخيــة]

هذا، وللمولى عبد الحفيظ، آثار تاريخية وعلمية. فمن الآثار التاريخية التي استلفتت الأنظار، وعدت من انتصاراته العالية المقدار، قضاؤه على ثورة أبي حمارة، تلك الثورة التي فرقت حكومة المولى عبد العزيز، وكلفت المغرب نفقات أدت به إلى الإفلاس، وتحمل قروض أجنبية كانت تصرف في غير تجهيز الجيوش، وإعداد المعدات للقضاء على هذا الثائر الجريء. ومع هذا لم تغن فنة هذه الحكومة شيئا ولو كثرت، إلى أن تمت بيعة المولى عبد الحفيظ، وانتصاره على أخيه المولى عبد العزيز. فكان من أهم أموره أن صرف العناية لجعل حد لهذا الثائر، وإراحة المغرب من فتنته، فساعده الحظ، وقدر الله له الإحاطة به وتفريق جموعه، والقبض عليه، وأسره والإتيان به لحضرته بفاس، وجعله في قفص من حديد، ووضعه على بناء مرتفع اتخذ لوضع القفص عليه في مشوره، ليراه الناس ويشاهدوه، حتى لا يرتاب أحد في ذلك. وكنا ممَّن شهد ذلك.

فكان ذلك مما زاد في تمكن المولى عبد الحفيظ في المملكة وعموم الطاعة، وانتشار البيعة. وكل شيء عنده تعالى بمقدار.

لكن صفاء هذا الانتصار، أعقبته سوابق السياسة الخارجية التي كانت مدبرة بين الدول في شأن احتلال المغرب. فما صفا الجو للمولى عبد الحفيظ، حتى أظلتهُ ظلماتٌ بعضها فوق بعض، إذ كان أقبل أوان تنفيذ الاتفاق الواقع بين فرنسا وانكلترا، وتسليم انكلترا لفرنسا في المغرب، وتسليم هذه لإنكلترا في مصر.

وصار الفرنسيون يتخذون الوسائل، ويختلقون الأسباب للاحتلال، كموت الطبيب موشان بمراكش، وإنزال جيشهم بوجدة، ثم هجوم أسطولهم على الدار البيضاء، وأسرهم عاملها ظلماً وعدواناً، ثم زحف الجيش الفرنسي لحضرة فاس، ورميهم القنابل عليها، ثم توقيع مولاي عبد الحفيظ عقد الحماية، ثم تخلّيه عن الملك، وتقديم مولاي يوسف.

وهذا شأن هذه الدار، متى أضحكت يوماً أبكت غداً. سحقاً لها من دار.

## [محنة الشيخ الكتاني]

ومن آثاره التاريخية، لكنها من الآثار السوداء التي أثارت عليه انتقاداً، وأوسعته أحقاداً، وأساءت قلوب أهل فاس به اعتقاداً، وهي قبضه على الشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني، وتعذيبه ومحنته، هو وعائلته الشريفة، وقتله، فيما قالوا، شرَّ قتله.

وهذه الحادثة المؤلمة وقعت ونحن إذ ذاك بفاس. وفي سبب هذه المحنة تضاربت الأقوال، واختلفت الروايات. فقيل إن السبب الذي أوغر صدر السلطان مولاي عبد الحفيظ عليه، هو أنه تواطأ مع بعض زعماء البربر من بني مطير وغيرهم، على مبايعته وثورته على السلطان، وعاهدوه على معاضدته ونصرته، فخرج إليهم بأهله وحشمه. ولما بلغ السلطان ذلك، جهَّز إليه جيشاً لمقاتلته. فقيل إنه لما اتصل به رؤساء الجيش، قبل نشوب القتال، أعطوه الأمان من السلطان إن رجع لبلده. ولكن رؤساء البربر لم يرضوا بذلك، وقالوا له لا تغتر، وابق معنا، فنحن نقاتل هذا الجيش وندافع عنك، حتى إذا لم يبق منا رجل، أو كلاما هذا معناه.

ومن قائل يقول: إن هؤلاء الذين استدعوه وعاهدوه، هم الذين أسلموه وخانوا أماناتهم، فكان ما كان، ونفذ المقدَّر. وإني لأعجب كل العجب من الشيخ الكتاني، كيف اغترّ بهؤلاء حتى ألقوا به في مهوى هذه الصفقة الخاسرة، مع أنه لا يخفى عليه - إن كانت هذه الرواية صحيحة - [أنه] قد أوى إلى ركن غير شديد. بل

استند إلى جرف هار، فإن هذه القبيلة، أو هذه القبائل، ليس لهم من المعدات الحربية، ولا الآلات العصرية، ما يقابلون به قوة الملك، ولا لهم جمع متحد، ولا جيش للدفاع مستعد، وإنما هي شرذمة قليلة، وأوزاع متفرقة، لا يجمعهم نظام. وكأن الشيخ، رحمه الله، غاب عنه ما فعل أهل العراق مع سيدنا الحسين، مع أنه العالم المطلع، والمحدث الحافظ المتضلع.

أما إقدام السلطان على قتله فإنه، فيما يظهر، تحقق عنده ما قالته هذه الرواية من أنه خرج للثورة وطلب الملك، ولاسيما وقد سبق للشيخ أن رمي بهذه التهمة، أيام أخيه المولى عبد العزيز. وذلك أنه لما أعلن الشيخ الكتاني بمشيخته، وأصبح يلقن الأوراد، ويخالف الجماعة في بعض الاعتقاد، ويمتاز بذكر بعض الصلوات والأذكار، قام في وجهه علماء فاس، وسلوا عليه سيوف الانتقاد والإنكار، وعظم فيه القيل والقال، ونسبته للانحراف عن الجادة وسوء الحال، حتى وقَّع العلماء في ذلك عرائض، وأقاموا بذلك حججاً، ورفعوا ذلك إلى السلطان مولاي عبد العزيز بمراكش. وذيلوا ذلك، إغاظة للسلطان، وإغراءاً له على الشيخ الكتاني، بأن نسبوا إليه طلب الملك.

ولكن بادر الشيخ إذ ذاك، وقصد حضرة السلطان بمراكش، مبرئاً نفسه من طلب الملك. وبقي عليه ما نسبوه إليه من المقالات المخالفة للاعتقاد، فصدر الأمر بجمع العلماء مع الشيخ للمناظرة في ذلك، فوقع الانفصال على رجوع الشيخ عما نسب إليه.

ولكن بعد هذا، منع الشيخ من الرجوع إلى فاس، لإبقائه تحت نظر السلطان بحضرته، مع مراعاة قدره واحترامه، بفضل وصاية الشيخ ماء العينين، إذ كان يحب الشيخ حباً جماً. والشيخ ماء العينين كانت له المكانة المكينة عند الصدر الأعظم إذ ذاك، السيد أحمد بن موسى. وبعد لأي رُدَّ لفاس محترماً، بعد ضمانة العلامة سيدي الطاهر الفاسي الفهري. ثم بعد ذلك نال حظوة كبيرة لدى السلطان مولاي عبد العزيز. رحم الله الجميع.

كما أن مما أكَّد للسلطان مولاي عبد الحفيظ أنه خرج طالبا للملك؛ ما كان يتوقع عند تفاقم الأمر، واشتداد الخلاف والنزاع بين مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ، واضطراب الأمر، ووقوع الناس في هياط ومياط، من تقديم الشيخ الكتاني للملك. ولا يخفى أن الملوك بأدنى شيء من التهمة في النزاع وخلع الطاعة يقتلون الجماعة ولا يبالون. وهذا شيء عام في سائر الأمم والدول إلى الآن، إذ نرى اليوم أن القوانين كادت أن تحرم الحكم بالقتل، إلا على من يسعى في تقويض الدولة، ويريد الثورة على الحكومة، فيحكمون بقتله بأدنى تهمة، ولا تبالي حتى المحاكم التي أقيمت في الدول الإسلامية بقتل النفس بالنفس، الذي هو حكم "القرءان".ئ ولكنها الأهواء أعمَت، فعمَّت.

هذه هي الرواية الشهيرة بفاس. وكان يحققها بعض من له به اتصال من أقاربه.

وقيل: السبب في خروج الشيخ الكتاني من فاس، لم يكن لطلب الملك، ولا نكثا لبيعة السلطان. وإنما كان فراراً بنفسه خوف ما كان يتوقع من كيد السلطان وبطشه، لما كان يرى منه من الغض من قدره، ومعاملته بالقطيعة، ولم يجره على عوائد بره، فقلّت لديه الواردات، وتباعد عنه الواصلون، وقلّت مادة المساعدين، فاستحالت حاله، وأدبر إقباله، وعادته أعوانه، وهجره أصحابه وأخلاؤه.

والناس أعوان من والته دولته     وهم عليه إذا عادته أعوان

فضاقت عليه فاس بما رحبت، واعترته الخواطر المريعة وتنوعت، فلم ير إلا الخروج من فاس، والهجرة منها مستعيذا من شر الجنة والناس، وقصد بلاد البرابرة، إذ كانوا إذ ذاك به لاهجين، وباعتقاده متمسكين.

والذي أثار حقد السلطان ـ فيما يقال ـ هو الشيخ الكتاني، إذ هو الذي كان تزعم حمل أهل فاس على بيعة المولى عبد الحفيظ ، ولكنه تولّى تحرير عهد البيعة، ومما اشترط عليه فيه، تقييده بمجلس الشورى. فلم يرق ذلك السلطان، أو رآه حطاً من قدره، ومشاركة له في المُلك، فكان ذلك أساساً بنى عليه اتهامات أخر.

ويقال إن من أسباب حقد السلطان عليه، أنه كان يحضر مع العلماء في المجلس العلمي لدى حضرته، فكان الشيخ الكتاني يناقش السلطان في أفكاره، خلاف ما كان عليه الجماعة، من أن الحق ما قاله سيدنا.

هذا ما كان يقوله بعض من يدعي الاتصال بالشيخ، واطلاعه على الأحوال. ومع هذا كله، فكان من حق الشيخ أن يصبر ويحتسب، ولا يفارق الجماعة، وحيث رأى أن الخروج من فاس سيجد فيه مراغماً وسعة، فكان من اللائق - ولاسيما في ذلك الوقت الحرج - أن يستأذن السلطان.

وهنا أجاب بعض أقارب الشيخ وأصدقاؤه، بقوله: إن الشيخ لم يكن سياسياً حاذقاً. وكأني ألاحظ هنا قول الحكيم ابن خلدون، إن الفقهاء أبعد الناس عن السياسة، أي لأن السياسة كلها مكر وخداع وحيل ومكائد، وأهل العلم الديني يتجافون ذلك، وتحصل لهم الثقة بأدنى مظاهر الصدق، كما وقع للشيخ، رحمه الله. كما أن الشيخ غاب عنه في هذه الحالة، استحضار قوله عليه السلام، كما في "صحيح" البخاري: " من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلا مات ميتة جاهلية ".

ثم بعد هذا كله، فانظر إلى ما آل إليه أمر هذا السلطان، كيف سلب منه ملكه، وانفطر عقد نظام سلكه، ومات غريبا فريدا كأنه ما استوى على عرش ملكه قط، ولا أمر ولا نهى، ولا رفع ولا حط، ولا خضعت لديه أصحاب الرئاسة وأرباب الولايات والخطط، فقد ذهب المأمور والأمير، وانقطعت صولة المُلكِ الخطير، ولم يغن عنه دهاء سياسة ولا حسن تدبير، وصار الكل إلى حكم من لا معقب لحكمه، وهو العلي الكبير.

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار [من فعل يُبكّي]
فلا يغرركم مني ابتسامٌ فقولي مضحكٌ، والفعل مُبكي

وقد تذكرت هنا قول القائل في أن عزّ الدنيا بالمال. لكن المتعزّز به مغرور، إذ عزه إلى زوال، ووجوده إلى فناء واضمحلال:

عزُّ الفتى في الحياة مالُهْ وذله في الورَى ســــؤالُهْ

لا تغترّ باعتـــدال حــالٍ فعن قريبٍ ترى زوالــهْ

وكل ما تـــــــراه حتماً لابدَّ من أن يحولَ حالــهْ

وقد كنت بسطتها ومزجتها بقولي، وهو نوع من التضمين والتشطير، أو التخميس، ولم أر أحداً من الأدباء نسج على منواله:

(عزُّ الفتى في الحياة مالهْ) ونقده حدٌّ لـهُ نِصَــالهْ

وبــه يحلـــو لهم ويسمُــو قدراً ويبدُو لـهم كمالُـهْ

يُرى شجــاعاً وإن تلكّـــا وعاقلا قد فشـا اختلالـهْ

يفـــوق سحبَانَهم بيـــاناً وهو عييّـل بَـدَا انحلالهْ

وفكـره كلُّـــه مســـــاو وإن علت قبحـه خصالُهْ

إن حضر الحفل لا يبـالـي بـه ولـو أبْهجت خِلالـــُهْ

والرّحب مـن وقفـه تشكى وضاق من أجلـه مجالـُهْ

ومقتـه إن شكَــا شـديـدٌ (وذله في الورى سؤالـه)

( لا تغتر باعتـدال حــالٍ) دوامه في الحجَا مُحـالـهْ

وكن من الدهر في انتبـاهٍ فربمـا راعك انتشــــالـهْ

أنت إذا طبت منـه نفســـاً (فعن قريـب ترى زوالــهْ)

يواصل المرء في صبــاح وفي المسا ينْجلي انفصالهْ

إن ساعد السعد في زمـانٍ من فوره ينجلِي انخزالـــهْ

حياتنـــا كلهـــــا كظـلٍ والظلُّ من شأنه انتقـــالهْ

فالجأ إلى الله كـل حيـــنٍ تحفظك يوم اللقـــا ظِلالهْ

واذكره ذكـراً بـــلا فتورٍ يكفيكَ ما تخشـى اختلالـهْ

فبه فاعتزّ، ومنـه فاســألْ يُغنيكَ عن غيره نـــوالهْ

وصلّ صـــلاة بلا انقطـاع على الذي زانتــا كمـالهْ

محمدٌ سيّـــــــدُ البرايَــا مَن عزَّ فـي كوننـا مثالهْ

(وكل مـــا قد تـــراه حتمـاً) (لابـد من أن يحولَ حالـهْ)

أما السلطان مولاي عبد الحفيظ، فإنه، فيما يظهر، ندم على ما فرط منه من تلك القساوة، ورجع إلى الله طالباً منه العفو والمجاوزة في تلك الجناية. فقد أخبرني السيد محمد، ولد الحاج الصادق الطنجي، أحد شهودها، المتصدر في سماطها، وكان له بمولاي عبد الحفيظ اتصال، بسبب أنه كان كاتباً بالسفارة الفرنسية هنالك، وكان هو الذي يتولى كتابة العقود التي كانت تبرم بين فرنسا والسلطان مولاي عبد الحفيظ، بعد تخليه عن الملك، قال لي: إنه لما كان مولاي عبد الحفيظ بإسبانيا اتصل به، وصار يذاكره في أمر المغرب، فقال له مولاي عبد الحفيظ: إن أهل المغرب ينتقدون عليّ أموراً. وذكر منها توقيع الحماية الفرنسية على المغرب، وقتل الشيخ الكتاني، فقال: إن توقيع الحماية لم يكن لي فيه اختيار ولا ابتكار، بل كان الأمر فيه ممضى متفقاً فيه بين الدول، ولم يبق لي ولا لغيري أي إمضاء ولا رد. وأما الكتاني، فإنه كان خرج طالبا للملك. وذكر مسألة ثالثة ضلت عني الآن. ثم أجهش المولى عبد الحفيظ بالبكاء، وقال: وبعد هذا، إن خرجت عن الجادة، ووقع مني زلل أو خطأ، فإني أتوب إلى الله. أو كلاما هذا معناه.

هذا ما حدثني به ولد الحاج الصادق المذكور، إذ ورد علي زائراً وأنا إذ ذاك في خطة القضاء بالقصر الكبير. ولا غرو في هذا، فإن المؤمن بخير على كل حال. وهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ولاسيما والمولى عبد الحفيظ هو من شجرة (أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السَّمَاء)، من آل البيت الشريف الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، قال الله تعالى ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا) وقد استدل الإمام محيي الدين ابن عربي الحاتمي بهذه الآية على أن أهل البيت لا يعذبون على المعاصي، فيعتقد في كل مؤمن منهم عاصٍ أنه لا يلحق به الوعيد في الآخرة، قائلا مانصه: {فعلق الحكم بالإرادة التي لا يبدل أحكامها}.

وتبعه على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشيخ زروق. وفضل الله واسع، وكرمه يعمّ العاصي والطائع.

وهنا تذكرت ما ذكره الشيخ ابن عطاء الله في "الطائف المنن"، عن شيخه أبي العباس المرسي، أنه قال:

{طالعت مقام الرحمة، فإذا علي يقول لي: والله ليكونن من رحمة الله يوم القيامة ما ينال منها ابن أبي الطواجن. وكان هذا ابن أبي الطواجن، قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش، شيخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي، رضي الله عنهما} هـ[ص63].

وانظر أيضا ما رواه في "الحلية"، عن ابن سيرين، أنه كان ينهى عن سب الحَجَّاج، وقال: إن الله تعالى حكم عدل: إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه، فسوف يأخذ للحجاج ممن ظلمه، فلا تشغلن نفسك بسبّ أحدٍ. قاله للذي سمعه يسبُّ الحجاج.

## [أثـــره العلمي]

أما آثار مولاي عبد الحفيظ العلمي؛ فلا يخفى أنه كان عالماً مشاركاً في فنون شتى من فقه وأصول وأدب، مولعا بالجمع والتأليف، والبحث عن الكتب. ولهذا قام بطبع كتب قَيّمة نادرة الوجود، في التفسير والحديث والسيَّر، وأسماء الصحابة والنحو والتصريف، وغير ذلك.

فمن ذلك في مصر: "البحر" لأبي حيان، والأبّي على مسلم، و"المنتقى شرح الموطا" للباجي، و"الروض الأنف" للسهيلي، شرح" سيرة" ابن هشام، و"الإصابة في أسماء الصحابة" لابن حجر، مع "الاستيعاب" لابن عبد البر، و"أحكام القرءان" لابن العربي المعافري، و"شرحي" الحطاب، والموّاق لمختصر "الشيخ خليل"، و"شرحي" زروق، وابن ناجي" لرسالة" ابن أبي زيد، وغير ذلك.

وطبع في فاس: "مشرب العام والخاص" لليوسي، و"حواشي" ابن زكري على البخاري، مع" تكميل" جنون و"تكميل" مولاي عبد الحفيظ، و"مفتاح الأقفال" للسجلماسي في التصريف، و"نشر البنود"، "الشرح لنظم جمع الجوامع"

للشنقيطي، مع "شرح" حلولو" لجمع الجوامع"، وغير ذلك من المؤلفات التي كانت يسمع بها ولا ترى؛ فنشرها هذا السلطان العالم، وفرّقها على العلماء وعلى المكاتب العلمية في الغرب والشرق. فجزاه الله عن العلم خيراً، وجعله أسوة لأمثاله في خدمة العلم وآله.

...

## [إتمام ترجمة الشيخ ابن الخياط]

ولنرجع إلى المقصد الأصلي من ترجمة شيخنا ابن الخياط فأقول: إن شيخنا المذكور كان، كما سبق غير ما مامرة، شيخ العلوم وعميد فنونها، ومفتاح مغلق متونها، هجيراه الدراسة والتعليم، وهمته كلها مصروفة في الإفادة والتفهيم، فحياته كلها في خدمة العلم والمعارف، كتابة وتعليما، في كشف مشكل، وحل معضل. ولهذا كان كثير المؤلفات. وإن كانت لطيفة الجسم، فإنها غزيرة بنفائس العلم، حتى كان كلما جرت المذاكرة في مسألة أو سئل عنها، أو تعلق البحث فيها في دراسة، كتب فيها، وحصّل ما فيها من المباحث، ووضع لها إسما خاصاً.

فمن مؤلفاته الشهيرة التي بين أيدينا: "حاشيته" على "شرح" الخرشي لفرائض الشيخ خليل، وهي من أنفس الحواشي تحريرا وتحقيقاً. ومنها "حاشيته" على "شرح" سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي لمصطلح الحديث. ومنها تجريده للمسائل العلمية التي اشتملت عليها "طبقات الشافعية" للتاج السبكي. قلت: وكنت أسمع من الشيوخ أنها ضاعت له بمراكش. ومنها تأليف في العقائد على مذهب المتكلمين، وتأليف سماه "رفع اللجاج والشقاق، في حكم البينونة في الطلاق عند الإطلاق". إلى غير ذلك. وقد عددها في" فهرسته" وهي تبلغ المائة. وقد تقدم لنا أنه كان شرع في "شرح نظم جمع الجوامع"، للمولى عبد الحفيظ، وأنه أتمّ منه جملة كانت في غاية التحقيق والتحرير على عادته، رحمه الله.

ولم يزل شيخنا هذا على سيرته المحمودة، ومثابرته على إنشاد ضالة العلم المنشودة، بين علم يفيده، وعمل برّ يريده، إلى أن دعاه مولاه، لما اختاره له

وأولاه، فلبى الداعي يوم الاثنين، ثاني عشر من شهر رمضان، عام ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف (1343 ). صبَّ الله على مضجعه وابل الرحمات، وأسكنه أعالي الجنات.

وأما مولده، فإني اتبع مذهبه في ذلك، لأنه أعرض عن ذلك في" فهرسته"، وأستشهد لذلك بقوله:{ذكر القاضي أبو الفضل عياض، رحمه الله، في "المدارك"، في ترجمة الشيخ أبي بكر الأبهري، رحمه الله، أنه سئل عن سنه، فقال للسائل: قال مالك: سؤال الشيوخ عن أسنانهم من السفه.} هـ.

ومن ترجمة البويطي من"الطبقات" أنه قال: {قال الشافعي: ليس من المروءة أن يخبر الرجل عن سنه}. وقال ابن الخطيب في "الإحاطة"، نقلا عن شيخه المقري، صاحب "الكليات"، في ترجمته من "الإحاطة"، بسنده إلى بعض أصحاب الشافعي، وكان يقول: {سألت فلانا عن سنه، فقال: أقبل على شأنك}، مانصه: {سألت الشافعي عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت مالكا عن سنه، فقال: أقبل على شأنك. ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه.} هـ[164/2].

قال بدر الدين القرافي في "توشيح الديباج": وإنما كان الإخبار عن السن ليس من المروءة، لأنه يستدعي تذكرة الولادة، وما يكون عليه المولود في البداية، ممّا لا تتيسر أسباب المروءة معه، من الجهل بالمضرة والمنفعة، ولأنه يدعو في الجملة إلى التكذيب ممن لا يرى أن الله عليه رقيب. ولذا قيل:

المرء يسأل دائما عن سنّـهِ والرأي والمال المسود من يسود
فإذا سئلت فلا تجب عن واحد خوف المكذب والمكفر والحسود

[هـ].

هذا، وقد بكت لفقد شيخنا المترجم عيون المعارف والعرفان، وأمحلت بحلول منيته ربوعها التي كانت بمعين أفهامه فنونها مخضرّة الأفنان، وانهدّت برحيله أركان العلوم الإسلامية، واندكّت بنقلته قواعد الشريعة المحمدية السامية، وزلزلت أرض العلم الصحيح بزوال هذا الجبل الشامخ بتحقيقاته الثابتة على أصول الدين الراسية، وأوجس في قلوب أهل المعرفة خيفة من حلول البلاء، واستيلاء الجاهلية

الجهلاء، ورفع نور علم العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء. وقد وقع ما خيف أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبقضائه راضون.

## [موت العلماء وما ورد فيه]

وقد قدر الله تعالى أن يكون رفع العلم وظهور الجهل، من علامات الساعة وأشراطها، ففي صحيح البخاري: باب رفع العلم وظهور الجهل. وقال ربيعة: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم، أن يضيع نفسه. ثم أخرج بسنده عن سيدنا أنس، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنى". ومن رواية له عن أنس أيضا: " من أشراط الساعة، أن يقل العلم." الخ.

قلت: فالرواية الأولى هي، والله أعلم، عند قرب الساعة. وهي مقتضى قوله عليه السلام: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا ". رواه الإمام أحمد، والشيخان وغيرهم.

فمعنى الرواية الأولى، أن العلم يرفع بالكلية بموت حامليه ورواته والقائمين بتعلمه وتعليمه، ولا يبقى إلا الجهلة الأشرار، ومن لا يذكر الله الواحد القهار، كما في حديث الإمام أحمد ومسلم: " لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق". وكما في حديثهما والترمذي: " لا تقوم الساعة، حتى لا يقال في الأرض الله، الله".

أما الرواية الثانية، فهي تفيد أن العلم لا ينقطع كلية، بل إنما يقل بقلة أهله، مع وجودهم وظهورهم لكنهم لا نفوذ لهم، ولا استجابة لدعوتهم، ولا انقياد لأمرهم، فإرشادهم لا يتبع، ونداؤهم لا يسمع، ورأيهم لا يتلقى بالقبول، ووعظهم لا يؤثر في القلوب، فسواء عليهم أوعظوا أم لم يكونوا من الواعظين.

أو وُجود هذه الفئة القليلة في الواقع، لكنهم في حكم المفقودين، لخمولهم وغربتهم، وفرارهم من تسلط من يضاد هذا العلم ويضطهد أهله، وتصل يده إليهم

بالإذاية، فهم في خفاء تحت حجاب التخلي عن الناس مفقودون، وبلزوم قاعات بيوتهم لا يعرفون. وإلى هؤلاء أشار أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب، في كلامه الذي خاطب به كميل بن زياد النخعي، بعد أن قسم الناس إلى ثلاثة أقسام، قال:

{فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق}. ثم صار، رضي الله عنه، ينوّه بفضل العلم، ويفصّل فضائله ومزاياه، ثم قال، رضي الله عنه: {ها إن هنا لعلماً جماً ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو أصبت له حملة}. ثم صار يصف الحاملين، ثم قال: {كذلك يموت العلم بموت حامليه}. ثم قال: {اللهم بلى. لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو إما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا وأين. أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدرا. يحفظ الله بهم حججه وبيناته، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم}. انظر تمامه [في شرح نهج البلاغة: 4/ 310].

وخلاصة كلام أمير المؤمنين، رضي الله عنه، أن الأرض لا تخلو من العلماء القائمين بالحق، الحاملين للشريعة، إما ظاهرون مشهورون، وإما خائفون مستخفون، وهذا معنى قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ). والذكر هو "القرءان"، و"القرءان" هو الجامع لعلوم الأولين والآخرين، وهو روح الإسلام وعمدته، وهو بحر العلوم الدينية، وهو الحكمة التي من أو تيها فقد أوتي خيراً كثيراً.

فإذا كان "القرءان" محفوظا من التغيير والتبديل، بحفظ الله، على مرور الأزمان والأعصار، ومحروساً من الإغارة عليه بحراسة الواحد القهار، ومؤكداً حفظه بلام القسم؛ فالعلم الذي هو منه مستمد، وعليه معتمد، لا محالة أنه لا يزال محفوظاً عند أهله في الصدور، محصناً من هجوم الأعادِي، لا يضره مُعاند أو مُعادِي. وهذا هو معنى قوله عليه السلام: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة ".

## [مذاكرة في أوضاع الدِّين، وكلام أحد العارفين
## في قوله تعالى:(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى)الآية]

وقد وقعت مذاكرة قبل هذه الأيام، في شأن ما يظهر من ضعف الدين، وقلة أهله، وهجوم الضلال، وتغير الأحوال، وإهمال أمور الديانة، وخفة الأمانة، وفشوّ الخيانة، والتظاهر بالملاهي والمجانة، وخلع ثياب المروءة والصيانة، مما يؤذن بانقطاع ديانة الإسلام، وعموم الكفر والإلحاد، حتى لا يبقى في الأرض من يقول: لا إله إلا الله.

وكان كتب لِي بذلك بعض الإخوان، فكُنتُ أجبته، بأن تلك الظواهر السيئة لا أثر لها في اضمحلال هذه الملة، وأنها لا تزال، إن شاء الله، ظاهرة عالية، رغم هذه الحوادث المدلهمة. ثم عضَّدتُ ظواهر النصوص السابقة، بكلام العارف بالله، سيدي عبد العزيز الدباغ. ونقلت له سؤال تلميذه العلامة المشارك، المحقق في سائر المباحث والمدارك، سيدي أحمد ابن مبارك اللَّمطي.

ولكن هذا الأخ راجعني بما يفيد أن كلام سيدي عبد العزيز، لا أثر له مع كلام الله أو كلام رسوله. فراجعته بقولي:

فقد وصلت مراجعتكم القيمة التي أبنتم فيها عن علو مداركم، وتفوق أفهامكم، وبرزتم بذلك في ميدان واسع، واستقيتم فيها من معين"القرءان" البحر اللجاج، والسراج الوهاج، معدن الإيمان، وينبوع المعارف والعرفان، البنيان الذي لا تنهد أركانه، والحق الذي يقترن باليقين برهانه، والعين التي شرب منها العلماء، والمورد العذب الذي تتوارد على الاستقاء منه أفكار الفقهاء. فمن آثر لغير كنوزه، فقد ترك نهر الله الفياض، وقصد نهر معقل.

نعم. هناك سرٌّ في كلام العارفين، وخصوصية في مآخذ أهل الله المتحققين، إذ يرون ما لا يرى غيرهم، وتنفتح لهم الأغلاق التي تنسدّ عن سواهم، ولكلامهم حلاوة، وعلى تعبيراتهم وإشاراتهم طلاوة، لطلوع نور ذلك الكلام من صميم قلبهم، فهو متلقى من حضرة ربهم.

وانظر إلى ما وقع لإمام الدنيا، والمرجع إليه في الأحكام والفتيا، والمقدم في العلوم كلها وسلطانها، ومن أقرت له بالسبق في ذلك الميدان أعيانها، الذي كان يقول الحق ولا يبالي أشاء [أم أبى] ذو المقام السامي، والمنصب العالي، العز بن عبد السلام، الشهير. وذلك أنه[لما كان] ممن ينتقد بعض أمور أهل التصوف، ويراها خارجة عن المنهج القويم؛ اتفق أن جلس قرب حلقة العارف بالله، أبي العباس المُرسي. ولما سمع إلقاءه العرفاني، وإملاءه المترعة كؤوس ألفاظه برحيق المعاني، سار ابن عبد السلام، وهو من هو، المتضلع في العلم، المطلع على أسرار الشريعة والحقيقة بلامين، إلى الحلقة النورية المرسية، وصار يقول: {اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه}. فهذا الإمام على جلالته ونبله وفضله، لم يسعه إلا الاعتراف بالجميل، وإسناد الحق لأهله.

ويشبه هذا ما وقع لإمام السنة، وعمدة أهل الحديث، أحد الأئمة الأربعة الذين أخذت الأمة الإسلامية بأقوالهم الاجتهادية، الثابت العقيدة، المناضل عن أهل السنة الذي وهب نفسه في سبيل نصرة قواعدها المتينة، أبي عبد الله، أحمد بن حنبل. وذلك أنه لما كان شديد الإنكار على الإمام مفتي المذهبين، الشريعة والحقيقة، الحارث بن أسد المحاسبي، فاحتال ولده أن أحضره في منزل للحارث المذكور، كان يجتمع فيه أصحابه، وأجلس أبا عبد الله في مجلس لا يراه الحارث ولا أصحابه، والإمام أحمد يسمع كلامهم وذكرهم ومذاكرتهم، في قصة طويلة. وأخيراً لما سمع كلام الحارث، قال: {ما أعلم أني سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل}. أنظر القضية بتمامها في ترجمته من "طبقات" التاج السبكي.

ولتحقق أبي العباس أحمد ابن مبارك، وهو إمام المعقول والمنقول بالمغرب في وقته، والمنفرد بالتحري والتحقيق في مصره، بهذه الأسرار التي اختص بها أهل الله المتقون، الذين (لا خَوفٌ عَلَيهِم وَلاهُم يَحزنُون)، الذين لهم البشرى بما أقبلوا وتقربوا إليه حتى أحبهم، فكانوا به وله وإليه.

وكان يختلج في فكره ويتردد إلى خاطره نحو ما خطر ببالنا اليوم، وربما يتوجس خيفة من عموم الكفر، وغلبة الردة وظهور غير دين الإسلام، والقضاء

عليه بالكلية، مع أن الإمام المطلع على الوارد في هذا المعنى من الأحاديث والآيات والعارف بمظان الأدلة، أراد أن يسمع من شيخه العارف الدباغ في هذا المعنى ما يسكن به اضطراب خاطره، ويغسل بماء اليقين الكشفية درن الشكوك من فؤاده، إذ مثل سيدي عبد العزيز ممن ينظر بنور الله، وتنكشف لهم الحقائق الغامضة حتى لا يبقى فيها اشتباه، ما بقي بين يدي شيخه المذكور، بحثاً في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) وسأله عن ذلك، فقال مجيباً له:

{هذا الدِّين الطاهر، أظهره الله على الأديان كلها، من كل وجه، من وجهة أنه ناسخ لها، ومن جهة سطوع حجته، ومن جهة كثرته على وجه الأرض، حتى أن الأديان بالنسبة إليه كلا شيء. وذلك أن من فتح الله بصيرته، ونظر إلى وجه الأرض عامرها وغامرها، رأى في كل موضع أقواما يعبدون الله تعالى ويقدسونه، وهم على الدين المحمدي، والأرض عامرة بهؤلاء السادات، رضي الله عنهم، فهم في هذا البر وذاك البر، يعني بر أهل الكفر، وفي الكهوف والجبال والسهول، وفي عامر الأرض وغامرها} هـ[الإبريز:167/1].

قلت: وهذه الجملة الأخيرة هي التي تظهر أنها المقصودة لفائدة سيدي أحمد ابن المبارك المذكور، لأن البيان الأول معروف من التفسير وغيره. والشيخ ابن مبارك لا يخفى عليه. ولكن مطلبه وراء ذلك، لأنه فيما يظهر كان ينظر قلة وضعفاً في أهل الإسلام في ذلك العصر، فأبان له الشيخ الدباغ أن أهل هذا الدين لا يزالون في كثرة وقوة، وقد امتلأت منهم الأقطار، وإن لم ترهم أنت بالأبصار، فهم معروفون عند ذوي البصيرة الكاشفة وأهل الاعتبار.

ثم أفاض الشيخ الدباغ في الموضوع الذي يتطلبه السائل، ويرغب في سماعه بالكلام الحديث العهد بربه، فقال:

{ومن نظر في اللوح المحفوظ، ونظر فيه إلى المرسلين، وإلى شرائعهم التي هي مكتوبة فيه، علم دوام شريعة نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعدم ارتداد أمته. وذلك أن الله، عز وجل، خلق النور وخلق الظلام، ثم خلق العباد والأمم.

ثم جعل للنور أبوابا يدخل منها على ذواتهم. وجعل للظلام أبواباً يدخل منه على ذواتهم. ثم شرع الشرائع، وأرسل المرسلين بها ليفتح بها، أي الشرائع، أبواب النور. وهي الأوامر التي فيها، ويسدّ بها أبواب الظلام عن ذواتهم، وهي النواهي التي فيها. فالأوامر تفتح أبواب النور، والنواهي تسدُّ أبواب الظلام. ولم يستوف في شريعة الأوامر الفاتحة للنور، والنواهي السادة للظلام، إلا في شريعة نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم. فلهذا كانت فوق الشرائع كلها، وكانت أمته الشريفة فوق سائر الأمم. وإلى ذلك المعنى أشار النبي، صلى الله عليه وسلم، بقوله: " لا تجتمع أمتي على ضلالة."} إلى آخر كلامه، فانظره في الإبريز[167/1].

وهو كلام، بحسب ظاهره، قريب المعنى، سهل المأخذ، شواهده كلها في الكتاب والسنة، ومشروحة عند علماء الظاهر. ولكن في طيه أسرار، تلوح على كلامه لوائح الأنوار، لمن أحسن النية وأمعن في الاعتبار. وذلك أن فحوى كلامه، رضي الله عنه، أن هذه الأمة محفوظة من أن يعمّ نورها الظلام، أو يحيط بهديها الضلال. وهذا هو صريح قوله، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة".

...

أما كون هذه الأمة هي أفضل الأمم، وشريعتها فوق سائر الشرائع، فهو صريح قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وقوله تعالى: ( الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءَ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَامُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ). قال الحافظ ابن كثير:

{أي إنه جاء بالتيسير والسماحة}. ثم قال: {وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم. ولهذا قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل ". وقال: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ". ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: (رَبَّنَا لاَتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوَ اخْطَأْنَا رَبَّنَا

وَلاَتَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَتُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ)، وثبت في "صحيح" مسلم، أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت قد فعلت} هـ.[التفسير:254/2].

وقال تعالى:(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)، قال الحافظ ابن كثير في "تفسير" الآية:

{يقول تعالى: (وممن خلقنا) أي بعض الأمم. (أمة) قائمة بالحق، قولا وعملاً. (يهدون بالحق): يقولونه ويدعون إليه، (وبه يعدلون): يعملون ويقضون. وقد جاء في الأثر أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي هذه الأمة المحمدية}. ثم نقل عن الرازي عن الربيع بن أنس في الآية، قال: {قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن من أمتي قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل"}. ثم أتى بحديث الصحيحين السابق: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق". الخ[269/2].

إلى غير ذلك من الآيات، والأحاديث والآثار الواردة في فضل هذه الأمة وخصائصها. وانظر "المواهب" وغيرها في باب خصائص النبي، صلى الله عليه وسلم، وخصائص أمته.

[المسلمون في هذا العصر،
لا يزدادون إلا اغتباطاً بدينهم، رغم الحصار والإغارة]

هذا، ومن نظر في عصرنا هذا إلى حال الأمة الإسلامية، وما أحاط بها من الغارات العدوانية، والمكائد السرية والعلانية، والسعي المتواصل في محو هذه الديانة من اللوحة الأرضية، وتداعيهم عليها، واتخاذهم أنواع السياسة الخادعة، فتارة بالتقرب، وتارة بالتفريق، وطوراً بإظهار الإصلاح، وزعم إرشادهم إلى منهج الترقي والنجاح. ثم بعد هذا يتخذون بطانة من أهل الملة، الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، ويجعلونهم آلة للتهديم، بدعوى إظهار الجديد المجدي، وإبادة القديم

المردي، فيجعلونهم يخربون بيوت مجدهم بأيديهم، ويعينون أعداءهم على ما يُذلهم ويُرديهم.

ومع هذا كله، فإن نور هذا الدين الذي يحاولون إطفاءه، ويريدون أن يمحوا ضياءه، يأبى الله إلا أن يبقى نوره ساطعاً في الآفاق، وقمره المنير الوقاد دائم الاتساق، وفق ما دلت عليه الأدلة، وحققته المشاهدة. فانظر إلى هذا الحصار الخانق، والإغارة المحدقة.

وغالب أهله يزدادون اغتباطاً بدينهم، وتمسكاً بعقائدهم، وإقبالهم على إنشاء مساجدهم، وتشييد معابدهم، والإنفاق على جلها من خاص مالهم، دون داع يدعوهم لذلك، ولا مرغب يرغبهم في ذلك، إلا صدق اعتصامهم بحبل هذا الدين المتين.

ثم إن المتبصر في أحوال هذه الأمة والمتتبع لأحوالها، ربما يشتبه عليه أمرها، ويلتبس عليه الحكم الذي يقضي به في شأنها. فإنك إذا تجولت في الشوارع، وخبرت الأندية والمجامع، وسبرت سيرهم، واستوضحت أوصافهم، واستطلعت أسرارهم، حكمت على الكل، أو الجل، بالانحراف عن مناهج الديانة. قد مرجت عهودهم، وخفت أمانتهم، قد أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، هجيراهم هجر المساجد، وعمارة مجالس الملاهي والألعاب، وعكوفهم على لهو الحديث ولغو الكلام، لا يقيمون للتحليل والتحريم وزناً، ولا يرون لتجافي ذلك الحمى معنى، حتى يغلب على الظن أن الأمة عمها الفساد، وانحل عقد توحيدها بالإلحاد.

ولكن، إذا دخلت المساجد، تجدها مكتظة بالراكع والساجد، حتى إنه يضيق عن المصلين، على كثرتها، في الجُمَع، الأمر الذي لم يكن من قبل معهوداً، ولا كان أقله في بعض المدن مشهوداً. وهذا الإقبال على الصلاة لا يختص بالشيوخ والكهول، بل يعم الشباب والكهول والشيوخ. والكل ترى في وجهه سيما أثر صدق التوجه والإخلاص في تعبده.

وكل هذا ممّا يزيد المؤمن إيماناً وتصديقاً برسالته، صلى الله عليه وسلم، وصدقه فيما أخبر به من أنه لا تزال طائفة من أمته قائمين بهذا الدين الحنيف،

ظاهرين ومغتبطين به، لا يردهم عن ذلك مخالف ومعاند، ولا يصدهم عن إقامة شعائره واتباع سبيله مضاد ولا مشاقق، حسبما هو صريح خبره الصادق. والحمد لله على ذلك، وقد قلت في التوشيح المذكور سابقاً، في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم:

لم تزل أمتـــه رغم العِـــدَا

تهتدي في إسلامها طلقَ العنانْ

بذلـوا الجهد بتحكيـــم المُدَى

وبتضليـــل وتحبـير البنَـــانْ

وهو نـــورٌ في القلوب اتَّقـــدا

ليس يطفيـــه لســانٌ أو سنـانْ

أمة مسبوقـة في الزمـــــن      وهي في تفضيلها لم تسبق

كم لهـا من ربهـــا من منن      من نبي في العـــلا لم يلحق

---

ولكن هذا كله، مع الجزم بأنه يكون في آخر هذه الأمة تعثر وفتور، وضعف في الديانة، بل وتكثر الردة والإلحاد، ويخرج الناس من الدين أفواجاً، كما دخلوا فيه أفواجاً، وأنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرّ منه، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وحتى لا يبقى على الأرض من يقول لا إله إلا الله، وتكثر الفتن، حتى يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، وأنها ستتبع سنن من قبلها في التبديل والتغيير شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، كما صحت بذلك الأخبار عمن لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى.

ولا يخفى أن هذه الأمور كلها واقعة في زماننا؛ نسمع ذلك بآذاننا، ونشاهده بأبصارنا. اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير.

---

وكنتُ رأيت رؤيا تشير لهذا الموضوع، سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة وألف في يوم الاثنين، ثاني وعشرين من شهر رمضان المعظم، قبل الاستيقاظ للسحور. رأيت أني في

بيت لصديقنا الشريف الجليل، سيدي محمد ابن سيدي المكي الريسوني. وهذا البيت ليس من داره المعهودة، وإنما هو بيت شبه كتاب الصبيان، وهو مفروش بحصير على مصطبته (دكانة) واسعة، ومعنا الشريف سيدي محمد بن البشير ابن ريسون، في هيأته وبلباسه المعهود من عمامة وغيرها. فبينما نحن كذلك، إذ قام الشريف ابن البشير المذكور بسرعة عظيمة، تاركا نعليه، مبادراً لباب المنزل، لملاقاة من فاجأنا بالدخول إلينا. فإذا برجل مربوع القد، ليس بالطويل ولا بالقصير، عربي اللون، يميل إلى الحمرة، حسن الوجه، حسن اللباس، بزي مغربي، عليه جلابة كانت فيما يظهر وزانية، على رأسه عمامة بيضاء. أما أنا فبقيت جالسا في موضعي الذي كنت فيه لم أقم. ثم صار الداخل مخاطبا لابن المكي قائلا: عافاك، أحسنت حيث لم يحضر إلا الناس (اديالنا) أي المنتسبين إلينا. يشير إلى عدم حضور أحد من أهل العصر. ثم قال لابن المكي: فأين الفقيه المرير؟، بهذا اللفظ. فأسرعت حينئذ إلى القيام إليه. فلما وصلت إليه عانقني، وصرت أقول له: الله يبقي أمثالكم، لأننا نفرح بملاقاتكم، أو كلاما هذا معناه. فقال لي: الآن قضي الأمر. فقلت له: الرجاء حيث هناك (شقيقة) نعني فسحة، وذكرت له أني كنت في هذه الأيام، أذاكر بعض الناس في هذا الحال، فقلت له: إن الدِّين قام بهيئة قليلة من أهل هذا الدين، إذ كانت تغزو الفئة الكثيرة فتتغلب عليها، وتفوز بالنصر عليها، حتى عم الدين المدن والقرى؛ فنحن نرجو أن يكون ختام هذا الدين كما بدئ، كما قال العارف ابن ناصر. فاستمع مقالي، ولكن لم يصرح برد ولا بقول، وكأنه كان بلسان حاله يقول: القول ما قلته أولاً، وأنه قد قضي الأمر، وجفت الأقلام، وطويت الصحف. والله أعلم. ثم قام وجلس معنا في المصطبة. ولكني كنت متشوفا إلى أن أعرف هذا الرجل من هو، ولو بإشارة في تلك الرؤيا، فلم يقع شيء من ذلك، إلا انه تحقق عندي من قرائن هذه الأحوال، وقيام الشريف سيدي محمد بن البشير مسرعاً حافياً لملاقاته، وما ألهمني الله أن أخاطبه به، من أنه رجل ذو مقام عظيم، ومرتبة كبيرة، ممن يرجى فضله، ويتبرك بالاتصال به ووجوده في هذه الأمة.

ثم إني قصصت هذه الرؤيا على صاحب المنزل الذي تمت لي فيه الرؤيا، وهو سيدي محمد بن المكي، فقال: هذا الرجل العظيم هو النبي، صلى الله عليه وسلم. فسررت بهذا التعبير، لأن الرؤيا لأول من يعبرها. ولكن لا أقدر أن أجزم

بذلك، خوفاً من أن أدخل في قوله عليه السلام: " من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".

---

[مبحث عام في الرؤيـــا]

أما كون الرؤيا لأول من يعبرها، فقد ورد في ذلك حديث عن أنس وفيه: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " والرؤيا لأول عابر". ولكنه حديث ضعيف، كما قاله الحافظ ابن حجر. ثم أعقب ذلك بقوله:

{ولكن له شاهد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة، بسند حسن، وصححه الحاكم}. ثم ساق لفظ الشاهد. ولكن الإمام البخاري أشار إلى أن ذلك إذا كان العابر مصيبا في تعبيره، وترجم ذلك بقوله: {باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب}، وجاء بحديث ابن عباس في الرجل الذي رأى رؤيا فقصّها على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فطلب سيدنا أبو بكر من النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يتركه يعبرها. ولما عبرها، قال له النبي، صلى الله عليه وسلم: " أصبت بعضا، وأخطأت بعضا." } الخ. قال الحافظ ابن حجر:

{فأشار البخاري إلى تخصيص ذلك بما إذا كان العابر مصيباً في تعبيره. وأخذه من قوله، صلى الله عليه وسلم، لأبي بكر في حديث الباب: " أصبت بعضا وأخطأت بعضا."، فإنه يؤخذ منه أن الذي أخطأ فيه، لو بيّنه لكان الذي بينه له هو التعبير الصحيح، ولا عبرة بالتعبير الأول. قال أبو عبيد وغيره: ومعنى قوله: "الرؤيا لأول عابر"، إذا كان العابر الأول عالما فعبر، فأصاب وجه التعبير، وإلا فهو لمن أصاب بعده، إذ ليس المدار إلا على إصابة الصواب في تعبير المنام، ليتوصل بذلك إلى مراد الله فيما ضربه من المثل. فإذا أصاب، فلا ينبغي أن يسأل غيره. وإذا لم يصب، فليسأل الثاني. وعليه أن يخبر بما عنده، ويبين ما جهل الأول} هـ[فتح الباري:347/12].

وقال شهاب الدين القرافي، في الفرق الثامن والستين والمائتين:

{ولا يعبر الرؤيا إلا من يعلمها ويحسنها، وإلا فليترك. وسئل مالك، رحمه الله تعالى: أيفسر الرؤيا كل أحد؟ قال: أبِالنُّبوَّة يلعب؟ قيل له: أيفسرها على الخير، وهي عنده على الشر، لقول من يقول: الرؤيا على ما أولت؟ فقال: الرؤيا جزء من أجزاء النبوة، أفيتلاعب بأمر النبوة.} هـ[223/4].

هذا، وقد اختلف العلماء في منشأ الرؤيا قديماً وحديثاً، وتضاربت أقوالهم من شرقيين وغربيين وإسلاميين وغيرهم. قال الإمام المازري:

{كثُرَ كلام الناس في حقيقة الرؤيا. وقال فيها غير الإسلاميين أقاويل كثيرة منكرة، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل، ولا يقوم عليها برهان، وهم لا يصدقون بالسمع، فاضطربت أقوالهم. فمن ينتمي إلى الطب، ينسب جميع الرؤيا إلى الأخلاط فيقول: من غلب عليه البلغم، رأى أنه يسبح في الماء، ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم. ومن غلبت عليه الصفراء، رأى النيران والصعود في الجو، وهكذا إلى آخره. وهذا، وإن جوزه العقل، وجاز أن يجري الله العادة به، لكنه لم يقم عليه دليل، ولا اطردت به عادة. والقطع في موضع التجويز غلط. ومن ينتمي إلى الفلسفة يقول: إن صور ما يجري في الأرض، هي في العالم العلوي كالنقوش، فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها}. قال:

{وهذا أشد فساداً من الأول، لكونه تحكما لا برهان عليه، والانتقاش من صفات الأجسام، وأكثر ما يجري في العالم العلوي الاعراض، والاعراض لا ينتقش فيها]. قال:

{والصحيح ما عليه أهل السنة، أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان. فإذا خلقها، فكأنه جعلها علما على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال. ومهما وقع منها ما وقع على خلاف المعتقد، فهو كما يقع لليقظان. ونظيره أن الله خلق الغيم علامة على المطر، وقد يتخلف. وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك، فيقع بعدها ما يسر، أو بحضرة الشيطان، فيقع بعدها ما يضر. والعلم عند الله تعالى} هـ. بنقل الحافظ في "الفتح" [12 /284].

وحاصل ما للمازري؛ أن هذه الآراء كلها باطلة، ما عدا مذهب أهل السنة، كما بينه. ونحا الحافظ ابن حزم منحى آخر، فذكر مذهب صالح، تلميذ النظام المعتزلي، الذي يقول إن الذي يرى النائم هو حق. فإن من رأى أنه بالصين وهو بالأندلس، فإن الله عز وجل اخترعه في ذلك الوقت بالصين. ورد هذا القول وأبطله، وهو ظاهر البطلان. ثم قال:

{والقول الصحيح في الرؤيا هو أنواع. فمنها ما يكون من قبل الشيطان، وهو ما كان من الأضغاث والتخليط. ومنها ما يكون من حديث النفس، وهو ما يشتغل به المرء في اليقظة، فيراه في النوم. ومنها ما يكون من غلبة الطبع}. وذكر ما ذكره المازري عن أهل الطب، ثم قال:

{ومنها ما يريه الله، عز وجل، نفس الحالم، إذا صفت من أكدار الجسد، وتخلصت من الأفكار الفاسدة، فيشرف الله تعالى به على كثير من المغيبات التي لم تأت بعد. وعلى قدر تفاضل النفس في النقاء والصفاء، يكون تفاضل ما يراه في الصدق. وقد جاء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه لم يبق بعده من النبوة إلا المبشرات، وهي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له، وأنها جزء من ستة وعشرين جزءاً من النبوة، إلى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، إلى جزء من سبعين جزءاً من النبوة. وهذا نص جلي فيما ذكرنا من تفاضلها في الصدق والوضوح والصفاء}. وانظر تمام كلامه في "الفِصَل"، جزء 5 ص14 . وفيه بعض مخالفة للمازري في تصحيح ما ينسب للطبع.

أما القرافي، فإنه فصل في فروقه تفصيلا آخر، فذكر مذهب المعتزلة، وفيه ما ربما ينافي عقيدة أهل الإسلام، وجعل لأهل السنة عدة أقوال، فقال:

{قال صاحب "القبس"، قال صالح المعتزلي: رؤيا المنام هي رؤية العين. وقال آخرون: هي رؤية بعينين في القلب يبصر بهما، وأذنين في القلب يسمع بهما. وقالت المعتزلة: هي تخاييل لا حقيقة لها، ولا دليل فيها. وجرت المعتزلة على أصولها في تخييلها على العادة، في إنكار أصول الشرع في الجن وأحاديثها، والملائكة وكلامها، وأن جبريل، عليه السلام، لو كلم النبي، صلى الله عليه وسلم،

بصوت لسمعه الحاضرون. وأما أصحابنا، فلهم أقوال ثلاثة. قال القاضي: هي خواطر واعتقادات. وقال الأستاذ أبو بكر: هي أوهام. وهو قريب من الأول. وقال الأستاذ أبو إسحاق: هي إدراك بأجزاء لم تحلها آفة النوم. فإذا رأى الرائي أنه بالمشرق، وهو بالمغرب، أو نحوه، فهي أمثلة جعلها الله تعالى دليلا على تلك المعاني، كما جعلت الحروف والأصوات والرقوم للكتابة دليلا على المعاني. فإذا رأى الله تعالى، أو النبي، صلى الله عليه وسلم، فهي أمثلة تضرب له بقدر حاله. فإن كان موحداً رءاه حسناً، أو ملحداً رءاه قبيحاً، وهو أحد التأويلين في قوله عليه السلام: " رأيت ربي في أحسن صورة.}هـ [الفروق 4/ 224 ].

فانظر هذه الأقوال التي نسبها القرافي لأهل السنة، هل توافق ما نسبه المازري لأهل السنة، أو تخالفه؟ قلت: والأقرب إلى الموافقة، هو قول الأستاذ أبي إسحاق. أما القول بأنها خيالات وأوهام لا حقيقة لها. فهو قول لا التفات إليه، بعد شهادة الكتاب والسنة بحقيقتها، وأنها جزء من أجزاء النبوة، كما سبق. وهو مما لا امتراء فيه، ويخشى على من قال ذلك من غير تأويل، أن يلج في باب الكفر، والعياذ بالله. ونقل صاحب "جمع الوسائل" هذه المقالة عن "المواقف"، إذ قال:

{وقال صاحب "المواقف": أما الرؤيا فخيال باطل عند المتكلمين. أما عند المعتزلة، فلفقد شرائط الإدراك. وأما عند الأصحاب، إذ لم يشترطوا شيئا من ذلك، فلأنه خلاف العادة. قال ميرك: ولا يخفى أنه خلاف ما في الحديث، بل وما في "القرءان". وأجيب بأن ذلك معجزة أو كرامة، على خلاف العادة، أو أن الرؤيا الحسية خيال. والله أعلم بحقيقة الحال} هـ [جمع الوسائل، في شرح الشمائل:2/ 292].

وعندي أنه يحمل قول "المواقف" عن المتكلمين إنها خيال، باطل غالبا، أي في حق غير الأنبياء. وأما الأنبياء، فرؤياهم حق وصدق بنص الكتاب والسنة.أما غيرهم فتارة وتارة. والله أعلم.

والعجب من الإمام البيضاوي حيث جزم في "تفسيره"، بتفسير الرؤيا بنحو ما فسرها به الفلاسفة، إذ قال:

{وهي - أي الرؤيا - انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة على الحس المشترك. والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت، لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك. ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه، فترسلها إلى الحس المشترك، فتصير مشاهدة. ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى، بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية، استغنت الرؤيا عن التعبير، وإلا احتاجت إليه.} هـ [ص233].

قلت: وقد ردّ مثل هذا الإمام المَازري، حسبما ورد عنه، وجعله تحكمًا فاسداً لا برهان عليه. كما حكم بفساد ما أسنده أهل الطب من تنوع الرؤى إلى الأخلاط.

هذا، وقد كنتُ قبل أن أستوعب هذه الأقوال كلها، ورأيت غالبها، أستبعدها وأقول في نفسي: إنها خبط وتعب فيما لا يجدي تحقيقا. وكنتُ أرجح في فكري، وأميل بفهمي، إلى أن مسألة الرؤيا هي روحية؛ فهي تابعة لمنشإها في عجز العقول الإنسانية عن معرفة حقيقتها وإدراك كنهها، والرجوع إلى قوله تعالى:(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنَ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً)، ولكني كنتُ أتمنَّى أن أقف على قول من أقوال أهل العلم يوافق ما كنت أراه، إلى أن وقفت على ما للإمام القرطبي الذي نقله عنه الحافظ ابن حجر، فألفيته نصاً فيما كنت أراه ويميل إليه نظري، فإنه قال:

{سبب تخليط غير الشرعيين، إعراضهم عما جاءت به الأنبياء من الطريق المستقيم، وبيان ذلك أن الرؤيا إنما هي من إدراكات النفس. وقد غيب عنا علم حقيقتها، أي النفس. وإذا كان كذلك، فالأولى أن لا نعلم علم إدراكاتها. بل كثير مما انكشف لنا من إدراكات السمع والبصر، إنما نعلم منه أمورا جملية لا تفصيلية.} هـ [فتح الباري:12 / 284]. فهذا فيما كان يترجح لي. والله أعلم.

[عبارات الصوفية في الرؤيا]

ولأهل التصوف في الرؤيا عبارات. قال ابن عربي، حسبما نقله عنه المناوي في "شرح الجامع الصغير"، ما لفظه:

{للإنسان حالان: حالة تسمى النوم، وحالة تسمى اليقظة. وفي كليهما جعل الله له إدراكا يدرك به الأشياء، يسمى ذلك الإدراك في اليقظة حساً، ويسمى في النوم حساً مشتركا؛ فكل شيء تبصره في اليقظة يسمى رؤية، وكل ما تدرك في النوم يسمى رؤيا. وجميع ما يدركه الإنسان في النوم، هو مما يضبطه الخيال في حال اليقظة من الحواس. وهو نوعان: إما إدراك صورته في الحس، وإما إدراك أجزاء كل الصورة التي أدركها في النوم بالحس؛ لا بد من ذلك. فإن نقصه شيء من إدراك الحواس في أصل خلقته، فلم يدرك في اليقظة ذلك الأمر الذي فقد المعنى الحسي الذي يدركه به في أصل خلقته، فلا يدركه في النوم أبداً. فالأصل الحس. والإدراك به في اليقظة والخيال تبع في ذلك. وقد يتقوى الأمر على بعضهم، فيدرك في اليقظة ما يدرك في النوم. وذلك نادر. وهو لأهل الطريق من نبي وولي} هـ[فيض القدير:44/4].

وقال حجة الإسلام الغزالي: {الرؤيا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق. ومن كثر كذبه، لم تصدق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه، أظلم قلبه، فكان ما يراه أضغاث أحلام. ولهذا أمر بالطهارة عند النوم لينام طاهرا. وهو إشارة لطهارة الباطن أيضاً. فهو الأصل، وطهارة الظاهر كالتتمة.} هـ[بنقل فيض القدير:4 /45].

- - -

هذا، وإذا سمعت ما للناس في الكشف عن حقيقة الرؤيا من مختلف المقالات، وسبرت مالهم فيها من تعدد العبارات، على تباين النحل والمذاهب، وتخالف الملل والعقائد والمشارب، من فلاسفة حكماء، وأطباء وعلماء، وسنيين ومعتزلة، وفقهاء ومتصوفة، اتضح لك أن كل ما سطر عنهم من النقول، إنما هو آراء وأفكار، واجتهادات مستمدة من مادة العقول، لا من محكم الكتاب وصحيح الأخبار؛ إذ لو كانت من عند الله، لما وجد فيها الاضطراب المحير للأنظار.

وعليه، فالواجب الرجوع إلى المصادر الصحيحة، ورد علمها إلى الله ورسوله، امتثالا لقوله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا) وقوله: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ) أما الرد إلى الله، فهو الرد إلى كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأما الرد إلى الرسول، فهو الرد إلى حديثه وسنته لأنه، عليه السلام، لا ينطق عن الهوى؛ وإنما ينطق بما يوحي إليه ربه.

### [الرؤيا وتعبيرها في قصة النبي يوسف، عليه السلام]

فرددنا أمر الرؤيا إلى كتاب الله، فوجدنا أنه عرفنا بأن أصل الرؤيا كان معمولا به في الأمم السالفة، وأن الرؤيا الصالحة من الصالحين من عباده. وهم رسله وأنبياؤه، هي حق وطرق من طرق الوحي، كما أخبر في حق نبيه سيدنا يوسف، عليه الصلاة والسلام، بقوله: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ). وقال تعالى في حقية هذه الرؤيا: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً). هذا ما يتعلق بصدق رؤيا الصديق الكريم ابن الكريم ابن الكريم، سيدنا يوسف ابن سيدنا يعقوب ابن سيدنا إسحاق ابن سيدنا إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام.

وصحة الرؤيا من سيدنا يوسف وغيره من الأنبياء لاشك فيها، كما سبق. كما أن في هذه السورة ما يدل على أن صحة الرؤيا تكون حتى من غير الأنبياء، بل حتى من أهل المعاصي وأهل الشرك، كما قال تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِيَ أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِيَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) فأجاب الصديق سؤالهما، فعبر لهما ما دلت عليه رؤياهما، فقال: (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ).

---

كما أن ملك مصر، الذي كان الصدِّيق في سجنه، رأى رؤيا. فسأل حاشيته وأهل دولته عن تأويلها، فقالوا له:لا علم لنا بتفسيرها وتعبيرها، لأنها أضغاث أحلام من تخاليطها وأباطيلها، أو ما يكون منها من حديث النفس، أو وسوسة الشيطان. والرؤيا التي تكون كذلك، فهي لا تؤول، إذ هي من الأحلام الباطلة، لا من الرؤى الصحيحة. أو قالوا ذلك له، لقصورهم عن علم تعبير الرؤيا مطلقا، وذلك لأن علم تعبير الرؤيا له أصول وقواعد، وله علماء مختصون بذلك، قال تعالى: (وَقَالَ المَلِكُ إِنِّيَ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يا كلهنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) الآية. ولما قال أعيان الدولة وعلماؤها للملك الذي سألهم تعبير الرؤيا التي رءاها: (أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الاحْلاَمِ بِعَالِمِينَ)، سمع ذلك أحد صاحبي السجن الذي نجا منهما، وقال له الصديق: (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)، وكان نسي ما طلب منه الصديق، ولم يتذكر إلا بعد مدة: أنا أنبئكم وأخبركم بمن عنده علم تعبير هذه الرؤيا ـ لأنه كان فسر له الرؤيا في السجن، فبان له صدقه في تعبير رؤياه ـ فأرسلوني إليه، وابعثوني إليه لأسأله عن تأويل هذه الرؤيا التي رءاها الملك. فأتاه وقال له: أيها الصدِّيق أفتنا في سبع بقرات الخ. ففسر الصديق، عليه السلام، تلك الرؤيا كما في الآية، فكان ذلك سببا لخروجه من السجن وعلو مقامه عند الملك، واستخلاصه لنفسه، وقال له: (إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ). كما ذلك مبين في الآيات الكريمة.

ففي هذه القصة الجليلة التي قصها الله في"القرءان" العزيز على رسوله الكريم، التي هي أحسن القصص، وأحلى ما تشنَّف به الأسماع، وتتنوَّر به القلوب، وتنشرح له الصدور، وتقر بقراءة محكم آياتها العيون، الكفاية للباحث عن حقائق الرؤيا، والدراية التامة لمن اتبع الحق وأعرض عن فلسفة ذوي الهمم الدنيا، إذ بيَّن تعالى في هذه القصة أن الرؤيا الصحيحة حق، وأنها من الله؛ يطلع بها العبد على ما غاب عنه من أمور مستقبلة، وهي من المبشرات، كما قال الصديق: (يا أبتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً).

وفيها أن الرؤيا تكون صادقة من الرجل الصالح، ولا إشكال. وتكون أيضا من العاصي والفاسق والمشرك، كما صدقت من الملِك ومن صاحبي السجن. وقد

أخذ الإمام البخاري ذلك من الآية، فترجم له في صحيحه بقوله: {باب رؤيا أهل السجون والفساد والشراب}، لقوله تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ) إلى قوله:(ارجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ).

وفيها أيضا الإشارة إلى أن الرؤيا منها الصحيحة، ومنها أضغاث أحلام، أي أخلاط وأباطيل، وما يكون من حديث النفس ووسوسة الشيطان، كما سبق، فالرؤيا الأولى تؤول، والثانية لا تأويل لها.

[تقسيم الرؤيا]

ومن هنا أخذ الكرماني في كتابه الكبير في تقسيم الرؤيا، ونقله عنه الشهاب القرافي في الفرق 268، بين قاعدة الرؤيا التي يجوز تعبيرها، وقاعدة الرؤيا التي لا يجوز تعبيرها، فقال:

{الرؤيا ثمانية أقسام: سبعة لا تعبر، وواحدة فقط تعبر. والسبعة أربعة منها نشأت عن الأخلاط الأربعة الغالبة على مزاج الرائي. فمن غلب عليه خلط، رأى ما يناسبه}. ثم ذكر لكل خلط ما قال الأطباء أنه يناسبه. وقد تقدم لنا ذلك في كلام المازري. وقال المازري فيه:{إنه وإن جوزه العقل، لم يقم عليه دليل، ولا اطردت به عادة}. ثم قال القرافي:

{القسم الخامس: ما هو من حديث النفس. ويفهم ذلك بجولانه في اليقظة، وكثرة الفكر فيه، فيستولي على النفس، فتتكيف به، فيراه في النوم}.

{القسم السادس: ما هو من الشيطان. ويعرف بكونه فيه حثّ على أمر تنكره الشريعة، أو بأمر معروف جائز، غير أنه يؤدي إلى منكر، كما إذا أمره بالتطوع بالحج، فتضيع عائلته، أو يعقّ بذلك أبويه}.

{القسم السابع: ما كان فيه احتلام}.

{والقسم الثامن: هو الذي يجوز تعبيره. وهو ما خرج عن هذه، وهو ما ينقله ملك الرؤيا من اللوح المحفوظ؛ فإن الله، عز وجل، وكَّل ملكاً باللوح المحفوظ ينقل لكل أحد ما يتعلق به من اللوح المحفوظ من أمر الدنيا والآخرة من خير أو شر؛ لا يترك من ذلك شيئا. علمه من علمه، وجهله من جهله. ذكره من ذكره،

ونسيه من نسيه. وهذا هو الذي يجوز تعبيره. وما عداه لا يعبر.} هـ [الفروق222/4].

وانظر قول القرافي: {السابع: ما كان فيه احتلام}، فإنه فيما يظهر، مما فسروا به الأحلام، أنه تكرار مع ما سبق من الأقسام، لأن عبارتهم تقتضي أن الأحلام تطلق على المنامات الفاضلة مطلقا، بدليل قوله، عليه السلام: " الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان". ففي "روح المعاني":

{والأحلام جمع حلم، بضمة وبضمتين، المنامات الباطلة، على ما نص عليه جمع. وقال بعضهم الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم مطلقا. لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه. وفي الحديث: " الرؤيا من الله تعالى، والحلم من الشيطان".} [226/12].

فمفاد هذا أن الرؤيا إما صحيحة فهي من الله، وإما أضغاث أحلام، وهي من الشيطان. فتدخل فيها تلك الأقسام، ومنها الحلم. وسيأتي ما ورد في تقسيمها من الحديث، وما قاله الحافظ ابن حجر في تتبع تلك الأقسام المأخوذة من الأحاديث.

--

[علم تعبير الرؤيا]

ومما أفادته هذه القصة الجليلة، أن علم تعبير الرؤيا كان معروفا في الأمم السابقة، بدليل قول الملك لملإه وأهل دولته: (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) وقولهم: (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ). وفيها أن الصديق، عليه السلام، كانت له معرفة فائقة بهذا العلم، وأن الله علمه إياه. قال تعالى عن الصديق في الثناء عليه، لما أنعم الله عليه من الملك والعلم بالتعبير:(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ).

ويمكن أن يكون هذا العلم أصله مأخوذا من هذه الآيات، فإن علم تعبير الرؤيا أصبح في الملة من العلوم المتداولة التي خُصَّت بالمؤلفات. قال العلامة ابن خلدون:

{هذا العلم من العلوم الشرعية. وهو حادث في الملة عند ما صارت العلوم صنائع، وكتب الناس فيها. وأما الرؤيا والتعبير لها، فقد كان موجوداً في السلف، كما هو في الخلف. وربما كان في الملوك والأمم من قبل، إلا انه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام، وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق، ولا بد من تعبيرها، فلقد كان يوسف الصديق، صلوات الله عليه، يعبر الرؤيا كما وقع في "القرءان"}.

ثم ذكر بعض ما جاء في السنة من الرؤيا، كما سيأتي تفصيله، وذكر أنها مدرك من مدارك الغيب، في ذكر السبب في كون الرؤيا من مدارك الغيب. ثم صار يشرح حقيقة الرؤيا. واتبع في ذلك طريق الفلاسفة التي نقلنا عن المازري أنه طريق لا برهان عليه، إلا محض التعقل والتحكم. ثم ذكر معنى التعبير، جاريا على تلك الطريقة، ثم قال:

{ثم إن التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقصّ عليه. وتأويله كما يقولون: البحر يدل على السلطان. وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الغيظ. وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الهم والأمر الفادح. ومثل ما يقولون: الحية تدل على العدو. وفي موضع آخر يقولون: هي كاتم سر. وفي موضع آخر يقولون: تدل على الحياة، وأمثال ذلك. فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا. وتلك القرائن منها في اليقظة، ومنها في النوم. ومنها ينقدح في نفس المعبر بالخاصة التي خلقت فيه. وكل ميسَّر لما خلق له}. [قال]:

{ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء. وكتب عنه في ذلك القوانين، وتناقلها الناس لهذا العهد. وألّف الكرماني فيه من بعد. ثم ألّف المتكلمون المتأخرون وأكثروا. والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد، كتب ابن أبي طالب القيرواني، من علماء القيروان، مثل "الممتنع" وغيره، وكتاب "الإشارة" للسالمي. وهو علم مضيء بنور النبوة، للمناسبة بينهما، كما وقع في الصحيحز والله علام الغيوب} هـ[المقدمة: ص417].

هذا، وقد اعتنى العلامة الدميري الشافعي، في كتابه "حياة الحيوان"، بمسائل التعبير، عما يراه الرائي في الحيوانات. وذكر في ترجمة كل حيوان ما قيل في رؤيا من رءاه. وقد عقد الإمام البخاري في كتابه"الجامع الصحيح"، كتابا خاصا بالتعبير، وذكر من ذلك جزئيات وقعت في عصره، عليه الصلاة والسلام، حسبما سيأتي.

[رؤيا سيدنا إبراهيم، عليه السلام]

وقصّ الكتاب العزيز علينا رؤيا سيدنا ابراهيم، عليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)[ الآية].

وهذا الغلام هو إسماعيل، وقيل إسحاق. واستُدل لكل قول بأدلة. ولكن قال الحافظ ابن كثير: { والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أ نه إسماعيل، أثبتُ وأصحُ وأقوى.} هـ[18/4].

قلت: وقد أطنب الحافظ ابن القيم في رده في الاحتجاج لهذا القول. وقال الحافظ ابن حجر:

{وما تقدم من كون قصة الذبيح كانت بمكة، حجة قوية في أن الذبيح إسماعيل، لأن سارة وإسحاق لم يكونا بمكة. والله أعلم}هـ [فتح الباري:308/12].

وبكل حال، فالغرض هنا هو قوله تعالى: (وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا). وما أقدم الخليل، عليه السلام، على ذبح ولده بهذه الرؤيا، إلا لكون رؤيا الأنبياء وحيا. وقد تقدم لنا أنها من مراتب الوحي. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " رؤيا الأنبياء في المنام وحي ". وقال تعالى أيضا في رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، في قضية الحديبية:(لَقَدْ

صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الآية].

هذا ما يتعلق بالرد إلى الله جل وعلا.

## [حديث الرؤيا الحسنة، جزء من أجزاء النبوة]

وأما الرد إلى رسوله، فإننا قد قدمنا أن الرؤيا من مدارك علم الغيب. ولهذا كانت فاتحة الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ففي "صحيح" البخاري عن عائشة، رضي الله عنها، قالت:" أول ما بدئ به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح". وأخبر، صلى الله عليه وسلم، أن الرؤيا الصالحة جزء من أجزاء النبوة، ففي" صحيح" البخاري، عن أنس بن مالك، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ". قال الحافظ ابن حجر: {كذا وقع في أكثر الروايات} ثم أحصاها فقال:

{فحصلنا من هذه الروايات على عشرة أوجه؛ أقلها جزء من ستة وعشرين، وأكثرها من ستة وسبعين، وبين ذلك: أربعين، أربعة وأربعين، خمسة وأربعين، ستة وأربعين، سبعة وأربعين، تسعة وأربعين، خمسين، سبعين. أصحها مطلقا الأول، ويليه السبعين}. ثم استدرك بعد ذلك خمسة أوجه، قال: {فبلغت على هذا خمسة عشر لفظا} هـ [فتح الباري:12/ 294 ].

وبعد هذا، فقد اختلف في معنى هذا التفاوت في العدد، وتعددت أقوال العلماء في ذلك. والذي استحسنه العلامة القرافي في" فروقه"، هو ما للإمام الطبري؛ إذ قال:

{والأحسن قول الإمام الطبري، عالم القرآن والسنة، أن نسبة هذه الأعداد إلى النبوة، إنما هو بحسب اختلاف الرائي. فرؤيا الرجل الصالح على نسبته، والذي دون درجته دون ذلك. وقوله عليه السلام:"لم يبق بعدي من النبوة إلا الرؤيا

الصالحة"، حضّ على نقلها والاهتمام بها، ليبقى لهم بعده، عليه السلام، جزء من النبوة، فبشر بذلك أمته.} هـ [4 / 223].

قلت: ونحو هذا ما تقدم لنا عن الحافظ ابن حزم. واعلم أن الناس، كما نقله الحافظ ابن حجر عن المهلب، ثلاث درجات: {الأنبياء: ورؤياهم كلها صدق. وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير. والصالحون: والأغلب على رؤياهم الصدق. وقد يقع فيها مالا يحتاج إلى تعبير. ومن عداهم يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث. وهي على ثلاثة أقسام: مستورون: فالغالب استواء الحال في حقهم. وفسقة: والغالب على رؤياهم الأضغاث، ويقل فيها الصدق. وكفار: ويندر في رؤياهم الصدق جداً. ويشير إلى ذلك قوله، صلى الله عليه وسلم: "وأصدقهم رؤيا، أصدقهم حديثاً." أخرجه مسلم}. قال: {وقد وقعت الرؤيا الصادقة من بعض الكفار، كما في رؤيا صاحبي السجن مع يوسف، عليه السلام، ورؤيا ملكهما وغير ذلك.}هـ[فتح الباري:293/12].

قلت: وقد وقع الكثير من ذلك قرب مبعثه، عليه السلام، فكان إرهاصاً لرسالته، عليه السلام، وقد ذكر ذلك أصحاب السيَر.

وقيَّد القاضي ابن العربي كون الرؤيا جزءاً من أجزاء النبوة، برؤيا المؤمن الصالح. قال: {وعندي أن رؤيا الفاسق لا تعد في أجزاء النبوة. وقيل تعد من أقصى الأجزاء. وأما رؤيا الكافر، فلا تعد أصلاً. وقال القرطبي: وأما الكافر والفاسق والمخلط فلا. ولو صدقت رؤياهم أحيانا فذاك، كما قد يصدق الكذوب} هـ[بنقل فتح الباري:293/12].

وجعل، صلى الله عليه وسلم، الرؤيا من النعم التي أنعم الله بها على هذه الأمة. وأخبر أنها هي التي بقيت بعده من مدارك الغيب التي هي من شأن النبوة والرسالة، كما قال تعالى: (عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) فقال، عليه الصلاة والسلام، كما في "صحيح" البخاري عن أبي هريرة، أنه قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول:"لم يبق من النبوة إلا المبشرات." قالوا: وما المبشرات؟ قال:"الرؤيا الصالحة". وقد ورد عن النبي،

صلى الله عليه وسلم، أنه قال في قوله تعالى: (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): "هي الرؤيا الصالحة"، كما أخرجه الترمذي وابن ماجة، وصححه الحاكم. وروى الإمام أحمد، وابن ماجة، وصححه ابن خزيمة وابن حبان:"ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات". وروى أبو يعلى من حديث أنس رفعه: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت. ولا نبي ولا رسول بعدي، ولكن بقيت المبشرات". قالوا: وما المبشرات؟ قال: "رؤيا المسلمين جزء من أجزاء النبوة".

ومقتضى الحديث، كما قاله ابن التين، أن الوحي ينقطع بموته، صلى الله عليه وسلم، ولا يبقى ما يعلم منه ما سيكون، إلا الرؤيا. ويرد عليه الإلهام، فإن فيه إخباراً بما سيكون. وهو للأنبياء بالنسبة للوحي كالرؤيا. ويقع لغير الأنبياء، كما في الحديث الماضي في مناقب عمر: " قد كان فيمن مضى من الأمم محدثون". وفسر المحدث بفتح الدال، بالملهم بالفتح أيضا. وقد أخبر كثير من الأولياء عن أمور مغيبة، فكانت كما أخبروا، والجواب: ان الحصر في المنام لكونه يشمل آحاد المؤمنين، بخلاف الإلهام، فإنه مختص بالبعض. ومع كونه مختصا فإنه نادر. فإنما ذكر المنام لشموله وكثرة وقوعه. يشير إلى ذلك قوله، صلى الله عليه وسلم: " فإن يكن". وكان السر في ندور الإلهام في زمنه، وكثرته من بعده، غلبة الوحي إليه، صلى الله عليه وسلم، في اليقظة، وإرادة إظهار المعجزات منه. فكان المناسب أن لا يقع لغيره منه في زمانه شيء. فلما انقطع الوحي بموته، وقع الإلهام لمن اختصه الله به للأمن من اللبس في ذلك. وفي إنكار وقوع ذلك، مع كثرته واشتهاره، مكابرة ممن أنكره هـ. من"فتح الباري":[305/12]. قلت: وينبغي أن يكون الكشف الذي يصدر من أولياء الله تعالى كالإلهام، إذ الكشف فيما أظهر، هو أقوى من الإلهام.

\- - -

## [الاطلاع على الغيب
## عن طريق الكرامات والإلهام والكهانة والتنجيم]

وهنا تنشأ مسألة أخرى، وهي مسألة الاطلاع على الغيب. وقد اضطربت فيها الأقوال، وتخالفت الفهوم في الأدلة. فمن الأدلة الدالة على أن الغيب لا يعلمه إلا

الله، ولا يطلع عليه إلا من ارتضى من رُسُله، قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) الخ. وقد اختلف في الآية المفسرون، فقال صاحب "الكشاف":

{وفي هذا إبطال للكرامات، لأن الذين تضاف الكرامات إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل. وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب. وفيها أيضا إبطال الكهانة والسحر والتنجيم، لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء، وأدخله في السخط هـ. قال الواحدي: وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك، فقد كفر بما في القرءان}.

هذا ما نقله الفخر أولا في "تفسيره". ثم تصدَّى لرد ما قاله الواحدي، بعد أن ذكر أن الواحدي يجوّز الكرامات، وأنْ يلهم الله أولياءه وقوع بعض الوقائع في المستقبل. ونسبة الآية إلى الصورتين واحدة. فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم، فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات، على ما قاله صاحب "الكشاف"، وإن زعم أنها لا تدل على المنع من الإلهامات الحاصلة للأولياء، فينبغي أن لا يجعلها دالة على المنع من الدلائل النجومية. فأما التحكم بدلالتها على المنع من الأحكام النجومية، وعدم دلالتها على الإلهامات الحاصلة للأولياء، فمجرد التشهّي.

ثم صار يبين أن الآية لا دلالة لها على ما قالوه، وأن الآية جاءت إثر قوله: (إِنَ اَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيَ أَمَداً) يعني لا أدري وقت وقوع القيامة، ثم قال بعده: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً) أي وقت وقوع القيامة من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد. وأطال في الاحتجاج لهذا المعنى. ثم قال: واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية، أن لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل، والذي يدل عليه وجوه. وذكر أربعة:

الأول: ما ثبت، مما يقرب من التواتر، في خبر شق وسطيح الشهيرين، وإخبارهما بظهور النبي، صلى الله عليه وسلم، قبل زمان ظهوره.

والثاني: أن أهل الملل مطبقون على صحة علم تعبير الرؤيا، وصدق تعبيرها.

والثالث: ما كان من الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر إلى خراسان، وإخبارها بوقائع ستقع، فوقعت كما أخبرت.

والرابع: ما يشاهد في أصحاب الإلهامات الصادقة. قال:

{وليس هذا مختصا بالأولياء. بل قد يوجد في السحرة أيضا}. ثم ذيل ذلك بقوله: {وإذا كان ذلك مشاهدا محسوسا، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه، مما يجر الطعن إلى القرآن، وذلك باطل، فقلنا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه}هـ[من تفسيرالفخرالرازي:233/8].

هذه خلاصة ما قاله هذا الإمام في تأييد كون تأويل الآية خاصا بغيب علم الساعة، لا كل غيب، لوجود الاطلاع على بعض الغيوب.

ولكن جاء العلامة أبو حيان إلى كلامه هذا، فأبطل وجوهه، ونقض عراه وحل عقوده، فقال، بعد أن لخّص كلامه. قال:

{وإنما أوردنا كلام هذا الرجل في هذه المسألة، لننظر فيما ذكر من تلك الوجوه. أما قصة شق وسطيح، فليس فيها شيء من الإخبار بالغيب، لأنه مما يخبر به رُئيٌّ الكهان من الشياطين مسترقة السمع، كما جاء في الحديث أنهم يسمعون الكلمة، ويكذبون ويلقون إلى الكهنة، ويزيد الكهنة للكلمة مائة كذبة. وليس هذا من علم الغيب، إذ تكلمت به الملائكة، وتلقفها الجنّي، وتلقفها منه الكاهن؛ فالكاهن لم يعلم الغيب}.

{وأما تعبير المنامات، فالمعبر غير المعصوم، لا يعبر بذلك على سبيل البت والقطع، بل على سبيل الحزر والتخمين، وقد يقع ما يعبر به، وقد لا يقع}.

{وأما الكاهنة البغدادية، وما حكى عنها، فحسبه عقلا أن يستدل بأحوال امرأة لم يشاهدها. ولو شاهد ذلك، لكان في عقله ما يجوز أنه لبس عليه هذا، وهو العالم المصنف الذي طبق ذكره الآفاق، وهو الذي شكك في دلائل الفلاسفة، وسامهم الخسف}.

{وأما حكايته عن صاحب المعتبر؛ فهو يهودي أظهر إسلامه، وهو منتحل طريقة الفلاسفة. وأما مشاهدته أصحاب الإلهامات الصادقة، فلي من العمر نحو من ثلاث وسبعين سنة، أصحب العلماء، وأتردد إلى من ينتمي إلى الصلاح، فلم أر أحدا منهم صاحب إلهام صادق}.

{وأما الكرامات، فلا أشك في صدور شيء منها. لكن ذلك على سبيل الندرة. وذلك فيمن سلف من صلحاء هذه الأمة. وربما قد يكون في أعصارنا من تصدر منه الكرامات. ولله تعالى أن يخص من شاء بما شاء. والله الموفق}هـ. [تفسير البحر المحيط، لأبي حيان:356/8.

وهو كلام بيّن ظاهر، لا يحتاج إلى مؤيد وناصر. وكل كلام عن البشر صادر، فيه الكامل والقاصر، إلا كلام العليم القادر، عالم الغيب الذي لا يظهر على غيبه إلا من اجتباه من رسله. وهو الذي لا تخفى عليه لمحات الأبصار، ولا خطرات البصائر.

ولله در العلامة النيسابوري، صاحب "تفسير غرائب القرآن"، الذي هو في معنى اختصار تفسير الفخر. بل هذا كنت أفهمه من سياق كلامه. وبعد ذلك ألفيته صرح بذلك في أول "تفسيره" المذكور. إذ أعرض عن كل ما أطال به الفخر المذكور. وقال في تفسير قوله تعالى: (إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا):

{ ثم أمره ـ أي أمر النبي صلى الله عليه وسلم ـ بأن يفوض علم تعيين الساعة إلى الله، لأنه عالم الغيب. و(مِن رَّسُولٍ)، بيان لمن ارتضى. وفيه أن الإنسان المرتضى للنبوة، قد يطلعه الله تعالى على بعض غيوبه. وعلم الكهنة والمنجمين ظن وتخمين، فلا يدخل فيه. وعلم الأولياء إلهامي، لا يقوى قوة علم الأنبياء، كنور القمر بالنسبة إلى ضياء الشمس} هـ[ بهامش جامع البيان للطبري:65/29].

وهو رد لكلام الفخر، واختصار لتعقب أبي حيان. والعلم كله لله الذي يعلم ما بين أيدي خلقه وما خلفهم. (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ).

ولنرجع إلى بقية الكلام على حديث أنس،"أن النبوة والرسالة قد انقطعت، ولا نبي ولا رسول بعدي"، وما أورده على الحصر في الإلهامات التي تقع للأولياء. ومنه انجر الكلام إلى هذه الآية الكريمة التي هي قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً) الخ. فحصل من الآية والحديث؛ مبحثان:

فالآية الكريمة يدل ظاهرها على أن علم الغيب إنما هو لله تعالى، قد يطلع على بعضه من ارتضى من أنبيائه ورسله. ويرد على هذا الظاهر، ما يظهر على بعض الأولياء من الإخبار بالمغيبات، كما أن ذلك يشاهد من بعض الكهان والمنجمين وأهل الرياضات، وما يراه الرائي من الرؤيا المنامية.

وأما الحديث، فإن صيغة الحصر فيه بأنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات، وهي الرؤيا الصالحة، الخ. ويرد على هذا الحصر، الإلهامات والمكاشفات ونحوها. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، ونقل ما قاله أهل العلم في ذلك من المفسرين وأهل الحديث.

ويتلخص في هذا المقام النظر في تأويل الآية التي أخرجَت بظاهرها كل اطلاع على الغيب من كل أحد، ما عدا من أطلعه الله على غيبه، ممن شاء من رسله وأنبيائه، فلا اطلاع على غيبه تعالى لأحد من خلقه، سواء بالكرامات أوبالكهانة أوالتنجيم، أو الرؤيا المنامية.

[تمسك المعتزلة بظاهر الآية،
وجواب أهل السنة، واختلاف مناهج علماء التفسير]

أما المعتزلة، فقد احتجوا بهذا الظاهر، وقالوا بإبطال كل ما يُدّعى به الاطلاع على الغيب، وأبطلوا الكرامات والإلهامات وغير ذلك، وقد تقدم كلام صاحب "الكشاف" بذلك.

وأما أهل السنة، الذين يقولون بكرامات الأولياء ورؤيا الرجل الصالح، فقد اضطروا إلى الجواب على هذا العموم الذي تفيده الآية. وذهب المفسرون في ذلك كل مذهب:

فالإمام الفخر الرازي، فقد نفى العموم عن الآية وجعلها راجعة إلى غيب خاص، وهو علم الساعة. ودليله في ذلك وقوع قوله تعالى: (وَإِنْ أدري أقريبٌ مَا تُوعَدُونَ أمْ يَجْعَلُ لَهُ ربِّيَ أمدا) حسبما تقدم، وجعل من الغيب الإلهامات والكرامات، والكهانة والتنجيم، وأن ذلك واقع، ولم تبطله الآية.

وقد تصدَّى لنظره هذا الإمام أبو حيان وردَّه وبين خطأه. ولكن مال إلى استضغاث الإلهامات، وندور الكرامات، مع تسليم وقوعها. وأشعر كلامه بأن الآية عامة لا تخصيص فيها. ومن معنى ما قاله أبو حيان كلام النيسابوري، إذ جعل ان الكهانة والتنجيم ليسا من العلم في شيء، بل هما حزر وتخمين، وأن علم الأولياء إنما هو إلهامي لا يقوى قوة علم الأنبياء، كما سبق.

أما مُختصِرُو"الكشاف"، من أهل السنة الثلاثة، وهم: البيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، فكل واحد منهم خالف أصله، وأثبت الكرامة. ولكن اختلفت مناهجهم في الجواب عما تقتضيه الآية من العموم.

فقال البيضاوي:

{واستدل به، أي بالآية، على إبطال الكرامات. وجوابه تخصيص الرسول بالملك، والإظهار يكون بغير واسطة. وكرامات الأولياء على المغيبات، إنما تكون تلقيا عن الملائكة، كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء}هـ[التفسير:547]. وردَّ هذا النظر محشيه الشيخ زادة.

وقال النسفي:

{(عالم الغيب): هو خبر مبتدأ، أي هو عالم الغيب. (فلا يظهر): فلا يطلع (على غيبه أحداً) من خلقه، (إلا من ارتضى من رسول): إلا رسولا قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ليكون إخباره عن الغيب معجزة له، فإنه يطلعه على غيبه ما شاء}. ثم قال:

{والولي إذا أخبر بشيء فظهر، فهو غير جازم عليه. ولكنه أخبر بناء على رؤياه أو بالفراسة. على أن كل كرامة للولي، هي معجزة للرسول. وذكر في التأويلات، قال بعضهم: في هذه الآية دلالة تكذيب المنجمة. وليس كذلك، فإن فيهم

من يصدق خبره. وكذلك المتطببة يعرفون طبائع النبات. وذا لا يعرف بالتأمل، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره، وبقي علمه في الخلق} هـ[تفسير النسفي:319/4]. قلت : وفي كلام الإمام النسَفي بعض تأمل.

وقال أبو السعود، بعد تقريره القواعد الإعرابية:

{والفاء لترتيب عدم الإظهار على تفرده تعالى بعلم الغيب على الإطلاق، أي فلا يطلع على غيبه إطلاعا كاملا ينكشف به جلية الحال انكشافا تاما موجبا لعين اليقين؛ أحدا من خلقه (إلا من ارتضى من رسول) أي إلا رسولا ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته}. ثم قال: {وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف، فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلا، ولا يدعي أحد لأحد من الأولياء ما في رتبة الرسل، عليهم السلام، من الكشف الكامل الحاصل بالوحي} هـ[بهامش التفسير الكبير:274/8].

فهؤلاء الثلاثة كلهم خالفوا أصلهم، وأثبتوا كرامات الأولياء. وكل أجاب على العموم كما بدا له؛ فالأخيران يقولان إن اطلاع علم الولي على الغيب، إنما هو في مرتبة نازلة عن مرتبة علم الأنبياء. وكان أشار النيسابوري إلى أن علم الولي إنما هو مقتبس من علم الرسول. ومثّل ذلك بأنه كالقمر بالنسبة إلى الشمس.

## [كلام الإمام الشاطبي<br>في الموضوع هو خلاصة هذا البحث]

وهذا الذي أشار إليه النيسابوري، قد وضّحه الإمام النظار، أبو إسحاق الشاطبي أتم إيضاح، وأفصح به أبلغ إفصاح. وهو زبدة هذا البحث، وخلاصة هذا المطلب. فإنه لما ذكر في الباب الثاني من "الموافقات"، مباحث السنة، قال في المسألة العاشرة:

{ كل ما أخبر به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من خبر، فهو كما أخبر. وهو حق وصدق معتمد عليه فيما أخبر به وعنه؛ سواء علينا انبنى عليه في

التكليف حكم أم لا. كما أنه إذا شرع حكما، أو أمر أو نهى، فهو كما قال، عليه الصلاة والسلام. لا يفرق في ذلك بين ما أخبره به الملك عن الله، وبين ما نفث في روعه وألقي في نفسه، أو رآه رؤية كشف واطلاع على مغيب، على وجه خارق للعادة، أو كيف ما كان. فذلك معتبر يحتج به، ويبنى عليه في الاعتقادات والأعمال جميعا، لأنه صلى الله عليه وسلم، مؤيد بالعصمة (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى)، وهذا مبين في علم الكلام}.

ثم ذكر الشاطبي أمثلة مما وقع له، صلى الله عليه وسلم، من الإلقاء في الروع، وفي الرؤيا، كقوله:"أريت ليلة القدر" الخ. وقوله:"أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر. فمن كان متحريها، فليتحرها في السبع الأواخر". وما وقع في بدء الأذان، عن عبد الله بن زيد، وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "إن هذه لرؤيا حق"، وقول عمر: والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى. يعني عبد الله بن زيد، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "فلله الحمد. فذاك أثبت ". فبنى، عليه السلام، الحكم عليها في ألفاظ الأذان. وقال، عليه السلام، لمن رآه لا يحسن صلاته: "ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي، فإنما يصلي لنفسه. إني والله لأبصر من ورائي، كما أبصر من بين يدي". فهذا حكم امرئ بني على الكشف. ومن تتبع الأحاديث، وجد أكثر من هذا. ثم قال:

{فإذا تقرر هذا، فلقائل أن يقول: قد مر قبل هذا في كتاب "المقاصد"، قاعدة بينت أن ما يخص رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يخصنا، وما يعمه يعمنا. فإذا بنينا على ذلك فلكل من كان من أهل الكشف والاطلاع، أن يحكم بمقتضى اطلاعه وكشفه، ألا ترى إلى قضية أبي بكر الصديق مع بنته عائشة، فيما نحلها إياه، ثم مرض قبل أن تقبضه. قال فيه: وإنما هما أخواك وأختاك، فاقتسموه على كتاب الله. قالت: فقلت يا أبت: والله لو كان كذا وكذا، لتركته، إنما هي أسماء، فمن الأخرى؟. قال: ذو بطن بنت خارجة؛ أراها جارية. وقضية عمر بن الخطاب في ندائه سارية، وهو على المنبر. فبنوا، كما ترى، على الكشف والاطلاع المعدود من

الغيب، وهو معتاد في أولياء الله تعالى. وكتب العلماء مشحونة بأخبارهم فيه، فيقتضي ذلك جريان الحكم وراثة عن النبي، صلى الله عليه وسلم.}.

{والجواب أن هذا السؤال هو فائدة هذه المسألة، وبسببه جلبت هذه المقدمة، وإن كان الكلام المتقدم في كتاب "المقاصد" كافيا. ولكن نكتة المسألة هذا تقريرها؛ فاعلم أن النبي، صلى الله عليه وسلم، مؤيد بالعصمة، معضود بالمعجزة الدالة على صدق ما قال، وصحة ما بين. وأنت ترى الاجتهاد الصادر منه معصوما بلا خلاف؛ إما بأنه لا يخطئ البتة، وإما بأنه لا يقر على خطإ، إن فرض. فما ظنك بغير ذلك؟! فكل ما حكم به أو أخبر عنه، من جهة رؤيا نوم، أو رؤية كشف، مثل ما حكم به مما ألقى إليه الملك عن الله ،عز وجل. وأما أمته، فكل واحد منهم غير معصوم. بل يجوز عليه الخطأ والغلط والنسيان. ويجوز أن تكون رؤياه حلما، وكشفه غير حقيقي، وإن تبين في الوجود صدقه، واعتيد ذلك فيه واطرد، فإمكان الخطإ والوهم باق. وما كان هذا شأنه، لم يصح أن يقطع به حكم. وأيضا فإن كان مثل هذا معدودا في الاطلاع الغيبي، فالآيات والأحاديث تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، كما في الحديث من قوله، عليه الصلاة والسلام، في " خمس لا يعلمهن إلا الله"، ثم تلا: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ) إلى آخر السورة، وقال في الآية الأخرى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ). واستثنى المرسلين في الآية الأخرى بقوله: ( عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنْ اِرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) الآية. فبقي من عداهم على الحكم الأول، وهو امتناع علمه، وقال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) الآية. ثم قال:

{فإذا كان كذلك، خرج من سوى الأنبياء من أن يشتركوا مع الأنبياء، صلوات الله عليهم، في العلم بالمغيبات}. ثم قال: {فإذا لاح لأحد من أولياء الله شيء من أحوال الغيب فلا يكون على علم منها محقق، لاشك فيه، بل على الحال التي يقال فيها: أرى أو أظن. فإذا وقع مطابقا في الوجود، وفرض تحققه بجهة المطابقة أولا، والاطراد ثانيا، فلا يبقى للإخبار به بعد ذلك حكم، لأنه قد صار من باب الحكم على

الواقع، فاستوت الخارقة وغيرها. نعم، تفيد الكرامات والخوارق لأصحابها يقينا وعلما بالله تعالى، وقوة فيما هم عليه، وهو غير ما نحن فيه.}هـ[43/4].

ثم أكمل الشيخ الشاطبي احتجاجه إلى عدم إثبات حكم شرعي بمقتضى الكرامات والكشف، وهو مبحثه الذي فسح له تلك المقدمات.

ومبحثنا إنما هو في بيان أن علم الغيب، إنما هو لله، ولمن استثناه من أنبيائه ورسله، وأن الكرامات والكشف، وإن صحت، فلا تقوى قوة العلم الغيبي اليقيني، بل هي مما يقال فيها؛ أظن أو أحسب أو أرى، وأن وقوعها إنما هو مقتبس من نور النبوة، وليس ممن يشتغل بالاطلاع [على الغيب]، وأن الآيات الواردة في ذلك، لازالت على عمومها. وقد شرح الإمام الشاطبي هذا الذي أشار إليه هنا في كتاب "المقاصد" بأبسط مما هنا، فقال في المسألة العاشرة، من النوع الرابع في بيان قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة، من كتاب "المقاصد":

{وهذا الأصل ينبني عليه قواعد. منها أن جميع ما أعطيته هذه الأمة من المزايا والكرامات، والمكاشفات والتأييدات، وغيرها من الفضائل، إنما هي مقتبسة من مشكاة نبينا، صلى الله عليه وسلم. لكن، على مقدار الاتباع، فلا يظن ظان أنه حصل على خير بدون وساطة نبوته. كيف، وهو السراج المنير الذي يستضيء به الجميع، والعلم الأعلى الذي به يهتدى في سلوك الطريق. ولعل قائلا يقول: قد ظهرت على أيدي الأمة أمور لم تظهر على يدي النبي، صلى الله عليه وسلم، ولاسيما الخواص التي اختص بها بعضهم، كفرار الشيطان من ظل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد نازع النبي، صلى الله عليه وسلم، في صلاته الشيطان، وقال لعمر: "ما سلكت فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجك". وجاء في عثمان بن عفان، رضي الله عنه: "أن ملائكة السماء تستحي منه". ولم يرد مثل هذا بالنسبة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم. وجاء في أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، أنهما خرجا من عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في ليلة مظلمة، فإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا، فافترق النور معهما. ولم يؤثر مثل ذلك عنه، عليه السلام. إلى غير ذلك من المنقولات عن الصحابة ومن بعدهم، مما لم ينقل أنه ظهر

مثله على يد النبي، صلى الله عليه وسلم؟. فيقال: كل ما نقل عن الأولياء أو العلماء، أو ينقل إلى يوم القيامة، من الأحوال والخوارق، والعلوم والفهوم، وغيرها، فهي أفراد وجزئيات داخلة تحت كليات ما نقل عن النبي، صلى الله عليه وسلم. غير أن أفراد الجنس، وجزئيات الكلي، قد تختص بأوصاف تليق بالجزئي من حيث هو جزئي، وإن لم يتصف بها الكلي من جهة ما هو كلي. ولا يدل ذلك على أن للجزئي مزية على الكلي، ولا أن ذلك في الجزئي خاص به لا تعلق له بالكلي. كيف والجزئي لا يكون كليا إلا بجزئي، إذ هو من حقيقته، وداخل في ماهيته. فكذلك الأوصاف الظاهرة على الأمة، لم تظهر إلا من جهة النبي، صلى الله عليه وسلم، فهي كالأنموذج من أوصافه، عليه السلام، وكراماته. والدليل على صحة ذلك، أن شيئا منها لا يحصل إلا على مقدار الاتباع والاقتداء به. ولو كانت ظاهرة للأمة على فرض الاختصاص بها والاستقلال، لم تكن المتابعة شرطا فيها}هـ[الموافقات:178/2]. ثم صار يعضد هذا المقال ويبينه بالمثال، فانظره، فإنه مهم جداً.

والقصد من نقل كلام هذا الإمام المحقق، هو بيان أن الكرامات الواقعة من الأولياء والأصفياء، هي داخلة في معجزاته، صلى الله عليه وسلم، وأن الاطلاع على المغيبات، التي هي من قبيل الكرامات التي تظهر على يد الأولياء، إنما هي جزئية من جزئيات المعجزات، كما قال الإمام البوصيري:

وَالكَرَامَاتُ مِنهُمْ مُعجِزَاتٌ    حَازَهَا مِن نَّوَالِكَ الأَوْلِيَـاءُ

[ما ذكره أهل التصوف في تفسير الآية]

هذا، ولأهل التصوف في الآية تفسير يقرب مما قدمنا عن النيسابوري وأبي السعود وما حرره الإمام الشاطبي؛ ففي"لطائف المنن"، بعد تقريره لثبوت الكرامات، واستدلاله بجوازها ووقوعها من أولياء الله، ووقوع اطلاعهم على الغيب، قال:

{ فإن قلت: فكيف يصنع بقوله تعالى: (عَالِمُ الغيبِ فلاَ يُظهِرُ على غَيبِهِ أحَداً إلاَّ من ارْتَضَى مِن رَسُولٍ) فلم يستثن أحدا إلا الرسول؟ فاعلم اني سمعت من شيخنا أبي العباس، يقول: وفي معناه، أو صدّيق أو ولي. فإن قلت: هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز، فاعلم أنه إذا قيل إن السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده، ربما دخل مماليك الوزير معه، وكان الإذن لمتبوعهم إذنا لهم. كذلك للولي؛ إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه، فإنما ذلك لانطوائه في جاه النبوة، وقيامه بصدق التابعة، فما رأى ذلك بنفسه، وإنما رآه بنور متبوعه.} هـ[ص37].

وهذا هو نفس ما قرره العلامة الشاطبي. ونحا هذا المنحى العارف بالله، سيدي عبد العزيز الدباغ، إذ قد سأله تلميذه العلامة المبرز في المنقول والمعقول، سيدي أحمد ابن مبارك، إذ قال في "الإبريز":

{وسألته، رضي الله عنه، عن قوله تعالى: (عَالِمُ الغيبِ فلاَ يُظهِرُ على غيبِهِ أحداً) الآية، وقوله تعالى: (إنَّ اللهَ عندهُ عِلمُ السَّاعة) الآية، وقوله، صلى الله عليه وسلم، في: "خمس لا يعلمهن إلا الله"، كيف يجمع بين هذا، وبين ما يظهر على الأولياء العارفين، رضي الله عنهم، من الكشوفات والإخبار بالغيوب بما في الأرحام وغيرها، فإنه أمر شائع في كرامات الأولياء، رضي الله عنهم ؟. فقال، رضي الله عنه: الحصر الذي في كلام الله تعالى وفي الحديث، الغرض منه إخراج الكهنة والعرافين، ومن له تابع من الجن، الذين كانت تعتقد فيهم جهلة العرب الاطلاع على الغيب ومعرفته، حتى كانوا يتحاكمون إليهم، ويرجعون إلى أقوالهم. فقصد الله تعالى إزالة ذلك الاعتقاد الفاسد من عقولهم، فأنزل هذه الآيات وأمثالها، كما أراد الله تعالى إزالة ذلك من الواقع ونفس الأمر، فملأ السماء بالحرس الشديد والشهب. والمقصود من ذلك كله، جمع العباد على الحق، وصرفهم عن الباطل. والأولياء، رضي الله عنهم، من الحق لا من الباطل، فلا يخرجهم الحصر الذي في الآية ونحوها}. قال، رضي الله عنه:

{ونحن نقول في هذا وأمثاله، إن الكلام يكون عاما، ونشاشيب النور التي تكون فيه، تخص بعض أفراده دون بعض. فالعارف إذا سمع اللفظ العام، نظر إلى

تلك النشاشيب. فإن رآها نزلت على فلان وفلان، وزيد وعمرو وخالد وبكر فقط، علم أنهم المرادون فقط دون غيرهم، فلا دخول له في الكلام. وإن كان اللفظ عاما، وإن نظر إلى النشاشيب، فرآها نزلت على جميع الأفراد، ولم يشذ منها فرد، علم أن الجميع مراد}. قال:

{ونبينا ومولانا محمد، صلى الله عليه وسلم، كان يعلم هذا قبل أن تخرج الآية من كلامه الشريف، لأن نور النشاشيب يسبق إلى قلبه، ليعرف مراد الحق سبحانه. قلت - أي قال سيدي أحمد ابن مبارك -: يشير، رضي الله عنه، إلى العام الذي أريد به الخصوص، والعام الذي بقي على عمومه.}هـ[175/1].

ثم أطال في التنويه بمقام شيخه سيدي عبد العزيز في العلم والمعرفة، وتعبيره بمعاني قواعد العلوم الظاهرة، حتى يعجز أكبر عالم من علماء الظاهر على معارضته في ذلك. ثم قال:

{ولنرجع إلى ما كنا بصدده، فنقول: إني قلت للشيخ، رضي الله عنه، إن التخصيص في آية (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية؛ بالرسول يُخرج الولي، فالمعارضة باقية. فقال رضي الله عنه: إنما يخرج غير الرسول. وأما الولي، فإنه داخل في الآية مع الرسول. ثم ضرب مثلا، وكان الوقت وقت حراثة، فقال: لو أن كبيرا من الكبراء، مثل سيدي فلان، أراد الخروج لينظر إلى أرض حراثته، ويختبر الفلاحين الذين فيها، فإنه لابد أن يخرج معه بعض غلمانه، وأعز أصحابه عليه. فإذا بلغ إلى الموضع واطلع عليه، وعلم ما فيه، فإن من يكون معه من الغلمان والأصحاب والأتباع، ينالهم شيء من ذلك. فكذا الرسول، لابد له من عبيد وخدمة، وأحباب وأصحاب من أمته، فإذا اطلع الرسول على غيب، أفلا ينال أصفياء أمته شيء من ذلك؟!} هـ[176/1].

فرضي الله عن العارف سيدي عبد العزيز، فقد أتى بخلاصة ما نقلناه عن المفسرين من أهل الظاهر، فإن الإمام النيسابوري، مختصر"تفسير" الفخر الرازي، يقول:

{وعِلم الأولياء، يعني بالغيب، لا يقوى قوة علم الأنبياء، كنور القمر بالنسبة إلى ضياء الشمس} هـ. يشير إلى ما هو معلوم عند علماء الفلك، أن نور القمر مقتبس من ضياء الشمس.

ويقول النَّسفي: {والولي إذا أخبر بشيء وظهر، فهو غير جازم عليه. ولكنه أخبر بناء على رؤياه أو بالفراسة، على أن كل كرامة للولي هي معجزة للرسول} هـ.

ويقول أبو السعود، بعد التعبير اللفظي للرؤيا ـ كما سبق ـ قال: { وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف، فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل، لا يستلزم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلا، ولا يدعي أحد لأحد من الأولياء ما في رتبة الرسل، عليهم السلام، من الكشف الكامل، الحاصل بالوحي الصريح} هـ.

أما الإمام أبو إسحاق الشاطبي، وهو الريان من علمي الأصول والفروع، والمبرز في المعرفة بدقائقها الذي إليه فيها الرجوع، وبين يدي إبراز عرائسها التسليم والخضوع، إذ حرر مسألة الكشف والإلهام، وما يراه المؤمن الصالح في المنام، ففصل وحقق، وأتى بشيء لم يسبق إليه ولم يلحق. وقد أسلفت بما يليق بموضوعنا زبدته، واستقيت من بحره الطويل درراً تحلي من التحرير لبَّته. وبالله التوفيق، ومنه الإرشاد إلى سواء الطريق

* * *

[مبحث في القول بتلقي الولي الغيب من الملك]

وهنا رجوع إلى قول الإمام البيضاوي، فيما سلف في الرد على من استدل بالآية على نفي الكرامات، قائلا:{ وجوابه، تخصص الرسول بالملك، والإظهار بكونه بغير واسطة. وكرامات الأولياء على المغيبات، إنما تكون تلقيا من الملائكة، كاطلاعنا على أحوال الآخرة بواسطة الأنبياء} هـ. وقد كنتُ أشرت إلى أن هذا القول ردّه محشيه الشيخ زادة، قائلا: وفيه بحث. ثم قال:

{والأظهر في الجواب أن يقال: الرسول من البشر يتلقى من الملك بالذات، والولي لا يتلقى بالذات، بل بواسطة تصديقه بالنبي، فلا حاجة إلى تخصيص الرسول بالملك، لأن معنى الآية؛ لا يطلع على الغيب المخصوص به علمه، إلا الرسول من البشر، فإنه تعالى يطلعه عليه بواسطة أن يتلقاه من الملك بالذات، ولا يطلع الولي عليه بأن يتلقاه من الملك بالذات. وذلك لا ينافي أن يتلقاه من الملك بواسطة تصديقه بالنبي، صلى الله عليه وسلم، مع أنه يجوز أن يتلقى النبي الغيب من غير واسطة الملك، كما صرح به المصنف، في قوله تعالى، آخر حم عسق: (ومَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلاَّ وَحْياً)] الخ. [561/3]. أنظر تمامه.

---

وبهذا صار مفاد ما استظهره الشيخ زادة، هو ما أفاده الشاطبي والجماعة، من أن اطلاع الولي على الغيب، إنما هو مقتبس من حضرة الرسول، ومن فيض اتّباعه والاقتداء به، وأنه من جملة معجزاته، عليه السلام، لأن الولي مستقل في ذلك بذاته، كما سبق تقريره بعبارات متعددة.

وهنا أيضا تأمل في كلام القاضي البيضاوي، حيث أثبت أن الولي يتلقى الغيب من الملك، وأنه يتصل به ويشاهده. وهذه المسألة فيها للأئمة أنظار وأبحاث. والعلماء من أهل الظاهر، إنما ينفون ذلك أو يتوقفون. وأما أهل الباطن، فقد نسب في "روح المعاني" هنا أن البعض منهم يقولون بنزول الملك على الولي، وإخباره إياه ببعض المغيبات، ولفظ "روح المعاني"، بعد أن قرر ما للجماعة:

{وتعقب بأن من الصوفية من قال، كالشيخ محيي الدين، قدس سره، بنزول الملك على الولي، وإخباره إياه ببعض المغيبات أحيانا. ويرشد إلى نزوله عليه قوله تعالى: (إنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ) الآية} هـ[98/29].

قلت: الذي كنت وقفت عليه من كلام الشيخ محيي الدين، أن الملك الذي ينزل على الولي، إنما هو ملك الإلهام، لا ملك الوحي، وأن ملك الوحي خاص بالأنبياء. وهذا الكلام ضلَّ عني موضعه من "الفتوحات"، فرسمت هنا ما بقي عالقا بذهني. والله أعلم.

وهذا المعنى، هو الذي أشار له الفخر في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) الآية، بعد كلام في الآية:

{وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار، حيث قال: (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ). ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين، أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية، والمقامات الحقيقية، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح، بإلقاء الوساوس فيها، وتخييل الأباطيل إليها. وبالجملة، فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة، حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات.}هـ[357/7].

## [اتصال الملك بغير الأنبياء، هو اتصال روحي]

وبهذا يتضح لك أن اتصال الملك بغير الأنبياء هو اتصال روحي لا بدني. وما كنت أشرت إليه من قول محيي الدين في "الفتوحات"، من أن الملك الذي يتصل بالأولياء، هو ملك الإلهام. ويوافقه كلام الفخر هذا، وكنت ذكرت قبل هذا أنه ضلَّ عني موضعه، وقد وقفت عليه الآن عندي بنصه، في كتابي"العقود الإبريزية على طرر الصلاة المشيشية"[مخطوطة ص:298] ولفظ ما نقلت هناك من "الفتوحات"، هو قوله:

{اعلم انا لا نعني بملك الإلهام، حيث أطلقناه، إلاَّ الدقائق الممتدة من الأرواح الملكية، لا نفس الملائكة؛ فإن الملك لا ينزل ويوحي على غير قلب نبي أصلا} هـ.

فهذا يعارض ما نقله عنه صاحب "روح المعاني"، وكأنه لم يقف على هذا. فإن صحَّ ما نقله عنه، فيرجع، كما قاله أهل التحقيق والتسليم، بأن ما تشابه من كلام الشيخ محيي الدين، يرد إلى محكمه. ولمَّا نقل في "روح المعاني" مقالات المفسرين، في وقت تنزل الملائكة، في تفسير الآية التي استدل بها على اتصال الملائكة بأفراد البشر من أهل العرفان، من أن التنزل يكون عند الموت، أو عند البعث، أوعند الموت وفي القبر، وعند البعث. قال:

{وقيل (تتنزّلُ عليهِمُ): يمدونهم فيما يعنّ ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام}. قال: {قيل وهذا هو الأظهر، لما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزلهم في المواطن الثلاثة السابقة وغيرها.}هـ. [باختصار:107/24].

قلت: وهذا هو الذي قدمناه عن الفخر. ثم أشار في" روح المعاني" إلى القولة السابقة له، من أن الملك يتصل بالمتقين من أهل الولاية، فقال:

{وقد قدمنا لك أن جمعا من الناس يقولون بتنزّل الملائكة على المتقين في كثير من الأحيان، وأنهم يأخذون منهم ما يأخذون، فتذكر} هـ[107/24].

ثم إن هذه المسألة فيها خلاف. ويتحصل القول فيها في ثلاثة مباحث:

الأول : في الجواز.

الثاني : في الوقوع.

الثالث: بعد الوقوع، هل يرى الولي الملك في صورته الأصلية، أو يتمثل له في صورة آدمي؟.

[مسألة رؤية الأولياء للملائكة
وما قاله العلماء فيها]

وقد سئل عن هذه المسألة، الإمام عمدة الفقهاء المشرعين، وسراج المريدين السالكين، سيدي محمد ابن عباد، [وأجاب عنها] في جواب طويل، فقال:

{وبعد. فقد بلغنا كتابكم المشتمل على المسائل المتنازع فيها، وطلبتم منا فيه بيان ما ظهر لي فيها: أما مسألة رؤية الأولياء للملائكة على وجه الكرامة: أما الجواز، فلا ينبغي لأحد أن ينكره. وإذا كانت رؤية الله تعالى على وجه الكرامة جائزة في الدنيا، على أحد قولي شيخنا أبي الحسن، فجوازها في حق الملائكة أولى. وأما الوقوع، فقد نقل أن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم، رأوهم؛ لكن لا على صورهم التي هم عليها. ويكفي في ذلك الحديث الصحيح، الذي ذكر فيه الإسلام والإيمان والإحسان، وفي آخره فقال، يعني النبي، صلى الله عليه وسلم: "هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم"}.

ثم ذكر ما ورد في ذلك عن عائشة، رضي الله عنها، وعمران بن حصين.

قال:

{ولا فرق في ذلك بين الصحابة وغيرهم، فيما يظهر لي. وقول من قال ان ذلك ببركة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صحيح،إلا أن بركته لا تختص بالصحابة. بل أتباعه كلهم تشملهم بركته. وسائر كراماتهم معجزة له، صلى الله عليه وسلم. فمن ادعى رؤية الملائكة من أولياء الله تعالى العارفين على هذا الوجه، لم ينبغ الإنكار عليه. فإن قيل: إنما حصل العلم للصحابة، رضي الله عنهم، بكون الذين رأوهم هم الملائكة، من جهة إخبار النبي، صلى الله عليه وسلم، إياهم بذلك، وهو الصادق المصدوق، فمن أين يعلم ذلك مَن بعدَهم؟. قلنا: لا يستحيل في مقدور الله، عز وجل، أن يخلق الله تعالى لهم علما ضروريا بذلك، إذ فاتتهم رؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، وإخبارُه. والعلم الموهوب لا ينكر. وقد ذكر الشيخ أبو طالب، وتبعه الشيخ أبو حامد الغزالي، والنص له، عن بعض العارفين، قال: ظهر لي الملك، فسألني أن أملي عليه شيئا من ذكري الخفي. والحكاية إلى آخرها}.

ثم ذكر عن سيدي عبد النور، في الكتاب الذي ألّفه في كرامات سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن أحد الخاصة من أصحاب أبي الحسن، في السحابة التي شاهدها، وأربعة من الطير بيض يقدمها طير كبير، فاكتنف ذلك الطير العظيم الشيخ بأجنحته، وجعل منقاره في فم الشيخ، وبقي الأمر كذلك مدة. وارتفع ذلك، وذهب الطير، ورجع الشيخ إلى حسه، إذ كان ورد عليه إذ ذاك حال. قال هذا الصاحب:

{فنظر إلي وقال: يا عبد الله رأيتَ شيئا؟ فقلت له: نعم، رأيت كذا، وذكرت له ما ذكرت لك. فقال لي: أما سحابة الطير، فهي أرواح كل ولي لله تعالى، وأما الطير الكبير الذي يقدم الطيور البيض، فهو الملكُ عبد. وهو صاحب فلك القمر. سألني في علم يختص به}.

ثم قال الشيخ ابن عباد: {ولا سبيل إلى تخطئة أحد من هؤلاء الأئمة، ولا تكفيره}. ثم قال:

{ وأما رؤية الملائكة، على الصور التي هم عليها، فلم ينقل عن أحد من الأولياء أنه رءاهم كذلك. والذي يظهر أن ذلك من خواص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ولعل ما وقع للقاضي عياض في ذلك، إنما هو في ادعاء رؤيتهم على هذا الوجه، إذ بهذا الوجه قد يصح وجود الإجماع. ومن ادعى ما يخالف الإجماع، فقد يكفر بذلك. وكلام عياض لم أقف عليه، ولم يسع الوقت استعارة الكتاب الذي هو فيه. هذا ما ظهر لي. والله تعالى أعلم}. ثم ذيل ذلك بقوله: {على أن التشاغل بمثل هذا فضولٌ، إذ هو شيء لا يتعلق به عمل.} هـ[الرسائل الكبرى: ص32].

قلت: ومفاد كلام الشيخ ابن عباد هنا، أنه بلغه أن القاضي عياض، يقول بكفر من ادعى رؤية الملك. ولكنه لم يقف على نص كلامه. وربما كان مراد الناقل ذلك عن القاضي، هو ما قاله في "الشفاء"، في فصل ما يعد من المقالات كفراً:

{وكذلك من ادعى منهم أنه يوحى إليه، وإن لم يدّع النبوة}. قال الشهاب: {أي يأتيه الملك من الله تعالى ببعض الأوامر الإلهية، مما تزينه له الشياطين} هـ[544/4].

وقال العلامة ابن سلطان، في قول "الشفاء": (وكذلك من ادعى منهم)، أي الفلاسفة، قال:

{وكذا من غيرهم، (أنه يوحى إليه)، أي وحياً جليا، لا إلهاما يسمى وحيا خفيا، كما يحصل لبعض أرباب المكاشفة وأصحاب الفراسة، كما يشير إليه قوله تعالى: (إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلمُتَوَسِّمِينَ)، أي المتفرسين. وقوله، عليه الصلاة و السلام: " اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُومِنِ"، وقوله: " في أمتي مُحدَّثون"، أي ملهمون} هـ[519/2].

فهذا القول من القاضي، صريح فيمن ادعى أن الملك يأتيه بالوحي؛ هو كافر. والغالب على الظن أن هذا مراد الناقل. وهذا القول هو الذي تبرأ منه الشيخ محيي الدين ابن عربي. وهو القول الفصل في المسألة، بحيث يجب أن يرد كل كلام يخالفه من كلامه أو كلام غيره،[من] أن الملك لا ينزل، ولا يوحي على غير قلب

نبي أصلا. وأشرنا فيما سبق إلى ذلك، وإننا نقلنا أصله الطويل في كتابنا"العقود الإبريزية"، فراجعه إن شئت.

---

ويبقى الكلام فيمن ادعى من أهل الصلاح، أنه يرى الملك، دون ادعاء الوحي. فاعلم أن علماء الظاهر قد قرر محققوهم، أنه يجوز رؤية الملك، حتى إن الإمام الحافظ السيوطي ألّف في ذلك تأليفاً خاصاً سمَّاه: " تنوير الحلك، في إمكان رؤية النبي والملك"، ثم صار يستدل على ذلك بأحاديث وآثار.

وفي "شرح" مسلم للأبِّي، وسياقه عن القاضي عياض، كما صرح بذلك السنوسي، في شرح حديث سعد بن أبي وقاص، أنه قال: "لقد رأيت يوم أحد عن يمين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه كأشد القتال؛ ما رأيتهما قبل ولا بعد":

{قيل إن إظهارهم للمشركين، كان عند أخذ القتل فيهم، واحتضارهم للموت، كما قال تعالى: (يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائكَةَ لا بُشْرَى) الآية. وقيل يجوز أن يروهم، وإن لم يموتوا، إبلاغاً للإعذار، وزيادة في إقامة الحجة عليهم.} هـ. وذيله الأبي بقوله: {العلم بكونهما جبريل وميكائل، عليهما السلام، لا يثبت إلا بإعلامه، صلى الله عليه وسلم. ورؤية الملك جائزة. وإنما الممنوع تكليمه بوحي.} هـ[114/6].

أما رؤية الملائكة على غير صورهم التي خلقهم الله عليها، فقد وقع كثيراً للصحابة في عصر النبي، صلى الله عليه وسلم. ومن أشهر ذلك يوم بدر؛ ففي "صحيح" البخاري:

(<u>باب شهود الملائكة بدراً</u>). ثم روى عن ابن عباس أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال يوم بدر: "هذا جبريل آخذ برأس فرسه؛ عليه أداة الحرب".

وذكر الحافظ ابن حجر، في تتمة هذا الحديث، أحاديث مرسلة:{ فعن سعيد ابن منصور، من مرسل عطية بن قيس؛ أن جبريل أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، بعد ما فرغ من بدر، على فرس حمراء، معقودة الناصية، قد تخضب الغبار بثنيته، عليه درعه، وقال: "يا محمد. إن الله بعثني إليك، وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى.

أفرضيت؟. قال: نعم". ثم نقل عن البيهقي، عن علي أنه قال: هبت ريح شديدة لم أر مثلها. ثم هبت ريح شديدة. وأظنه ذكر ثالثة، فكانت الأولى جبريل، والثانية ميكائيل، والثالثة إسرافيل. وكان ميكائيل عن يمين النبي، صلى الله عليه وسلم. وفيها أبو بكر، وإسرافيل عن يساره، وأنا فيها. ومن طريق أبي صالح عن علي قال: قيل لي ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يحضر الصف، ويشهد القتال. وأخرجه أحمد وأبو يعلى، وصححه الحاكم هـ[فتح الباري:221/7 ].

ومن رواية عند ابن كثير في "التفسير" عن علي، رضي الله عنه، قال: {نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي، صلى الله عليه وسلم، وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وأنا في الميسرة.} هـ[290/2].

فهذا كله يدلك على أن الصحابة كانوا يرون الملائكة، لكن على صور البشر. وفيه أن إخبارهم بكونهم ملائكة من طريق النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي أوحى الله إليه بذلك. وقد سبق قول الأبّي في "شرح مسلم": العلم بكونهما جبريل أو ميكائيل لا يثبت إلا بإعلامه، صلى الله عليه وسلم.

ثم إني كنت كلما قرأت الآية في إمداد الله تعالى رسوله بالملائكة في القتال، يمر بخاطري أن الملك الواحد يمكن، بإذن الله، أن يسحق قريشا بتمامها، ويقلب عليها بلادها، ويجعل عاليها سافلها، كما وقع في الأمم السابقة، وكان يخطر ببالي أن تلك المعجزات جرت على المعتاد وتشجيعا للأمة على اعتبار الأسباب، وقد وقفت الآن على جواب للإمام تقي الدين السبكي، إذ سئل عن هذا، كما نقله عنه الحافظ في "الفتح"، إذ قال:

{قال الشيخ تقي الدين السبكي: سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي، صلى الله عليه وسلم، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟. فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا، على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب

وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده. والله تعالى هو فاعل الجميع، والله أعلم.}
هـ[ 221/7]-.

---

[ القصد من إطالة ذيول هذا المبحث]

وقد أطلت الذيل في هذا المبحث الذي أثاره ما ورد على قوله عليه السلام: " لم يبق من النبوة إلا المبشرات"، من أنه لازال في هذه الأمة من مدارك الغيب، الإلهامات والمكاشفات، وانجر بنا الكلام على آية: (عَالِمُ الغَيبِ فَلاَ يُظهِرُ عَلَى غَيبِهِ أحَداً) الآية.

وقد أطلقت عنان القلم في ذلك، حتى أستقي من موارد التفسير العذبة ما أروى، وأنتقي من شوارد الفوائد المكنونة في صدور المؤلفات ما هو الأحق في المسألة والأقوى. وكل ذلك مع إعراض أمتنا في هذا العصر عن هذه العلوم، وعدها من العمل المشؤوم، والفعل المذموم، ويرون أنها ضلالة، والاشتغال بها فيه للوقت إضاعة، وأن العلوم المفيدة هي العلوم الجديدة التي حملها إلينا الأجانب، فصارت الهمم كلها اليوم إليها مصروفة، والجهود إلى اقتنائها متوجهة وعليها موقوفة، والأنظار إلى نتائجها شاخصة، والأماني بنجاحها متعلقة.

فأهل العلم ليس لديهم قيمة، إذ أعمالهم عليلة وسقيمة، وما يؤلفونه من أشكال معارفهم لا إنتاج لها، إذ هي عقيمة؛ فالعالم بهذا العلم منبوذ، وقوله، إن أبداه، عليه مردود، وطريق التقدم في الولايات والوظائف في وجهه مسدود.

وهنا يقول القائل: إن كان الأمر كما ذكرت، والحال كما سطرت، فما لك ولهذا الطريق الجائر، الذي سالكه تدور عليه الدوائر، إذ ليس له في عمله المُتعب مساعد ولا ناصر؟! أقول له: إن مقصدي هو عمارة الوقت بالعلم الصحيح، الذي هو العلم الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة، أو ما فهمه الأئمة الثقاة منهما، وما كان آلة للوصول إلى فهمهما، إذ هذا هو العلم الذي وعد الله أهله برفع درجاتهم، وهم ورثة الأنبياء الذين قال تعالى فيهم: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُم والَّذِينَ أوتُوا العِلْمَ

دَرَجَات)، وقال: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وقال: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون)، وقال تعالى: (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُم وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَاب). وقال صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء. لا يورثون دينارا ولا درهما. وإنما ورثوا العلم".

وهذا هو العلم الذي يعد أعظم من العبادة، كما قال صلى الله عليه وسلم: "فضل العالم على العاب، كفضلي على أدنى رجل من أصحابي". وهذا العلم وإن تفرعت أنواعه، فأصله العالي هو الكتاب والسنة. وهو العلم المأخوذ عن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ففي "جامع بيان العلم" لابن عبد البر، عن بقية بن الوليد، قال:

{قال لي الأوزاعي: يا بقية: العلم ما جاء عن أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم. وما لم يجئ عن أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، فليس بعلم} هـ[29/2].

وهو العلم الذي ينبغي للإنسان أن يعمر به أوقاته، ويقضي فيه حياته، الذي يدني الله من رتبة الأنبياء رتبته، كما قال فيه، عليه السلام:" وبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة".

## [ما سوى علم القرآن، هو من قبيل الصناعات]

وعلم أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هو علم "القرآن"، وما بيَّنته به سنة رسول الله. وما سواه ممّا يلهج به أهل هذه العصور، هو من قبيل الصناعات، وكل ذلك كان في العصور السابقة، قبل الرسالة وبعدها. ولكن الديانة الإسلامية لم تدخله في أسسها، ولم تجعله من قواعدها، ولم تتخذه من أركانها. إنما نصَّت على أن من كان من الصناعات المهمة المحتاج إليها في المجتمع الإنساني، فهي تحتّم القيام به، كما تقرر في محله، لا أنها من أصوله وأسسه التي تنبني عليها الديانة.

أما كون "القرآن" وبيانه، هو أصل هذا العلم الديني، فشيء لا تردد فيه ولا ارتياب. ويرحم الله الإمام الشافعي إذ يقول:

كل العلوم سوى القرءان مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الديـن
العلم ما كـان فيـه قـال حدثنـا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

ويعجبني قول إمام الصوفية، ويعسُوب الطائفة الربانية، سيدي محيي الدين بن العربي، في "الفتوحات"، بعد كلام دقيق في مجالس أساس "القرآن":

{فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي، إنما هو عن حضرة "القرآن"، وخزائنه. أعطيت مفتاح الفهم فيه والإمداد منه. وهذا كله حتى لا نخرج عنه، فإنه أرفع ما يمنح. ولا يعرف قدره إلا من ذاقه وشهد منزلته حالا من نفسه، وكلمه به الحق في سره، فإن الحق، إذا كان هو المكلم عبده في سره بارتفاع الوسائط، فإن الفهم يستصحب كلامه منك، فيكون عين الكلام منه، عين الفهم منك لا يتأخر. فإن تأخر عنه، فليس هو كلام الله. ومن لم يجد هذا، فليس عنده علم بكلام الله عباده.} هـ[334/3]. وفي آخره غموض. وربما يُعينك على فهمه، ما في الصفحة 51 من الجزء الثالث من "الفتوحات" الذي تقدم فيه الكلام، [إذ قال] بعد كلام رقيق، مابدا لي أني فهمته، ولفظه:

{ فإن الأنبياء ما دعت لأنفسها الناس، وإنما دعتهم إلى ربها. فأي قلب اعتنى الله به، وقام به حرقة الشوق إلى ذلك الدعاء، مثل احتراق رأس الفتيلة، ثم انبعث من هذا الشوق همة إلى ما دعاه إليه الرسول في كلامه، مثل انبعاث الدخان من تلك النارية التي في رأس الفتيلة، وهي قوة جاذبة؛ فجذبت من نور النبوة والوحي والهداية ذلك الاشتعال الذي قام به الدخان، فرجع به إلى قلب صاحبه، فاهتدى واستنار. كما اتقدت منه هذه الفتيلة، ثم فارق النبي، ومشى إلى أهله نورا. فإن اعتنى الله به وأمده بتوفيقه، ثبت له في قلبه نور الهداية بذاك الإمداد، ولم يبق للرسول بعد ذلك معه شغل إلا بتعيين الأحكام؛ إلا أن ذلك النور، هو نور الإيمان: (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الايمَان وَلاَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ

عِبَادِنَا)، قال عليه السلام عن ربه: ( أدْعُو إلَى اللهِ)، ولم يقل أدعو إلى نفسي. و(إلى) حرف موضوع للغاية. فإذا أجاب المؤمن، مشى إلى ربه على الطريقة التي شرع له هذا الرسول. فلما وصل إلى الله، تلقاه الحق تلقي إكرام وهبات ومنح وعطايا، فصار يدعو إلى الله على بصيرة، كما دعا ذلك الرسول، وهو قوله حين قال: (أدعُو إلَى الله عَلَى بَصيرةٍ أنا ومَن اتَّبعَنِي). فأخبر أن من اتبعه يدعو إلى الله أيضا على بصيرة. فإن كنت عارفا بمواقع الخطاب الإلهي وتنبيهاته وإشاراته، فقد عرفك بحالك مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبحالك معه، وقد جعلك على صورة نبيه، صلى الله عليه وسلم، في نوره وإمداده، وأبان لك أن صورتك معه في هذا الأمر، صورته أيضا مع جبريل، عليهما السلام، الذي اتقدت فتيلته من سراج جبريل واشتعلت نورا. وكل واحد من السرج، ما انتقل نوره عنه، بل هو على نوره في نفسه. وانظر إلى ما استندت الرسل بعد أخذها عن جبريل، عليه السلام، هل كان استنادها إلى جبريل أو إلى الله، لا والله بل قيل: رسول الله. وما قيل رسول جبريل. وكذلك من أخذ عن النبوة مثل هذا النور، ودعا إلى الله على بصيرة، فذلك الدعاء والنور الذي يدعو به، هو نور الإمداد، لا النور الذي اقتبسه من السراج. فلينسب إلى الله في ذلك، لا إلى الرسول، فيقال: عبد الله، وهو الداعي إلى الله عن أمر الله، بواسطة رسول الله، بحكم الأصل، لا بحكم ما فتح الله به عليه في قلبه من العلوم الإلهية التي هي فتح عين فهمه لما جاء به الرسول، صلى الله عليه وسلم، من "القرءان" والأخبار، لا أن هذا الولي يأتي بشرع جديد، وإنما يأتي بفهم جديد في الكتاب العزيز؛ لم يكن غيره يعرف أن ذلك المعنى في ذلك الحرف المتلوّ أو المنقول، فللرسل، صلوات الله عليهم وسلامه، العلم، ولنا الفهم.} هـ[51/3].

فإذا تأملت كلام هذا العارف، تجده مؤيداً لعلماء الشريعة، من أن العلم الصحيح، ما جاء في الكتاب والسنة صريحا، أو فهما يؤتيه الله لأهل العلم. وما خرج عنهما، فهو من المهمل، الذي يرد على صاحبه ولا يقبل.

## [إقبال أئمة الإسلام على
## الاشتغال بالعلم، وما أصابهم في سبيله]

ولم يزل أئمة الإسلام، وأكابر العلماء، من لدن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهم على هذا العلم مقبلون، وعلى الاشتغال به دائمون، تلقيا وإلقاءً، وإبلاغا وتلقيناً، وحفظا وتدويناً، لا يحزنهم مطاولة ذي صولة مبتدع، ولا معارضة ذي جهالة لسبيل المؤمنين غير متبع، ولا يضرهم عما هم بصدده من يسومهم سوء العذاب، ولا من يهددهم على تغيير عقائدهم بأشد العقاب.

### [الإمام مالك]

ولنعتبر بما وقع للإمام مالك، إمام الأئمة، من ضربه والإطافة به في الأسواق، ليرجع عن مسألة في الطلاق. فلم يرجع عما ثبت لديه فيها، وهو يضرب ويقول: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس . طلاق المكره لا يلزم. ولم [تؤثر فيه] تلك النكبة التي أهين بها، وجلد ظهره من أجل قول الحق. واستمر على عمله من نشر العلم بالإلقاء والتأليف.

### [الإمام أحمد بن حنبل]

وهذا إمام السنة، والمحارب للبدعة، الإمام أحمد بن حنبل، قد امتحن وعذب في الله، هو وجماعة من أكابر العلماء. فما ضعفوا عن عقائدهم، وما استكانوا لسطوة معارضيهم. واستمروا على عملهم الصالح، وعلمهم الصحيح. وكان صبر الإمام أحمد في تلك المحنة العظيمة، مضربا للأمثال فيما قال المزني: أبو بكر عند الردة، وعمر يوم السقيفة، وعثمان يوم الدار، وعلي يوم صفين، وأحمد بن حنبل يوم المحنة. هـ.

فقد كتب هذا الإمام من الحديث ما يملأ الحقائب، وتعجز عن حمل كتبه الكتائب، إذ قالوا: كان يحفظ ألف ألف حديث. وحزرت كتبه يوم مات فبلغت اثني عشر حملا وعدلا.

وناهيك بثباته ورسوخه في العلم الصحيح، وعدم تزلزله عن مكانته العلمية، واستمراره على نشره لعلمه، تلقينا وتصنيفا، ما خلفه لهذه الأمة من "مسنده" الذي صار أصلا من أصولها بعده. قال التاج السبكي: {وألّف "مسنده" وهو أصل من أصول هذه الأمة}. ثم نقل عن الحافظ المديني أنه قال: {هذا الكتاب أصل كبير، ومرجع وثيق لأصحاب الحديث، انتقى من أحاديث كثيرة، ومسموعات وافرة، فجعل إماما ومعتمدا، وعند التنازع ملجأ ومستنداً} هـ[طبقات الشافعية الكبرى:201/1].

---

[ الإمام ابن جرير الطبري]

وهذا الإمام ابن جرير الطبري، أحد الأئمة المجتهدين، وعمدة المفسرين، وحجة أهل الحديث الحافظين، وجهينة المؤرخين المتقين. ومع هذا، فقد تجرأ عليه الحنابلة ببغداد، ومنعوا الناس من الاتصال به، فلم يحل ذلك بينه وبين عمله المبرور، ومواصلة اجتهاده في نشر علومه وتخليدها في سطور الأسفار، من تفسير وحديث، وفقه وتاريخ، وغير ذلك.

وناهيك بـ"تفسيره" الشهير الذي قال الأئمة: إنه لم يؤلف مثله في التفسير. وقد طبع في ثلاثة عشر مجلدا. وهو اختصار من تفسير كان ألّفه وقال لأصحابه: أتنشطون لتفسير "القرءان"؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. ثم قالوا: هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه. فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة هـ. قلت: وهذا هو المطبوع الموجود بين أيدينا. وكذلك وقع في "تاريخه" المطبوع في مجلدات، بحيث إذا قسنت هذه المؤلفات بمدة عمره، تجد هذا الرجل كان يملأ أوقاته كلها كتابة وتصنيفا.

[الإمام الحربي]

وهذا الإمام الحربي، إمام العلم والأدب. ترك بخط يده اثني عشر جزءاً، مع قلة ذات يده وافتقاره، فلم يشغله فقره عن إقباله على العلم وكتابته. حكى الخطيب

في "تاريخ بغداد"، قال: دخل إليه أبو القاسم بن الجبَّلي يعوده في مرض أشرف فيه على الموت، فقال له: يا أبا القاسم، أنا في أمر عظيم مع ابنتي، فقدمها إليه، فقالت له: يا عم. نحن في أمر عظيم، لا في الدنيا، ولا في الآخرة. الشهر والدهر، ما لنا طعام إلا كسر يابسة وملح. وربما عدمنا الملح. وبالأمس قد وجه إليه المعتضد مع بدر ألف دينار، فلم يأخذها. ووجه إليه فلان وفلان، فلم يأخذ منها شيئا، وهو عليل. فالتفت الحربي إليها وتبسَم، فقال: يا بنية. إنما خفتِ الفقر؟. فقالت: نعم. فقال لها: أنظري إلى تلك الزاوية. فنظرت، فإذا كتب، فقال: هناك إثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبتها بخطي. إذا مت فوجِّهي في كل يوم بجزء تبيعيه بدرهم. فمن كان عنده إثنا عشر ألف درهم، ليس هو فقير! هـ[بتصرف: 33/6].

ولهذا الإمام زيادة على هذا مؤلفات كثيرة. وهو من [أقران] الإمام البخاري، إذ توفي سنة خمس وثمانين ومائتين.

[الإمام البخاري]

وهذا الإمام البخاري، الذي له "الجامع الصحيح"، الذي يزهو على جميع المصنفات، وتفوق بتحريره وتحقيقه وتحريه أصح الصحيح، وحسن تراجمه الفقهية؛ [على] المسندات والمؤلفات. ولهذا قال فيه أهل الحديث: إنه أصح كتاب بعد كتاب الله. وكيف لا، وهو أوقف عمره على خدمة العلم والسنن، وجرى باجتهاده في ذلك طلق العنان، في ألطف نسق وأقوم سنَن، إذ كان يحكم الفن وهو ابن إحدى عشرة سنة، وعد من الحفاظ إذ بلغ سنه عشرة. وصرف عمره فيما بين تحديث وتصنيف، فألف تاريخه الشهير ثلاث مرات. ولدقَّته وغموض مناحيه، سماه الإمام ابن راهويه؛ سحرا، وأدخله على الأمير عبد الله بن طاهر، فتعجب منه. وقالوا: لو أن رجلا كتب ثلاثين ألف حديث، لما استغنى عن "تاريخ" الإمام البخاري.

أما كتابه "الصحيح"، فقد علمت أنهم قالوا هو أصح كتاب في الإسلام بعد كتاب الله. ولهذا ألقى الله عليه القبول في هذه الأمة، وقدموه على سائر كتب

الحديث، وأجمعوا على صحة ما فيه، واستعانوا به في الملمّات، وقرأوه عند حلول النكبات، واستسقوا به عند احتباس الغيث، فنزل به الغيث بعد القنوط، وانفرجت الكربات بتنزل الرحمات.

وكل هذا الإقبال على هذا العلم، لم يكن لسبب من أسباب التوصل إلى الجاه، ولا لاقتناء المال. بل كان لذلك رافضا، وفي رضى الرحمان راغبا، حتى ورد عنه أنه قال: منذ ولدت ما اشتريت من أحد بدرهم شيئا قط، ولا بعت لأحد بدرهم شيئا قط.

ومن عزوفه عن الدنيا، وزهده في زهرتها وجاهها، أن أمير بخارى وواليها، رغب فيه أن يأتيه لمنزله، ليأخذ عنه كتابه"الجامع"، و"تاريخه"، وغيرهما من مؤلفاته. فأبى وقال: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس. فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة، فاحضرني في مسجدي، أو في داري. وإن لم يعجبك هذا، فأنت سلطان، فامنعني من الجلوس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "من سئل عن علم فكتمه، ألجم بلجام من نار".

ولم يزل يراوده في ذلك، حتى طلب منه أن يعقد مجلسا لأولاده لا يحضره غيرهم، فامتنع من ذلك أيضا. فاستعان عليه بأهل العلم من بخارى، حتى تكلموا في مذهبه، ونفاه عن البلد. فدعا عليهم بقوله: اللهم أرهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهليهم. فاستجاب الله دعاءه، كما ذكر تفصيل ذلك الخطيب في "تاريخه". فكانت من كرامات هذا الإمام.

أما عبادته وتهجده، وقيامه بالليل، وتلاوة "القرءان"، فأمره في ذلك أشهر من أن يذكر. ومع هذا، فقد سئم من هذه الحياة الزائلة، وضاق في رحاب هذه الدنيا الفانية، فطلب الارتحال، إلى مقعد صدق عند الملك المتعال، فقال في ليلة من الليالي، بعد فراغه من صلاة الليل: اللهم إنه قد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، فاقبضني إليك. فما تمَّ الشهر حتى قبضه الله إليه. وقد رأى بعض الفضلاء النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، ومعه جماعة من أصحابه، في تلك الساعة التي

توفي فيها هذا الإمام، [وهم] ينتظرونه. أنظر تفصيل ذلك عند الخطيب في ترجمته من "تاريخه".

وعِلم الإمام البخاري، هو العلم الذي يفتخر العلماء الربانيون به، وهو العلم النافع الذي يقصد به وجه الله والدار الآخرة، لا العلم الذي يتخذ وسيلة لرياسة الدنيا، والمراتب عند الأمراء العليا. ففي الحديث الذي في السنن عن أنس، رضي الله عنه: " من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يجاري به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه، أدخله الله النار".

ومع هذه الجلالة في المعرفة والدين، وجمعه لحديث سيد المرسلين، وحمايته من افتراء المفترين، واختلاق الواضعين المضلين، وشهرة مكانته العلمية في سائر أقطار المسلمين، مات وعمره اثنان وستون سنة، عام خمسين ومائتين.

---

وهذا كله، إنما هو تنبيه وجواب عما قد يرد علينا في إطالة هذه الأبحاث العلمية في هذه "الفهرسة"، مع فقد الإقبال على ذلك، وعدم الاغتباط، بل مقابلة ذلك بالرفض والتنقيص، وإلاّ فترجمة الشيخ البخاري وغيره ممن قدمنا، أشهر من أن تسطر في هذه "الفهرسة". ويعجبني قول أبي عبد الله البخاري:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتَة

كم صحيح رأيت من غير سقم ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

----

[الإمــام الشافعي]

وهذا الإمام الشافعي، إمام المذهب الشهير الذي انتشر في الأقطار، وطلعت كتبه ومؤلفاته على الأمة طلوع الشموس والأقمار، سمت به همته، وقادته للعلم وجهته، على فقره واحتياجه، وفقده لما يشتري به ورق كتبه، حتى كان يستوهب العظام لذلك. وكان ذلك على حداثة سنه. فحفظ "القرآن" وهو ابن سبع سنين، و"الموطأ" وهو ابن عشر سنين، ولبث في بطون العرب عشرين سنة، يأخذ

أشعارها ولغاتها، فصار إماماً في اللغة، إماماً في الشعر، إماماً في فنون الأدب، إماماً في الفقه، إماماً في الأصول، حتى نسب إليه وضعها، إلى غير ذلك من الفنون والعلوم كلها، حتى في الرمي بالسهام، فكان لا يخطئ المرمى.

هذا، ولا داعي يغريه، ولا طمع يستدعيه، إلا محبته في العلم، وولعه بالمعرفة، وإرادة إعلاء القيمة، واختيار الطريقة المستقيمة، مع التهجد وقيام الليل، فقد كان يصلي ثلث الليل، وملازمة تلاوة "القرءان"، فيختم في كل ليلة منه ختمة، وفي كل يوم ختمة. فكانت حياته، رضي الله عنه، كلها في طاعة الله، ما بين ركوع وسجود، وتلاوة وإفادة علوم مختلفة المعاني [إقراءً] وتصنيفا، حتى قالوا إن عمره لا يفي بعشر ما أبرزه من التصانيف، لأن عمره لا يزيد على أربعة وخمسين سنة، لأنه ولد سنة مائة وخمسين، ومات سنة أربع ومائتين، كما رمز له القائل:

وأشهب والشافعي عندي ردا إلى اللـه في عام رد

فكان ذلك من إحدى الكرامات التي ظهرت له؛ ففي كتاب "طبقات الشافعية" لتاج الدين السبكي، في عد أنواع الكرامات الواقعة في هذه الأمة:

{الرابع والعشرون: ما سهل لكثير من العلماء من التصانيف في الزمن اليسير، بحيث وزع زمان تصنيفهم على زمن اشتغالهم بالعلم إلى أن ماتوا، فوجد لا يفي به نسخا، فضلا عن التصنيف. وهذا القسم من نشر الزمان الذي قدمناه؛ فقد اتفق النقلة على أن عمر الشافعي، رحمه الله، لا يفي بعشر ما أبرزه من التصانيف، مع ما ثبت عنه من تلاوة "القرآن" كل يوم ختمة بالتدبر، وفي رمضان كل يوم ختمتين كذلك، واشتغاله بالدرس والفتوى، والذكر والفكر، والأمراض التي كانت تعتريه، بحيث لم يخل، رضي الله عنه، من علة أو علتين أو أكثر. وربما اجتمع فيه ثلاثون مرضاً هـ[ 77/2].

---

وكان هذا الحال؛ هو حال سائر أئمة الدين، الهادين المهتدين؛ اشتغالهم بالعلم لله، ولأجل العمل به. لا تلهيهم تجارة ولا بيع، ولا ترقب ربح ولا ريع، ولا يسفرهم طمع، ولا يثبطهم عما هم عليه إدبار من أدبر، ولا يغبطهم إقبال من أقبل.

جليسهم أسفارهم، وأنيسهم أقلامهم. كنزهم مال القناعة الذي لا ينفذ، وغناهم التقلل من الشهوات التي هي الحظ الأنكد. فالدنيا عندهم، إنما هي قنطرة تعبر ولا تعمر، وممرّ لا مقرّ، عذّبها أجاج، وشرابها سراب، والمتحلي بزينتها عاطل، وكل ما فيها ما عدا ذكرَ الله غرور وباطل. ورحم الله هذا الإمام الشافعي، إذ يقول:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلي عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلاً كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهُن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلماً لأهلها وإن تجتذبها، ناهشتك كلابها
فطوبى لنفس أوطأت قعر بيتها مغلقة الأبواب، مرخى عنانها

قلت: كذا وجد عندي في عجز البيت الأخير:"مرخى عنانها". وأظن الصواب: "حجابها". بدل "عنانها"، وإن "عنانها" وقع فيه تحريف، لأن تلك الأبيات كلها لزومية، فمن اللائق بمقام الإمام الشافعي في الأدب ودرايته بمحسنات الشعر، هو "حجابها"، والله أعلم.

ثم إن تتبع سير علماء الأمة، في سائر الأعصار والأقطار، وإقبالهم على الاشتغال بالعلم، نقلا وتعليما وكتابة وتصنيفاً، وعدم مبالاتهم بمن ناوأهم وعارضهم، وحاول فتنتهم وصرفهم على ما هم عليه من كل همَّاز لمَّاز، منَّاع للخيرات والمبرات، معتد على أهل المعارف والعلوم، الذين بهم تتنزل الرحمات، لا يتسع لهذه الأوراق، بل يستدعي ملأ الأسفار، وتعدد الدفاتر. وإنما وقعت الإشارة هنا في ذلك الموضوع إلى بعض أشهر المشاهير، تنبيها للغافل القاصر، واحتجاجا على المعاند المكابر.

## [الإمام جلال الدين السيوطي]

ومما لا بد من إلحاقه بما أشار إليه التاج السبكي في كرامات هذه الأمة، من اتساع الزمان، وامتداده لهؤلاء العلماء الذين أربت مؤلفاتهم علىأعمارهم، وبورك لهم في أيامهم وأعمالهم، حتى لو قسّت عدة أيامهم، بما خلفوه من مؤلفاتهم

العلمية، لفاقت بأضعاف مضاعفة. ذاك الإمام الذي جاء بعد الإمام السبكي، وملأ الدنيا بمؤلفاته، وهو الإمام جلال الدين السيوطي، الذي صار يضرب به المثل في كثرة ما خلفه من المؤلفات في سائر الفنون، إذ يقال فيمن كثرت مصنفاته: هو سيوطي زمانه. هذا مع ما كان يقاسيه في حياته من شر الحساد، وافتراء أهل التكبر والعناد، ومخالفة أهل الجهالة والاستبداد، وتلاعب الزائغين عن الحق بالتعصب الباطل، وقول الزور المستمر المتواصل، كما وصف أحوال هذا الزمان الذي يحكي زماننا قول القِدة بالقدة، حتى يقال: ما أشبه اليوم بالليلة، إذ قال في آخر كتابه "الإتقان"، بعد أن وصفه:

{على أني لا أبيعه بشرط البراءة من كل عيب، ولا أدعي أنه جمع سلامة. كيف، والبشر محل النقص بلا ريب. هذا وإني في زمان ملأ الله قلوب أهله من الحسد، وغلب عليهم اللوم، حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد}. ثم قال: {قوم غلب عليهم الجهل وطمّعهم، وأعماهم حب الرياسة وأصمهم. قد نكبوا عن علم الشريعة ونسوه، وأكبوا على علم الفلاسفة وتدارسوه. يريد الإنسان منهم أن يتقدم، ويأبى الله إلا أن يزيده تأخيراً. ويبغي العز ولا علم عنده، فلم يجد له وليا ولا نصيرا}. ثم قال:

{ ومع ذلك، فلا نرى إلا أنوفا مشمخرة، وقلوبا عن الحق مستكبرة، وأقوالا تصدر عنهم مفتراة مزورة. كلما هديتهم إلى الحق، كان أصم وأعمى لهم، كأن الله لم يوكل بهم حافظين يضبطون أقوالهم وأعمالهم، فالعالم بينهم مرجوم؛ تتلاعب به الجهال والصبيان. والكامل عندهم مذموم؛ داخل في كفة النقصان. وأيم الله. إن هذا لهو الزمان الذي يلزم فيه السكوت، والمصير حلسا من أحلاس البيوت، ورد العلم إلى العمل، لولا ما ورد في صحيح الأخبار:" من علم علما فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار". ولله در القائل}:

ادأب على جمع الفضائل جاهداً ... وأدم لها تعب القريحة والجسدْ
واقصد بها وجه الإله ونفع من ... بلغته ممن جد فيهـا واجتهدْ
واترك كلام الحاسدين وبغيهم ... هملاً فبعد الموت ينقطع الحسدْ

هـ[205/2]. وكلام الجلال السيوطي هذا، هو الكلام الفصل في موضوعنا، وهو جواب الإيراد الذي ورد في خاطرنا. والله سبحانه المرشد إلى صوب الصواب، وإليه المرجع والمآب.

[الرجوع لمبحث الرؤيا، واعتناء النبي،
صلى الله عليه وسلم بها، وذكـــر أقسامها]

ولنرجع إلى تكميل الكلام على ما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فأقول: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان له اعتناء بأمر الرؤيا، فكان، كما قال ابن خلدون في "المقدمة": {إذا انفتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه: "هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا". يسألهم عن ذلك، ليستبشر بما وقع من ذلك ممًا فيه ظهور الدين وإعزازه} هـ[ص417].

قلت: وما قاله ابن خلدون هُو في "صحيح"البخاري، عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعني مما يكثر، أن يقول لأصحابه: " هل رأى أحد منكم رؤيا ". ولفظ الموطأ عن أبي هريرة، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان إذا انصرف من صلاة الغداة يقول: "هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟ ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة".

هذا، وقد تقدَّم لنا تقسيمات الرؤيا عند القرافي وغيره، وكنا أخرنا الحديث الذي فيه التقسيم إلى موضعه، وهو هنا، وهو قوله، عليه السلام، فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة، قال عليه السلام: " والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة، بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه".[صحيح مسلم:273/2].

ومن "صحيح" البخاري، من حديث أبي هريرة، ما يفيد أن هذا التقسيم غير مرفوع. بل قاله محمد بن سيرين، وأبهم القائل، وهو أبو هريرة، ولفظه: {وكان يقال الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله} هـ. قال الحافظ: {وقد رفعه بعض الرواة ووقفه بعضهم}هـ[فتح الباري:329/12]. وذكَر طرق الرفع عن الإمام أحمد ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي.

ومن "الجامع الصغير": "الرؤيا ثلاثة: منها أهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يَهُم به الرجل في يقظته، فيراه في منامه. ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة."هـ ورمز له بإخراج ابن ماجة، وأشار إلى صحته. ولكن الحافظ بعد ما أشار لرواية ابن ماجة بهذا اللفظ، قال: رفعه بسند حسن.

وبكل [حال، فإن] هذا التقسيم الذي ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قابل لشمول تلك الأقسام التي قدمناها عن المازري وابن حزم والقرافي، عن كتاب الكرماني الكبير في الرؤيا. وقوله في الحديث:" ومنها ما يهم به الرجل في يقظته، فيراه في منامه". قال المناوي عن القرطبي: {ويدخل فيه ما يلازمه في يقظته من الأعمال والعلوم والأقوال، وما يقوله الأطباء من أن الرؤيا من خلط غالب على الرائي} هـ[فيض القدير:47/4].

وبهذا، اتَّضح لك أن الأقوال، ما عدا تلك الأقوال الفلسفية، والآراء الواضحة البطلان، كلها وردت في الأصل في الكتاب والسنة، حسبما بسطناه في النقول. وقد حصَّل الحافظ ابن حجر أنواع [الرؤيا ] الواردة في الأحاديث، في سبعة. فإنه لما ذكر حديث ابن ماجة هذا، قال: {وليس الحصر مرادا من قوله، ثلاث، لثبوت نوع رابع في حديث أبي هريرة في الباب، وهو حديث النفس}. ثم قال: {وبقي نوع خامس، وهو تلاعب الشيطان، وقد ثبت عند مسلم}. قال: {ونوع سادس، وهو رؤيا ما يعتاده الرا ني في اليقظة}. قال: {وبينه وبين حديث النفس عموم وخصوص. وسابع، وهو الأضغاث} هـ[باختصار من فتح الباري:329/12]. <u>فتأمَّله</u>؛ فربما فيه بعض تداخل.

وبالجملة، فالذي حاذى هذا التقسيم الوارد في الأحاديث ممَّن نقلنا عنه، هو ابن حزم. والله أعلم.

ومع هذا كله، فإن محصل ما سبق يرجع إلى أن الرؤيا إما بشرى من الله، وهي التي من الله، وهي رؤيا الأنبياء والصالحين من عباده، وهي جزء من أجزاء النبوة، وهي المبشرات. ورؤيا من أضغاث أحلام، وهي التي تنسب إلى الشيطان،

كما قال عليه السلام:"الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان". قال الشيخ زكرياء الأنصاري، رحمه الله:

{ والرؤيا الصادقة هي الخالصة من الأضغاث. والأضغاث أنواع. الأول: تلاعب الشيطان، ليحزن الرائي، كأن يرى أنه قطع رأسه. والثاني: أن يرى أن بعض الأنبياء يأمره بمحرم أو محال. الثالث: ما تتحدث به النفس في اليقظة تمنيا، فيراه كما هو في المنام هـ. بنقل المناوي في "شرح الجامع الصغير"[133/6]. هذا ما يتعلق بالرؤيا من حيث هي.

[رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام]

أما رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فهي حق. والحديث بها عن النبي، صلى الله عليه وسلم. قال الإمام السيوطي: إنه متواتر. ولفظ البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: " من رءاني في المنام، فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي". وفي هذا الحديث فوائد وأبحاث، واختلاف فيها بين أهل العلم.

أولاً : قال ابن سيرين، حسبما في البخاري: "إذا رءاه في صورته" هـ. وذلك كما روي عنه أنه كان إذا قصَّ عليه رجل أنه رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: صف لي ما رأيت؟ فإن وصف له صفة لا يعرفها، قال: لم تره. وسنده في ذلك ما روي عن سيدنا عبد الله بن عباس، كما رواه الحاكم عن عاصم بن كليب، حدثني أبي، قال: قلت: لابن عباس: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام. قال: صفه لي. قال: ذكرت الحسن بن علي فشبهته به. قال: قد رأيته.

ولكن يعارضه حديث، وإن كان ضعيفا، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " من رءاني في المنام، فقد رءاني، فإني أرى في كل صورة". وَوَفَّق بينهما القاضي ابن العربي، كما نقله الحافظ عنه، بأن رؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، بصفته المعلومة، إدراك على الحقيقة. ورؤيته على غير صفته، إدراك للمثال. فإن الصواب أن الأنبياء لا تغيرهم الأرض. ويكون إدراك الذات الكريمة حقيقة، وإدراك

الصفات إدراك للمثال. هـ. وتعقبه القاضي عياض، وقال: بل الصحيح أنه يراه حقيقة، سواء كانت على صفته المعروفة أو غيرها. هـ. قال الحافظ في "الفتح":

{ولم يظهر لي من كلام القاضي ما ينافي ذلك. بل ظاهر قوله أنه يراه حقيقة في الحالين. لكن في الأولى، تكون الرؤيا مما لا يحتاج إلى تعبير، والثانية مما يحتاج إلى التعبير.} هـ[311/12]. وهناك أقوال أنظرها في "الفتح".

واقتصر القرافي على أن المدرك في المرائي كلها المثل، كما سبق في الأقوال. وبذلك انحل ما يرد على ما يقال إنه إذا كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُرى بذاته حقا، فكيف يمكن أن يُرى في أوان مختلفة، وأمكنة متباعدة؟ فقال في المسألة الرابعة من الفرق 268:

{تقدم أن المدرك إنما هو المثل. وبه خرج الجواب عن كون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يرى في الآن الواحد في مكانين، فإن المرني في المكانين مثالان، فلا إشكال إذا تعددت المظروفات بتعدد الظروف، إذ المشكل أن يكون في مكانين في زمان واحد}.

{وأجاب الصوفية بأنه، عليه السلام، كالشمس ترى في أماكن عدة، وهي واحدة. وهو باطل، فإنه عليه السلام، يراه زيد في بيته، ويراه عمرو بجملته في بيته، أو داخل مسجده، والشمس إنما ترى في أماكن عدة، وهي في مكان واحد. فلو رئيت داخل بيت بجرمها، استحال رؤية جرمها في داخل بيت آخر. وهو الذي يوازن رؤية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في بيتين أو مسجدين}.

{والإشكال لم يرد في رؤيته، عليه السلام، من مواضع عدة وهو في مكان واحد. إنما ورد فيه كيف يرى في مواضع عدة، بجملة ذاته، عليه السلام. فأين أحدهما من الآخر؟ مع اتفاق العلماء على أن حلول الجسم الواحد في الزمن الواحد في مكانين، محال. فلا يتجه الجواب إلا بأن المرني مثله، عليه السلام، لا ذاته. وكذلك كل مرني من بحر أو جبل أو آدمي أو غيره، إنما يرى مثاله، لا هو بذاته. وبه يظهر معنى قوله، عليه السلام: " من رءاني فقد رءاني حقا، فإن الشيطان لا

يتمثل بي". وإن التقدير: من رأى مثالي، فقد رءاني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بمثالي. وإن الخبر إنما يشهد بعصمة المثال عن الشيطان}هـ [الفروق:225/4].

قلت: وما أطال به الشهاب، واضح ظاهر. وذلك لأن الرؤيا نفسها إنما هو جولان روحي. وقد قدمنا أن الذي يتضح للفهم ويساعده النقل، أن الرؤيا إنما هي من الروح، والروح من أمر ربي. وما لنا على حقيقتها اطلاع. وأسلفنا لك في ذلك نص القرطبي، وهو الحق الذي يغني عن الآراء الفاترة، والأتعاب الفكرية التي لا تجدي الإجابة، وفي بعضها ما يردي ويوصل إلى مزالق الضلالة. وربما يقال لهذا الخابط هنا: أرني حقيقة الرؤيا، وسبب نشأتها، وكيف يكون الإنسان نائما بتطوان، وهو يرى فاساً وديارها ومسالكها ومساكنها، وربما التقى بأفرادها وخاطبهم، واستفاد منهم وأفاد، كما وقع لي أخيراً في اتصالي بشيخنا ابن الخياط مناماً، وكذا في غيرها من المدن.

## [ صفة من تصحُّ له رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم]

ومن الأبحاث المتعلقة برؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، صفة من تصح له الرؤيا التي ادعى أنه رآها، ومن لا تصح. قال القرافي:

{إنما تصح رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، لأحد رجلين: أحدهما صحابي رآه، فعلم صفته فانطبع في نفسه مثاله. فإذا رآه جزم بأنه رأى مثاله المعصوم من الشيطان، فينتفي عنه اللبس والشك في رؤيته، عليه السلام. وثانيهما: رجل تكرر عليه سماع صفاته المنقولة في الكتب، حتى انطبعت في نفسه صفته، عليه السلام، ومثاله المعصوم، كما حصل ذلك لمن رآه}. ثم قال:

{وأما غير هذين، فلا يحصل له الجزم. بل يجوز أن يكون رآه، عليه السلام، بمثاله، ويحتمل أن يكون من تخييل الشيطان. ولا يفيد قول المرني لمن يراه: أنا رسول الله، ولا قول من يحضر معه: هذا رسول الله. لأن الشيطان يكذب لنفسه ويكذب لغيره، فلا يحصل الجزم}.[الفروق: 226/4].

هذا ما قاله القرافي، وهو تضييق. وقد ذهب إلى هذا القول جماعة، كما سبق. وهناك من زاد في التضييق، وقال: لابد أن يراه على صورته التي قبض عليها، حتى يعتبر عدد الشعرات التي لم تبلغ عشرين شعرة. وقال القاضي عياض:

{و"من رآني حقا" في الحديث؛ يحتمل أن يكون معناه: إذا رآه على الصفة التي كان عليها في حياته، لا على صفة مضادة لحاله. فإن رُؤِيَ على غيرها، كانت رؤيا تأويل، لا رؤيا حقيقة، فإن من الرؤيا ما يخرج على وجهه، ومنها ما يحتاج إلى تأويل}. وضعَّف هذا النووي، وقال: {الصحيح أنه يراه حقيقة، سواء كانت على صفته المعروفة أو غيرها، كما ذكره المازري}. قال الحافظ ابن حجر:

{ وهذا الذي رده الشيخ، تقدم عن محمد بن سيرين، إمام المعبرين اعتباره. والذي قاله القاضي توسط حسن، ويمكن الجمع بينه وبين ما قاله المازري، بأن تكون رؤياه على الحالين حقيقة. لكن إذا كان على صورته، كأن ما يُرى في المنام على ظاهره، لا يحتاج إلى تعبير. وإذا كان على غير صورته، كان النقص من جهة الرائي، لتخيله الصفة على غير ما هي عليه. ويحتاج ما يراه في ذلك المنام إلى التعبير. وعلى ذلك جرى علماء التعبير، فقالوا: إذا قال الجاهل رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، فإنه يسأل عن صفته، فإن وافق الصفة المروية، وإلا، فلا يقبل منه.}هـ[فتح الباري:313/12].

قلت: وهذا رجوع عما قال إنه الصحيح، وموافقة لما قاله القرافي في الجملة. وإذا كان كذلك، ففيه إشكال مع قوله، عليه السلام: " فإن الشيطان لا يتمثل بي". قلت: وبعد هذا التوقف الذي وقع لي في كلام القرافي، ألفيت الإمام الأبّي أورد هذا الإيراد على كلام القرافي، فقال في "شرح مسلم":

{قد علمت من الحديث، ومما تقدم، أن الله تعالى عصم مثاله، صلى الله عليه وسلم، أن يتمثل به الشيطان، كما عصم ذاته الكريمة منه في اليقظة}. وذكر القرافي من الكلام ما يشكل على هذا الأصل. قال: قال العلماء: {إنما تصح رؤيته لأحد رجلين}. ثم جاء بما نقلناه في الصحيفة التي قبل هذه، ثم قال:

{وموضع الإشكال، قصره الرؤيا على الرجلين، وتجويزه في رؤية غير الرجلين، أن يكون ما رءاه من تخييل الشيطان، مع شهادته، صلى الله عليه وسلم، أن الشيطان لا يتمثل به} هـ[80/6]. وبيّن الإشكال، ولم يبين ما يرجح عنده. وقد تقدم أن هذا القول يستند إلى ما روي عن ابن عباس، واعتمده ابن سيرين.

والذي يتلخص عندي مما تقدم، أن مثار الخلاف في المسألة يرجع إلى ظاهر الحديث الذي فيه:"إن الشيطان لا يتمثل بي"، وهو الحديث المشهور، أوالمتواتر. ويفسره حديث روي عن أبي هريرة، وفيه:"من رآني في المنام فقد رآني، فإني أرى في كل صورة". وهذا، قال الحافظ ابن حجر: إنه ضعيف. وهو وإن كان ضعيفا، ففيه تأييد لظاهر الحديث الصحيح، وهو التعميم والإطلاق، وأن من رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، سواء قال له: أنا النبي، أو قيل له ذلك بمحضره، فهي رؤيا حقيقية. وهو القول الذي ذهب إليه جماعة وصححوه، حسبما سبق. ويرجع مقابله إلى ما روي عن سيدنا عبد الله بن عباس، وما نسبه البخاري في "صحيحه" لابن سيرين.

وحديث ابن عباس رواه الحاكم. وهو في "شمائل" الترمذي، وزاد الترمذي، بعد الحديث السابق عنه، الذي قال له الرائي: لما قال له صفه لي، وذكر له الحسن بن علي، وأنه شبهه به. فقال له سيدنا ابن عباس: قد رأيته، بسنده إلى يزيد الفارسي، وكان يكتب المصاحف، قال: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام زمن ابن عباس. فقلت لابن عباس: إني رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم. فقال ابن عباس: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يقول: "إن الشيطان لا يستطيع أن يتشبه بي، فمن رآني في المنام فقد رآني". هل تستطيع أن تنعت هذا الرجل الذي رأيته في النوم؟ قال: نعم، أنعت لك رجلا بين الرجلين، جسمه ولحمه أسمر إلى البياض، أكحل العينين، حسن الضحك، جميل دوائر الوجه، قد ملأت لحيته ما بين هذه إلى هذه؛ قد ملأت نحره. ـ قال عوف، أي الراوي للحديث: ولا أدري ما كان مع هذا النعت ـ فقال ابن عباس: لو رأيته في اليقظة، ما استطعت أن تنعته فوق هذا.} هـ [شرح شمائل الترمذي:244/2].

قلت: وهذا الوصف يقرب مما رأيته أنا. وهذه الرؤيا التي وقعت لي، وانجر من جرائها الكلام على الرؤيا وما استدعته من الأبحاث، لم يقع في ذلك المنام تصريح ذاك الرجل العظيم المرئي بأنه رسول الله، ولا ذكر أحد من الحاضرين من أنه رسول الله، ولا جرى في خاطري بأنه رسول الله. وإنما الواقع كما أسلفنا أنه دخل علينا رجل عظيم القدر، جليل المقام، حيث أسلفت النظر إليه، وأسرع الحاضرون لملاقاته بحفاوة وتعظيم، وسأل عني بالخصوص، وامتثلت بين يديه، وصرت أقول له ما سبق، مما يشعر بأنه رجل عظيم، له تصرف واطلاع على ما تتشوف الأنفس لمعرفته، حيث قال لي: الآن قضي الأمر. وهذا لا يقوله إلا رسول، إذ لا يظهر تعالى على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول. ثم بعد أن قصصت الرؤيا على أول معبرها، قال لي: هذا هو النبي، صلى الله عليه وسلم.

وقد سبق أني لم أجزم بذلك، ولكن لي الأمل الآن، أن أكون تشرفت برؤياه، عليه السلام، لأمور ثلاثة:

أولا: مقاربة صفة ذلك الرجل العظيم، الذي ألهمت التعلق به وخطابه، بأنه من عباد الله المصطفين الأخيار، وهم أنبياؤه ورسله، وجوابه لي بأنه ممن ارتضى للإخبار بالغيب حيث قال: الآن قضي الأمر، أي سبق ما سبق في علم الله من اختلال أمر هذه الأمة، وغلبة المخالفة عليها، وشيوع المنكرات، وصار الناس لا يتناهون عن منكر فعلوه، وأصبح الدين غريبا، بل تظاهر الناس بالكفر والإلحاد والمروق من الدين. ومنذ تاريخ تلك الرؤيا، والأمر في ازدياد، ولا يرى المؤمن إلا ما يفتت الأكباد من تعدي الحدود، وهتك الأعراض، وعتو وبغي وفساد، وإعراضٌ عن علوم الشريعة واستبدالها بجهالة وضلالة واستبداد.

ثانيا: ما وقع من إلهام المعبر، الذي هو أول معبر لها، وقد سبق لنا ما ورد في ذلك من أن الرؤيا لأول معبرها.

ثالثا: ما ذكره الإمام الأبّي في "شرح مسلم"، لما تعقب ما قاله القرافي من أن الرؤيا الصحيحة هي لأحد رجلين، كما سبق، قال: فإن قلت: إذا لم تقصر رؤياه على الرجلين، فبم يعلم غيرهما أنه رأى مثاله؟ قلت: يجوز أن يكون باعتقادٍ خلقه

الله تعالى للرائي أن الذي رءاه هو مثاله، صلى الله عليه وسلم. هـ[89/6]. فربما يقاس إلهام المعبر بهذا الإلهام.

وهذه الرؤيا، وإن كانت من المنذرات، لأنها أخبرت بشيء فيه تخويف وأسف وحزن، لا البشرى والفرح، إذ الحديث الوارد عنه، عليه السلام: "إنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات". قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة ". كما قاله المهلب، ونقله صاحب"الفتح": {خرج مخرج الغالب، فإن من الرؤيا ما تكون منذرة، وهي صادقة، يريها الله للمؤمن رفقا به، ليستعد لما يقع قبل وقوعه.هـ[305/12].

ولكن، إن صحت هذه الرؤيا وكانت حقا، كما أرجو منه سبحانه، فإن لي فيها بشارة وأي بشارة، حيث بادرني باسمي، وسأل عني تلك الجماعة، وشرفني بقوله: "أين الفقيه المرير؟"، وفضل الله واسع. وإن يردني الله بخير فلا راد لفضله، والله يؤتي فضله من يشاء، وهو الواسع العليم.

هذا، وما تقدم عن الأئمة من أن الصحيح هو التعميم في صحة الرؤيا والإطلاق، دون تكليف الرائي بتحقيق صفته، عليه السلام، وتدقيق تطبيقها، ينبغي أن يلاحظ فيه حال الرائي من صدقه في حديثه، وتفقهه في ديانته، وعدم تساهله وتلاعبه في أعماله، واستمالته بتلك الرؤيا قلوب أهل الغفلة عن الله، وادعائه الصلاح وهو فارغ منه؛ وإلا فينبغي أن يعتمد في شأنه ما روي عن سيدنا عبد الله بن عباس، واعتمده ابن سيرين.

ومن ظهرت عليه مخايل الكذب، فيجب زجره. وقد شاع في الأزمنة الأخيرة أن بعض من يدعي الصلاح، يدعي أنه رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، ويقول لبعض أصحابه: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول طلق زوجتك. ليأخذها هو.

ثم بعد هذا، فينبغي للصادق في رؤياه أن يكتمها ولا يذيعها، ولا يرائي بها، وينسب بها إلى الصلاح، فقد نقل الشيخ جسوس في"شرح الشمائل"، عن شارح"الحصن الحصين" أنه قال:

{وأعظم المحبوبات رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، فتجري هذا المجرى.} وهو ما ورد في الحديث من قوله، عليه السلام: "الرؤيا الحسنة من الله. فإذا رأى أحد ما يحب، فلا يحدث بها إلا من يحبه" الخ. قال في بيان هذا المجرى: { من عدم الإفشاء لكل أحد، بل هي بذلك أحرى، خلاف ما شاع وذاع عند من لم يتأدب بالسنة ولا عرفها، بل الغالب عدم صدقه؛ فينوه برؤياه، أو يعمل وليمة. وربما تعرض بها للمطامع أو الرياسة والظهور. وقد يعتمد على رؤياه حتى فيما يخالف الحق، مع كونها، على فرض صحتها، قد تحتاج إلى تعبير.}هـ[243/2]. والعلم كله للعلي الكبير.

وهنا نختم هذا الجزء الثالث [من فهرستي النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم]. ونجعل فاتحة الجرء الرابع، إن شاء الله، قوله، صلى الله عليه وسلم: "فسيراني في اليقظة"، من تمام حديث الرؤيا.

وفقني الله لما فيه موافقة الحق، ومتابعة مناهج الكتاب والسنة، التي بها ينال رضى الله، ومحبة رسوله، صلى الله عليه وسلم.

وكان الفراغ من تبييض هذا الجزء، بعد ظهر يوم السبت، رابع شهر [رمضان]المعظم المبارك، عام 1386.

---

[وفيما يلي فهرس مواد هذا الجزء]

----

# فهرس بأهم مطالب وفوائد هذا الجزء الثالث من النعيم المقيم


| الموضـــــوع: | رقم الصفحة: |
|---|---|
| ـ طالعة هذا الجزء، في الحث على الاشتغال بالعلم : | 2 |
| ـ الشروع في ترجمة الشيخ سيدي أحمد بن الطاهر الزواقي، ومقروءات المؤلف عليه . | 3 |
| ـ المنهج التعليمي كان أساسه الفقه الإسلامي، المستمد من الكتاب والسنة | 4 |
| ـ أهمية "مختصر" الشيخ خليل في الفقه المالكي، وإعراض أهل العصر من المسلمين عنه، واهتمام غيرهم به | 5 |
| ـ إحداث المحاكم القانونية في دول الإسلام، ومعارضة العلماء لذلك | 7 |
| ـ مواصلة ذكر المقروءات الفقهية على الشيخ الزواقي: | 10 |
| ـ علو مقام الشيخ التسولي، شارح التحفة، في فقه الأحكام، وتخصيصه للجواب عن أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري: | 11 |
| ـ ملاحظة الشيخ الزواقي على شرح التسولي، والمقارنة بينه وبين حاشية الرهوني: | 12 |
| ـ الرجوع لترجمة الشيخ الزواقي، الذي كان خاتمة المحققين في الفقه في قطره وعصره : | 13 |
| ـ عدم اقتحام الشيخ ميدان التأليف والتصنيف، كعادة أهل البلد آنذاك: | 14 |
| ـ مبحث في موضوع الإعراض عن التأليف، والاكتفاء بما كتبه القدماء: | 15 |
| ـ نشر العلم بالكتابة والتأليف، مع تقييده بما فيه نفع شرعي: | 16 |
| ـ ذكر نازلة تتعلق بالجمع في الصلاة من غير عذر من أحد المدعين للاجتهاد: | 19 |
| ـ مبحث في موضوع النازلة، وتحرير القول فيها: | 20 |
| ـ الملخص المعتمد في الجمع في مذهب مالك: | 21 |
| ـ تحصيل القول في هذا المبحث: | 25 |
| ـ القصد من ذكر هذه النازلة، هو ما كتبه الفقيه الزواقي بشأنها : | 27 |
| ـ الرجوع إلى موضوع نشر العلم بالكتابة والتأليف: | 28 |
| ـ انتقاد تلقين العوام الأقوال الضعيفة، وبعض المذاهب المخالفة في الفروع لمذهب مالك: | 30 |
| ـ أحاديث البدع، وتحذير سيدنا علي الأمة من الاغترار بترهات شياطين الإنس: | 31 |
| ـ محاولة بعضهم إماتة بعض السنن المؤكدة، كمسألة الأضحية: | 32 |
| ـ عقد مجلس للعلماء برئاسة الخليفة السلطاني، للبت في مسألة الأضحية: | 33 |
| ـ مبحث في حكم الأضحية، وتحرير القول فيها: | 33 |
| ـ تعارض الأدلة في الوجوب وعدمه: | 36 |

- حكم الأضحية على وجه الخصوص في المذهب المالكي: 38
- مواصلة ترجمة الشيخ الزواقي، وذكر ما كان يؤثر عنه في عدم وجوب الزكاة على الأوراق النقدية المتداولة: 41
- الرجوع إلى إتمام الكلام عن موضوع الجمع في الصلاة دون عذر: 41
- فتوى الشيخ الزواقي في الموضوع : 43
- تذييل المؤلف لكتابة الشيخ الزواقي: 45
الاعتبار بما وقع للحافظ ابن حزم، بسبب ذلاقة لسانه ووقوعه في أئمة السلف: 48
العلم الحقيقي، هو ما نوّر القلب، وفتح البصيرة، وأكسب الخشية من الله، وحسن الأدب مع الخلق : 49
- من ادعاءات العصر أن المذهب الاشتراكي تقتضيه قواعد الإسلام: 50
- ظهور مذهب مزدك في الدولة الفارسية، وهو نوع من الشيوعية: 51
حقيقة مذهب أبي ذر، ودسائس أعداء الإسلام لإثارة الفتنة بين المسلمين : 53
ما قاله أهل التاريخ في قضية أبي ذر: 54
- ظهور بوادر الثراء على الناس أيام الخليفة الثالث: 57
- رد ما ينسبه البعض لأبي ذر من منع التملك، وسلب الناس من أموالهم: 59
- مدح المال، والأمر بصيانته وحفظه: 60
- حكم ادخار المال في العصر الحاضر: 62
- حكم تملك العقار، وإقطاع السلطان، وموارد بيت المال: 63
- اهتمام علماء صدر الإسلام بتنظيم بيت المال: 64
- المال المشترك بين الأمة على وجه الانتفاع: 67
- عدالة النظام الإسلامي مستمدة من الوحي السماوي: 68
- من ادعاءات العصر أيضا: مسألة توحيد رؤية الهلال بين الأقطار: 71

- عمل أهل المغرب في ثبوت رؤية الهلال، كاد أن يكون مما اتفقت عليه الأقوال داخل المذهب وخارجه: 76
- مبحث في موضوع زكاة الفطر،(نوعها ووقت إخراجها): 77
- مواصلة ترجمة الشيخ الزواقي، والكلام على الولاة والولاية العامة: 82
- مشاركة العلماء في الحكم وأخذ الجرايات: 84
- نكبة الشيخ أحمد بابا السوداني في عهد المنصور السعدي: 89
- الولايات ليست مذمومة لذاتها بل هي من المصالح العامة: 91
- الرجوع إلى ختم ترجمة الشيخ الزواقي ، وذكر الوظائف التي مارسها، وابتعاده عن الشبهات، وأسلوبه في الكتابة، وتاريخ وفاته: 93
- ترجمة شيخ المؤلف الفقيه سيدي محمد العمراني، المشهور بالغماري، ومقروءات المؤلف عليه، وطريقته في الإقراء : 96
- المنهاج التعليمي المفيد لطالب العلم، وما طرأ عليه من تغيير: 97
الرجوع إلى ترجمة الشيخ العمراني وذكر بعض أوصافه: 103
- طريقة الشيخ العمراني في التدريس: 104

- فتح باب البحث في العلم مع العوام وما فيه: 105
- الرقائق وتفسيرها وفوائدها: 106

- نسبة الشيخ العمراني إلى قبيلة غمارة الشهيرة، وذكر نخبة من أعلامها: 107
- انتقاد أهل المغرب للفقيه ابن عسكر، وطعنهم في عقيدته، وما وقع في مسألة التنازع على الملك، ووقوفه إلى جانب السلطان محمد المتوكل، وموته في وقعة وادي المخازن الشهيرة: 113

- فكرة المؤلف في الغارة على المغرب في وقعة وادي المخازن: 115
- مواصلة ذكر بعض أعلام غمارة: 116
- تفسير قوله تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا): 118
- الرجوع لذكر بعض مشاهير الفقهاء الذين ينتسبون للقبيلة الغمارية: 121
- دورة غمارة في فتح الأندلس، ونصرتهم للأدارسة بالمغرب: 123
- مواصلة ترجمة الفقيه العمراني، والكلام على النسب الشريف للعمرانيين: 125
- ما وقع بين الشريف العمراني والفقيه المقري، بمجلس السلطان في مسألة الوقوف للداخل : 127
- انتقاد وتذييل لهذا الموضوع: 128
- مبحث القيام للداخل وما ورد فيه : 129
- مواصلة الكلام على نسب العمرانيين : 134
- تتميم ترجمة الشيخ العمراني، بالإشارة إلى بخس حقوق أهل العلم، وإهمال جانبهم : 136
- سبب إعراض أهل العرفان وكبار العلماء عن الولاية : 137
- تفسير قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة) الآية: 141

- ذكر بعض الأعلام الذين رفضوا ولاية القضاء، وأخذ الجرايات: 144
- ترجمة الفقيه سيدي محمد بن عبد الرحمان الفلالي المدغري، وذكر قصيدة قالها فيه أحد تلامذته: 146
- ختام ترجمة الشيخ العمراني، والشروع في ذكر رحلة المؤلف إلى فاس لطلب العلم : 149
- مبحث عام في الرحلة لطلب العلم، وذكر تاريخها وأصلها: 149
- ذكر بعض الوفود التي أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم لطلب العلم: 150
- الأحاديث والآثار الواردة في الرحلة لطلب العلم: 152
- من فوائد الرحلة: 156
- الجهات التي كانت تشدّ إليها: 156
- أصل الرحلة في صدر الإسلام: 160
- رحلة المغاربة إلى المشرق لأخذ الحديث وعلومه 162
- ابتداء مرحلة كتابة العلم وضبطه: 165
- ابتداء مرحلة حفظ اللغة وتأسيس القواعد لحراستها 168

ـ تطوع العلماء لنشر العلم وتعليمه بالمساجد 170
ـ اعتناء الدولة المرينية بالمدارس، واستمرار الدراسة بها: 171
ـ تأسيس مدينة القيروان التي أصبحت دار علم تشدّ الرحلة إليها 173
ـ مدينة قرطبة وسبب تفوقها في مختلف العلوم 176
ـ توجه أنظار طلاب العلم بالمغرب إلى فاس، بعد أفول نجم القيروان وقرطبة: 182
ـ أبو سالم العياشي وذكر بعض فوائده من خلال "رحلته": 184
ـ ختام مبحث الرحلة لطلب العلم 186
ـ كيف تيسّرت رحلة المؤلف لحضرة فاس، بعد ما ضاقت نفسه من معاناة الإياس : 186
ـ وصول المؤلف إلى فاس، ووصف الدراسة بجامعها القرويين 187
ـ ترجمة شيخ المؤلف العلامة سيدي أحمد بن الخياط، وما قرأه عليه، وذكر نسبه وجملة من أوصافه: 188
ـ فن التوجه بأسماء الكتب، الذي هو من أنواع المحسنات البديعية: 190
ـ رجوع إلى ترجمة الشيخ ابن الخياط، وذكر شيوخه في علمي الظاهر والباطن: 192
ـ أخذ الشيخ ابن الخياط الطريق الشاذلية وسنده فيها: 194
ـ كلام الشيخ سيدي عبد الواحد بناني في حقائق التصوف: 196
ـ طريق الشيخ ابن الخياط في التجريد وامتحانه من أجله: 198
ـ التجريد وتفسيره عند ابن عجيبة والحراق: 199
ـ مواصلة ترجمة الشيخ ابن الخياط والتنويه بمقامه العلمي: 202
ـ لماذا لم يأخذ الشيخ ابن الخياط عن الشيخ الحرّاق: 203
ـ ترجمة الشيخ الحراق من خلال كتابة تلميذه ابن العربي الدلائي الرباطي: 204
ـ رؤيا المؤلف لشيخيه ابن الخياط وتفاؤله بها 207
ـ مواصلة كلام ابن العربي الدلائي في ترجمة الشيخ الحرّاق : 212
ـ نماذج من رسائل الشيخ الحراق، وكتاباته على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وبعض كلام الصوفية: 214
ـ شعره والمقارنة بين تائيته وتائية ابن الفارض في السلوك: 218
ـ تأثر ابن الفارض والحراق بالمحبة والشوق، وما قيل في ذلك: 212
ـ القول بتأويل كلام من ثبت صلاحه من أهل التصوف: 223
ـ إنكار أكابر علماء التصوف إطلاق الكلام المعبر عنه بالشطحات: 224
ـ الانتقاد الذي وُجه لابن الفارض في قوله: وإذا سألتك أن أراك، الخ، وجواب المؤلف عن ذلك: 225
ـ قصيدة للمؤلف في مدح الشيخ محيي الدين ابن العربي الحاتمي: 229
ـ الرجوع إلى إتمام ترجمة الشيخ الحراق: 231
ـ تساؤل المؤلف لماذا اهتم بشعر الشيخ الحراق ولم يعتن بشعر العارف ابن عجيبة، وجوابه عن ذلك: 233

- سبب افتراق الشيخ الحراق والشيخ ابن عجيبة في منهج التجريد: 235
- الرجوع للكلام على اختلاف الحراق وابن عجيبة في السلوك: 238
- موافقة كتابة المؤلف في هذا الموضوع للأيام العشر، وتضرعه إلى الله سبحانه بالدعاء: 240
- القصيدة التي أنشأها المؤلف، ووجه بها لتُقرأ على الروضة الشريفة بالمدينة المنورة، وفيها يشرح عذره في التخلف عن أداء فريضة الحج، وزيارة الروضة الشريفة، ويترنم بتلك الأماكن الطاهرة والمناسك المفروضة: 241
- توشيح أنشأه المؤلف في معنى المولد والإسراء: 247
- الرجوع إلى ترجمة الشيخ ابن الخياط، وذكر بعض فوائده: 250
- من فوائد الشيخ ابن الخياط، ذكر اسمه تعالى "السريع"، وتفصيل القول في ذلك: 252
- مبحث في أسماء الله الحسنى، وتخالف الآراء والنقول حولها: 254
- الأدعية والأذكار المستحدثة والتحذير من تسميته سبحانه بغير اسم 265
- اهتمام علماء الحديث بجمع وتبويب الأذكار والدعوات المأثورة: 265
- اسمه تعالى الأعظم، وما قاله العلماء في تفسيره وتعيينه وأفضليته: 268
- فوائد الذكر: 270
- أفضل الذكر تلاوة القرءان الكريم: 271
- لماذا يلقن شيوخ الطرق الأذكار، ولا يلقنون تلاوة القرءان؟ والجواب عن ذلك: 272
- الرجوع إلى موضوع الأدعية المخترعة وغيرها من الأحزاب والأذكار: 273
- التعلق باسمه تعالى اللطيف، وخاصيته وكيفية استعماله: 280
- خلاصة موضوع التعلق باسمه تعالى اللطيف: 288
- مواصلة ترجمة الشيخ سيدي أحمد ابن الخياط: 289
- المجلس التحسيني العلمي بالقرويين، وتقديم الشيخ ابن الخياط لرئاسته: 290
- حضور الشيخ ابن الخياط في المجلس العلمي السلطاني: 292
- السلطان مولاي عبد الحفيظ، ومقامه العلمي: 293
- من آثاره التاريخية: القضاء على ثورة أبي حمارة، وتوقيع عقد الحماية: 296
- محنة الشيخ الكتاني، وما قيل في أسبابها: 297
- آثار مولاي عبد الحفيظ العلمية: 303
- إتمام ترجمة الشيخ ابن الخياط: 304
- موت العلماء وما ورد فيه 306
- مذاكرة في الأوضاع الراهنة للدّين، وكلام العارف الدباغ في قوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) الآية: 308
- المسلمون في هذا العصر، لا يزدادون إلا اغتباطا بدينهم رغم الحصار والإغارة عليهم: 312
- رؤيا للمؤلف وتأويلها، ومبحث عام في موضوع الرؤيا: 316
- عبارات للصوفية في الرؤيا: 320
- الرجوع إلى الله ورسوله في الكشف عن الرؤيا.

- الرؤيا وتعبيرها في قصة النبي يوسف عليه السلام: 322
- تقسيم الرؤيا: 324
- علم تعبير الرؤيا: 325
- رؤيا سيدنا إبراهيم، عليه السلام: 327
- حديث الرؤيا الحسنة جزء من أجزاء النبوة: 328
- مبحث الاطلاع على الغيب عن طريق الكرامات والإلهام والكهانة والتنجيم: 330
- تمسك المعتزلة بظاهر قوله سبحانه: (عالم الغيب فلا يظهر)الآية، وجواب أهل السنة، واختلاف مناهج علماء التفسير في المسألة: 334
- كلام الإمام الشاطبي في الموضوع، هو خلاصة هذا المبحث: 336
- ما ذكره أهل التصوف في تفسير قوله تعالى ( عالم الغيب) الآية: 340
- مبحث في القول بتلقي الولي الغيب من الملك: 343
- اتصال الملك بغير الأنبياء هو اتصال روحي: 345
- مسألة رؤية الملائكة وما قاله العلماء فيها: 346
القصد من إطالة ذيول هذا المبحث هو الاشتغال بالعلم: 351
- ما سوى علم القرآن، هوً من قبيل الصناعات : 352
- إقبال أئمة الإسلام على الاشتغال بالعلم، وتمسكهم به، وما أصابهم ف سبيله، وذكر بعض مشاهيرهم: 355
- الإمام مالك، الإمام أحمد بن حنبل، الإمام ابن جرير الطبري: 355
- الإمام الحربي، الإمام البخاري: 357
- الإمام الشافعي: 359
- الإمام جلال الدين السيوطي: 361
- الرجوع لمبحث الرؤيا، واعتناء النبي، صلى الله عليه وسلم، بها، وذكر أقسامها: 363
- رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام: 365
- صفة من تصح له رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم: 367
- ختام هذا الجزء الثالث من"النعيم المقيم" بقول المؤلف: وكان الفراغ من تبييض هذا الجزء يوم السبت رابع رمضان المعظم المبارك، عام1386هـ: 372

(تــــمّ)

تخريج وتنسيق: أحمد بن محمد المُرير
تطوان - المغرب (1424 هـ 2004 م)

(حقوق الطبع محفوظة لمكتبة المؤلف، رحمه الله)

رئيس الجمعية:

السيد محمد بن عبد الخالق الطريس

الرئيس المنتدب:

ذ. عبد العزيز السعود

رئيس اللجنة الثقافية:

أ.د. امحمد ابن عبود

الكاتب العام لمنشورات تطاون أسمير:

أ.د. جعفر ابن الحاج السُّلَمي

العنــوان

ساحة 9 أبريل ص.ب. 633 تطوان الهاتف: 039.70.20.25 الفاكس: 039.70.20.05

www.cyber.net.ma/asmir E-mail: tetouan.asmir.@caramail.com